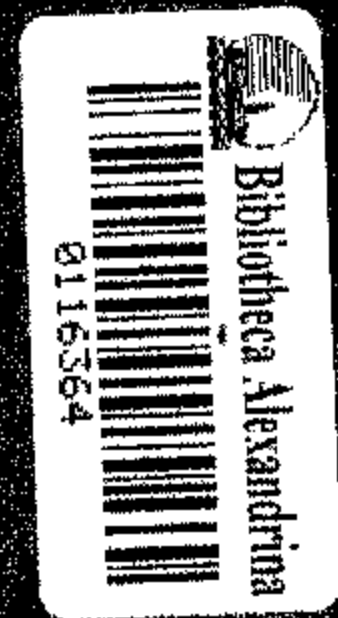


قدرتي قلعي

صراع الدين العربي

قصة الصراع بين الشرق والغرب

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد



صَلَاةُ الْإِسْلَامِ

قصّة الصّراع بين الشرق والغرب
خلال القرنين الثامن عشر والثالث عشر الميلادي

حقوق الطبع محفوظة للناشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بيروت . لبنان

ص . ب . ٨٣٧٥

هاتف: ٣٥٣١١٠ - ٣٥٠٧٢١ - ٣٥٠٧٢٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠

تلکس - ٢٢٦٦١

فاکس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧

بناية الوهاد . شارع جان دارك . بيروت

الطبعة الأولى

١٩٩٢ م

قدري قلمجي

صَلَوَةُ الرَّبِّينِ لِلْأُتُوبِيِّينَ

قِصَّةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ
خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ الثَّانِي وَعِشْرَ وَالثَّلَاثِ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ

أجزاء الأولى

قبل صلاح الدين

● ثمة شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية ، حين اندفعوا بسياساتهم التوسعية ، إنما كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة .

جون لامونت

● كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق .

ج . و . تومبسون

● وبدلاً من أن يتحد الأمراء المسلمون ضد الصليبية ، واجهوها فرادى ، وفرادى سحقوا ، الواحد تلو الآخر ، وتفعلت الصليبية بينهم .

رينه غروسه

الفصل الاول الشرق والغرب

في ذلك الزمان ، كانت الامبراطورية العربية قد اجتازت عصرها الذهبي ، وبدأت تسير في طريق الانهيار ، تدفعها اليه عوامل شتى اهمها تغلغل الموالي الفرس ثم المماليك الأتراك في جهاز الحكم وقيادة الجيوش ، وتمرد الأمراء والقادة العسكريين في الجهات التي يحكمونها ، وتنازعهم على كل بقعة من الأرض ، وظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في انحاء الدولة العربية القديمة ، كالصفارية والسامانية والغزنوية والعلوية والأغلبية والفاطمية والطولونية والأخشيدية والزيدية وغيرها ، فضلاً عن الامارات أو الدويلات التي كانت رقعتها تقتصر أحياناً على مدينة أو بلدة واحدة وما جاورها من القرى !

ولكن عواصم تلك الامبراطورية العربية ظلت مع ذلك مشرق الحضارة السائدة يومذاك في العالم ، وظلت اللغة العربية الرباط الوثيق الذي يصل بين بغداد والقاهرة في الشرق ، وقرطبة وأشبيلية في الغرب ، وظل الفكر العربي ، الذي جنى ثماراً يانعة من الحضارة الفارسية والتراث اليوناني ، يواصل سيره الظافر حيث وقفت جيوش العرب عاجزة او ارتدت مدحورة .

وقد أدى تضعف العرب السياسي ، الى ازدهار الدولة البيزنطية من جديد ، فظهرت على مسرح التاريخ كدولة عالمية محل الامبراطورية العربية ، وألف الحكم البيزنطي والمذهب الارثوذكسي واللغة اليونانية وحدة كبيرة من شعوب غربية وشرقية متعددة ، وأصبحت القسطنطينية السوق التجارية الرئيسية بين أسواق العالم .

اما في اوروبة التي كانت تتقدم ببطء شديد ، فقد بدأت الشعوب تلتف حول قصور الالسياد وحصونهم ، لتحتمي بها من غزوات القبائل الشمالية ، فتوطدت بذلك دعائم النظام الاقطاعي الذي يصون السيد في ظله حياة الفلاح مقابل استثماره لعمله ، وحل الالسياد محل الملوك في حكم البلاد حكماً فعلياً وان بقي لهؤلاء الحكم الاسمي .

وقد نما هذا النظام في فرنسا بنوع خاص . ولم ينقض وقت وجيز حتى اصبحت للسيد حقوق متوارثة ، وفرضت على الفلاح واجبات متوارثة ايضاً . وسرعان ما انتظم رجال الاكليروس في عداد الطبقة الاقطاعية ، وتقاسمت الكنيسة ملكية الارض مع النبلاء . وكانت هذه الاقطاعات منعزلة بعضها عن بعض ، ولكل منها اسواقه وتقاليده الخاصة ، وكثيراً ما تتحارب فيما بينها في البلد الواحد ، او تتفق احياناً لمحاربة قطر آخر ، لان الغزو والنهب يعودان عليها باضعاف ما يعود به العمل الشريف ، حتى غدت الفروسية في ذلك المجتمع الفضيلة الاولى .

وكانت رومة والقسطنطينية تهيمنان على اوروبة كلها ، الاولى بوصفها مقر البابا ومركز المذهب الكاثوليكي وهي تطمح الى توحيد اوروبة تحت نفوذها بهذه الصفة ، والثانية ببضاعتها وفنها ونقدهما الذهبي وسيطرة مراكبها التجارية على حوض البحر الابيض المتوسط . وقد حرصت بيزنطية



الامبراطورية العربية في أوج مجدها ، وقد امتدت من المحيط الاطلسي غرباً الى حدود الصين شرقاً
فلم تفقها امبراطورية أخرى في العالم حتى الامبراطورية الرومانية

حرصاً شديداً على ان تظل مقاليد التجارة في يدها ، لانها مبعث عظمتها وتفوقها ، وكان اتساع هذه التجارة يحرر قسماً من سكان اوروبى من سيطرة الاقطاعية ، فينشئون على شواطئ البحر ، ولا سيما الشواطئ الايطالية ، مدناً تجارية تنقل بضائع الشرق الى الغرب .

وساد السلام حيناً. أقطار اوروبى المتفككة المتعادية ، فأتيح للاقطاعية ان تنتقل الى عهد من الازدهار انصرف فيه اصحاب القصور والاديرة الى العناية باستثمار أراضيمهم وزيادة خيراتها ، مجندين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وتجفيف المستنقعات وحرث الارضين وتعبيد الطرق ، حتى تغير وجه اوروبى وامتدت فيها السهول المترامية والحدائق الغناء . وبدأ الفلاحون يستخدمون الحجارة في بناء منازلهم ، فنشأت القرى الى جانب القصور والاديرة ، وعمرت الكنائس من الحجر بدلاً من الخشب ، على طراز اسلامي انتقل الى فرنسا عن طريق الاندلس بوساطة البنائين العرب . وعن هذه الطريق نفسها انتقلت الى فرنسا والى اوروبى كلها ، اسس التفكير العلمي والفلسفي ، وفتوحات الأغرريق والفرس والعرب في هذا الميدان ، كما انتقلت اليها عن طريق بيزنطية : الفنون والآداب .

واجتازت اوروبى الالف الاول للميلاد ، واتصالها بالشرق يزداد ، وتجارها واياه يتعاضم ، ونهوضها وتكثرتها يكادان يرافقان انهياره وتمزق اوصاله . وقد اشتد في الاقطار الاوروبية المختلفة النزوع الى الحضارة وبنائها على الاسس الكاثوليكية . اذ ان اوروبى لم تكن تفرق في القرن الحادى عشر ، بين الثقافة والمسيحية . وكانت المسيحية تواصل سيرها الظافر ، حتى لم يبق في اوروبى من البلدان الوثنية الا بلد واحد هو

السويد . فان حرث الأرضين كان يرافقه حرث الضمائر .

وقد انتشرت الاديرة على الدروب المتشعبة التي كانت في وقت واحد : طرق الحج الى بيت المقدس ، والطرق الاقتصادية الرئيسية . لقد انشئت هناك الوف الاديرة ، واخذ الرهبان يمتزجون بالحياة الاجتماعية فيدخلون عليها فنونهم ومعارفهم ، ويبنون ، ويفتنون ، ويضمنون في الوقت نفسه ملكية المنطقة التي يستثمرونها .

وهكذا اضحى المسيحية في اوروبة ، كما كانت البوذية في آسية ، والاسلام بين الشرق والغرب ، الرواق الذي تعبر منه الحضارة . بيد ان نفوذ البابوية كان في ذلك الحين اضعف منه في اي وقت آخر ، إذ كان البابا الذي انتخب في سنة ٤٢٥ ١٠٣٣ م لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، مما جعل الجميع يدركون ضرورة اصلاح الكنيسة ويتحدثون به . الا ان الاديرة كانت ما تزال تشر في اوروبة شبكة واسعة من المبادلات التجارية ، تنمي القوى الاجتماعية الناشئة فيها ، وتجعل الاتجار مع بيزنطية امراً محدوداً لا يكفي حاجات المجتمع المتزايدة .

كانت البضائع التي يحملها التجار كثيرة متنوعة ، وكان الصانع اليدويون الذين ينتجون النسيج في الفلندر وشمبانية في حاجة متعاظمة الى الصباغ والحرير والقطن التي تصلهم عن طريق البندقية ، الجسر الذي يصل بين الغرب والمجد البيزنطي .

وقد استطاعت الغزوات العربية ان تنزل اضراراً كبيرة بالمراسك البيزنطية ، فأفادت البندقية من ذلك فائدة كبرى ، اذ نشط تجارها الى العمل المستقل ، ولم ينقض امد يسير حتى تحولت هذه المدينة الى مركز تجاري عظيم في حوض البحر المتوسط ، تنافسه بسيزة وجنوة ، وتناصره مرسيليا ومونبلييه ، ولم تعد هذه المجموعة من المدن التجارية

أسواقاً بيزنطية وانما غدت مزاحماً قوياً لها في الاسواق العالمية .

وكان مجد بيزنطية قد اشرق من جديد في عهد باسيليوس الثاني امبراطور القسطنطينية المعروف باسم « قاتل البلغار » والذي تنصّر الروس في عهده إثر طلب الامير فلاديمير حنة شقيقة باسيليوس زوجة له ، فقبل العاهل البيزنطي ذلك شرط ان يتقبل فلاديمير النصرانية ، فقبلها وأمر شعبه باعتناقها ^١ . وقد أدرك هذا الامبراطور الخطر الذي يهدق ببلاده من جراء مزاحمة المدن الايطالية ، ولكن كان عليه في ذلك الوقت أن يردّ عن بلاده أخطاراً أخرى ، فالتحم مع البلغار في معارك ظافرة أمر في نهايتها بأن تسلم عيون ١٥ ألفاً من أسرى البلغار إلا مائة وخمسين منهم أبقى لكل واحد منهم عيناً واحدة ليقودوا اخوانهم في عودتهم الى بلادهم ^٢ ، كما اشتبك مع العرب في قتال طويل كان النصر فيه سجلاً بين الفريقين ، ثم قنع من المجد الحربي بالدفاع ^٣ . وفي أواخر سنة ٩٨٧ م اضطر باسيليوس الثاني الى مصالحة الخليفة الفاطمي العزيز بمعاودة كان من شروطها ان يُذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية ، وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن الميلادي ^٤ (القرن الثاني الهجري) . الا انه ما لبث أن هزم الجيش الفاطمي حين زحف هذا الجيش الى حلب بعد وفاة سعد الدولة الحمداني طمعاً باحتلالها ، واستنجد أولئو الكبير الوصي على ابن سعد الدولة بامبراطور الروم الذي طالما اشتبك الحمدانيون معهم في ضاري المعارك ،

-
- ١ - الروم وصلاتهم بالعرب للدكتور أسد رستم ، ج ٢ ص ٥٣ .
 - ٢ - تاريخ العالم لجون هامرتن ، المجلد الرابع ص ٥٨٢ .
 - ٣ - الحرب الصليبية الاولى للدكتور حسن حبشي ، ص ١٤ .
 - ٤ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

فأنجده ، فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م ،
فنهذ اليهم بنفسه ، وفاجأهم عند حلب ، فتراجعوا عنها وفروا أمامه
حتى أبواب دمشق .

وحيث قضى باسيلوس الثاني نجبه سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م ، تداعت
الامبراطورية البيزنطية في جميع تخومها ، وأضحت القسطنطينية ، مثل
بغداد ، رمزاً لحضارة عظيمة ، أكثر منها مركزاً لدولة قوية . ثم ما
لبثت أن تعرضت لخطرین جديدين مفاجئين : غزوات الشعوب الشمالية
أو النورماندية في اوروبة ، وهجمات القبائل التركية في آسية .

ذلك ان قبائل الأتراك السلاجقة التي استوطنت أواخر القرن العاشر
على ضفاف اموداريا ، ما لبثت ان تقدمت شطر فارس واعتنقت
الاسلام ، وثارَت على الدولة الغزنوية فقهرتها ، ثم زحفت غرباً فدانت
لها البلاد من تخوم فارس الى شواطئ البحر الابيض المتوسط ، وطفقت
تناوىء العلويين في الشام حتى امتلكت الجزء الأكبر من سورية ، وكادت
تضع يدها على البلاد المصرية . كل ذلك والخلافة باقية لاحفاد العباسيين ،
ولكن كان للخلفاء منها الاسم ، والسلاجقة كما كان للديلم من قبلهم ،
مُسماها .

وقد بدا حينذاك ان هذه القبائل الزاحفة في عنفوان وقوة ، انما
تهدد الشرق والغرب بموجة بربرية جديدة تطنى على مراكز الحضارة في
العالم . بيد ان البرابرة المقتحمين كانوا يحملون هذه المرة جوازاً هو
الاسلام ، يدخلون باسمه الى تلك البقاع ويحتمون بتفوزه فيها .

١ - نهر جيحون أو الاوكسوس كما كان يعرف في الزمن القديم .

ولكن هل كان في وسع الانظمة الاسلامية أن تتغلغل في حياة هذه القبائل الرحالة وتطبعها بطابعها وتحررها من همجيتها ، بمثل تلك السرعة ، دون ان تلابس الحضارات السائدة وتتفاعل معها ؟

يقول سيد أمير علي : « مع ان الاتراك والمغول ينتميان الى أصل واحد ، فقد كان بينها فرق كبير ، إذ بينما كان المغول يعيشون وما يزالون في أقصى حدود آسية الشرقية في حالة شبه بربرية تقارب حياة التوحش ، كانت القبائل المغربية قد تأثرت تأثراً كبيراً باحتكاكها بمدينة العرب . وكان السلاجقة الذين كانوا أعظم هذه القبائل تقدماً ، قد اعتنقوا الاسلام بجرارة واندفاع ، وأصبحوا حماة الفيورين . وفيما كان العرب منصرفين الى تشجيع فنون السلم ، كان السلاجقة منصرفين بكل قواهم الى نشر سلطان الاسلام وبسط نفوذه ، والنصف الاخير من القرن الحادي عشر انما يشكل أزهى حقبة في تاريخهم ، ففيها اعترف السلاجقة بسلطان أعلى واحد ، واتحد امراؤهم الاقطاعيون فيما بينهم وأعلنوا له اخلاصهم وولاءهم^١ . »

أما القبائل النورماندية فكانت الشعوب الاوروبية تعرف بأسها وتحشى خطرها . وكانت تراها في كل مكان يتسع فيه المجال للمغامرة . وقد انتظم فريق منها في صفوف الفرسان الفرنسيين الذين وضعوا أنفسهم تحت إمرة ملك قشتالة في حروبه مع ملك قرطبة ، كما انتظم فريق آخر في صفوف الاجناد العرب الذين بلغ من تضعضهم في الاندلس والمغرب ، انهم استنجدوا بالقبائل الشمالية لمساعدتهم في صقلية ، فما كادت هذه القبائل تستقر في جنوب ايطالية حتى أنشأت دولة اقطاعية نورماندية

١ - مختصر تاريخ العالم ترجمة عفيف البعلبكي ص ٢٧٤ .



فارس أردوبي في أواخر القرن الحادي عشر ، عن لوحة قديمة

برئاسة روبر غيسكار وبسطت سيطرتها على صقلية بعد أن ظل العرب قابضين فيها على زمام الامر قرابة قرن كامل ، 'متحدّين سائر المحاولات التي جرت لاجلائهم عن البلاد' . الا ان الحكام النورمانديين قد افسحوا للعلماء والصناع العرب مجال العمل والابداع في الجزيرة ، « وهكذا فاق ازدهار العلم في صقلية في ظل النورمنديين أيما ازدهار مماثل في اوربة الوسيطة . واحتفظ روجر الاول بالنظام الاداري الذي اقامه المسلمون ، وراح البارونات النورمنديون والامراء المسلمون يضطلعون بشؤون الحكم اليومية في تناغم كامل . والواقع ان أقدم وثيقة ورقية اوربية معروفة انما دونت في صقلية ، وان أول قطعة نقد اوربية انما ضربت في الجزيرة وهي تحمل تاريخ سكبها بالارقام العربية . وقد وضع الجغرافي العربي العظيم أبو عبدالله الادريسي ، خرائطه المشهورة للعالم المعروف آنذاك برعاية روجر الثاني . أما عناية فردريك الثاني بالعلم الطبيعي فقادته إلى الاخذ بناصر العلماء المسلمين في حقول متفاوتة جداً - حقول الرياضيات ، وعلم الاحياء ، وعلم الحيوان ، وعلم التنجيم ، والبزدرية ، وعلم حفظ الصحة . ولم يطبع المسلمون بطابعهم حركة صقلية العلمية فحسب ، بل طبعوا حياتها اليومية أيضاً بذلك الطابع . فخلال عهدَي روجر الثاني وفردريك الثاني أمست العربية لغة رسمية في صقلية الى جانب اللاتينية ، وغدا من العسير على الزائر ، بسبب من اصطناع الازياء العربية والمآكل العربية والعمارة العربية ، أن يميّز هذه المملكة النصرانية من جاراتها الاسلامية المعاصرة في الشرق الادنى أو اسبانية^٢ . »

واقد كان ذلك الهجوم المزدوج - من قبل السلاجقة والنورمانديين -

١ - تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص ٥٧٥ .

٢ - الاسلام والعرب لروم لاندر ، ترجمة منير بعلبكي ص ٩٢ - ٩٣ .

حرباً بأن يخدم بيزنطية ، فان السلاجقة بتغلبهم على خليفة بغداد قد أنقذوها نهائياً من مطامح الخلفاء والعباسيين ، كما أن النورمنديين بانتزاعهم الحكم من أيدي العرب في صقلية ، قد أنقذوا المراكب البيزنطية من الغزوات العربية التي كانت تتعرض لها منذ أن سيطرت القوة البحرية الاسلامية في مناطق صولتها الثلاث الكبرى : اسبانية وشمال افريقية وصقلية ، أو في مراكزها الأخرى في كريت وسورية ومصر ، على البحر الأبيض المتوسط ^١ . ولم تكن ذكرى غزوات الفاطميين البحرية على سواحل بلاد الروم واستيلائهم على سردينية وقرسقة وجنوة بعيدة عن الأذهان ، وان كان اتجاههم في عهد المعز الى الشرق واتخاذهم الأهبة لفتح مصر قد صرفهم عن الاهتمام بأمر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ^٢ ، ولكن من يدري متى يعيدون الكرة ويتجهون بمطامعهم الى الغرب .

ولكن الواقع كان على نقيض ذلك ، فان ذينك الحدثين الخطيرين قد وجها الى الامبراطورية البيزنطية ضربة كبرى لا تقل اهميتها عن الخسارة التي تكبدتها من جراء النشاط التجاري الذي ابدته المدن الايطالية . وكانت الضرائب الفادحة ، وثورات الامراء الاقطاعيين ، والفوضى التي سادت في صفوف الجيش ، قد زلزلت صرح الامبراطورية البيزنطية . ثم اصبح الانشقاق بينها وبين البابوية أمراً واقعاً صريحاً ، بعد ان استعادت هذه مركزها في اوروبا بما أدخلت من إصلاح على الكنيسة ، وأضحت الدولة البابوية في عداد الدول القوية الفعالة ، فقضت

١ - تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١١١ .

٢ - انظر فصل « السيادة الاسلامية » لادشيبالد لويس في كتاب « دراسات اسلامية »

ص ٢٥ - ٨٤ .

القطيعة بين الكنيستين الشرقية والغربية^١ على ما كان لبيزنطية من نفوذ في ايطالية ، وبات واضحاً ان امبراطورية الشرق لن تصمد امام ابي هجوم جديد تقوم به على بلادها قبائل الأتراك من الشرق او النورمانديون من الغرب .

غير ان العرب والبيزنطيين ظلوا مع ذلك اسياذ الفكر ، وظلت الحركة الفكرية تتابع ازدهارها وتطورها في عواصم الشرق ؛ بيد أنه سها كان من قوة هذه الحركة ، فانه لم يبق في وسعها ان تطغى على القوى الفكرية الخاصة التي بدأت تنمو في الغرب مع نمو دوله واتقصاد الحياة الاجتماعية والدينية فيه .

وبينا كان روبر غيسكار يحطم مقاومة بيزنطية ، ويهدد الشاطيء الدلماسي ، كان الاتراك يزحفون على الاناضول ، فيستولون على ارمينية ، ويأسرون في سنة ٥٤٦ م ١٠٧١ م الامبراطور البيزنطي نفسه .

وامام هذه الخسائر التي منيت بها بيزنطية ، قوي نفوذ البابوية في اوروبة ، وظهر البابا غريغوريوس السابع الذي عرف باسم « البابا القديس » وهو في رأي بعض المؤرخين اعظم ابناء القرون الوسطى بمد شارلمان ، وكان يعتقد بأن مهمة نائب الله هي قيادة المجتمعات البشرية ، فأنشأ يسمى لدى ملوك اوربة لفرض إصلاحاته على الأساقفة اينما كانوا ، وتحرير الاقطاعية الاكليريكية من تدخل السلطات المدنية ، فاستطاع ان يربط الاوساط الاكليريكية بالمقر البابوي ، وان يقيم فوق النظام الاقطاعي ثيوقراطية تحقق السيادة البابوية .

١ - انظر تفصيل ذلك في كتاب « الروم وصلاتهم بالعرب » ج ٢ ص ٧١ - ٧٧ .

لقد كان أنصار غريغوريوس السابع يقولون : مثلما جعل الله في السماء نيرين هما الشمس والقمر ، كذلك خلق في الأرض سلطتين : روحية وزمنية ، لكن القمر منحط عن الشمس ويستمد نوره منها ، ومثل الامبراطور فهو منحط عن البابا ويستمد منه كل قوة . وكانوا يشبهون السلطتين بالنفس والجسد ، فالأولى متسلطة على الثاني ، وكذلك فان السلطة الروحية متسلطة على السلطة الزمنية^١ .

وكان ذلك يعني انكار كل سيادة اخرى ، ومنها سيادة الامبراطورية الجرمانية المقدسة التي كان رئيسها الامبراطور هنري الرابع لا يقل عن غريغوريوس السابع قوة وذكاء ، فوقف في وجه الاصلاح البابوي ، وجاهر بمعارضته إياه إلا اذا بقي للامبراطور حق تعيين الاساقفة ورؤساء الأديرة ، واستحرت النزاع بينها في ١٠٧٦ م ، فأعلن البابا ان سلطته تشمل التيجان والعروش نفسها ، وسارع الى خلع هنري الرابع وحرمانه ، فانقسمت المانية على نفسها ، ونشبت فيها حرب اهلية كادت تطوح بعرش الامبراطور لولا انه بادر الى اظهار خضوعه حين رأى ان مملكته تكاد تتمزق وتخرج من سلطانه ، ولكنه لم يكفد يحرز رضى البابا عليه ، ويستعيد قوته ونفوذه ، حتى بطش بخصومه في المانية ، وحرّض رجال الدين الساخطين على كبار الاساقفة ورؤساء الأديرة ، فأعلنوا تمردهم على البابا ورفعوا الى مقام البابوية كليمنت الثالث .

ولم تقبل سنة ١٠٨٣ م حتى انعكست الآية تماماً ، إذ استولى هنري الرابع على رومة وتوجه فيها البابا الموالي له ، بينما مضى غريغوريوس السابع يستنجد بالنورمانيين . وكانت مراكب غيسكار قد انهزمت في

١ - التاريخ العام لفليب فان نس مير ، الترجمة العربية ص ٢٤٢ .

ببحر الأدریاتیک امام مراکب البندقیة المحالفة لیبزنطیة ، فتخلى عن معارکة هذه واتجه الى محاربة هنري الرابع ، واستطاعت جیوشه ان تخرج جیوش الامبراطوریة الجرمانیة من رومة ، ولكنها ما كادت تؤدي هذه المهمة حتى انقضت على المدينة فنهبت ارزاقها وسبت نساءها ، بحيث لم یبق فی وسع « البابا القديس » الظهور امام مواطنیه ، فرجع الى صقلیة واعتزل فیها .

وفي سنة ١٧٨ هـ ١٠٨٥ م توفي غیسكار بعد ان أخرج البیزنطیین من ایطالیة الجنوبية بعد حکم دام ثلاثة قرون متتالیة وأوصل الخطر النورماندی الذي یهدد الامبراطوریة البیزنطیة الى تیسالیة . وفي تلك السنة نفسها توفي غریغوریوس السابع ایضاً . فأوقف موت هذين الرجلین نمو المشاریع الخطیرة التي نذرا نفسها لها ، لكنه لم یوقفه الا الى امد یسير . فان هنري الرابع ، قاهر البابا ، كان یعاني ازمة شدیدة امام عمرد الاشراف السکسونیین . وعقوق ابنه کونراد الذي نصبه البابا ملكاً على ایطالیة والمدن الرئیسیة فی وادی بو . كما ان هزیمة النورماندیین امام اسطول البندقیة ، قد منعت جمهوریة سان مارك امتیازات حجة فی الشرق اقرت بها بیزنطیة اعترافاً بالجميل . فجعل منها استیلاؤها على هذه المراكز الهامة ، منافساً قویاً لیبزنطیة یهددها بخطر لا یقل عن خطر الغزوات النورماندیة . وقد وضعت هذه الدولة المتداعیة آمالها حینذاك فی الیکسیوس کومنینوس اعظم قائد أنجبته ، ورفعت الى سدة الحكم ، ولكن هذا القائد تولى رئاسة الدولة ، وخزینتها خالیة ، وجیشها مضطرب ضعیف لا یُعتمد علیه ، فلم یستطع ، رغم حنکته ومهارته ، ان ینتشل بلاده من الهوة التي تنحدر اليها ، وان كان قد بذل مساعي

جليلة للتحالف مع هنري الرابع والمدن الايطالية البحرية ضد مطامع النورماندين^١.

وكان مصير العرب لا يختلف كثيراً عن مصير البيزنطيين ، وكانه يسير معه نحو انهيار محتوم ، فان الاسبانيين قد استردوا طليطلة ، واستنجد المغاربة بالبربر والمرابطين فأسس هؤلاء مدينة مراکش ، وأنشأوا من المحيط الى الجزائر والسودان مملكة ألحقوا بها القسم العربي من اسبانية ، غير ان هذه المملكة نفسها كانت تتراجع شيئاً فشيئاً امام فتوحات الاسبان .

اما في الشرق فقد وقفت قبائل الأتراك السلاجقة على رأس الشعوب العربية والاسلامية ، وكانت تلك القبائل ، كما قلنا ، تستر مطامعها التوسعية بستار الرغبة في نشر الاسلام أو المحافظة عليه ، لتظهر أمام هذه الشعوب بمظهر الوريث الشرعي لامبراطورية العرب .

لقد بدأت دولة الأتراك السلاجقة حوالي سنة ٣٦٠ هـ ٩٧٠ م حين خرج سلجوق مع عشيرته الفز من بادية القيرغيز الى جند حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أرال) ، ثم انتقلت الى بخارى ، وما فتئت تنتقل نحو الغرب ، وتشارك في الأحداث والحروب ، حتى انتزع طغرل بك محمد وجفري بك داود ، حفيدا سلجوق ، ولاية خراسان ، ثم احتلوا خوارزم وطبرستان على حساب الدولة الغزنوية ، واستطاعوا القضاء على الدولة البويهية ، وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب الى العراق . وقد أثار طغرل بك اهتمام الخليفة العباسي القائم (٤٢٣ - ٤٦٨ هـ ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) فاستعان به على البساسيري

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ، ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٢ .

القائد التركي الذي كان يعمل في خدمة الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه وكاد يجرّد الخليفة من جميع سلطاته ، فانقلب البساسيري بولائه الى الفاطميين الذين كانوا يحكمون في مصر ، وغداً يخطب للمستنصر الفاطمي على منابر المدن التي آلت اليه ، بينما كان سلاطنة السلاجقة يخطبون للخليفة العباسي في بغداد ويعتقون المذهب السني مثله ، في حين كان البويهيون شيعة كالفاطميين . ولما توفي طغرل بك خلفه ابن اخيه الب ارسلان الذي خاض عدداً من المعارك للظاقره مع البيزنطيين ، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين سنة ٤٦٤ هـ ١٠٧١ م في موقعة مانزكرت (ملاذ كرد) الشهيرة على الفرات الأعلى ^١ ، وهي الموقعة التي فتحت أبواب آسية الصغرى الشرقية أمام هجمات الأتراك السلاجقة فأنشأوا فيها سنة ٤٧٠ هـ ١٠٧٧ م مملكة خاصة بهم عرفت باسم « مملكة الروم السلجوقية » ^٢ ، كانت نيقية (ازنيق في التركية) عاصمة لها ثم غدت عاصمتها قونية لما احتل الصليبيون نيقية سنة ٤٧٧ هـ ١٠٤٨ م ، ثم انتزع الب ارسلان من الفاطميين ما في أيديهم من البلاد حتى دمشق . وزاد ابنه ملكشاه على ذلك فانتزع من الفاطميين سورية كلها ، وأنشأ

١ - بعد مفاوضات طويلة بين الب ارسلان ورومانوس ، تعهد هذا بتزويج بناته من اولاد الب ارسلان وبأن يفتدي نفسه مع جميع الأسرى بمليون دينار ، وبأن يدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة وستون الف قطعة ذهبية ، ويتسلم جميع اسرى الحرب ، ولكنه ما كاد يشخص ورجاله عائداً الى عاصمته حتى علم بان وعاياه قد خلموه من الملك ، وما إن بلغها حتى سملوا عينيه وفتكوا به قبل ان يتمكن الب ارسلان من نجاته (مختصر تاريخ العرب ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١١٠ - ١١١) .

٢ - حل الأتراك العثمانيون محل الأتراك السلاجقة في آسية الصغرى أو الاناضول منذ سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م وانشأوا فيها امبراطوريتهم التي حلت نهائياً محل الامبراطورية العربية وبسطت نفوذها على كثير من البلدان المجاورة لها خلال عدة قرون .

في دمشق وبيت المقدس إمارتين تابعتين له ، بالإضافة الى استيلائه على كاشغر وسمرقند^١ . الا ان الامبراطورية السلجوقية سرعان ما تمزقت بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م إثر تنازع امراء السلاجقة فيما بينهم ، واستبداد « الأتابكة » بهم ، إذ كان من عاداتهم أن يعهدوا بتربية أولادهم الى قوادم الذين يسمونهم بالأتابكة^٢ ؛ وقد انقسم السلاجقة خلال ذلك الى فروع ثلاثة : واحد في بلاد المعجم حيث تبدل أفرادهم واستجمعوا ، وثان في الأناضول حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم ، وآخر في سورية حيث استعربوا وتوطنوا^٣ .

ولم يكن هذا كله ليعني الغرب في شيء ، ولكن الذي كان يعنيه ويخيفه ان جيوش الاتراك السلاجقة كانت ما تفتأ تتوغل في الأناضول ، وقد نفذت منه سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م الى انطاكية فاحتلتها ، وانشأت في إزمير اسطولاً كبيراً ، بحيث لم يعد خطرهما مقتصرأ على بيزنطية وحدها ، وانما اخذ يقلق البندقية التي كانت تهتمها التجارة الشرقية بقدر ما تهتم بيزنطية إن لم يكن اكثر منها ، والتي كانت قد انشأت المخازن والمستودعات في كل مكان ، حتى في شبه جزيرة القرم ، وعقدت معاهدة تجارية مع بغداد ، وارسلت عملاءها الى الحساء الشرق العربي

١ - تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ، تعريب فارس وبعليبي ، ج ٢ ص ١٢٤ - ١٤٠ .

٢ - لفظة تركية مفردتها أتابك مركبة من كلمة « أطاء » بمعنى أب وكلمة « بك » بمعنى الأمير او السيد (انظر : الألقاب الاسلامية تأليف حسن الباشا ص ١٢٢) .

٣ - العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، تأليف الدكتور زكي النقاش ص ١٦ .

والشرق الأوسط كله ، ولم تكن تتردد في تموين هذه البلاد حتى بالعتاد الحربي . فان الطبقة الارستقراطية في هذه الجمهورية التي لم تكن تعاني ما تتخبط فيه بقية البلدان الأوربية من نزاع بين الملاكين العقاريين والتجار ، قد انصرفت الى التجارة وحدها وجنت منها ارباحاً طائلة ، فأثرت بذلك تأثيراً كبيراً في شؤون بيزنطية المالية ، ووجهت الى هذه الامبراطورية ضربة قاضية ، ربات التجار البيزنطيون مها تكبدوا من مشاق ، وعادوا من بلاد الصين بالأمثلة والبضائع والأفاويه ، فان القسط الأوفر من ارباحهم انما يعود الى تجار البندقية وبيزة وجنوة ، لأنها الابواب الرئيسية لأسواق الغرب . ففي ايطالية وليس في غيرها ، كانت تنتهي في تلك الأيام طريق الصين ، او طريق الحرير والتوابل ، التي كانت اكثر الدروب المطروقة في ذلك العهد ١ .

كانت اوربة تخطو نحو المدنية خطوات واسعة في ظل الاقطاعية المزدهرة . فبفضل قصر السيد ودير الراهب ، نمت الزراعة وأدخلت عليها اساليب جديدة لزيادة الانتاج ، وبفضل التبادل التجاري تحسنت وسائل النقل وطرق المواصلات فتطورت العلاقات الاقتصادية تطوراً كبيراً ، ونشأت الأسواق والمدن في البقاع الخصبة ، وتأسست معامل حرفية صغيرة كان الصناع اليدويون يستخدمون فيها اساليب جديدة ، فنمت بذلك المقدرة الشرائية ، وتكاثرت حاجات الاهلين ، واتسع في كل مكان نطاق البضائع المتداولة . ووقفت ايطالية وفرنسة والفلندر

١ - للتوسع في معرفة دوافع الجمهوريات الايطالية البحرية في عهد الحروب الصليبية وسميها وراء مصالحها الاقتصادية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً ، انظر :

Heyd ; Histoire du Commerce, t 1 , pp. 131 - 133 .



حاج أوري في نهاية القرن الحادي عشر ، عن لوحة قديمة

ورينانية على رأس هذه الوثبة المدنية والصناعية الكبيرة . وسادت في القصور الاقطاعية الحياة الباذخة وألوان الترف . وأدى هذا الازدهار الذي شمل الظروف المادية الى ازدهار فكري بدا في فرنسا بنوع خاص .

لقد كان التجار يحملون من الشرق العطور والتوابل والصمغ والأصباغ والسكر والعاج والحريز والبخور والاحجار الكريمة ، وينقلون اليه مقابل ذلك منتوجات الغرب وفي مقدمتها الأنسجة والأجواخ . وواضح ان ارباح هؤلاء التجار كانت تبلغ اضعاف ما يربح منتجو البضائع التي يتاجرون بها ، فمن البديهي إذن ان يشتد النضال بينهم وبين الاقطاعيين في سبيل سلامة المواصلات وحرية الاسواق والتخلص من الضرائب والمكوس ، وان يقف الى جانبهم في هذا النضال ابناء المدن الناشئة من الصناع اليدويين والحرفيين ، وان تتطرح هذه القوة الاجتماعية الجديدة الى الاتجاه بنشاطها الاقتصادي الى جميع أنحاء العالم ، يشجعها على ذلك ويفريها به ، ممثل البندقية التي سادها الترف الباذخ لما يتوافر لها من ثراء متعظم .

وأخذ ينشأ بين هذه المدن التجارية في ايطالية وفرنسة ، التي قامت على طريق المتاجرة مع الشرق ، رابطة اقتصادية قوية ، ونضامن وثيق في المطامح والآراء . ولم يكن وصول الأتراك السلاجقة بالتالي ، الى الشواطئ ، ليؤلف خطراً على مصالح بيزنطية وحسب ، وانما كان قبل ذلك وأكثر منه ، خطراً على هذه المدن التجارية في ايطالية وفرنسة وغيرها من بلدان الغرب .

وإذا كان قيام الحكم التركي في هذه الربوع ، قد استلب الحجاج المسيحيين الذين يؤمنون بيت المقدس ، بعض ما كانوا يتمتعون به في ظل الحكم العربي من حرية وتسامح عظيمين ولا سيما بعد الاتفاق المشهور بين

شارلمان وهرون الرشيد^١ ، حتى بدأوا يحجون اليه متجمعين ومتسلحين^٢ ، فان المدن الأوروبية التجارية القائمة على شواطئ البحر الابيض المتوسط قد شعرت أيضاً بأن هذا الحكم نفسه انما يهدد اوربة بالتخلي عن مراقبة تجارة الشرق للأتراك أنفسهم ، بينما هي تتطلع الى تقوية هذه التجارة وقد غدت عصب الحياة الاقتصادية فيها .

وهكذا نمت تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الحروب الصليبية ، وهبت تلك العاصفة الجتونية التي تركت جرحاً عميقاً في حياة البشرية . وقد جددت هذه الحروب المروعة ما دار من نضال عنيف بين الشرق والغرب

(١) يجمع المؤرخون الغربيون فضلاً عن الشرقيين ، على ان المسيحيين في بيت المقدس وغيرها انما كانوا يعاملون خلال الحكم العربي بالاحترام والرفق والتسامح ، وأقوالهم في ذلك كثيرة لا يمكن حصرها (انظر : تاريخ العالم لهامرتن المجلد الرابع ص ٧٣٦ والتاريخ العام لفان نس مير ص ٢٤٥) ومختصر تاريخ العرب من ٢٨٥ و 49 p. Byzantine Empire, Iorga ; Runciman ; Byzantine Civilisation, p. 26)

ولا بدع في ذلك فان العرب قد اقتدوا بخليفتهم عمر بن الخطاب الذي دخل القدس مسالماً بعد ان تسلم مفاتيحها من بطريكها اليوناني صفرتيوس ، ومنح أهلها الامان على دماهم وأموالهم وكنائسهم ، وامتنع عن الصلاة في كنيسة القيامة لئلا يجولها المسلمون الى مسجد (انظر : تاريخ اليعقوبي ص ١٦٧ - ٢٦٨) وعملوا بوصية الرسول العربي : « من ظلم معاهداً ، ار كلفه فوق طاقته ، فانا خصمه يوم انقيامة » وامتدوا بهدي القرآن الكريم : « ان الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » . الا ان الطوائف غير الاسلامية قد تعرضت لاجراءات قاسية لا مبرور لها في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اقدم على كثير من التدابير الشاذة الاخزى التي لا تفسير لها .

(٢) لم تكتم بيزنطية تخوفها من بعثات الحج المسلحة ورأت فيها خطراً يهدد سلامتها (انظر : L'Eglise et l'orient, p. 46 ; Berhier)

في حروب طروادة ورومة ، وحروب فارس ويونان ، ودشنت الكفاح
الذي نشب بينها بعد انطفاء جذوة الحروب الصليبية بأجيال : كفاح
الغرب لاستعمار الشرق واستثماره ، وكفاح الشرق في سبيل تحرره
واستقلاله ، وهو كفاح مؤثر بلغ أوجه في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

الحروب الصليبية

بدأت المدن الأوروبية تلهج بضرورة اقضاء الأتراك السلاجقة عن حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان الأتراك مسلمين فانتشرت فكرة الحرب على الاسلام ، وأذكى ضرام هذه الفكرة ما تعرض له بعض الحجاج الأوروبيين من اعتداء عليهم وهم في طريقهم الى بيت المقدس ، وكانت دعاة الحرب يصورون المسلمين لابناء اوربية على انهم أكلة لحم البشر وذئاب الإنسانية واعداء المسيح وغير ذلك من الصور التي يقول المؤرخ الانكليزي جيبون عنها : « ولم تكن هذه التهم سوى نتيجة الجهل والتعصب ، وهي صور ينفىها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب وتسامحهم مع المسيحية في الحياة العامة وفي الشرائع والقوانين . »

وإذا كانت شهادة الأهل ذات دلالة خاصة واهمية كبرى ، فان المؤرخ رنسيان يصرح « بأن المسيحيين كانوا اسعد حظاً في الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان ، حيث تمتعوا بحرية التجارة ، والمعيش في ظلال الأمن ، ولم يرهقهم المسلمون بالضرائب كما

كانوا يعانونه قبلاً^١ ، على انه اذا كانت هناك حوادث وقعت على الحجاج ، فانها لا تعدو ان تكون حوادث فردية لا يخلو منها بلد وعصر ، بل كان يلقاها المسيحيون انفسهم على ارض اوربة ، ومن الظلم الواضح ان تتخذ الأحداث الفردية قاعدة عامة للحكم وترتيب النتائج . فالغرض من قيام تلك الحروب بأية وسيلة ، كان واضحاً ، بتجسيم العوادم الفردية القليلة وتهويلها ، استثارة للنفوس^٢ . ويكفي ان نستشهد ايضاً بما قاله منرو في هذا الشأن : « كانت الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من التوابل .. لتوافق روح ذلك العصر الذي كان اشد توحشاً من عصرنا هذا .. » اما ما قاله برنارد دى فيس في مذكراته فهو كاف لابطال افتراءات المبالغين : « ان السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين ، حتى انني لو كنت مسافراً ونفق بعيري او حماري الذي ينقل امتعتي على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس او رقيب ، وسرت الى اقرب مدينة لأجلب لي بعيراً او حميراً آخر ، لوجدت عند عودتي انها باقية على حالها لم يمسه احد^٣ . »

وقد سميت تلك الحروب « صليبية » لأن محاربي الفرنجة كانوا يرسمون علامة الصليب على ثيابهم واسلحتهم ، واستطاع البابا اوربانوس الثاني ان يسبغ على تلك المغامرة الكبرى التي اشتركت فيها اشبات العوامل والأهواء والمطامع ، طابعاً دينياً محضاً ، لتوطيد سلطة البابوية . وكان اوربانوس الثاني يعتقد ، شأن غريغوريوس السابع ، بضرورة خضوع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا ، ويطمح بأن تشمل هذه السلطة الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ايضاً ، كما انه رأى في الحروب الصليبية وسيلة

١ - صراع العرب خلال العصر لمحمد عبد القني حسن ص ١٦ .

٢ و ٣ - المرجع السابق ص ٤٧ .



البابا اور بانوس الثاني

يحوّل بها شطر الشرق وجوه اولئك البارونات والفرسان الذين كانوا يعكرون أمن القارة الأوروبية بالحروب الداخلية والمغامرات المستمرة واعمال القرصنة واللصوصية ، ويسيطون الى رجال الاكليروس منكرين عليهم ما ينبغي لهم من اكرام واحترام ، وكان اشد ما يقلقه جماعات النورمنديين التي عاثت في البر والبحر ، والتي رأى ان من الحكمة ابعادها عن مسرح السياسة الاوربية بتوجيه نشاطها الحربي الى الشرق ،

وادرك البابا انه إذ يحشد تحت راية المسيح ذلك الجيش الأممي الذي يضم جموع الفرسان والاقطاعيين من اشقات البلدان والأجناس ، ويرسله الى الأراضي المقدسة كي يحارب لخدمة الدين المسيحي ، فانه إنما يرفع البابوية الى المقام السامي الذي يريده لها ، ويخضع لسلطتها المعنوية او الفعلية جميع الملوك والاقطاعيين الذين ينتظمون في تلك الحرب ويسهمون فيها ، وتكون له يد كبرى على بيزنطية لانقاذه اياها من الخطر التركي الذي احدق بها ، فيسعى لضم كنيستها الشرقية الى كنيسة رومة الغربية ، وتصبح اقطار اوربية ، وربما اقطار العالم كله ، خاضعة لكنيسة واحدة هي كنيسة روما ، ولسلطة دينية واحدة هي سلطة البابوية .

وهكذا يمكن القول مع المؤرخ الفرنسي روسته ، ان الرغبة في بسط سلطان الكنيسة الغربية على الكنائس الشرقية كانت احد الدوافع الرئيسية للحروب الصليبية ^٢ ، بالإضافة الى دوافعها السياسية والاقتصادية .

وقال اندره ريبار : « ولقد جندت البابوية اوربية لتنفيذ خطتها

١ - Delarc ; Les normands en Itali, pp. 143 - 144, 192 - 194

٢ - Rousset ; Lrs origines et les Caractères de la première Croisade, p . 56

الواسعة ، وأرغمت الأمراء على الخضوع لها عن طريق منعة ، فانقضت جيوشهم بشغف لانقاذ القدس ، وهي تجهل الدوافع الخفية لتلك الحرب الضروس . ووطد هذا الانتصار الذي أحرزته الديانة المسيحية ، مشاريع تجارية لم تكن البابوية نفسها تجهلها أو هي غريبة عنها^١ . أو كما يقول رينه غروس : « ان تبشير سنة ١٠٩٥ حلّ سلاسل النزوع الى السيطرة على الأراضي لدى الاقطاعيين الكبارين واللوثرانجيين ، والسيطرة الاقتصادية لدى الجمهوريات البحرية الايطالية : فالحاجّ أصبح رجل فتح يذهب لانشاء ممالك تحت شمس الشرق . وأخيراً عندما تحقق الفتح ، فرضت الضرورات المحلية على بارونات الأرض المقدسة ، سياسة استعمارية^٢ »

وقد شخّص اوربانوس الثاني في سنة ١٠٨٨ هـ ١٠٩٥ م الى مجمع كليرمون فيران كي يرسل الصرخة الرسمية الى الحروب الصليبية ، وكان قد اختار هذا المكان عامداً ليكون الاجتماع بين الفرنسيين أهل الحدة والميل الى الحرب . ولم يستطع هذا الرجل الخالص لتقاليد الكنيسة ، إلا أن يُعرب لذلك المجمع عن فوائد هذا المشروع من جوانبه المتعددة ، فكان مما قاله في خطابه التاريخي ان هذه الحرب « ليست تُشن لاكتساب مدينة واحدة ، بل لامتلاك أقاليم آسية بأجمعها مع غناها وخزائنها التي لا تُحصى ، فانتهزوا هذه الفرصة وخلصوا الأراضي المقدسة كلها من أيدي مختلسيها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون اولئك الكفار ، فهذه الارض كما قالت التوراة : تفيض لبناً وعسلاً . »

وقال مخاطباً جنود اوربة : « لقد كنتم تحاولون من غير جدوى ،

١ - La Prodigieuse Histoire de l'Humanité , P. 249

٢ - رصيد التاريخ ، ترجمة خليل الباشا ج ٢ ص ١١٤

إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فاستيقظوا الآن لأنكم وجدتم داعياً حقيقياً إليها . لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتنا ما ، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة . اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار . أيها الجنود ، أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن ، هموا اليوم وقدموا قواكم وسواعدكم ثمناً لإيمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى ، فانكم بذلك تنالون الجزاء الأوفى والنعم الدائم .^١

وقد دعا البابا في حتام خطابه إلى الإسراع بتقديم المساعدات وحشد المتطوعين ، بحيث يكون الجميع على أهبة لرحل على الشرق مع بداية الفصل^٢

ويقول هالام : « انه لم تترك وسيلة إلا اتبعت لاذكاء هذا الجنون البوائي ، فكان الخندي عندما يلبس الصليب معقياً من الديون والضرائب ، وكان شخصه محمياً من قبيل الكنيسة التي كانت تنفر له ذنوبه وآثامه وتضمن له الخلود الأبدى^٣ ، ومن هنا نشأت فكرة الغفران وغدت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

وما لبثت المدن التجارية في فرنسا وإيطالية أن تبنت المشروع بحماسة شديدة ، لأنه تبعث عنها الأسياد الاقطاعيين الذين تضيق بهم ، ويؤمن لها أسواق الشرق . ووجدت هذه الدعوة تجارياً مؤيداً لدى الروح الفروسية التي كانت تسود ذلك العالم الاقطاعي . « وإذا كان المعامل المادي قد اغرى الجمهوريات الايطالية التجارية على المساهمة في حملة الحجاج المسلحين للشرق ، فقد وجدت إلى جانب هذا روحاً من التصوف الديني

١ - حياة صلاح الدين الأيوبي للدكتور احمد بيبي ص ٣٩ - ٤١
٢ - Chalandon : Hist. de la Première Croisade , PP. 37 - 41
٣ - مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٣



الدعوة الى الحرب الصليبية

ترجمت عن نفسها في شخصية بطرس الناسك الذي اختلطت الحقيقة بالخرافة في تاريخه^١ ، والذي كان تأثيره الشديد على سامعيه - لاسيما من الطبقات الدنيا والجاهلة - أكبر معوان على تحقيق الفكرة المعاصرة التي اخترعت ولم يبق الا تنفيذها^٢ .

وقد انتبه المؤرخون القدماء والمحدثون الى العوامل السياسية والاقتصادية الكامنة وراء الحروب الصليبية^٣ ، والتي كثيراً ما ذاب العامل الديني وسط تياراتها العنيفة الصاخبة^٤ ، وأجل محمد كرد علي تلك العوامل جميعاً بقوله : « اتفق ان بعض زوار الاوربيين في الارض المقدسة شاهدوا شيئاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به

١ - كان بطرس الناسك يطوف أرجاء اوربة فوق حمار ، وهو حافي القدمين ، يرتدي ثياباً خشنه ، ويحمل صليباً كبيراً ، ويخطب في الدماء والعمامة فيبيكيهم ويشير حماسهم وبذكي ظمام الى الانتقام واسترداد القبر المقدس (مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام لعنان ص ٩٤) وكان يتحدث باكياً نادياً نائفاً لحيته ، منذراً بفساد النصرانية وضياع الدين ، فيذهب الهياج بالمقول ويطير بالافتدة ، وتلقي الحاسة المنطق ، ويلقى الناس كل شيء الا هذه النار التي سوت في العروق ، ومشت في الدماغ فألهته ، فنهضوا يتبعون الناسك الى حيث لا يعلمون (قصص من التاريخ لعلي الطنطاري ص ٢١) ويجمع المؤرخون على ان حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيته الغريبة - بشابه المهلهة وقدميه الحافيتين وحماره الأعرج - قد جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العمامة والدماء (Grousset ; Hist. des Croisades . T1, p. 5) وثمة شخصية مماثلة لبطرس الناسك ، هي شخصية والتر الملقب بالفلس وقد قاد اتباعه عبر البحر ثم اراضي الدولة البيزنطية ، ونسبت تلك الجوع اثناء الطريق انها تحترق بلاداً مسيحية فأخذت تسلب وتنهب وتعتدي على الامالي الآمنين (الحركة الصليبية ج ١ ص ١٣٧ نقلاً عن Vasiliev ; Byzantine Empire t2 p. 404)

٢ - انظر ابن الاثير ج ١٠ ص ١١٢

٣ - ٢ - 1 Orga : Breve Hist. des Croisades . pp. 1-2

في ادوار الحكومات العربية القوية ، وانقلبت ساحة العرب يحفاء من خلفوم من التركان ، فعاد الزوار الى بلادهم يقصون ما لقوا من الشدة في الشام ويعظمون الامر . وكان التعصب الديني يومئذ على أشد حالاته في الغرب ، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر ؛ ولم يكن ظهر إذ ذاك المذهب الانجيلي ، وكان مذهب الروم الارثوذكس آخذاً بالضعف ليس له روابط الكنيسة البابوية ولا سلطتها على الأرواح والأشباح . فأوعز البابا الى أمم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم الى انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين . وقد ذكر اهل الأخبار من الأوربيين في تعليل الحروب الصليبية ان المسيحيين والمسلمين كانوا حتى القرن الحادي عشر للميلاد على صلوات سلمية الا قليلاً ، يحمل العرب الى مصر والقسطنطينية حاملات مختلفة من بلاد الهند والشرق الاقصى ، فتستبضعها من المدن الايطالية : باري وبيزة وجنوة ولا سيما أمالفي والبندقية فيبيعونها في اوربا . وكان العرب يسمحون للزوار ان يأتوا زرافات الى فلسطين ، فيشخص اليها جماعات عظيمة من عامة نصارى بلاد الغرب يسجدون أمام القبر المقدس . وتضاعفت الحماسة الدينية في ذلك الزمن ، وتداعى الحكم العربي القائم على التسامح في قارة آسيا ، وقام مقامه المحاربون من الترك المعروفين بتعصبهم وبسالتهم . فاستولى السلجوقيون على ارمينية والشام ونيقية ودانت لهم في سنة (٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م) فاختلفت العلاقات الاقتصادية بين آسيا واوربا ، وخافت المدن التجارية في البحر المتوسط أن يفلق الاتراك أمامها اسواق الشرق ١ ،

اما الدكارة حتى وجرجي وجبور فقد اجلوا ما فصلناه آنفاً بقولهم :

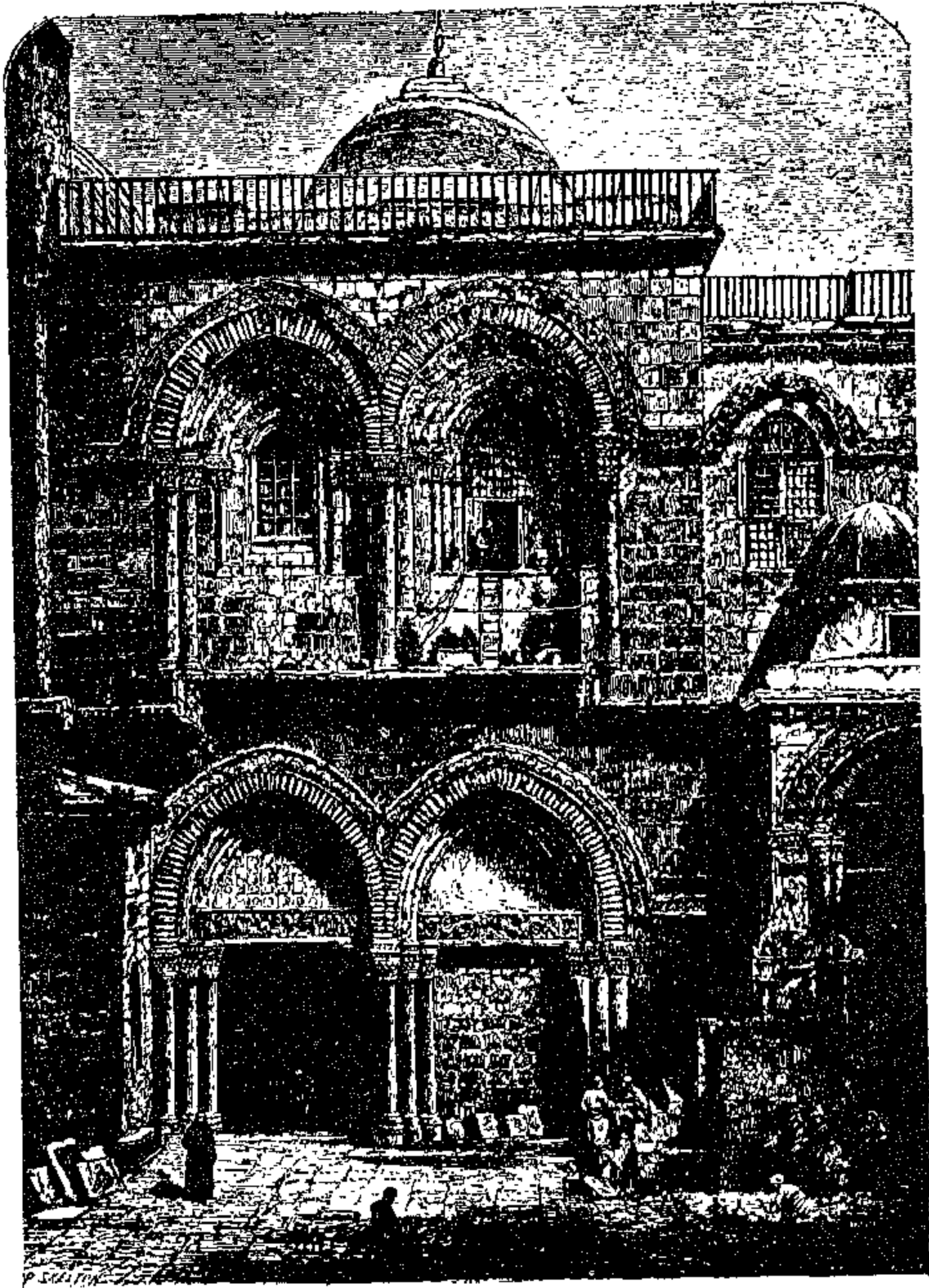
« ليس كل الذين حملوا اشارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية ، فقد كان عدد من فرمائهم ومنهم بومند ، قد قصدوا بحركتهم هذه ان يفتحوا اراضي جديدة لهم يرفعون رايتهم عليها . اما تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائداهم خدمة مصالحهم التجارية . ومن هنا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية تشمل مطامح المغامرين واهل الخيال فضلاً عن آمال الأتقياء المخلصين . زد على هذا ان كثيراً من المجرمين رأوا ان ينخرطوا في سلك هذه الحملات تكفيراً عن معاصيهم ، والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور الناس في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلية في ذلك الزمن ، بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا فيها وللأزمة الاقتصادية والنحطاط الحاله الاجتماعية ، لم يكن تضحية من قبلهم بل تقريباً لكربتهم . »

ويتفق مع هذا رأي ادوار عطية الذي يقول : « دفعت نوازع اخرى ، بالاضافة الى الحماس الديني ، هؤلاء المسيحيين الى المغامرة ، وخاصة منها ما يتصل بالغايات التجارية وحركة اعمال المدن الايطالية ، والحاجة الى ايجاد عمل لأولاد النبلاء الاقطاعيين . والحقيقة بأن جهداً مشتركاً ضد عدو اجنبي كان أحد الوسائل الفعالة للقضاء على الحروب المحلية بين بارونات اوربا . »^٢

ولعل افضل من عدد الدوافع المختلفة للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها ، هو المستشرق جون لامونت ، فقد أشار الى خطاب البابا اوربانوس في

١ - تاريخ العرب ، الجزء الثاني ص ٧٥٣

٢ - العرب ، ترجمة بقلي ونجا ص ٤٥



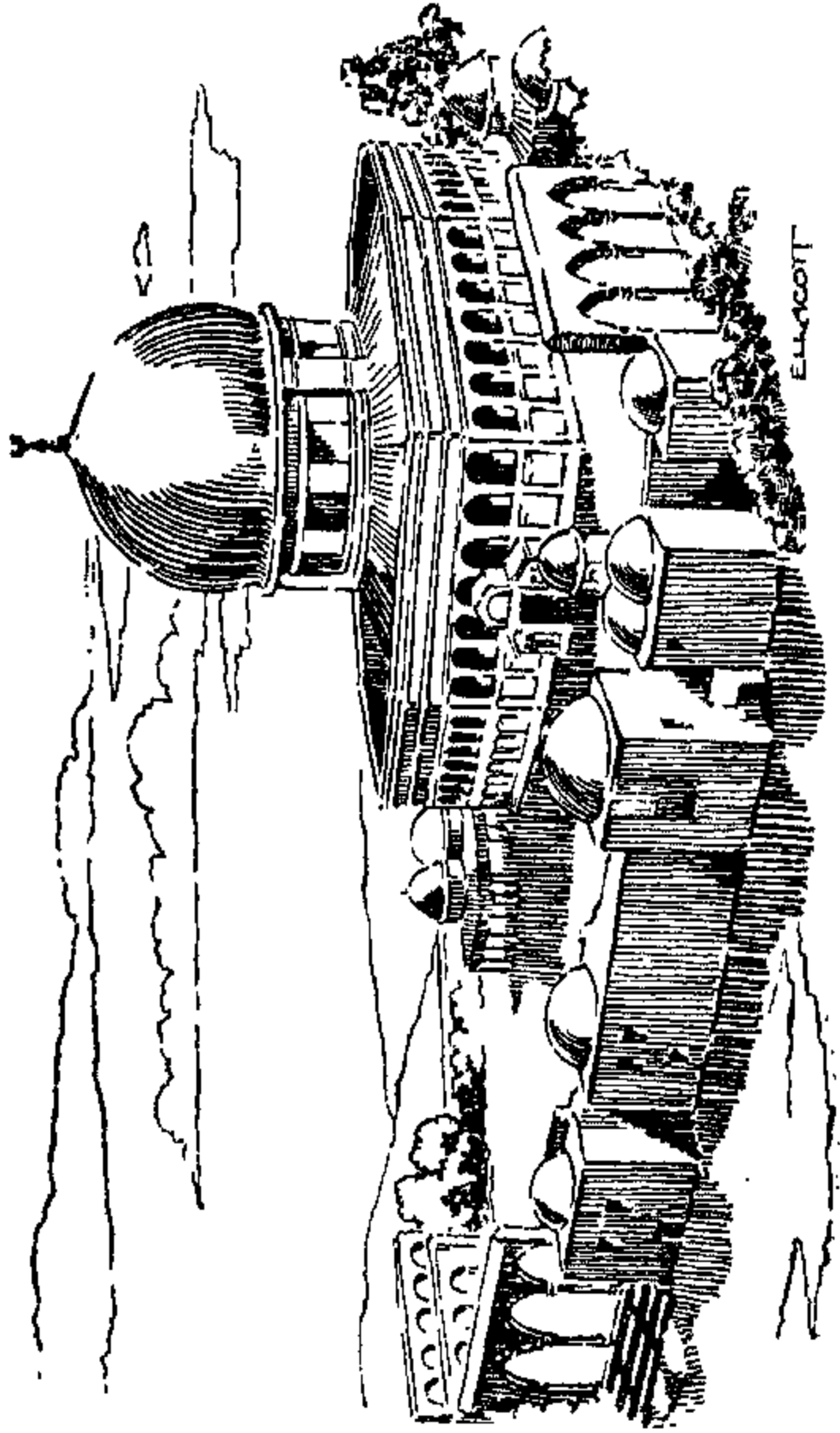
كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)

كليرمون فيران بقوله : « ولم ينس اوربانوس ان يذكر مستمعيه بالأرباح المادية والروحية التي سيجنحها الصليبيون . ان من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلص . اما مدن « ارض الميعاد » الغنية فستكون جزاء من يحتلها من الأحياء . ولم يشر البابا الى الفائدة العظيمة التي ستجنحها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسير تحت راية البابا ، كما لم يشر الى الأثر العظيم الذي ستركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الاباطرة والملوك . ولم يشر البابا الى التكرات التي نزلت بالكنيسة على ايدي السلطات الزمنية ، والى ان الحملة الصليبية ستذكر عاملاً في الامبراطورية الرومانية المقدسة بأن خادم خدام الرب^١ ما زال قادراً على القيادة واصدار الأوامر^٢ . »

وأشار لامونت الى المتطوعة أجناداً وقيادة فقال : « وبينما تطوع عدد كبير من القسادة في « صليبية الامراء » مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها ، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغنم الدنيا اكثر مما فعلوا في سبيل اعلاء مجد الرب . لاشك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة ، ونيل الخلاص لنفسه . ويحتمل ان يكون روبرت اوف نورمندي وروبرت اوف فلاندرس مدفوعين الى حد كبير ، بدوافع دينية ، وإن كنت أرى انها كانا مدفوعين بدافع آخر ، الى جانب الدوافع الدينية ، ألا وهو ان الحملة الصليبية أتاحت لها الفرصة ليصبحا بطلين . ولكن لا يستطيع احد ان يزعم بأن بوهيمند اوف تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس امارة في الشرق . كما كان ريموند اوف سنت جيلز ، بطل الحروب

١ - البابا

٢ - دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢



قبة الصخرة في المسجد الأقصى

الاسبانية ، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة . واغلب الظن ان اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماسة الدينية المحضة ، وذهب بعضهم فراراً من رثابة حياتهم المملة ، او تخلصاً من السنة روجاتهم السليطة . وحمل بعضهم الصليب حباً بالمعامرة والمخاطرة . وذهب بعضهم لمجرد انت الآخريين قد فعلوا ذلك . ١ .

وينفذ لامونت الى أعماق الواقع الانساني عندما يقول : « انني لست واثقاً من ان الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها . لقد ادرك ابتداء الجيل الأول انهم « بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة » على الرغم من انهم « كانوا يعتبرون كل سورية الاسلامية ارضاً للميعاد لا اصحاب لها » هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها ، ولست اعتقد ان الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الاسلامية لكونها بلاداً اسلامية . فالحقيقة ان الجيل الاول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها امارات لهم . وكانت البلاد ، بصورة عامة ، بأيدي المسلمين ، وعلى هذا فقد تعين عليهم ان يجاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت ايديهم . ان سيرة تنكريد وهو احد عظماء الصليبية الأولى ، الذي أثلج قلب اغويير بنذبحه المسلمين بشكل وحشي عندما احتل القدس . وانتهبها) تعطينا شواهد عديدة على ان امرء الحملة الصليبية ، عندما اندفعوا بسياساتهم التوسعية ، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة ، وانهم كانوا على استعداد ، حين تدعو الضرورة ، للتفاهم مع اعدائهم المسلمين . فكان تنكريد مصمماً على انشاء اكثر دولة ممكنة . وفي سبيل

تحقيق هذه الغاية لم يجد اي بأس في اخذ البلاد من ايدي المسلمين او اليونان او الأرمن او من ايدي ابناء جنسه الافرنج .. ان الزمن والنشاط اللذين انفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من ايدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين انفقهما في محاربة الأتراك . اما سيرة بلدوين دي بورغ وخاصة في ايامه بالرهاء ، فلا تنقض هذه القاعدة العامة ^١ ،

اما محمد عبدالله عنان فهو يرى ان الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية اثارها قصص الحجاج الناقمين او دعوة بطرس الناسك ، ولكنها كانت تتمة او ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ اربعة قرون بين الشرق والغرب ، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في اوربة وفي اسبانية بسوع خاص ، فنقلته الحروب الصليبية الى آسية ، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخفية لهذه الحروب :

« ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية ، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التي زجت بهم في غمار تلك المخاطرات النائية ، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية . ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية ، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الاولى بعد ان تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية ، فلما وصلوا الى قسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الامبراطور مقابل اخذ ارض الجيوش الصليبية اراضي الدولة ، غير انهم ما كادوا يصلون الى طرسوس وانطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع ، فافترق

١ - المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١٠ .

بلدوين عن زملائه واستقر في إمارة حصص^١ ، واستقر بوهوند في انطاكية وأبى السير الى الجنوب ، واشتغل ريمون دي تولوز بغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس . وحكم الجميع الامارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وانشأوا القصور ، وأقطعوا القطائع . وقد رأينا ان الحملة الخامسة^٢ لم تصل الى الارض المقدسة بل استقرت في قسطنطينية ، ونحاض امراؤها غمار الدسائس التي كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة ، وآثروا في النهاية ان يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا الى قبر المسيح^٣ .

ان تفرق قوات الفرنجة في كل اتجاه : وانطلاق كل امير من امرائها للبحث عن إمارة يحقق فيها طموحه ويبني مجده ، وانصراف الكثيرين منهم عن الهدف الرئيسي للحملة والتطلع الى بقاع من الشرق لا علاقة لها بانقاذ بيت المقدس وحماية القبر المقدس ، كانت اكبر دليل على ان هذه الحملة أبعد ما تكون عن الاغراض الدينية التي تذرعت بها ، وانها حرب استعمارية توسعية في رقعة من الأرض كان الذين يحكمونها يعتقدون الاسلام ولو كانوا يعتقدون اى مذهب آخر لما اختلف الأمر ولما توقف العدوان ، وقد اراد اموري في عهد نور الدين ان يستولي على مصر ، ووصلت جنوده فعلاً الى ارض الكنانة ، وكاد يستولي عليها لولا اتحاد العرب ضده . ولا يخفى على الباحث القطن ان الاحتجاج بحماية بيت

١ - المعروف ان بلدوين قد افتتح مدينة الرها واستقر فيها لا مدينة حصص كما سيرد في الفصل التالي .

٢ - لا ريب في ان الاستاذ عنان يريد الحملة الرابعة ، وستراد الاشارة اليها في فصل مقبل .

٣ - مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٩٦ .

المقدس لا يستوجب غزو مصر ، فيمكن درء الهجوم على بيت المقدس بإقامة الاستحكامات وانشاء الحصون ، لو كان هناك خطر حقيقي يهددها ، لا بجشد الحشود وجمع الكتائب وارسالها الى وادي النيل وتوغلها في الصعيد ابتغاء حماية بيت المقدس ! فالتقعة بعيدة والمسافة شاسعة بين بلدة أطفيح في جنوبي القاهرة وبيت المقدس في فلسطين^١ .

وصفوة القول اننا نخرج من اقوال المؤرخين الغربيين والشرقيين ، قدماء ومحدثين ، بان الحركة الصليبية قد اصطبغت من اول امرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة « فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين ايدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا الى الشرق ، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وانما جرياً وراء المال وجمع الثروات واقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على اكبر قدر ممكن من الثروة ، حقيقة ان الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه الا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك ان العالم لم يعرف الاستعمار منذ ايام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية اول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الاوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق^٢ .

وهكذا لم تقبل السنة التالية (١٠٩٦ م) حق كان يزحف على

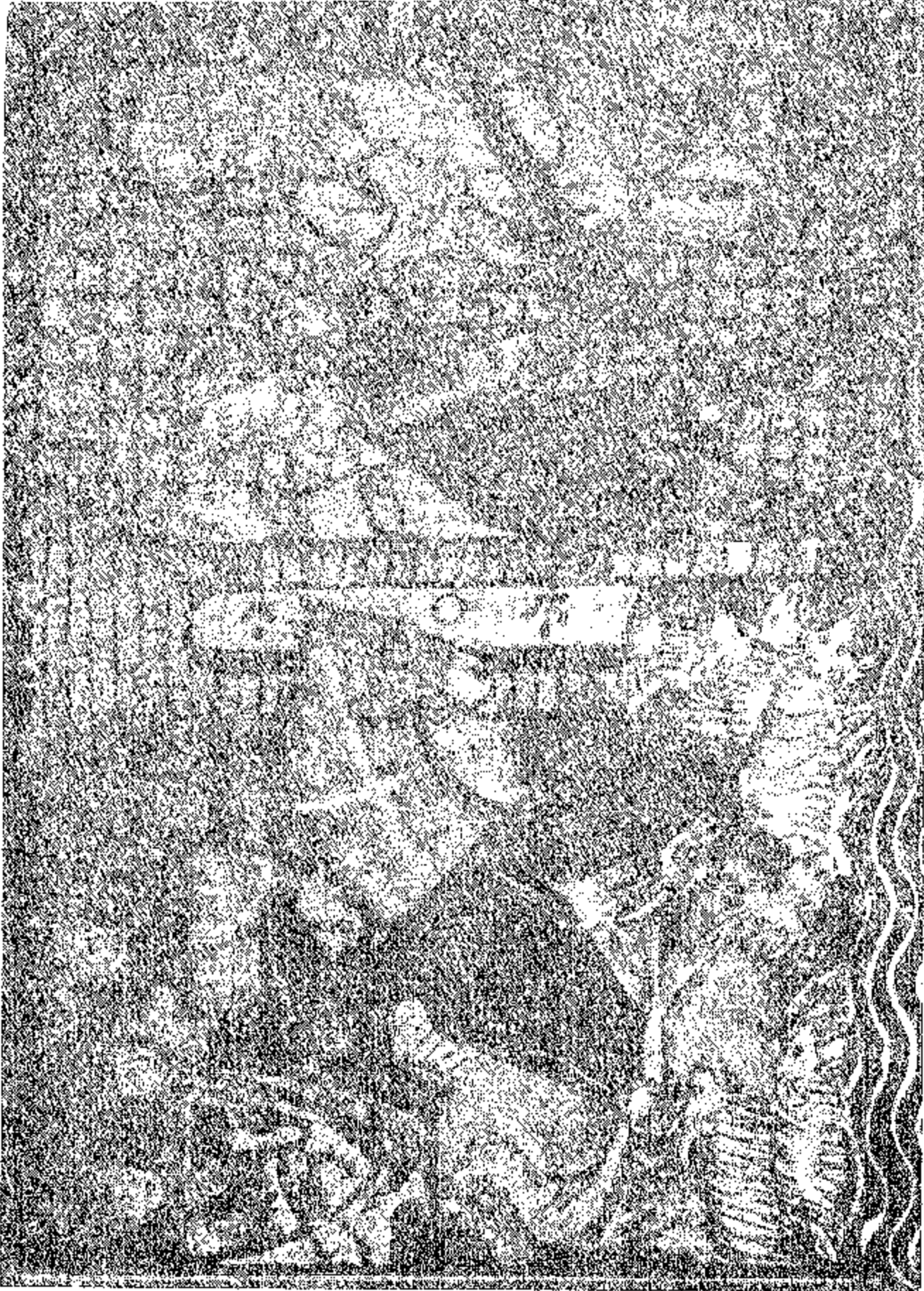
١ - صلاح الدين الأيوبي للدكتور جمال الدين الرمادي ص ٢٩ .

٢ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ استناداً الى :
Thompson ; Economic and Social Hist . I , p. 397

طرق الشرق بقيادة غودفروا دي بويون^١ مائة وخمسون الف رجل
انثالت من جميع الأقطار والأجناس ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت من
الفرنسيين الذين كانوا يدعون فرنك اي فرنجة ، وهو الاسم الذي اطلقه
العرب يومذاك على جميع الغربيين .

لقد كانت تلك الحملة تتألف كما يقول الدكتور حسن حبشي من جماعتين :
« احدهما فئة العامة التي استجابت دون تقدير الظروف لدعوة بطرس
الناسك ، ولم تتسم هذه الفئة بالنظام ولا الإدراك الحقيقي لما هي قادمة
عليه ، ومن ثم فشلت ريجها وانتهت الى ما يشبه الانتحار الذي ساقه
اليها عدم نظامها ؛ أما الجماعة الأخرى فكان قوامها الأمراء الاقطاعيون
سواء أكانوا فرنسيين ام ايطاليين ام نورمنديين ، وطبيعي ان تكون
هذه الجماعة اكثر تقدراً لخطّة سيرها وإن اختلف هذا التقدير عند امير
عنه عند آخر ، لكنها على وجه العموم استعدت بالسلاح والأموال
والرجال والعتاد والاتصال مقدماً بأمرها وولاية النواحي التي ستمر بها
بل وبالامبراطور الكيسوس كومنين ايضاً حتى يمدّ لها من المساعدة والعون

١ - لم يكن غودفروا دوق اللورين الأدنى القائد الوحيد للحملة ولكنه كان أول
الناهضين للحرب ، وأبرز القادة الآخرين ، وخير ممثل للفروسية المسيحية في القرون
الوسطى . وكانت « حملة الدهماء » بقيادة بطرس الناسك ، في حين انقسمت « حملة
الأمراء » الى أربع فرق احدها بقيادة غودفروا ، والثانية بزعمامة برهيمند النورمندي ،
والثالثة من أهالي وسط فرقة بقيادة ريمون دوسانجيل كونت تولوز ، والرابعة
مؤلفة من فرنسيي الشمال بقيادة روبرت هيوز كونت نورمندا (انظر : الحرب الصليبية
الاولى ٦٨ - ٦٩) فضلاً عن عدد آخر من الأمراء النورمنديين المقامرين والكونتات
الطامعين باقامة ممالك وامارات في الشرق . وكان كل كونت أو أمير يعول الجماعة التي
تقاتل تحت لوائه .



مخودفروا ادي بيوتون يمتاز نهر الأردن ، لوحة من القرن الرابع عشر

ما قد تحتاجه في طريقها الى بيت المقدس^١ . »

ولم تكن تلك القوات « قاصرة على المشاة والفرسان ورمسة النبال والسهام والعمال الذين يحتاجهم الحملة في القتال والاستعداد له ، بل تعدتهم الى طائفة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة بل والنساء اللاتي جيء بهن لدوافع لا تمت الى القتال بسبب ما ، فكانت اشبه ما تكون بهجرات شعبية وطنتت نفسها على الاستقرار كجاليات مستعمرة في بلاد الشرق الادنى^٢ . »

ويقول الدكتور نقولا زيادة اعتماداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية : « كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين ، الفرنسيون من مختلف المدن ، واللومبارديون ، من مدن ايطاليا التجارية الشمالية ، والمالطيون ، والاسبان ، والاسكندينافيون ، والانكليز ، والهنگاريون ، والبلغار ، والجرمان من القبائل المتفرقة في اواسط اوربا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين : القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعامرة والمحكوم عليه بالاعدام والملك والامير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير . وباختلافهم اختلفت الغايات والاطماع ، من دينية خالصة الى مادية بحتة ، والاخيرة هي التي غلبت مسترة بالاولى . وقد كان هناك من جاء يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها^٣ . »

١ - الحرب الصليبية الأولى ص ٦٤ .

٢ - المرجع السابق ص ٨٥ .

٣ - مجلة المقتطف عدد يوليو ١٩٣٥ ص ٩٩٦ .

وكان تقدير البابا صحيحاً ، فان الحروب الصليبية قد اضعفت سلطة
الامبراطور هنري الرابع و اخرجت موقفه ، ووضعت اصلاح الكنيسة
بالشكل الذي تريده البابوية موضع التنفيذ في كل مكان . ولم تحل مسألة
تعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة حلاً نهائياً ، ولكن المقر البابوي بدا
بكل ابهة وجماله ، فوق المجتمعات وفوق الملوك أنفسهم ، وأصبح
صوته مستجاب النداء مسموع الكلمة .

الفصل الثالث تارة تغزوة

كانت الحروب الصليبية أول حرب عالمية عرفها التاريخ ، ولم يسبق للقارة الاوربية قبل هذه العاصفة الجنوبية أن اهتزت بأسرها لعاطفة واحدة وعملت لقضية واحدة ، وزحفت في جيش موحد او شبه موحد نحو هدف واحد .

وكان اوربانوس الثاني قد اتفق مع الامبراطور البيزنطي على أن تمر جيوش الفرنجة من بلاده ، وكان هذا الامبراطور يطمع في أن تدين له القوات الصليبية بالولاء ، وتعيد اليه ما انتزعه السلاجقة من الأراضي البيزنطية ، وقد جرت من أجل ذلك وقائع واحداث ومناقشات لا نرى حاجة الى التوسع فيها ، وهي تدل جميعاً على ما كان يسود علاقات الفريقين : البيزنطيين والصليبيين ، من حيطة وحذر وكراهية وتربص كل فريق منها بالآخر ، كما كان كل من القادة الصليبيين يعمل في الوقت نفسه

١ - انظر تفصيل ذلك في : الحرب الصليبية الاولى ص ٧٠ - ٨٣

و Grousset ; Histoire des Croisades, t 1, pp. 15 - 80

و Chnlandon : Hist. de la Première Croisade, pp. 135 - 140

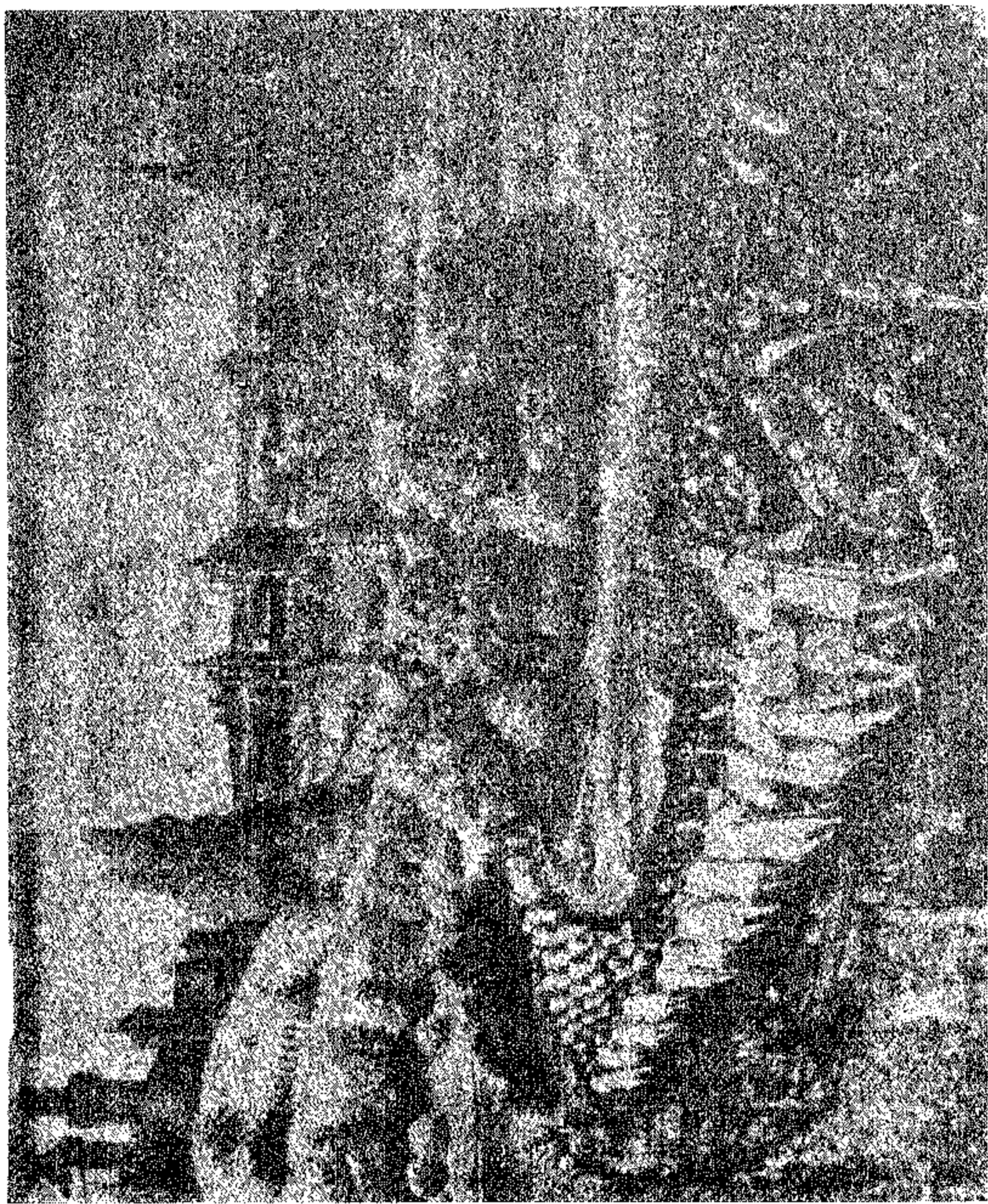
لحسابه الخاص . وكان فوج بطرس الناسك اول الأفواج التي بلغت القسطنطينية .

ويقول الدكتور اسد رستم : « في اوائل تموز من السنة ١٩٠٦ وصلت الى البلقان جموع بطرس الناسك ناهية مؤقتة مخربة ٢ . وتقدمت هذه الجموع نحو القسطنطينية ، فرحب بها الفيلسوس ٣ وأكرمها ، واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان . وكان اتباع بطرس قد اقاموا خارج اسوار المدينة ، فعاثوا في الضواحي فساداً ، وخرقوا حرمة الكنائس . فرأى اليكسيوس ان يجابههم بجيرانه الأتراك السلاجقة عبر البوسفور لعلمهم يفقهون . وما إن حطت رحالهم

١ - نفذ صبر الذين تجمعوا حول بطرس الناسك قبل أن تنهيا الجيوش النظامية للزحف الكبير ، وطلبوا منه أن يرأسهم ويقودهم الى الأرض المقدسة في الحال ، فاقسم القيادة مع والتر الفلس ، وتبعها جمع كبير بلغ على قول بعض المؤرخين ثمانين ألفاً فيهم كثير من النساء والأولاد (انظر التاريخ العام لير ص ٢٤٧) .

٢ - لم تكن الغنائم التي ارتكبتها الافرنج في انطاكية وبيت المقدس فيما بعد بأكثر هولاً من الأعمال الجنونية التي أقدموا عليها في بلغارية والمجر وجميع الأراضي التي مروا بها ضد السكان المسيحيين واليهود (انظر : 239 ، 230 . Michaud: Hist. des Croisades, T. 1. pp.) فقد نهبوا بلغراد وتيش وقتلوا في مدينة سمليين المجرية وحدها أربعة آلاف من المسيحيين (Albert d'Aix, Hist. Occid. IV, p. 296) ويروي المؤرخ المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى ودون رقائقها أمثلة كثيرة عما قاموا به في القسطنطينية حيث خربوا القصور والكنائس وأضرموا النار فيها وخلعوا الرصاص الذي كانت تغطي به الكنائس وباعوه للأغريق (انظر كتاب الجستا الذي عربه الدكتور حبشي بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ص ١٩ - ٢٠ و 310 Brehier: Vie et Mort de Byzance, p.) ويقول غروسه ان حملات العامة الأخرى التي قادها فولكار وغوتشالك وامبيخ لم تكن احسن حالاً من حملة بطرس الناسك وولتر الفلس ، بل « كانت كلها وصمة سوداء في تاريخ الحركة الصليبية » (Hist. des Croisades, T. 1. pp. 9. 10)

٣ - الامبراطور البيزنطي .



معركة على أبواب القسطنطينية بين الجنود البيزنطيين وجماعة بطرس الناسك ، لوحة من القرن الخامس عشر

في آسية حتى هاجموا الأتراك ، فبدد هؤلاء شملهم . فارعدوا وكفوا عن القبيح ، ورضوا أن يعودوا الى ضواحي القسطنطينية عززلاً^١ .

وتتابعت من بعد ذلك افواج الصليبيين ، فجاء غودفروا دي بويتون يجموعه ، وكان اليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه وسخائه فأكرمه ، ولكن غودفروا رفض مبايعة الامبراطور ، فتوترت العلاقات بين الاثنين ، وقلت المؤونة لدى اتباع غودفروا خارج اسوار العاصمة ، فلجأوا الى العنف ونهبوا بلدة سيلبر واحرقوا بلدة بير^٢ وارادوا اقتحام احد مداخل القسطنطينية ، فصددهم البيزنطيون بالقوة وتغلبوا عليهم ، فأخذوا الى السكينة . ودعا الامبراطور الزعيم الصيدي الى مأدبة اقيمت في القصر المقدس على شرفه ، فبايع غودفروا الامبراطور على الطاعة والولاء ، ومضى يجموعه الى آسية .

وأطل^٣ من بعده بوهيمند النورمندي الايطالي ابن غيسكار ، وكان قد حارب اليكسيوس في ألبانية واليونان ، فاعتور علاقته مع البيزنطيين في بادىء الأمر شيء من الفتور والحذر ، ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ، ونجاحه في التظاهر بالصدق والاخلاص ، عملت على ازالة الحذر والفتور بينها . وقد اغدق عليه الامبراطور فيضاً من الهدايا والأموال ، فسر^٤ بوهيمند وطلب إلى الامبراطور ان يدخل في خدمته ويتولى قيادة جيشه ، فوعده بالنظر في ذلك فيما بعد ، وواعد باقطاعه اراضي فسيحة في منطقة انطاكية ، فبادر بوهيمند حينئذ الى الدخول في طاعة الامبراطور وأقسم بيمين الولاء له .

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٦ .

٢ - Albert d'Aix M, pp. 299 , 308

ثم جاء روبري دي فلاندر فدخل لغوره في طاعة الامبراطور . اما ريموند دي سان جيل فانه رفض الدخول في الطاعة ، ثم أقنعه بوهيمند بذلك ففعل . الا ان تنكريد الصقلي نسيب بوهيمند الذي كانوا يسمونه « مرآة الفروسية » لم يرض ان يمر بالقسطنطينية او ان يقسم بين الولا والطاعة لعاهل الروم .

يقول الدكتور رستم : « وكان ينقص هؤلاء جميعاً فيما يظهر الشيء الكثير من آداب السلوك وحسن المعاشرة ، فكانوا يدخلون على الامبراطور في الصباح الباكر ولا يفارقونه الا في نهاية المساء ، متطلبين متطاولين ، او مسترشدين ، او متحدثين مسامرين . وكانوا في كثير من الاحيان متهتكين سفهاء ، خالعين برقع الحياء ، ضعفاء الارادة لا يمتنعون عن شيء مما يرغبون فيه ، متكلمين بما لا ينبغي ، متشدين ^١ » .

وقد ايقن العاهل البيزنطي بأن هؤلاء المغامرين لا يعنيه شيء من شؤون امبراطوريته ، وانه ليس من المستبعد ان يعملوا على تقويض البقية الباقية منها ، ولكن براعته الدبلوماسية كانت متكافئة مع المآزق الذي تورط فيه ، وقد استطاع ان يسيّرهم جميعاً بسلام ، عبر مضيق البوسفور ، دون ان تكون لديه اية نية في تسهيل عودتهم ^٢ .

وعانت تلك الجيوش ، بل تلك الموجة البشرية ، وهي في طريقها الى الاراضي المقدسة الواناً شتى من الشدائد والأحوال والأمراض والثورات والغزوات والمذابح ، وانشقاق بعضها على بعض ، والاشتباك في معارك جانبية مع جيوش المسلمين ، بحيث لم يصل منها الى بيت المقدس في

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٨ .

٢ - تاريخ العالم لمامرتن ج ٤ ص ٤٧٥ .

سنة ٤٩٣ هـ ١٠٩٩ م ، بعد تلك المآزق التي دارت عليها اسوأ مدار ،
الاخسة عشر الف مقاتل او اكثر قليلا .

وكان تمرد الجنود او هربهم من الجندية في احيان كثيرة ، حرياً بأن
يحول دون بلوغ الفرنجة هدفهم ، لولا ان القوى التركية كانت قد هزلت
بعد موت السلطان ملكشاه ، لما قام بين اعضاء الاسرة السلجوقية من
نزاع ، ولولا ان الفوضى في صفوف العرب لم تكن تقل عن الفوضى
السائدة في جيوش الافرنج ، ولولا ان هؤلاء كانوا يتلقون من الغرب
نجدات مستمرة ، ومن الاساطيل الايطالية مساعدات فعالة ، فسقطت في
ايديهم انطاكية وكانت في ايدي السلاجقة ، والقدس وكانت في ايدي
الفاطميين^١ ، وبعض القرى والقلاع ، كما استعاد الامبراطور البيزنطي
بمساعدهم مدينة نيقية التي كانت كقيلة بأن تهدد مواصلاتهم وامداداتهم
اذا ظلت في ايدي السلاجقة . وانتصار الصليبيين في نيقية كان اول
انتصار احرزوه في حملتهم فشجذ عزائمهم وبعث فيهم حماسة جديدة^٢ .
وكان العامل البيزنطي قد خشي ان يستأثر الصليبيون بالمدينة او ان
يعمدوا الى نهبها وتدميرها ، فأخذ يفاوض حاميتها على الاستسلام متعهداً
بالحفاظ على حياة السكان ، فما كادت تسقط حتى رفع رجال الحامية

١ -- كان الفاطميون قد استعادوا بيت المقدس من السلاجقة في سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٧ م
بعد سقوط انطاكية في ايدي الافرنج بشهر واحد ، وعرضوا على هؤلاء ان يعمدوا حلفاً معهم ،
ويقول جون هامرثن انهم « بذلوا لهم من الوعود لاعادة نظام الحكم القديم المنطوي على التسامح ،
والذي ظل وقتاً طويلاً كافياً لارضاء شعور الغربيين في العهود الماضية ، ولكن بيت المقدس
كانت قد أصبحت هدف الصليبيين ، وتحتم في نظرهم انقاذها من المسلمين ، سواء أكانوا من
المساعين أو من المتعصبين ، من الفاطميين أو من الأتراك » ، انظر : تاريخ العالم ، ج ٤
ص ٧٤٦ و ٣٦٣ ، ٣٦٢ . Michyud ; Hist. des Croisades, T. I. pp 362, 363

٢ -- Albert d'Aix, pp. 320, 321



الامبراطور اليكسندروس كومنينوس في لوحة قديمة تمثل في سفيرة السيد المسيح

المسلمون الأعلام البيزنطية على الأسوار^١ . ولم يكتف الصليبيون استيائهم من حسن معاملة امبراطور الروم لأسرى المسلمين واطلاقه سراح زوجة قلج ارسلان واولاده دون فدية .

وكانت قد انشعبت عن قوافل الحملة في آسية الوسطى جماعتان احدها بقيادة تنكريد والثانية بقيادة بلدوين ابن كونت بولونية ، سعياً وراء ايجاد شخصية لم يظفر بها الأميران في بلادها ، فاحتل الأول طرسوس بالتعاون مع سكانها الأرمن ثم تخلى عنها لبلدوين ، ومضى الى المصيصة سنة ١٠٩١ م فرحب به سكانها الأرمن ثم غادرها عائداً الى صفوف الفرنجة ، وانطلق بلدوين الى الرها (اورفا) بعد أن اشتبك جنوده بجنود تنكريد وكاد يفني بعضهم بعضاً ، فاستقبل أميرها الأرمني طوروس وأعلن نذنيه له وجعله وريثاً لعرشه ، فما لبث أن تأمر عليه مع خصومه الذين ثاروا على طوروس ونقوه ثم قضوا عليه لاعتناقه المذهب الارثوذكسي واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطي^٢ .

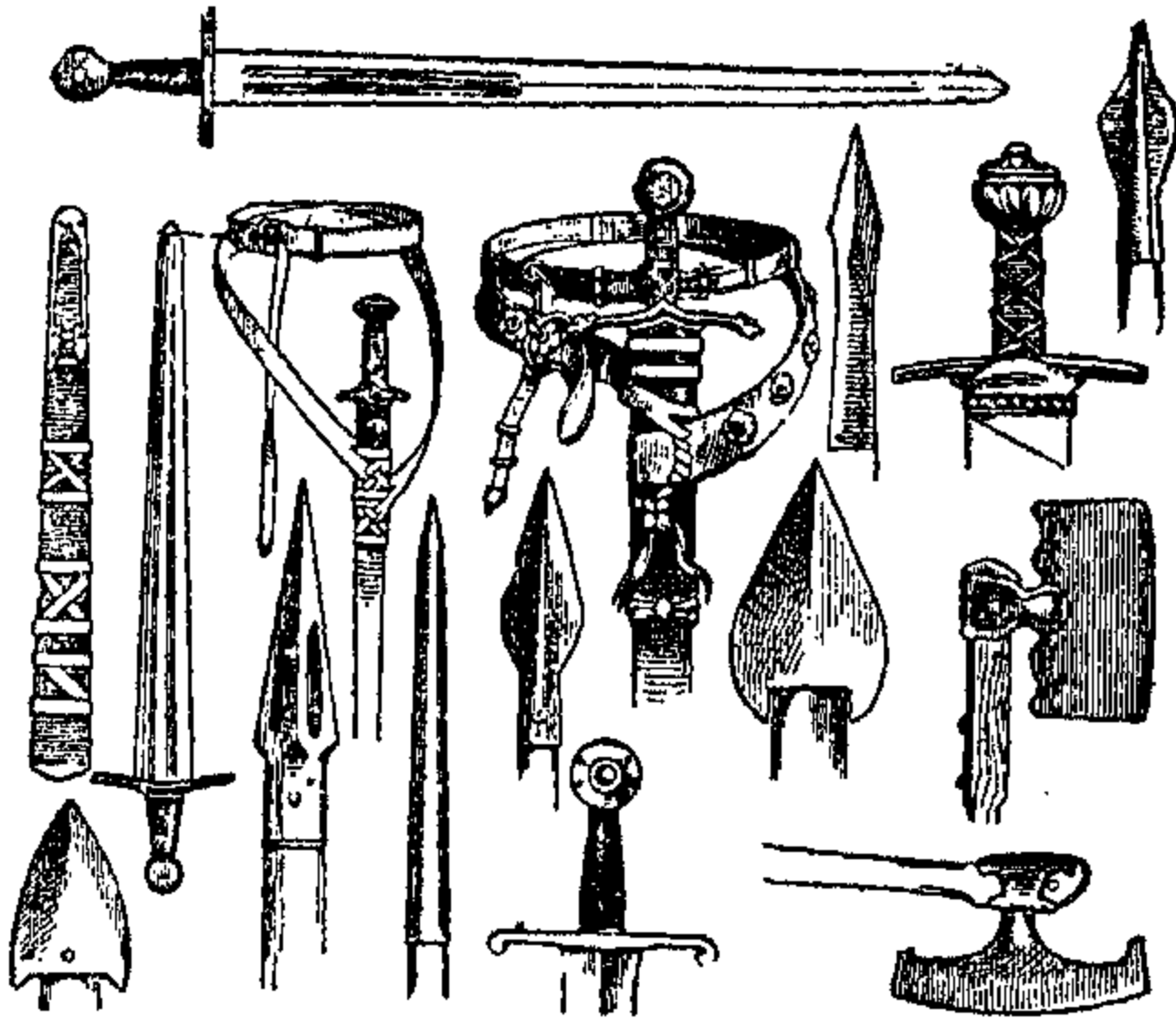
واستقل بلدوين بحكم الرها ، وتحلل من كل ارتباط بالعرش البيزنطي ، وأخذ يستولي على القرى والبقاع القريبة من ملكه ، واستقدم الأفرنج لتوطينهم في الرها وتسليمهم مقاليد الادارة ، مخافة ان تستيقظ الوطنية الأرمنية ، الا ان ايثاره الفرنجة على اهل البلاد هو الذي اثار كراهية المواطنين له وترحموا عن كراهيتهم لسياسته بتدبير مؤامرة لاغتياله^٣ ،

١ - Brehier Vie et Mort de Byzance. p. 312

٢ - Michaud: Hist. des Croisades T. I. p. 233

٣ يروي البير ديكس ان الأرمن قد اتصلوا بالارائقة سراً وطلبوا مساعدتهم في تلك المؤامرة : Hist Occident, p 443

وليس ادل على هذه الكراهية من ان قاتول ابا زوجته التي كان قد اقترن
 بها منذ بضعة اشهر - كان ضالماً مع المتآمرين - ونمي خبر هذه المؤامرة
 الى بلدوين فأخذهم اخذ جبار منتقم ، فألقى القبض على المتآمرين ومثل
 بهم غداة عيد ميلاد سنة ١٠٩٨ وسمل اعين البعض وجدع انوف آخرين ،
 وصادر كثيراً من املاكهم واموالهم ، وفرض على بعضهم غرامات كبيرة ،
 فهدأت الأحوال واستقرت الأمور ، اما قاتول فقد ادرك ان خيره في
 البعد عن الرها . وهكذا اسدل الستار على اول فصل من فصول الحملة
 الصليبية التي كشفت القنصاع عن ان الفكرة الدينية لم تكن هي التي



طائفة من الأسلحة التي استخدمت في الحروب الصليبية ، وتشاهد بينها
 السيوف والسواطير والسهام والرماح والقضبان

تحرك هذه الجماعات الاوربية التي زعمت ان تخليص بيت المقدس هو هدفها . وان تاريخ الرها ليدل على ان اهلها المسيحيين والأرمن لم يصادفوا من الاضطهاد والقتل مثل ما صادفوه خلال العام الذي تولى شؤونهم فيه بلدوين الفارس الصليبي والمسيحي الأوربي^١ .

اما انطاكية درة الشرق يومذاك فكان يحكمها الأمير السلجوقي ياغي سيان ، وهي من اقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، فلما شارفتها قوات الافرنج امتنع ياغي داخل اسوار المدينة الحصينة ودعا كل قادر على القتال الى المساهمة في اعمال الدفاع . يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وكان فريق من النصارى السوريين والأرمن - بخلاف ما قد يتبادر الى الذهن - عوناً للحاكم السلجوقي على الجيش الصليبي . فحملوا الى ياغي سيان كميات كبيرة من الخنطة والشعير والعلف والزيتون ، واشتبك بعضهم في قتال الافرنج الذين كانوا يعتمدون على اولئك النصارى ، ويعتقدون انهم سيكونون حلفاء لهم في تلك الحرب الدينية^٢ . »

وكان في وسع القوات العربية والاسلامية لو زحفت لنجدة انطاكية من حلب ودمشق والموصل وبغداد ، ان تحاصر القوات المفيرة وتقضي عليها ، بعد ان طال وقوقها امام اسوار انطاكية وقتك الجوع بكثير من افرادها ، حتى ان بطرس الناسك ووليم النجار حاولا الهرب هرباً وجماعة من اتباعها فتعقبهم تنكريد واعادهم الى المعسكر الصليبي عنوة .

١ - الحرب الصليبية الاولى ص ١٠٨ - ١٠٩ .

٢ - غبار المعارك ص ٥٨ .

ويروي المؤرخ المجهول صاحب الجستا قصة ذلك بقوله : « ادت هذه النكبة الجسيمة والضيق البالغ الى تسلل وليم النجار وبطرس الناسك سرأ ، فمضى تنكريد في آثارهما وامسكهما ورجع بهما وهما في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالطاعة ، واقسما له الإيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية الى المعسكر ، وانهما سيعتذران للسادة . واقام وليم طول الليل في فسطاط بوهيمند مقيد الطرف الى الأرض وهو اذل من المهانة ، فلما تنفس صباح اليوم التالي مَثَل امام بوهيمند وقد احمر خجلا ، فخاطبه بوهيمند بقوله : « ايها الشقي ، يا خزي فرنسا ويا عار جميع الغالين واشدهم إثماً ، ويا اشقى من حملته الأرض ، لما اذا هربت على هذه الصورة الخزية ؟ اتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل في اسبانية ؟ » فازم وليم الصمت المطبق ولم تنفرج شفتاه قط عن اية كلمة ، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريباً متوسلين الى السيد بوهيمند ألا يشتد اكثر من هذا في ايلامه ، فأجاب سؤا لهم وقال : « ان حيي اياكم يحملني على تلبية طلبكم عن طيب خاطر إذا اقسم لي قسماً خالصاً من قلبه وروحه ألا يجيد عن طريق بيت المقدس سواء في الفرج او الضيق ، وكذلك اذا قبل تنكريد ورجاله المفوع عنه » فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضي ، وسرعان ما رده بوهيمند ، على انه حدث فيما بعد ان افترس الخزي وليم النجار فما لبث ان هرب واختفى . »

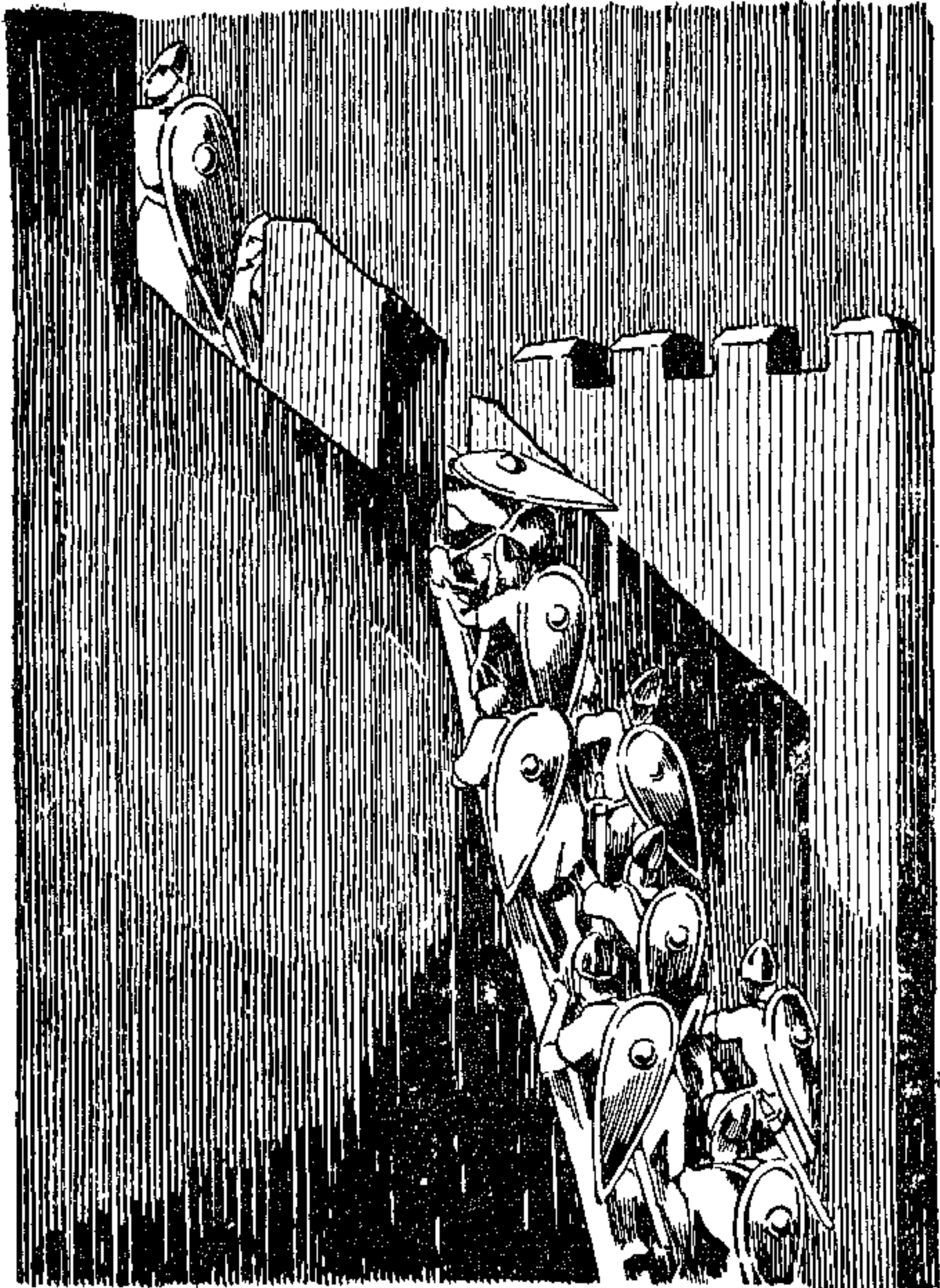
وقد وصلت النجدات الاسلامية متأخرة ومتفرقة ، فالتقى جيش دقاق امير دمشق وأتابكه طغتكين بقوات بوهيمند وروبرت كونت فلاندر على مقربة من شيزر فعانى جسم الخسائر وارتد مذعوراً الى

حماء . وجاء رضوان امير حلب يجيشه ومن انضم اليه من سنجار وشيزر وحماة وحمص ، وعسكر في مرج دابق شرقي انطاكية ، وقام بمحاولة جريئة لشق طريق له الى قلب المدينة ، وكان الفرنجة قد علموا بمقدمه وكنوا له ، فأنزلوا به خسائر فادحة وتعقبوه حتى حارم . ثم تحركت الخلافة العباسية فأنفذت جيشاً كبيراً بقيادة قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل ، ولكن كربوقا لم يشخص الى انطاكية مباشرة بل اراد ان يمرّ بالرها فيفتتحها ثم يمضي منها الى انطاكية ، وامتنعت الرها عليه ، فقادرها واتجه الى هدفه الأول ، وبينما هو في الطريق سقطت انطاكية في ٣ حزيران (يونيه) ١٠٩٨ (٤٩٢ هـ) إثر خيانة ارمني يدعى فيروز كان ياغي قد وثق به وعهد اليه بحراسة حصن رئيسي من حصون المدينة يسمى « حصن الأختين » فسلم الحصن الى الافرنج و نفذوا اليها منه بعد ان صعدوا اليه على سلم مثبت الى اسوار المدينة تثبيتاً قوياً . وقد اختلفت الروايات في الأسباب التي حملت فيروز على ذلك ، فقالت المصادر العربية^١ انه كان غاضباً على ياغي لمصادرتة بعض امواله ، وقالت المصادر الافرنجية^٢ انه اكتشف خيانة زوجته له مع احد امراء الاتراك فعمل على الانتقام منهم . اما صاحب الجستا فقال ان حارس الحصن تركي يدعى بيروش وانه كان يشرف على حراسة ثلاثة حصون لا حصن واحد^٣

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ - ١٣٦ انظر ايضاً : الكامل ج ١٠ صفحة ١٨٧ والمختصر في تاريخ البشر ج ٢ صفحة ٢٢٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ صفحة ٢٠ .

٢ - Guillaume de Tyr (historiens des Croisades, T. 1. p. 221) -

٣ - انظر : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٦٦ - ٧٠ وفيه تفصيل احتلال الفرنجة لانطاكية .



الفرنجة يتسلقون أسوار انطاكية

وقد غادر ياغي المدينة هارباً بعد المذبحة التي وقعت فيها فقتل في الطريق ، بينما تحصن ابنه شمس الدولة في القلعة .

ومن اطرف ما يَصوِّر الأحداث التي رافقت احتلال انطاكية النوحه البارعة التي رسمها الاستاذ جاماتي بقوله : « احاطت تلك المرحلة من مراحل الحرب الصليبية الاولى سلسلة من الخيانات ، لولاها لتغير مجرى الحوادث ووجه التاريخ .. فقد احتال بوهيمون على قومه للفوز بامارة انطاكية وخان الصليبيون امبراطور بيزنطة الذي تعهدوا له بتسليمه المدينة بعد اخذها فأعطوها لرفيقهم بوهيمون . وخانت زوجة فيروز زوجها فأثارت حفيظته على ياغي سيان . وغدر ياغي سيان بصديقه فيروز فحملة على خيانتة وفتح المدينة للصليبيين . وخان فيروز سيده وقومه وحالف الأعداء ومكثهم من الاستيلاء على انطاكية . وتخلى غلمان ياغي سيان عن سيدهم فاغتاله الارمن وارسلوا رأسه الى اعدائه . واخيراً حنث بوهيمون بالعهد مع فيروز فلم يعينه في المنصب الذي وعده به ثمناً لحياتة . واما الزوجة الخائنة فقد قتلها زوجها الخائن بيده . واختفى فيروز وانقطعت اخباره عن الناس ، ولم يبق على قيد الحياة من ابطال هذا الحصار ، الذي كانت الخيانة محور حوادثه ، غير بوهيمون امير انطاكية ١ ! »

ولما وصلت قوات كربوقا بعد ثلاثة ايام حاول شمس الدولة منعه من الدخول اليها ، واخذ يفاوضه في ذلك ، فلم يصنع كربوقا اليه ، وبادر الى احتلال القلعة ومحاصرة المدينة ، وشدد عليها الحصار حتى اكل الناس الميتات والكلاب ٢ وتولى الاقرنج اليأس ، وعمت الفوضى

١ - غبار المعارك صفحة ٦٠ .

٢ - منتخبات من تاريخ حلب صفحة ٥٨٢ .

صفوفهم ، وبدأ الكثيرون منهم يتسللون هرباً من المصير المظلم ، وكان بين هؤلاء الهاربين عدد من الأمراء والقادة ، وتحرك الامبراطور البيزنطي لنجدتهم ، الا انه ما لبث ان عاد يبيشه الى القسطنطينية دون ان يلتحم مع المسلمين في قتال حين التقى بأحد الهاربين من انطاكية فزعم له ان المسلمين قد استعادوا انطاكية وأبيد الصليبيون جميعاً .

والواقع انه لم ينقذ الصليبيين من الامادة الا الفرقة التي دبت في صفوف المسلمين والقنافر الذي وقع بين الاتراك والعرب^١ ، وإلا رؤيا الحربة المقدسة التي طُعن بها السيد المسيح ، إذ ادعى أحد افراد الحملة ويدعى بطرس بارتلميو ان القديس اندراوس تجلى له في المنام مرات متعددة قائلاً له ان الحربة التي طُعن بها السيد المسيح مدفونة في كنيسة القديس بطرس بانطاكية ، وأمره بأن يمضي الى المعسكر لينبئ الصليبيين بأن جميع القديسين سيحاربون الى جانبهم ، ولن يُغلب قوم قط يحملون هذه الحربة معهم .

وعلى الرغم من اعتقاد المسيحيين بأن في القسطنطينية حربة يذهبون الى انها الحربة المقدسة ، فإن مؤرخي الفرنجة يؤكدون رؤيا بارتلميو ، ويقولون ان عدداً من قادة الصليبيين رافقوه بعد تردد كبير وجدل عنيف ، الى كنيسة القديس بطرس ، وحفروا حيث أشار عليهم ، فوجدوا الحربة امام جمهور غفير^٢ ففرح الجميع وعمت البهجة المدينة .

أما مؤرخو المسلمين فيذهبون الى ان دهاء ريموند الصنجيلي هو الذي

١ - العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ص ٢١

٢ - Chalandon : Hist . de la première Croisade , pp , 216 - 218 واعمال

الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٨٢ - ٨٣

تفتق عن اسطورة الحربة ليُنهض بها من عزائم الصليبيين « فرتب مع راهب حيلة ، وقال له : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، ثم قل للفرننج بعد ذلك : رأيت المسيح في منامي وهو يقول : في المكان الفلاني حربة فاطلبوها ، فان وجدتموها فالظفر لكم فهي حربتي ^١ .. »

ومها يكن من أمر ، فان ظهور الحربة قد جدد حماسة الصليبيين وألّب خيالهم ، فكثرت الرؤى بينهم وتعددت الاساطير ، فرأى احداهم السيد المسيح يقول له : « اذهب الى شعبي وقل له ان يعود لي وسأرجع انا اليه ، ودونه خمسة ايام سأبعث اليه بعدها بنجدة عظمى ، وشاهد بعضهم ناراً سماوية تقبل من الغرب وتدنو حتى تسقط بسين جيوش المسلمين . فأعاد ذلك الاطمئنان الى نفوسهم ، وتنادوا الى القتال من جديد ، وانتهزوا ما ذكرناه آنفاً من خلاف امراء المسلمين وقادتهم ، وخرجوا لقتالهم لتقدمهم الحربة المقدسة .

ويروي ابن العديم وابن الأثير ان بعض القادة اشاروا على كربوقا بالألا يمكن الافرنج من الخروج بأجمعهم ، وإن يقتلهم متفرقين كلما غادر المدينة نفر منهم ، فان امرهم وهم متفرقون سهل ، إلا انه لم يلق اليهم سمياً ، وقال : أمهلهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ^٢ . !

ويقول الدكتور حبشي ان كربوقا « حال بين عسكره وبين الوثوب على الصليبيين حين خروجهم قرادى ، مؤثراً ان يلقاهم جمعاً رتيباً

١ - - النجوم الزاهرة لابي المحاسن ، ج ٥ ص ١٤٧ - ١٤٨
٢ - - منتخبات من تاريخ حلب ص ٥٨٣ ، الكامل ج ١٠ ص ١٨٨

كانه في حفل فروسية^١ ، فكان ذلك سبباً في انكساره وهزيمة جيوشه^٢ أما صاحب الجستا فإنه يؤكد ان سبب النصر الذي احرزه الإفرنج في ذلك اليوم المشهود هو ان السيد المسيح قد انجدهم بقوات لا تحصى انطلقت من ناحية الجبل بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمثري وهي تمتطي صهوات جياذ بيضاء وفي ايديها رايات بيض^٣ .

واختلف قادة الحملة في مصير انطاكية ، فقد اراد الاستئثار بها كل من بوهيمند وريموند دي صنجيل ، ودعا غيرهما الى تسليمها لامبراطور بيزنطية وفاءً بالعهد الذي قطع له ، واشتد النزاع بين الامراء والكونتات ، وأدى ذلك الى تأخر مسيرة الحملة الى بيت المقدس تسعة اشهر كان الإفرنج خلالها يكتفون لأنفسهم في أنحاء سورية ، ويحتلون القرى والمواقع القريبة منهم ، ويغيرون على المناطق الشمالية .

وقد استطاع بوهيمند ان يفرض سلطانه على معظم أنحاء انطاكية وحصونها ، واستقدم اليها لهذا الغرض جالية كبيرة من جنوة ، وكان قد استمد لهذا الأمر واحتاط له منذ بدء المعركة ، وعمل على استفزاز تاتكيوس القائد البيزنطي وحمله على مغادرة تلك المنطقة متهماً اياه بالتآمر مع الاتراك وخيانة القضية الصليبية في الخفاء^٤ بقصد التحرر من

١ - الحرب الصليبية الأولى ص ١٤٤ انظر ايضاً : الكامل ج ١٠ ص ١٨٨ والمختصر

في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٢١

٢ - لم تكن هذه هي الهفوة الاولى التي يقع كربوقا فيها امام اسوار انطاكية ، فقد روى ابن القلانسي وابن العبري انه لما اشتد الحصار على الصليبيين داخل المدينة اخذوا يفكرون في الاستسلام ، ولكن كربوقا رفض ان يعطيهم الامان ليخرجوا من انطاكية ، وقال لهم : لا تخرجون الا بالسيف . (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦)

٣ - اعمال الفرنجة وحمياج بيت المقدس ص ٩٣ - ٩٤

٤ - الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٦

العمود التي قطعت للعامل البيزنطي بإعادة انطاكية له بعد الاستيلاء عليها .

وتولى غودفروا باسم اخيه بلدوين أمير الرها بعض المدن التي تم لبلدوين فتحها مثل تل باشر وراوندان ، وقد استعان به عمر أمير عزاز ضد مولاه رضوان صاحب حلب ، ويقول ابن العديم ان السبب في ذلك هو ان احد قواد عمر احب أرملة من اللورين فلما نشب الخلاف بين عمر ورضوان طلبت منه ان يحمل عمر على نشدان المعونة من أميرها غودفروا ، ففعل ذلك^١ ، وانجده غودفروا وريموند الصنجيلي لما في ذلك من توطيد لدعائم الحكم الصليبي في الأرض السورية وه الاعتراف الصريح بخطورة شأن الصليبيين في بلاد الشام وتفكك القوى الاسلامية ، وهو ما يهدف اليه الصليبيون^٢ .

واحتل ريموند خلال ذلك مدينة البارة واسكن فيها جماعة من الاوربيين ، ثم هاجم معرة النعمان وناصره في ذلك بوهمند وروبرت كونت فلاندر ، وبعد حصار دام عدة اسابيع عمد بوهمند الى انفراده بالعمل في دخول المدينة المغلوبة كما فعل من قبل في انطاكية^٣ ، فبعث من ينادي بين أهل معرة النعمان بالامان إن هم استسلموا اليه دون غيره من القادة ، وقطع على نفسه العهد ببسط حمايته عليهم وأمنهم على أرواحهم واموالهم ، ودلهم على مكان يلوذون به فلا ينالهم ضر ولا يمسهم اذى ، فصدق البعض قوله ، وذهبوا الى حيث اشار ، الا ان

١ - منتخبات من تاريخ حلب ص ٨٦ هـ

٢ - الحرب الصليبية الاولى ص ١٥٤

٣ - كان بوهمند هو الذي اتصل به فيروز لتسليمه حصن الأختين .

بوهيمند ما لبث ان نكث بعهدہ وقتلہم ، غير مستثنى سوى النساء والاطفال حيث بيعوا أسرى^٢ ،

ويقول الدكتور سعيد عاشور : « ان الشيء الذي يسترعي العجب حقاً ، هو ان المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل ان الفاطميين في مصر فكروا في مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التي ظهرت في بلاد الشام ، ضد خصومهم من اهل السنة ، اعني الخلافة العباسية في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١) والاشهرين سنة الأولى من حكم الخليفة الأمر ، أي حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم ادراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من انه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة - اعداء الدولة الفاطمية الألداء - فكر في ان يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون انطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين . ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وانما انتهز فرصة الفوضى التي أصابت العالم الاسلامي في الشرق الأدنى في اواخر القرن الحادي عشر نتيجة لوصول الصليبيين ، وأرسل جيشاً تمكن من فتح بيت المقدس . وفي تلك الاثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت الى معسكر الصليبيين أمام انطاكية . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الاسلامي على نفسه في ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعاً ، الأمر الذي

١ - الحرب الصليبية الاولى ص ١٥٩ - ١٦٠ . انظر ايضاً : الكامل ج ١٠ ص ١٩٠

مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على ايدي الصليبيين . ومهما يكن من أمر فقد صبح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الاتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي واقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من ارسال نجدة لأقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكاً للاتراك السلاجقة في اشد الاوقات حرجاً . هذا فضلاً عن ان السفارة التي ارسلها الفاطميون الى الصليبيين عند انطاكية اكسبت اولئك الاخيرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من اركان العالم الاسلامي .

وكان الحجاج المسلحون قد بدأوا يتدمرون من طول لبثهم في انطاكية وضواحيها ، ويستحثون قادتهم على معاودة المسيرة الى بيت المقدس ، والقادة غارقون في الخلافات الشخصية يحاول كل منهم الاستئثار بما وضع يده عليه ، وقد تجلت حقيقة بوهيمند بنوع خاص لجميع افراد الحملة فأدركوا انهم انما يبذلون دماءهم في سبيل تحقيق اطماعه ، وتحولوا عنه الى ريموند دي صنجيل كونت تولوز وولتوه قيادتهم في الزحف على بيت المقدس . ولما خرج ريموند من معرة النعمان يوم ١٧ صفر ٤٩٢ هـ ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٠٩٩ حياي القدمين ، تمثلاً بالسيد المسيح ، في طريقه الى القبر المقدس ، تخلتف عنه جميع امراء الحملة ، مؤثراً كل منهم ان يتولى الحكم في احدى المناطق التي دانت لهم ، مما

عزز مكانته لدى الصليبيين وزاد من التفافهم حوله ، وحين بدأ بعض الامراء يلحقون به وهو على ابواب فلسطين ، كان قد انتزع حقه في زعامة الحملة .

ولم تتعرض الحملة في طريقها لمقاومة تذكر ، وقد استولت على جميع المدن والقرى الساحلية ، وكان الامراء والولاة المسلمون يتجنبون الاصطدام بها ويلجأون معها الى المداورة والمصانعة ، حتى ان ابا علي فخر الملوك ابن عمار صاحب طرابلس لم يتردد في اهداء ريموند دي صنجيل عشرة جياذ واربعة بغال وبعض الذهب ، ودعوته الى المودعة والاتفاق والارتباط برباط المودة إذا احب^١ ولكن هذا الموقف لم ينقذ طرابلس حين علم الافرنج ما هي عليه من ازدهار وثراء ، فاحتلوا بعد حصار طويل ، ويقول محمد كرد علي ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بجرأ من مصر جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم باسم الخليفة الفاطمي جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لصنع آلات الطرب^٢ . ثم احتل الفرنجة بيروت ، ولم يلقوا مقاومة الا من اهل صيدا^٣ ، الا انهم سرعان ما

١ - اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ١٠٧ ، ونحن لا نعتقد بان موقف ابن عمار هذا يمكن ان يوصف بالتخاذل كما رأى الدكتور حبشي (الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٠) ولكننا نرى رأي محمد كرد علي الذي قال : « كان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن في دفع عادية الصليبيين عن بلده ، لم يترك باباً من ابواب الخلاص ليصدم عن طرابلس إلا طرفه حق دفعهم بعقله وحسن ادارته عن تملكها عشر سنين . وكان في طريق رجعتهم كالحسكة في الحلق ، وفي معاملة ملوك الأطراف نموذج الدهاء السياسي ، وهو على صغر جرم مملكته يطاول ويجاول وينازل ويصاول ويلين ويقسو » - خطط الشام ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

٢ - خطط الشام ج ١ ص ٢٩٢

٣ - Guillaume de Tyr , pp . 311 - 312

قضوا على هذه المقاومة وتابعوا مسيرتهم الى بيت المقدس مروراً بصور
وعكا واللد والرملة .

وقد كان غودفروا دي بوثيون اسبق زملائه الى بلوغ الحجّة التي
اليها يهدفون ، فشاركها يوم الثلاثاء في ٢ رجب ٤٩٣ ٧٨ ايار (مايو)
١٠٩٩ م وضرب لحصار عليها ، ولحق به الامراء الآخرون فأحاطوا
بالمدينة من كل جانب ، واخذوا يضيقون الخناق على حاميتها ويرمونها
بالتجنيق .

وعهد افتخار الدولة الحاكم الفاطمي في القدس ، بحراستها الى جماعة
من العرب والسودان^١ ، فتفانى الفريقان في القتال ، ثم وافى الى يافا
اسطول جنوي لنجدة الافرنج ، حاملاً معه ما هم في حاجة اليه من
الذخائر والاقوات والعمال ، فأنشأوا المزيد من آلات الحصار والأبراج
المتحركة ، وجددوا الهجوم على المدينة الصامدة .

ويروي ابو المحاسن ان الافرنج صنعوا برجين متحركين للوصول بها
الى اسوار المدينة ، وقد زحفوا بالأول الى باب صهيون فأحرقه المسلمون ،
ثم انطلقوا بالثاني نحو باب العمود فالصقوه بالسور وحكوا به البلد
وكشفوا من كان على السور من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية
رجل واحد ، فانهمزم المسلمون^٢ .

وقد اقتجم الفرنجة القدس في ١١ رمضان ٤٩٣ ١٤٨ تموز (يولييه)
١٠٩٩ ، وأعملوا في اهلها السيف ، في وقائع لا تحب ان نروي تفاصيلها

١ - الكامل ج ١٠ ص ١٩٤

٢ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨



احتلال بيت المقدس

وقد استنكرها مؤرخو الفرنجة انفسهم^١ .
ويقول الاستاذ نقولا زيادة : « والحمة الصليبية الأولى ، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليس مما يُشرف . وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين انفسهم ، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الأردن ، وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية او في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين^٢ . »
وكان يتنازع على حكم القدس : البابوية التي تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة الى سيطرتها على الكنيسة الغربية ، والمدن الايطالية التي قامت بنقل الجنود والأمداد على سفنها ، وبيزنطية التي كانت تريد استعادة مستعمراتها في الشرق^٣ ، وهكذا اختلف الصليبيون اولاً على شكل الحكم هل يكون دينياً او مدنياً ؟ ثم اتفقوا على انها وان كانت « مدينة الرب » فلا بد لها من رئيس يدير شؤونها . واختلفوا ثانياً عن يكون ذلك الرئيس الذي تُسلم اليه مقاليد الحكم ، وكانت التنافس على أشده بين غودفروا وريموند الصنجيلي ، وقد فضل الأمراء غودفروا على منافسه ، لأنهم كانوا يريدون ملكاً لا يطمح عليهم ويستأثر بالسلطان من دونهم . وتولى غودفروا دي بويتون عرش بيت المقدس ، ولكنه رفض ان يعتمر بتاج من الذهب حيث اعتمر السيد المسيح بتاج

١ - انظر Matthew : Chronique ، Gronsset; Hist: des Croisades, T. I, p 165
p 226 و p 334 - 357 Lavriss et Rambaud: Hist, Général II, p359 Guillaume de tyr, pp 334 - 357
« اعمال الفرنجة وسجاج بيت المقدس من ١١٨ - ١١٩ » تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ١ ص ٤١٤ ، تاريخ سوزية للطوائف يوسف الدبس ص ٣٣ والانسكلوبيديا للبريطانية مادة الحروب الصليبية بقلم باركر .

٢ - مجلة المقتطف ، عدد تموز (يوليو) ١٩٣٥ ص ١٩٥ .

٣ - الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجيد صفحة ٢٨ .

من الشوك^١ ، وأصرّ على أن يكون لقبه « حامي بيت المقدس » . ثم اجتمع رجال الكنيسة واختاروا ارنولف مالكورن بطريركاً ، فوجه اهتمامه الى اصدقاء صبغة كاثوليكية لاتينية على كرسي بيت المقدس ، واستبعد القساوسة الارثوذكس من كنيسة القيامة بما اثار استياء المسيحيين المحليين^٢ .

وتحركت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة عاملها في القدس ، وشعورها بخطورة المركز الذي اسسه الافرنج لانفسهم في الشرق ، واحتمال تحوله في المستقبل الى قاعدة عسكرية للزحف على مصر وغيرها من البلدان المجاورة . ولكن تحركها جاء متأخراً ، وقد تسربت الى الفرنجة انباء تجمع قواتها في عسقلان بقيادة سعد الدولة النواصي^٣ ، فتنادى امرؤهم لدره الخطر ، وباغتوا تلك القوات في معسكراتها قبل ان تستعد للقتال وتأخذ أهبتها له ، فتمزقت وتشتتت وهرب قادتها الى مصر^٤ ولاذ من بقي باحدى الغابات فأضرم الافرنج النار فيها فأتت عليهم^٥ .

وفي عسقلان سقطت الأقنعة عن الخصومة الدفينة بين ريموند الصنجيلي وغودفروا ، فقد أراد ريموند الاستيلاء على المدينة لينشئ فيها امانة خاصة به ، فصارحه غودفروا بأن هذه المدينة لن تكون الا تابعة لبيت المقدس ، وقد ساعد هذا الخلاف على نجاة عسقلان من الاحتلال الصليبي ، لأن غودفروا فضل التخلي عن المعركة على أن يستولي ريموند على المدينة ،

١ - Michaud: Hist. des Croisades T. I, p 436

٢ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٥٢ نقلا عن Runciman, T. I, p. 294

٣ - الهجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ - ١٤٨ .

٤ - ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

٥ - أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

كما ان ريموند أثر بقاءها في أيدي المسلمين على ان تدخل في ممتلكات غودفروا .

ولم تنقض فترة قصيرة بعد عودة غودفروا الى القدس ، حتى ساءت صحته ولفظ أنفاسه الأخيرة متأثراً بجرح كان قد أصابه امام مدينة عكا ، ونهض كل أمير ينبغي أن يخلفه في الحكم ، كما حاول البطريرك دايمبرت الذي خلف مالكورن أن يحول السلطة المدنية الى سلطة دينية ، وكاد النزاع بين الفرقاء المتعددين يؤدي إلى الصدام المسلح ، لولا أن حسم هذا النزاع بلدين أمير الرها وشقيق غودفروا الراحل الذي قدم الى القدس على رأس جيش كبير ، بعد أن عهد بشؤون الرها الى قريبه بلدين دي بورج ، ففر الزعماء المتنازعون وأعلن بلدين نفسه ملكاً على بيت المقدس ، وجاء الأمراء والبطاركة بعد ذلك فأعلنوا ولاءهم له . وكان بلدين يقلد ملوك الشرق ، فيرتدي الثياب العربية ، ويرسل لحيته ، ويتناول طعامه على الأرض^١ ، كما فعل زميله تنكريد الانطاكي فيما بعد إذ كان يسك النقود وعليها صورته وهو في زي عربي^٢ .

وهكذا غدت بيت المقدس في سنة ١١٠٠ هـ ١١٠٠ م مملكة لاتينية ، بالإضافة الى امارات الفرنجة في انطاكية وطرابلس والرها ، وكان لمملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الامارات ، وانما تزيد هذه الرئاسة او تنقص تبعاً لشخصية المهيمن على شؤون تلك المملكة^٣ ، الا ان النزاع بين الفكرتين العلمانية والاكليركية استمر حتى سنة ١١٠٣ هـ ١١٠٣ م حين

١ - الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٢٨ .

٢ - حضارة الاسلام لجروينباوم ترجمة جاويدا، وعبادي ص ٨٢ .

٣ . نور الدين والصليبيون للدكتور حسن حبشي ص ٩ .



غودفروا دي بويون أول ملوك الفرنجة في المشرق
وقد وضع على رأسه اكليلاً من الشوك

عزل بلدوين نائب البابا ، ثم بُعث في عهد بلدوين الثاني (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ ١١٢٨ - ١١٣٠ م) « غير انه ختم بموت النائب البابوي الثالث ، وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية . وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة بين رجال الحملة من الصليبيين رغم دعوى قيام الوحدة الدينية بينهم ^١ ، كما ان النزاع والتنافس الناشئ عن تعدد العناصر التي تُحكّم تلك الدويلات ، لم يخفف أثرهما قط من مسرح الأحداث ، فقد كانت القدس والرها في ايدي البرغنديين ، بينما كانت انطاكية في ايدي النورمنديين ، وطرابلس في ايدي البروفنسيين ، فكان ذلك من عوامل انهيارها فيما بعد .

أما بقية المدن الساحلية فقد ظلت تقاوم مدة أطول ، معنصمة وراء أسوارها ، ومعتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر ، وقد استعان الصليبيون عليها « بالسفن الايطالية التي كانت تنقل الحجاج ، وقد أدرك أصحابها ان امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح أسواقاً جديدة وموانئ حرة لبضائعهم ^٢ ، ولما انهارت مقاومة تلك المدن أخيراً تحولت الى مستعمرات اوربية انشأت فيها مارسيليا والمدن الايطالية أحياء برمتها ^٣ . وكانت جنوة وبيزة تبعثان كل سنة بمراكب جديدة الى ثغور الشام ^٤ تحمل السلاح والرجال .

★

وقد سجلت الاقطاعية الاوربية بتلك الأحداث الخطيرة اعظم

١ - العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ، ص ٢٤ .

٢ - تاريخ العرب لحتي وجرجي وجبور ج ٢ ص ٧٥٧

٣ - خطط الشام ج ١ ص ٢٧٨ .

٤ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٤ .

انتصاراتها ، ولم يمض وقت قصير حتى تأسست حول بيت المقدس امارات افرنجية عديدة ، وبقيت قصور محصنة على الطراز الفرنسي ، وبدأ الفرنجة يتطلعون الى افتتاح دمشق لأن طريق الحرير والأفوابه تمر منها .

ومرت الأعوام والحروب مستمرة بين الفرنجة والبيزنطيين والأتراك والعرب . « وفي معمان الفوضى والاضطرابات السائدة اعتاد الناس على سرعة تبدل الحكام والأسیاد ، الروم والأتراك والعرب والافرنج ، ولم يعودوا يهتمون بجنسية من يحكمهم ^١ ، وما لا شك فيه : « ان عدد الحروب والمناوشات بين الدول الاسلامية المتنازعة كان يعادل عدد الحروب بين الدول الاسلامية والدول النصرانية ، وربما كان عدد الحروب الأهلية بين الأمراء النصارى لا يقل عن عدد الحروب بينهم وبين المسلمين ^٢ . « الا ان الامارات الافرنجية كانت تتحالف فيما بينها أحياناً ، ضد تحالف اسلامي ^٣ ولكن لم يقم بين الدول الاسلامية تعاون تام لطرد الغربيين ، ولم تستطع خلافتنا بغداد والقاهرة المتنافستان ان تتفاهما بتاتا ، وكانت المحالفات والحروب كثيراً ما تتعارض مع المصلحة الدينية ^٣ . «

وقد شغفت هذه الحروب الاقطاعية الاوربية ، ووجدت الفروسية فيها مجالاً واسعاً للمغامرات والبطولات والفنائم . وكان طبيعياً ان انشاء الدولة اللاتينية في القدس لن يضع حداً لتلك الحروب ، فالأتراك لم يلقوا سلاحهم بل كانوا ما يفتأون يهاجمون هذه الدولة ، يناصرهم في ذلك العرب سكان البلاد ، وكثيراً ما كان النصر يكمل الهجمات التي يقومون

١ — دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا زيادة صفحة ١٠٦ .

٢ — المرجع السابق ص ١٠٧ .

٣ — المرجع السابق ص ١١٢ .

بها ، والفرنجية لم يكتفوا بما اصابوا من نجاح ، بل ظلت المطامع التوسعية تراوهم فيزحفون تارة نحو الشرق ويغيرون تارة على الجنوب ، حتى لم يبق مدينة او قرية في بلاد الشام إلا وأصيب بعض اهلها وتجارها بألواخهم وأموالهم . والبيزنطيون يصرون على المطالبة بما يسمونه الممتلكات البيزنطية الشرقية ، فيتابعون حروبهم مع الأتراك ويشتبكون احياناً مع الفرنجة .

قال باشوليه ودزبوري في قاموسها الجغرافي التاريخي : « وقد عوضت الخسارة المادية التي اصابته المسيحيين بانتصارات باهرة في النظام السياسي والادبي ... وكذلك نال القنّ الذي حمل الصليب حريته الشخصية ، وانتشرت الملاحة وارتفع شأنها فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التي اكثرت من مراكزها التجارية في البحر المتوسط ١ ، وقد حصلت هذه المدن على ارباح تجارية عظيمة بتوطين جماعات من اهلها في موانئ سورية وفلسطين وكان لها احياء خاصة فيها ٢ ، واستفادت الصناعة والزراعة ايضاً بما عرفه اهل اوربة من وسائل جديدة ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعاته والصبغة والزعفران واشغال المينا والمعادن والأحجار الكريمة ، وانتقلت زراعة قصب السكر الى صقلية ، وتمكن السياح الاوربيون من دخول بعض مجاهل آسية .

وفي الواقع ان التفاعل - والتداخل اذا جاز هذا التمييز - قد اشتد بين الشرق والغرب خلال هذه الحروب ، واصبحت مدن الشاطئ في سورية ولبنان وفلسطين مستعمرات افرنجية حقيقية ، وعكفت المعامل

١ - حياة صلاح الدين الأيوبي للدكتور البيبي ص ٥٠ .

٢ - تاريخ العالم لهامرتن ، ج ٤ ص ٧٤٧ .

الاوربية على اقتاج العتاد والذخيرة لفرسان الفرنجة. ، حتى اصبحت المدن الايطالية والفرنسية اشبه بخلايا النحل لحركتها الدائمة .

وقد تعلمت جيوش الافرنج التي اصطبغت بحضارة العرب حين اقامتها في البلاد العربية ، أساليب الحرب العربية ، واقتبست السلاح العربي وانواع الصيد بالبازي والسلوقيات وأخذت أساليب العيش في العمار واللباس (القميص والجوارب والقفاز والبايبوش وأساليب الأكل وحفظ الصحة من المقطس واستعمال المنديل) كما نقلوا الصناعات التقليدية من الزجاج المذهب وانواع العقود والصابون وصنوف الأدوية والجلد المطرز والسروج المذهبة والمفضضة والخشب المطعم بالصدف والعاج والنحاس المدمشق الى غير ذلك ^١ . ، وبلغ تأثر الفرنجة بحياة الشرق ان المؤرخين بدأوا يتحدثون عن اختلاف الطبع بين الصليبيين القادمين حديثاً ، والفرنج المقيمين - وكانوا يدعونهم في الغرب : « الأمهار » ويعنون بذلك الشرقيين - كما كان الحجاج الجدد يتجنبون التعاطي معهم لأنهم في رأيهم « أنصاف مسلمين ^٢ »

والى جانب ذلك كله كانت ترد من الشرق طرف الفن والصناعة ، وكان الفرنجة يحملون الى بلادهم ، مع ذكرياتهم ، ما رأوه وما تعلموه خلال اتصاهم ببيزنطية والعرب والعالم الاسلامي من الوان الزينة والحياة المترفة ، فتقدمت الفنون والصناعات ، وازدهرت مدن جديدة ، وامتد نطاق التجارة البحرية الى القارة الاوربية كلها ، ولكن المراكز الصناعية

١ - الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط لعثمان الكماك ص ٧

٢ - انظر : وصيد التاريخ لرينه غروسه ج ٢ ص ١٢٧

التي كان ينشئها اصحاب المراكب الايطالية ، كانت السبابة الى العمل الدائب والانتاج المتزايد في ظل الاحتكار البحري الذي تتمتع به مدن الشاطئ ، هذه المدن التي اثرت ثراءً طائلاً ، حتى ان بعثاتها التجارية لم تعد تقف عند ابواب المحيط الأطلسي ، بل امتدت الى افريقية ووصلت الى مناجم تاغازا واسواق العبيد في تومبوكتو . ومسن اجل تأمين النقد الذي تحتاجه هذه التجارة المتسعة النطاق ، ازداد البحث عن الذهب والفضة ١ .

وقد دفعت هذه الحركة الاقتصادية الصاعدة ، الغرب في طريق تحرر اجتماعي جديد ، لان بعض الالسياد الذين كانوا حتى ذلك الوقت يفرضون على الفلاحين العمل المسخر في مزارعهم مقابل حمايتهم ايام والسماح لهم باستئثار جزء من اراضيهم ، اصبحوا يطلبون منهم عملاً اقل مقابل أجر اوفر ، فنشط بذلك قسم من الفلاحين الى العمل اكثر من قبل واستطاعوا الانعتاق من نظام القنانة .

الا ان نزعة الحرية بدت على اشدها في المدن الناشطة التي كانت يسكنها التجار والصناع ، فان الطبقة البرجوازية الفتية التي كان نشوؤها نتيجة لتطور حاجات النظام الاقطاعي ، والتي نمت وازدهرت في حمايته ، اصبح هذا النظام نفسه عبئاً ثقيلاً عليها ، لأن مدنها قد استقلت اقتصادياً عن السيد الاقطاعي ولكنها ظلت خاضعة له من الناحية القانونية ، يفرض عليها سلطته ويطالبها بحقوقه ويحجب منها الرسوم والمكوس المختلفة ، فطفقت هذه المدن تناضل في سبيل استقلالها

وتحررها ، يناصرها في هذا النضال الملوك الذين ادركوا ان الحكم لا يتاح له النجاح الا حيث يُنظم الشعب تنظيمًا مدنيًا .

ورافق تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية ، نهضة فكرية عظيمة . وشاعت قراءة شيشرون وافلاطون وارسطو . وبدأ التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية ، والاعتقاد بانه ليس محتماً ان يتزج الايمان والمعرفة ويؤلفا كلا متحداً .

ولشد ما كانت المدارس الفكرية في هذه البيئة المتطلعة الى المعرفة ، تقبل على ما كان الصليبيون او الاسبان يحملونه من النصوص الاغريقية التي حفظها العرب ونقلوها الى لغتهم . وقد مثل التراث العربي حينذاك ، دون قصد من أبنائه ، دوراً كبيراً في توجيه الحضارة الأوربية .

ولم يضعف انهيار الخلافة الاموية في الاندلس من مكانة الفكر العربي ، فظلت اللغة العربية لغة العلم والتجارة في مراكز ثقافية كبرى مثل طليطلة ، واحتضنت برشلونة رهطاً من المعلمين العرب ، واقتبست بلنسية عن العرب صنع الورق ، وانشأ الاسبانيون مجعماً لترجمة النصوص العربية الى اللاتينية .

ولم تنقض فترة قصيرة من الزمن حق اغتنت العلوم الاوربية الناشئة وازدهر الفكر الاوربي ، لاقبال الاطباء والرياضيين والفلكيين على تلك الكنوز الثمينة من المخطوطات العربية التي كانت تتدفق على اوروبا من سورية ومصر وصقلية .

وكان النزاع ما يزال يشتد بين الفئات الاقطاعية في كل قطر اوروبي متعددة مع الفئات الاقطاعية في الاقطار الاخرى لما بينها جميعاً من

قربانية في النظام الحقوقي والشعور الطبقي - وبين كل مجتمع قومي يطمح الى السلام والرخاء والاتحاد في ظل احدي الاسر المالكة التي اصبحت في ذلك العهد رمزاً للوحدة القومية. وكانت وحدها القادرة على إقرار النظام محل الفوضى الاقطاعية السائدة . وقد انتهى هذا النزاع اخيراً الى توطيد دعائم الملكية ، اذ استعان الملوك بالمدن ، ورغبتها في التحرر ، لفرض سلطتهم المطلقة ، وكان هذا التطور حدثاً تقديمياً كبيراً لانه ركز السلطة التي كانت موزعة في ايدي عشرات الاقطاعيين .

بتلك الاقطاعية المسلحة ، والتجارة النشيطة ، والصناعة الناشئة ، والمدن المزدهرة ، وقف الغرب على رأس الحضارة العالمية ، بينما كانت بيزنطية ، امبراطورية الشرق ، تتداعى شيئاً فشيئاً ، فيتضاءل نفوذها وتضعف قوتها ، والبندقية تقف في وجهها تريد الثأر منها لعيلائها الذين ذبحتهم القسطنطينية حسداً وحقداً كما تذبح المواشي ، وهيب البلغار والافلاق والمجر والصرب ثائرين عليها مطالبين بالانفصال عنها . وبينما كان النور يخبو في بغداد ، وتزداد الخلافة العباسية ضعفاً بعد انهيار دولة السلاجقة وقيام الاسر الاقطاعية في انحاء البلاد العربية تتقاسم الارضين وتتنازع على الحكم ، حق اختل النظام وفقد الأمن والمخبطت التجارة .

وبتداعي الدولة البيزنطية التي كان الغرب يقدها ويخشها ، وبانهيار دولة السلاجقة التي كانت تلاف امام حملات الغرب المستمرة ، انفتح امام اوربة الطريق الى استعمار البلاد العربية وتوطيد اقدامها في الشرق

الفصل الرابع

إفئدة القوي العربية والإسلامية

استمر حكم الافرنج في البلاد العربية بضع سنوات وطوفان المغيرين يتسع ويمتد ، دون ان يلقوا مقاومة جدية من امراء المسلمين ، لانه لم يكن لدى هؤلاء «عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد» .. وكانت التفرقة السائدة بينهم اول العوامل التي ادت الى انتصار الفاتحين ، ومكنت لهم في الارض العربية الكريمة .. فما زالوا يدحرون هؤلاء الامراء المشتتين المتخاذلين ، ويمدون سلطانهم من بقعة الى اخرى ، والامراء المسلمون لاهون عن ذلك الخطر الداهم ، لا يتورع الواحد منهم عن محاربة اخوانه او مخالفة خصومهم ، وكثيراً ما قاتل اولئك جرياً وراء مطمع او منعم ، او صافح هؤلاء حفاظاً على امارته من عدوان المعتدين . وفي ذلك يقول رينه غروسه : «وبدلاً من ان يتحد الامراء المسلمون ضد الصليبية ، واجهوها فرادى ، وفرادى سُحقوا ، الواحد تلو الآخر ، وتغلغلت الصليبية بينهم»^٢ .

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥

٢ - رصيد التاريخ ج ٢ ص ١١٥

ولما بدأ الزحف الصليبي كان الب ارسلان قد اقطع ابن عمه سليمان
آسية الصغرى ، وكان الصراع قائماً على تركه ملكشاه بين اخيه تتش
الملقب بتاج الدولة الذي كان يحكم الشام ، وزوجته ترکان خاتون الوصية
على ابنها محمود ، وبركياروق الذي ما لبث ان اعترف له بالسيادة
العليا على الدولة السلجوقية ، وانعم عليه الخليفة المتقي بلقب السلطان .
ثم تلا ذلك صراع بين بركياروق وعمه تتش الذي كان يطمح هو ايضاً
الى تسل السلطة العليا ، ولم تجلب هزيمة تتش وموته السلام للامبراطورية
المضطربة ، لأن بركياروق لم يلبث ان اشتبك مع أخيه محمد في حرب
دامت عدة سنوات ١ .

وحين استولى الصليبيون على القدس « تدفقت جموع الهاربين من وجه
الصليبيين على بغداد ، وكان ذلك في شهر رمضان ، واخذوا يسردون
على مسامع أهلها حوادث الفتك وأعمال الاضطهاد التي ارتكبتها الغزاة ،
فعم الامى المدينة ونسي المسلمون صيامهم وتجمعوا في المسجد الجامع
ويكوا ، فأرسل الخليفة المستظهر بالله على جناح السرعة ثلاثة من رجال
بلاطه البارزين الى بركياروق ومحمد اللذين كانا مصكرين في حلوان كي
يحثوهم على تسوية خلافتهما والزحف على العدو المشترك ، ولكن نداء
الخليفة لم يلق اذناً صاغية لدى الاخوين اللذين سرعان ما عادا الى
الاقتتال بسبب اغتيال وزير بركياروق ، ويضيف المؤرخون الى ذلك
قولهم ان الخلاف بين السلطانين مكثن الافرنج من توطيد أقدامهم في
البلاد الاسلامية .

وعندما توفي السلطان بركياروق في سنة ١١٠٤٥ ٤٩٨ م خلفه اخوه

محمد ودام حكمه اربع عشرة سنة ، ويصفه المؤرخون بأنه كان عادلاً
فاضلاً كريماً أشاد شعراء عصره بعطفه على الفقراء وبره باليتامى . ولكن
حالة الامبراطورية السياسية لم تكن مؤاتية للقيام بأي عمل موحد ضد
العدو المشترك ، إذ كان التحاسد سبباً في انقسام رؤساء الاقطاع في
الشام والجزيرة ، وكان أمير حلب رضوان بن تتش خائناً ، بينما كان
الآخرون ، مع رغبتهم باطاعة السلطان ، منصرفين الى تحقيق مآربهم
الشخصية اكثر منهم الى خدمة القضية العامة ، فضلاً عن ان الفوضى
التي عمت الخلافة الفاطمية التي كانت مدن الشام الساحلية وفلسطين تابعة
لها في ذلك الحين ، قد جعلت من العسير أو المستحيل مساعدة المدن
التي تعرضت لهجوم الاعداء ١ .

ولم ينتبه العالم العربي والاسلامي الى حقيقة وضعه الأليم ، ويسترد
وعيه الذي اذهلته الصدمة المفاجئة ، الا في اوائل القرن الثاني عشر
الميلادي ، إذ بدأت الشعوب الاسلامية تقدر اهمية الخطر الاجني
المتماظم وتتنادى لوقف طغيانه ، وليس ادل على تلك الافاقة من تسرب
فكرة الجهاد الى نفوس العامة ، في البلدان المستظلة بظل الخلافة
العباسية ، واعتناقها ايها ، الى حد انذر الخليفة العباسي بوجود
الانتباه الى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من اشراف
حلب وصوفيها وتجارها الى بغداد : مستغيثين من إفساد الصليبيين
في بلادهم ٢ .

وقد كان لهذه الاستغاثة صداها لدى جماهير الشعب في بغداد ، فاجتمع

١ - المرجع السابق ص ٢٩٢

٢ - نور الدين والصليبيون ص ١٤

الناس وقت صلاة الجمعة في شعبان سنة ٥٥٤ هـ ١١١٠ م وحطموا المنبر ،
وانزلوا الخطيب عنه ، ونادوا بوجود القيام بالجهاد ، وزادوا فتمنعوا
الناس من الصلاة ، وتكرر هذا الحادث مرة اخرى في مسجد الخليفة
المستظهر نفسه ١ .

ويروي ابن القلانسي ان العداة كان قد بلغ أشده بين البيزنطيين
والصليبيين ، فأوفد الامبراطور البيزنطي رسولا الى السلطان محمد
السلجوقي يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد ٢ وترك التراخي
في امرهم واستعمال الجهد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم
واستفحال شرهم ، وقد وصل رسول العاهل البيزنطي الى بغداد قبل
وصول وفد حلب ، الأمر الذي جعل الناس في بغداد يصيحون في
السلطان : « اما تتقي الله تعالى ان يكون ملك الروم اكثر حمية منك
للإسلام ، حتى قد أرسل اليك في جهادهم ٣ ! »

وكان تلك المظاهرة القومية الصاخبة التي اشتركت فيها وفود حلب
وجماهير بغداد ، انما كانت تعلن غضبة العالم العربي والاسلامي على الخليفة العباسي
الثامن والعشرين الذي احتل الفرنجة في عهده بيت المقدس ، دون ان ينهض
لمقاومة أو يدعو لجهاد ، مكثفياً من مظاهر السلطان بالخطبة له على المنابر ،
ومن مظاهر الاسلام بالصلاة ، في حين كان السلطان الحقيقي ملك قواده
وبماليكه ، وكان الاسلام يُطعن في دياره ويهزم في جواره ..

وكان أول الامراء الذين تجاروبوا مع هذه الافاقة العربية ، ومهدوا

-
- ١ - ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢
 - ٢ - المرجع السابق ص ١٧٣
 - ٣ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٦١

الطريق الى حركة التجمع الاسلامي في وجه الخطر الهاجم من الغرب ،
الأمير مودود اتابك الموصل الذي أعلن الجهاد في تلك السنة ذاتها ،
وخرج بجيش كبير فعاصر الرها سنة ٥٥٥ هـ ١١١١ م محاولاً استخلاصها
من ايدي الفرنجة بمساعدة الارمن الذين استغاثوا به طالبين منه انقاذهم
من الصليبيين ، ثم رجع عن محاولته ليتولى قيادة عدد من القوى
الاسلامية المتحالفة في مصاولاتها مع قوى الفرنجة ، وبذلك «ظهرت
أول بادرة للاتحاد بين الامراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول
مرة منذ مقدم الصليبيين الى الشرق»^١ ، بينما فتك بلدوين دى بورج
صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر بالأرمن فتكاً ذريعاً فذبحوا
وأحرقوا عدداً كبيراً منهم وطردهوا من الرها عدداً آخر^٢ ، وقد
جدد الأرمن من محاولتهم لتسليم الرها الى المسلمين فتعرضوا لمذبحة جديدة
بأمر من بلدوين .

ولما قتل مودود بيد الحشاشين^٣ برز على مسرح النضال نجم الدين
ايلغازي صاحب ماردن الذي اتحد معه كل من دبيس بن صدقة امير
الحلة وسلطان بن منقذ أمير شيرز وطفتكين اتابك دمشق ، وقد انجد
ايلغازي حلب حين حاول روجر امير انطاكية الاستيلاء عليها . و'قتل
روجر في إحدى معاركه مع ايلغازي ، و'بروي اسامة بن منقذ من

١ - نور الدين والصليبيون ص ١٧ ، انظر ايضاً ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥
و ١٨٤ - ١٨٥

٢ - Mattieu d'Edesse , pp. 102 - 105

٣ - كان الاسماعيليون يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر ، فكانت فرقتهم
الفدائية التي عرفت باسم «الحشاشين» تهمل على نشر الفوضى والاضطراب في بلاد
الشام التي يحكمها السلاجقة باسم الخلافة العباسية في بغداد ، كما كان بعض الامراء
يستعين بهم للقضاء على خصومه لما اشتهروا به من البراعة في أساليب الاغتيال .

اخباره ، ان انطاكية كانت لـشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى
يـحج الى بيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بـعدوين البرونس^١ ، وهو
رجل شيخ وروجار شاب ، فقال لبـعدوين : « اجعل بيني وبينك
شرطاً ، ان مت قبلك كانت انطاكية لك ، وان مت قبلي كانت
البيت المقدس لي ، فتعاقدا وتوثقا على ذلك . وقدّر الله تعالى ان نجم
الدين ايلغازي بن أرتق ، رحه الله ، لقي روجار . بدانيث يوم الخميس
خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسة^٢ فقتله وقتل جميع
عسكره^٣ ولم يدخل انطاكية منهم الا دون العشرين رجلاً ، وسار
بـعدوين الى انطاكية فتسلمها ، وضرب مع نجم الدين مصافاً بعد اربعين
يوماً . وكان ايلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً ، فشرب بعد
كسر الافرنج وقتلهم ، ودخل في الخـُـبـار فما افاق حتى وصل الملك
بـعدوين البرونس الى انطاكية بعسكره . فكان المصاف الثاني بينها على
السواء : كسر بعض الفرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض
الفرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب
صهيون^٤ وبلاطنس وتلك الناحية ، وكان صديقاً لأتابك طغتكين صاحب
دمشق ذلك للوقت ، وكان مع نجم الدين ايلغازي لما اجتمع بالافرنج
في افامية حين وصل عساكر دمشق مع برسق بن برسق . فقال روبرت
الأبرص لأتابك طغتكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد
اجتكتك بلادي ، أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كل ما وجدوه . بـلى

١ - هو بلدوين الثاني (البرنس) .

٢ - ويقابل ذلك ١٤ آب (اغسطس) ١١١٩

٣ - سبق لاسامة بن منقذ ان روى ان روجر قد قتل في موقعة البلاط وهذا هو
الصحيح (انظر كتاب الاعتبار ص ٤٠) .

٤ - حصن بين اللاذقية وحماة وتقع بلاطنس في جنوبه .

لا يسبوا ولا يقتلوا . الدواب والمال والغلة لهم ، يأخذون ذلك مباحاً لهم ، فلما أسر روبرت وأتابك طغتكين حاضراً المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار ، فقال ايلغازي : « امضوا به الى اتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة » فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب . فلما رآه مقبلاً قام شمر أذيال قبائه في البند واخذ سيفه وخرج اليه ضرب رقبتة . فنفذ اليه ايلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفدته اليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « أنا ما أحسن أفزّع إلا كذا . »

وحمل اللواء بعد ايلغازي نور الدولة بلطغ بن ارتق صاحب قلعة خربوط وقد أسر جوسلين الاول الذي تولى إمارة الرها ، ثم أسر بلدوين الثاني ملك بيت المقدس وهو في طريقه الى حلب في محاولة للاستيلاء عليها ، وتضعف بذلك امر الفرنجة . وأخذ المسيحيون المحليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتآمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين^٢ ، إلا ان جوسلين فر من الأسر في قلعة خربوط وسير جيشاً لاستخلاص ملك بيت المقدس ، فلم يظفر ببغيته برغم الاعمال الانتقامية الرهيبة التي قام بها ، ولم يُطلق سراح بلدوين الثاني الا عندما توفي بلطغ سنة ٥٠٨ هـ / ١١٢٤ م وهو قائم على حصار منبج التابعة لإمارة

١ - كتاب الاعتبار ص ١١٨ - ١٢٠ وقد سبق لطغتكين أن أسر ابن اخت ملك القدس في معركة دارت على ضفاف طبرية ، فبذل هذا في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار واطلاق خمسمائة أسير ، فرفض طغتكين عرضه وقتله بيده (انظر خطط الشام ج ١ ص ٢٩٣)

٢ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٠٦ نقل عن Stevenson : The crusaders in the East . p. 104

طرابلس الصليبية^١ إثر اصابته بسهم طائش ، وآلت حلب الى حسام الدين تمرناش بن ايلغازي فقبل وساطة أمير شيزر سلطان بن منقذ لاطلاق سراح ملك بيت المقدس مقابل مائة الف بيزانت واعادة بعض المناطق المحتلة الى حلب^٢ .

وكانت رابع الشخصيات الاسلامية التي خالجتها فكرة الجهاد ضد الفرنجة ، اقسنقر البرسقي اتابك الموصل الذي انقذه حلب من عدوان بلدوين الثاني إذ عاد لافتتاحها بعد ان عانى طويل الأسر فيها ، وحاول البرسقي انشاء محور قوي لمواجهة الخطر الاجني ، وقد قتلته جماعة من الحشاشين^٣ سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦م قبل ان يحقق حلمه .

ثم برز على المسرح السياسي عماد الدين زنكي احد عظماء عصره ، وقد خلف البرسقي في امارة الموصل ، الا ان مطامحه تجاوزت حدود امارته ، فاستولى على جزيرة ابن عمر شمالي الموصل ، وعلى نصيبين والخابور وحران ، ومضى في فتوحاته معتمداً القوة حيناً والدهاء حيناً آخر ، حتى بسط سلطانه على حلب وحمص وحمص ، واخذ يتطلع الى احتلال دمشق ، لايمانه بأن قيام وحدة بين الامارات الاسلامية يجب ان يسبق اية خطوة ضد الصليبيين^٤ ، إلا ان الصليبيين كانوا يتابعون تحركاته بقلق شديد ، وقد انتهز فولك فرصة انشغال عماد الدين بمحاصرة حمص فزحف مع ريموند الثاني صاحب طرابلس للقضاء عليه ، وعلم

١ - نور الدين والصليبيون ص ١٠ - ٢٠

٢ - كتاب الاعتبار ص ١٢٠

٣ - شذرات الذهب ج ٤ ص ٦١

٤ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٧٤



عماد الدين زكي محمد الرما

عماد الدين بالزحف الفرنجي فتخلى عن حصص واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بمرين ، فأسر ريموند وحاصر ملك بيت المقدس في القلعة ، ولم يطلق سراحه مع بقية الأسرى الا مقابل خمسين الف دينار .

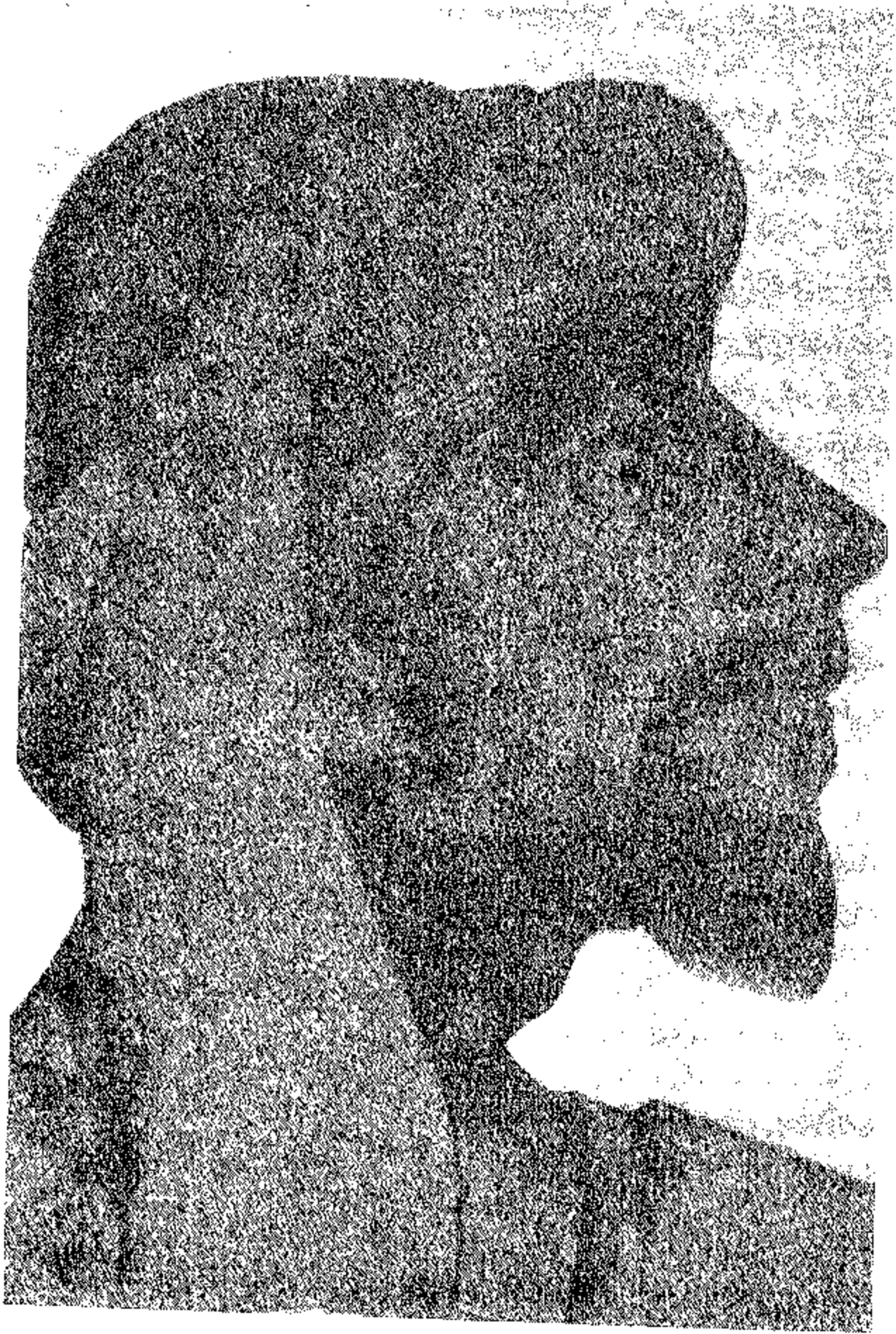
وقد اعيت عماد الدين الوسائل للاستيلاء على دمشق في عهد اميرها يوري تاج الملوك ، ثم في عهد ولديه اسماعيل وعمود اللذين تعاقبا على حكمها من بعده ، ولم ينفعه في ذلك زواجه من زمرد خاتون ارملة يوري التي كانت ذات بأس ونفوذ في دمشق ، كما تزوج من قبل بابنة رضوان صاحب حلب لتكون له شرعية الحكم فيها^١ . ثم قتل محمود بأيدي ثلاثة من غلمانه ، وارسلت زمرد الى عماد الدين تستغيث به وتطلب منه الثأر لولدها القتييل . فوجدتها فرصة سانحة للاستيلاء على دمشق ، محتجاً برغبته في معاقبة القتل وحماية المدينة من مطامع الافرنج ، ولكن الامير معين الدين اثر صاحب بمرين وبطلبك كان اسبق اليها منه ، فأسقط في يديه ، إلا انه ابي ان يتراجع عن غايته ، ورأى ان يبدأ خطته الجديدة باحتلال بطلبك ، فضرب عليها الحصار وما لبثت ان سلّمت له .

وقد تخضت هذه الاحداث عن مفاجأة زهل لها العرب والمسلمون ، فان معين الدين اثر ما كاد يشعر بأن جيش عماد الدين بات على مقربة منه حتى فكر في التحالف مع الصليبيين^٢ حفاظاً على حكمه في دمشق ، وارفد الى ملك بيت المقدس فولك الخامس رسولا من قبله هو اسامة بن منقذ^٣ فوجد الرسول العربي من الملك الصليبي تقبلاً

١ - منتخبات من تاريخ حلب ص ٦٥٨

٢ - مفرج الكروب لابن واصل ج ١ ص ٥١

٣ - الكامل ج ١١ ص ٣٤



صورة خيالية لأسامة بن منقذ

واضحاً لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين^١ .

لقد كان اخشى ما يخشاه الفرنجة ان يتحد امراء المسلمين ، او ان يظهر من بينهم امير فذ يوحد البلاد العربية ويركز في يديه القوى التي تزخر بها . وكان فولك يتابع باهتمام وتهيب تعاضم قوة عماد الدين التي باتت تؤلف خطراً على الصليبيين ، وسرعان ما لبى دعوة اتر الى التحالف ، واتفق مع ريمون دي بواتيه أمير انطاكية على مساعدة امير دمشق ، لانها تضع في اعتقاده حداً لمقاومة هذه العاصمة العربية العريقة للاحتلال الصليبي ، وتحطم من عنفوان عماد الدين ومطامحه التي لا بد من أن تصطدم بمطامع الفرنجة .

وكان العرض الذي تقدم به اسامة بن منقذ الى فولك باسم معين الدين اتر ، مقابل العون الذي يبتغيه ، اعادة بانياس الى الفرنجة^٢ بعد استخلاصها من يد عماد الدين ، ودفع نفقات الحملة التي يقومون بها لمساعدته ، وتسليم عدد من الرهائن توكيداً لصدق تعهده^٣ .

وقد ضلل عماد الدين جيوش فولك وتظاهر بأنه يهرب من امامها ، ثم انقض عليها وهزمها شر هزيمة ، وتتابعت بعد ذلك الاحداث ،

١ - نور الدين والصليبيون ص ٢٩

٢ - كان بوري امير دمشق قد شعر باستفحال خطر الاسماعيليين يوم تولى امرهم اسماعيل المعجمي واتخذ بانياس مقراً له ، فقرر تجريد حملة عليهم ، فلم يكن منهم الا ان سلموا بانياس للصليبيين وانتقلوا الى المناطق التي يسيطرون عليها (انظر : الدول والملوك ج ٣ ص ١٨) ثم استعاد اسماعيل بن بوري حصن بانياس وانتقل منه الى يد عماد الدين ، فقادره الاسماعيليون الى وطن جديد مهد لهم فيه دعواتهم هو جبال البهرة المحيطة بمصياف (انظر تاريخ قلعة مصياف تأليف ميشيل لباد ص ٥)

٣ - الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٤

واهمها سقوط بانياس بعد حصارها من القوات الصليبية والدمشقية ،
واعادتها الى الصليبيين ، واغارة عماد الدين على المواقع الصليبية دون
ان يقابل قواتها الاساسية في معارك حاسمة ، وهجومه على اطراف
دمشق دون ان يستطيع الوصول اليها والاستيلاء عليها ، لقوة الحلف
الدمشقي الصليبي . وقد ازداد هذا الحلف صلابة حين تحقق الفرنجة من
صدق أنر ووفائه بوعوده ، فقام أنر وأسامة بن منقذ بزيارة الصليبيين
في بيت المقدس .

وكان أسامة بن منقذ قد خاض عدداً من المعارك مع الافرنج في
ايام الحرب ، كما زارهم واجتمع بهم في ايام السلم ، وقد سجل في كتابه
« الاعتبار » وقائمه معهم ومشاهداته في المناطق التي يحكمونها ، ولهذا

١ - كان أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ م - ١١٨٨ م) أحد امراء
بنو منقذ ، الأسرة العربية المعروفة التي كانت تحكم شيزر في عهد الحروب الصليبية ،
وكان كل من افرادها فارساً وبطلاً صنديداً ، وقد جمع أسامة بين الأدب والفروسية ،
نشأ على ضفاف العاصي يحوار حماة ، وقضى حياته متنقلاً بين البلاط الفاطمي في
القاهرة وبلاط نور الدين في دمشق ، فعانى الشدائد والأهوال ونعم بالذائد والمتارف ،
وخاض مع الافرنج معارك عدة أظهر فيها بطولته فادرة وشجاعة فائقة ، كما كانت
مجاورة املاك اسرته لاملاك الصليبيين سبباً في اتصاله الوثيق بهم ، في عهود الحروب
وعهود السلم ، فعرفهم عن كثب وزار ممتلكاتهم غير مرة ، ودون مشاهداته ووقائمه
في كتاب « الاعتبار » الذي يوليه الباحثون أهمية كبرى لأنه شهادة مؤرخ معاصر
ثقب النظر نافذ البصيرة في مناقب الافرنج ومثالبهم على السواء . وقد قال العقاد
فيه : كان صلاح الدين مثلاً في اتزانه واعتداله وتمدد جوانبه بين الشجاعة والروية ،
وكان أسامة مثله في كل خصلة من تلك الخصال ، شجاعاً حازماً مقتصداً في الهجوم
متثبتاً في الحنر وعدواً بمقدار (انظر : أسامة بن منقذ لمحمد حسين ، والحروب
الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام لمحمد سيد كيلاني ص ٢٠٢ -
٢٠٧ و ٢٩٠ - ٢٩٧ ، وأسامة بن منقذ بقلم العقاد في مجلة العربي العدد ٢ ، وكتاب
الاعتبار بقلم يوسف الشاروني في مجلة العربي العدد ١٦) .

الكتاب اهمية كبيرة في وصف الحياة الاجتماعية في المناطق المحتلة من قبل الافرنج ، وابرز ما اثار اهتمامه تقاليد الفروسية التي كانت شائعة بينهم يومذاك ، وبما قاله في هذا الصدد :

« والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم اصحاب الرأي ، وهم اصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس^١ من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وانا اذ ذاك بدمشق . فقلت للملك فلك بن فلك^٢ : « هذا تعدى علينا واخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الفنم ، فولدت وماتت اولادها وردّها علينا بعد ان اثلفها ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكماً ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اثلف من غنمهم ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوصل اليّ وثقل عليّ وسألني حتى اخذت منه اربعمائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدسي الافرنج يغيره ولا ينقضه . فالفارس أمر عظيم عندهم .

« ولقد قال لي الملك : « يا فلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً ، قلت : « الله يفرح الملك ، بماذا فرحت ؟ قال : « قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد انك فارس ا ، قلت : « يا

١ - واسمه رنيه .

٢ - هو فولك الخامس الذي تتوج ملكاً على بيت المقدس سنة ١١٣١ (٥٢٦) .

مولاي ، انا فارس من جنسي وقومي ١ .

ولكن اذا كان من ابرز صفات الفروسية الصدق والوفاء بالوعد ، فقد روى اسامة بن منقذ ما ينفي تلك الصفة عن فرسان الفرنجة ، ومن ذلك هذه القصة الطريفة التي رواها عن تنكريد صاحب انطاكية :

« وكان نزل علينا دنكري ٢ وهو اول اصحاب انطاكية بعد ميمون ٣ ، فقاتلنا ثم اصطلعنا ، فنفتد يطلب حصاناً لفلان لعمي عز الدين رحمه الله ، وكان فرساً جواداً . فنفتده له عمي تحت رجل من اصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري . فسابق به فسبق الخيل المجرأة كلها . وحضر بين يدي دنكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا انه فارس شجاع . فخلع عليه دنكري ، فقال له حسنون : « يا مولاي ، اريدك تعطيني امانك انك ان ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني ، فأعطاء امانه على ما توهم حسنون ، فانهم لا يتكلمون الا بالافرنججي ما ندري ما يقولون .

« ومضى على هذا سنة أو اكثر ، وانقضت مدة الصلح . وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة . وكانت خيلنا لقيت أوائلهم . فطمعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع والدي ،

١ - كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ص ٦٤ - ٦٥ .

٢ - يعني تنكريد .

٣ - هو بوهيمند وقد خلفه تنكريد سنة ١١٠٤ (٨٤٩٨) .

رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده . فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي : « يا مولاي ، أمر لي بلباس خفيف » فقال : « هذه البغال عليها السلاح واقفة ، معها صلح لك البسه » وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي ، وهو اول يوم رأيت فيه القتال . فنظر الكزاغندات في عيها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب . فتقدم على حجرته ، وهو معرتي ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الافرنج . فأخذوه أسيراً وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دنكري لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبصر شيئاً » فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم ، وطلبوا منه الف دينار وحصاناً أدم كان لوالدي من خيل خفاجة جواداً من أحسن الخيل ، فاشتراه بالحصان رحمه الله .

والى جانب هذا المثل عن « فروسية » تنكريد ، يروي ابن منقذ في معرض اقصيصه ونوادره الكثيرة قصة رائعة عن وفاء بدوي رواها ابن والي الطور وهي ولاية لمصر قريبة من بلاد الافرنج كانت الخليفة الفاطمي اذا أراد ابعاد بعض الأجراء ولاء اياها ، فقال : « وليها والدي وخرجت انا معه الى الولاية وكنت مفرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الافرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد . فأنا في بعض الأيام في الجب ،

واذ قد رفع عنه الغطاء ودلّني اليّ رجل بدوي . فقلت : « من اين اخذوك ؟ » قال : « من الطريق » فأقام عندي يثويّات وقطعوا عليه خمسين ديناراً . فقال لي يوماً من الأيام : « تريد تعلم ان بها يخلصك من هذا الجب إلا انا ؟ فخلصني حق اخلصك » فقلت في نفسي : « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته . ثم بعد ايام اعاد عليّ ذلك القول . فقلت في نفسي : « والله لأسمين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالسجان فقلت له : « قل للصاحب اشتهي اتحدث معك » فماد وأطلعني من الجب وأحضرنى عند الصاحب ، فقلت له : « لي في حبسك سنة ما سأل احد عني ولا يدري انا حي او ميت . وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أسيّره الى ابي حتى يفكني » قال : « أفعل » فرجعت عرفت البدوي وخرج ودّعني ومضى . فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له اثرأ ولا سمعت له خيراً ، فيثست منه . فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج عليّ من نعب في جانب الجبل ، وقال : « قم والله لي خمسة اشهر احفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقممت معه وخرجنا من ذلك السرب ، وكسر قيدي واوصلني الى بيتي . فما ادري مم اعجب : من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نعبه من جانب الجب . . . ١ »

وكان اسامة يمضي في عهد السلم الى مناطق الافرنج فيشتري الأسرى ويطلق سراحهم ، ومن اطرف ما وقع له في ذلك ان مغامراً صليبياً يسميه اسامة « كليام جييا » استولى على مركب كان يسافر عليه اربعمائة من حجاج المغرب رجالاً ونساء ، فأسرم واراد بيعهم ، فاشتري اسامة

١ - المرجع السابق ص ٨٠ - ٨١ .

عدداً منهم واشترى عدداً آخر للأمير معين الدين ، قال : « وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله : « قد اشتريت لله اسارى اخصك بهم ، وما كان معي ثمنهم ، والآن قد وصلت الى بيتي ، إن اردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنتهم انا ، قال : « لا بل انا ازن ، والله ، ثمنهم ، وانا ارغب الناس في ثوابهم . » وكان رحمه الله اسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة . ووزن ثمنهم . وعدت بعد ايام الى عكا . وقد بقي عند كليام جييا ثمانية واربعون اسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله على يدي . فاشتريتها منه وما وزنت ثمنها . فركبت الى داره لعنه الله ، وقلت : « تبيعني منهم عشرة ؟ » قال : « وحق ديني ما ابيع الا الجميع » قلت : « ما معي ثمن الجميع ، وانا اشترى بعضهم ، والنوبة الأخرى اشترى الباقي » قال : « ما ابيعك الا الجميع » فانصرفت وقدّر الله سبحانه انهم هربوا في تلك الليلة جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الأسير اخفوه واوصلوه الى بلاد الاسلام . وتطلّبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه خلاصهم . واصبح بطالبي بثمان المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب . فقلت : « سلمها اليّ وخذ ثمنها » قال : « ثمنها لي من امس قبل ان تهرب » وألزمني بوزن ثمنها ، فوزنته وهان ذلك عليّ لسرّتي بخلاص اولئك المساكين . » .

ومن اطرف ما وقع له خلال زيارته للمناطق التي يحكمها الافرنج - وهو في الوقت نفسه يدل على توثق عرى الصداقة بينه وبين فرسان الفرنجة وما كان يلقاه بينهم من احترام وتسامح ، كما يبين الفرق الكبير بين الفرنجي القادم حديثاً من الغرب والفرنجي الذي اقام في الشرق



أحد فرسان الهيكل

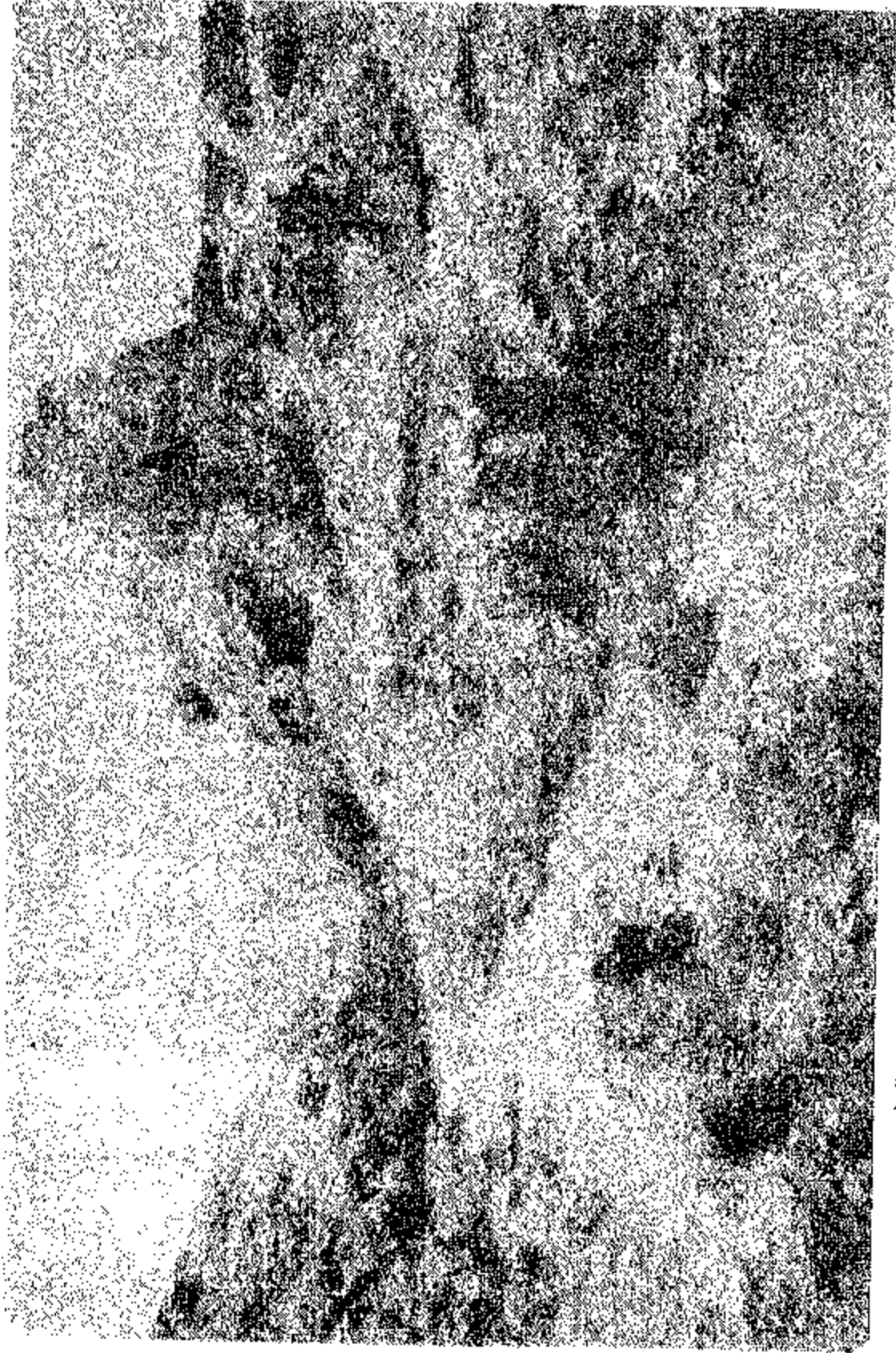
فعرف اهله وتحرر من تعصبه عليهم وقامت بينه وبينهم اواصر الود - ما رواه بقوله : « كنت اذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة . فكنت اذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية ^١ ، وهم اصدقائي ، يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوماً فكبرت ووقفت في الصلاة . فهجم عليّ واحد من الافرنج مسكني وردّ وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل ! » فتبادر اليه قوم من الداوية اخذوه اخرجوه عني ، وعدت انا الى الصلاة ، فاغتملهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه ، وردّ وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل ! » فعاد الداوية دخلوا اليه واخرجوه ، واعتذروا اليّ ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلي الى غير الشرق ، فقلت : « حسبي من الصلاة ! » فخرجت فكنت اعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة الى القبلة ^٢ . . . »

ومن ذلك ايضاً قوله : « ومن الافرنج قوم قد تبلتدوا وعاشروا المسلمين فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه . فمن ذلك اني نعتت صاحباً الى انطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفسي ^٣ وبينني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في انطاكية . فقال لصاحبي يوماً : « قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حق ترى زيم ، قال : « فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خروج الافرنج ، وقد اعتقى من الديوان

٢ - فرسان الهيكل .

٢ - المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥ .

١ - هو تيودور صوفيانوس .



قلعة شيرز كما هي اليوم وتبدو آثار الجسر القديم ظاهرة على الضفة الماصي

والخدمة ، وله بانطاكية ملك يعيش منه . فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ، ورآني متوقفاً عن الأكل فقال : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولي طبابخات مصريات ما آكل الا من طبيخن ، ولا يدخل داري لحم خنزير » فأكلت وأنا محترز وانصرفنا . فأنا بعدُ مجتازاً في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما ادري ما تقول . فاجتمع عليّ خلق من الافرنج ، فأيقنت بالهلاك . واذا ذلك الفارس قد اقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : « مالك ولهذا المسلم ؟ » قالت : « هذا قتل اخي عرس ^١ » وكان هذا عرس فارساً بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال : « هذا رجل برجاسي (اي تاجر ^٢) لا يقاتل ولا يحضر القتال » وصاح علي اولئك المجتمعين ، فنفروا واخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل ^٣ .

ولعل امتع ما رواه اسامة بن منقذ في حديثه عن طبائع الافرنج واخلاقهم باسلوبه الفكاهي قوله : « ومن عجيب طبهم ان صاحب النيطرة ^٤ كتب الي عمي يطلب منه انقاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه ، فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له : « ما اسرع ما داويت المرضى ! » قال : « احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجليه دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاءهم

١ - Hurso .

٢ - نورجوازي .

٣ - المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤١ .

٤ - قرب افقه عند منبع نهر ابرهيم في شمالي لبنان .

طبيب افرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شي يداويهم » وقال
للفارس : ايما احب اليك : تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟
قال : « اعيش برجل واحدة ! » قال : « احضروا لي فارساً قوياً
وفارساً قاطعاً » فحضر الفارس والفأس ، وانا حاضر ، فحط ساقه على
قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجلك بالفأس ضربة واحدة اقطعها ،
فضربه وانا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال
منح الساق ، ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال : « هذه امرأة في
رأسها شيطان قد عشقها .. احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل
من ماكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : « الشيطان قد
دخل في رأسها » فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى
ظهر عظم الرأس وحكته بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم : « بقي
لكم اليّ حاجة ؟ » قالوا : « لا .. » فجنّت وقد تعلمت من طبيهم ما
لم اكن اعرفه ١١ .



ولا ريب في ان عماد الدين قد تهيب ذلك الحلف الدمشقي الصليبي
الذي حال بينه وبين احتلال دمشق ، توطئة لتحقيق اهدافه البعيدة في
مهاجمة الفرنجة في المناطق التي بسطوا سلطانهم عليها ومكنوا لأنفسهم
فيها ، كما ان احداث فارس والعراق قد شغلته وقتاً غير قصير عن
متابعة اهدافه في بلاد الشام ، إلا انه لم ينمض عينيه الاغماضة الاخيرة
في السادس من ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ ٤ ايلول (سبتمبر) ١١٤٦

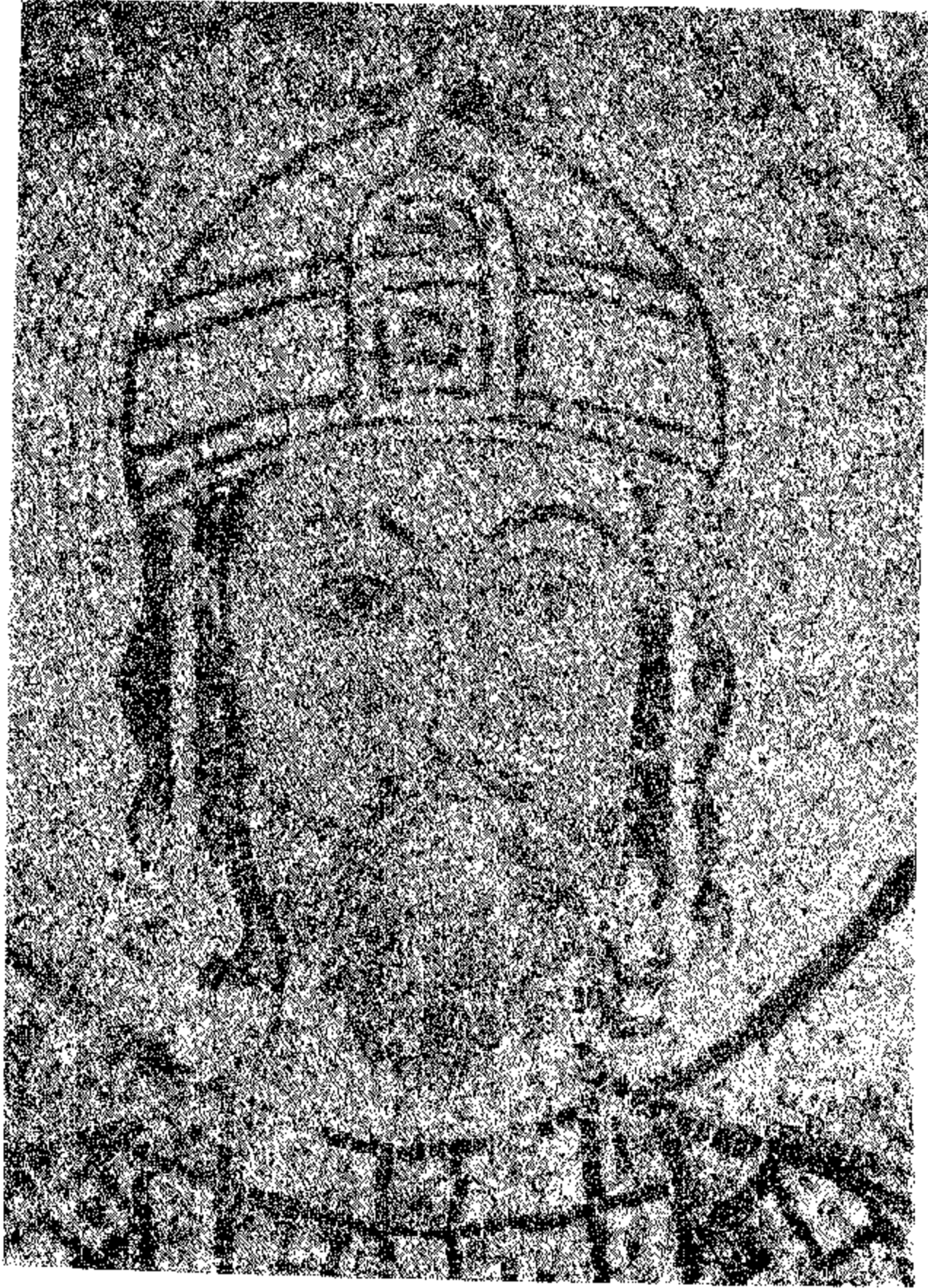
١ المرجع السابق ص ١٣٢ - ١٣٣ .

صريعاً بيد خادمه يرتقش فيما كان يحاصر قلعة جعبر^١ حتى كانت إفاقة القوى العربية والاسلامية قد بدأت تعطي ثمارها ، وحتى طراً تغير كبير على الأوضاع السائدة في البلاد .

والواقع ان اواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، شهدت ثلاثة احداث هامة كان لها اثرها في تطور ذلك الصراع التاريخي بين الشرق والغرب ، اولها زحف حنا كومنينوس سنة ١١٣٧ هـ ١١٣٢ م على انطاكية وارغام اميرها ريموند دي بواتيه على ان تبعيته للامبراطور البيزنطي ، واتفاقها معاً سنة ١١٣٨ هـ ١١٣٣ م على القيام بحملة كبرى على البلاد الاسلامية لتحطيم قوة عماد الدين زنكي في حلب ، وامارة بني متقذ في شيزر ، وانتزاع حصص من أتابكة دمشق ، واقامة امارة صليبية في هذه البقاع يتولاها ريموند دي بواتيه مقابل تخليه عن امارة انطاكية للبيزنطيين . الا ان هذه الحملة باءت بالاخفاق ، نتيجة لمقاومة عماد الدين ، والخلاف الذي شجر بين الصليبيين والبيزنطيين ، وفيما بين الصليبيين انفسهم . بيد ان جيش العاهل البيزنطي عاد من هذه الحملة الى انطاكية فاحتلها ، « فتنادى الصليبيون الى مقاومة البيزنطيين الأرثوذكس^٢ » فشبت ثورة عارمة في انطاكية على حنا كومنينوس ورجاله « فتجمع الناس في الطرقات واعتدوا على الجيش البيزنطي الذي أخذ على غرة ، ولم يستطع الامبراطور عندئذ سوى ان يفلت على نفسه ابواب قصره .

١ - يرجح بعض المؤرخين ان يرتقش كان على صلة بخصوص عماد الدين وهم الذين دفعوه الى قتله (انظر : تاريخ الاسلام للذهبي ص ٩٥) وقد هال الناس مصرع عماد الدين حتى لقد صاح اهل قلعة جعبر انفسهم في القاتل : « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله 1 »

٢ - Brehier : l'Eglise et l'Orient au Moyen Age. Les Crisades, p. 324



الامبراطور حنا كومنينوس عن لوحة بالفسييفساء

ليحمي نفسه من غضب الجماهير الثائرة^١ ، وما لبث حنا كومنينوس ان غادر انطاكية ليعود اليها سنة ٥٣٧ هـ ١١٤٢ م بجيش اكبر عدداً واكثر استعداداً ، غير ان الشتاء ادركه فقرر السير الى بيت المقدس للحج ، فأبلغه فولك ان الاوضاع الاقتصادية لا تسمح بنزول جيشه اللجب في الأراضي المقدسة ، وانه اذا كان لا بد من ان يحج الامبراطور فيجب ألا يرافقه اكثر من عشرة آلاف جندي ، فغضب العاهل البيزنطي وقرر القيام بحملة كبرى على الصليبيين في الشام ، ولكن وفاته المفاجئة سنة ٥٣٨ هـ ١١٤٣ م حالت دون ذلك .

وثاني تلك الأحداث هو وفاة فولك الخامس ملك بيت المقدس سنة ٥٣٨ هـ ١١٤٣ م ، وقيام زوجته ميليزاند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث الذي تولى الملك إثر موت ابيه وهو في الثالثة عشرة من عمره ، إذ فقد الفرنجة بغياب فولك شخصية قوية كانت تفرض سلطانها على جميع الامارات الصليبية ، وحلت محله ميليزاند التي كانت تعمل بوحى اهوائها ومصالحها الشخصية ، ففدا بعض امراء الفرنجة يستعدون عماد الدين على امراء آخرين من الفرنجة ، كما سبق لأليكس زوجة بوهيمند أمير انطاكية ان استعانت به على ابيها بلدوين الثاني بعد وفاة زوجها كي ترث الامارة من بعده ولا ينازعها في الحكم منازع^٢ .

اما الحدث الآخر فهو استيلاء عماد الدين سنة ٥٣٩ هـ ١١٤٤ م على الرها بعد ان حكمها الفرنجة ستة واربعين عاماً ، رغم « ما هي عليه

١ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٩ .

٢ - الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٣٢ نقلاً عن Runciman: Hist. of the Crusades, T. II, p. 133

من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبها^١ ، ، إثر الجفوة التي ظهرت بين ريموند دي بواتيه صاحب انطاكية^٢ وجوسلين الثاني صاحب الرها^٣ وهي جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين ، حتى كان كل منها يفرح اذا أُلْت بالآخر نكبة^٤ .

وقد سمي هذا النصر « فتح الفتوح » وكان مصدر الهام وابداع لكثير من الكتاب والشعراء ، وما قاله في ذلك ابن القيسراني من قصيدة طويلة :

هو السيف لا يقنيك إلا جيلاده^٥ وهل طوّق الأملاك إلا نجاده^٦
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا سناها وإن فات العيون اتقاده^٧
فيا ظفراً عمّ البلاد صلاحه بمن كان قد عمّ البلاد فساده^٨
سمت قبة الاسلام فخراً بطوله ولم يك يسعو الدين لولا عماده^٩

وأراد عماد الدين ان يصب جام غضبه على اهل المدينة « ليشار للفظائع التي ارتكبتها الصليبيون في بيت المقدس وانطاكية ، ولكن مروءته تغلبت على سخطه^٤ ، فعامل السكان خيراً^٥ معاملة ، وشمل المسيحيين بحمايته ، فأحاطهم بعطفه ورعايته ، وشعر السريان والأرمن الأرثوذكس

١ - مفرج الكروب ج ١ ص ٩٤ .

٢ - كان فولك درق انجو الذي خلف بلدوين الثاني على عرش بيت المقدس قد رأى ان يتخلص من مؤامرات اليكس أرملة بوهيمند بزفها الى ريموند دي بواتيه ، وهكذا غدا ريموند أميراً على انطاكية .

٣ - نور الدين والصليبيون ص ٣٤ نقلا عن Stevenson: Crusades, p. 149 و G. T, p. 709

٤ - مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٧ .

الذين كانوا قد غادروها قبلاً ، بالاطمئنان ، فعادوا الى مدينتهم ' .

وقد استقبل العالم العربي والاسلامي بالابتهاج هذا الانتصار الذي احدث
ثغرة في صرح الاحتلال الفرنسي وكان حافزاً جديداً على تجمع قوى
المقاومة في وجه العدوان الأجنبي .

الفصل الخامس

نور الدين محمود والحملّة الصليبيّة الثانية

حدد القدر لكل من الأميرين نور الدين محمود وسيف الدين غازي ولدي عماد زنكي الأرشدين ، هدفه في الحياة ، إذ اقتسما دولة أبيهما ، فألت حلب والرّها للأول ، وغدت الموصل وما يليها للثاني ، فانصرف سيف الدين وهو أكبرهما الى حماية أملاكه من جيرانه المسلمين في الشرق ، واتجه اهتمام نور الدين الى مقاومة الافرنج الذين يحيطون بأطراف ملكه .

وكان اتجاه نور الدين يتلاقى مع يقظة الشعوب الاسلامية التي بدأت تُقدّر أهمية الخطر الأجنبي المتعاظم . وسرعان ما برز الأمير الشاب في حياة بلاده كشخصية فذة ذات أثر فعال في سير التاريخ ، واستطاع ان يفرض حبه واحترامه على اصدقائه وأعدائه جميعاً ، لما امتاز به من فضائل ومكارم ، وما كان يهدف له من آمال كبار تهون عندها صفار الأهواء .

ويبيدي بروكلمان اعجاباً خاصاً بشخصية نور الدين فيقول عنه :

« انه ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل الى حد بعيد جداً^١ . فيينا كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال اجيال عدة ، يعتبرون بمالكهم اقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة ، كان هو اول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالادارة المبارعة والتي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال ، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء - وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة - فحسب ، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش وخانات المسافرين والمستشفيات ودور العلم^٢ .

وقد تمكن نور الدين بهذه الروح الطيبة الصافية من أن ينزع الغل والحقد من قلوب مجاوريه من الأمراء ، وان يوفق بينهم الى حد كبير ، وكان يأبى محاربتهم حتى وان اعتدى بعضهم عليه ، وانما يشتد في مقاتلة الفرنجة ليعوض عن خسائره لدى المسلمين بمكاسب يحرزها لدى اعداء البلاد .

وهذه السياسة التي اتبعها في محاسنة امراء المسلمين ، قد ذلت له ما استعصى على ابيه . فقد عرفنا ان عماد الدين فارق الحياة وفي نفسه شيء كبير من دمشق ، لأن صاحبها معين الدين أنر كان يرهبه ويخشى

١ - كان عماد الدين زندي مهيباً شديداً الرطاة على خصومه وأهل الفساد ، وصفه العماد الاصفهاني بقوله : « كان جباراً عسوقاً ، بنكباء النكبات عسوقاً ، نمري الخلق ، أسدي الخلق ، لا ينكر العنف ولا يعرف العرف » ويقول محمد كرد علي : « وبعض هذه الصفات قترهت منها نفس ابنه نور الدين عمود ، فانه جمع الصفات الحسنة في ابيه وتجرد عن الصفات البرديثة فيه - انظر خطط الشام ج ٢ ص ١٧ » .

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

إن هو تقرب منه أو استسلم له ، ان يقتله أو ينتزع ملكه منه ، فأزال نور الدين ذلك الجفاء القديم ، واتخذ مع أنر سبيل الملاينة ، وتزوج من ابنته توطيداً لأواصر المودة بينها .

إلا ان أنر ما فقه يحاذر من نور الدين ، ويصانع الصليبيين ويوادعهم ، حتى اسفر هؤلاء عن مطامعهم ، ومزقوا الحلف القائم بينه وبينهم ، في محاولة قاموا بها للاستيلاء على حوران ، استجابة لدعوة واليها التونتاش الذي اعلن انفصاله عن دمشق ، وأملاً في اتخاذ هذه المنطقة قاعدة لهم يتوغلون منها في بلاد الشام ويحتلون عاصمتها ، مما اضطر أنر الى الاستعانة بنور الدين فأعانه بجيش كثيف ، واحتل الأميران المنطقة قبل وصول القوات الصليبية الطامعة بها . ولما وصلت هذه القوات وهي على اسوأ حال من الاعياء والظماً ، رأت ان الجيوش الاسلامية قد سبقتها الى مراكز المياه ، فاشتبكت معها في السابع والعشرين من محرم سنة ٥٤٢ هـ ١١٤٧ م في موقعة خاسرة ، وحينئذ لم تجد بداً من العودة الى بيت المقدس ، مخافة ان تنتقل الجيوش الاسلامية الى الهجوم على المملكة الصليبية وقد شارفت حدودها .

ولم يشأ أنر تعقب تلك الحملة الصليبية وهي على تلك الحال من التضعف والانهيار ، إلا انها لم تسلم من تعرض المواطنين والجنود لها في معارج الطرق . ولم ير الصليبيون بداً من ان يبعثوا بمبعوث من قبلهم يتقن اللسان العربي ، ليسأل أنر ونور الدين ان يأذنا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة الى بيت المقدس ، فلم يُقدّر لهذا الرسول تأدية رسالته ، إذ عوجل في الطريق على يسد نقر من المسلمين أردوه قتيلاً ، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم اخطار الطريق ، وبعد الشقة ، وتربص العصابات لهم ، وقلة ما بيدهم من الزاد . وهنا قظهر حادثة تتجلى فيها روح الفروسية التي امتاز بها العصر الوسيط ،

فقد وصل الى الصليبيين مبعوث من قبل أنر يقدم بالمؤونة اللازمة حتى يعودوا الى بلادهم ، كما جاء فارس عربي يبصرهم مسالك الطريق^١ .

وهكذا حل محل الحلف الصليبي الدمشقي ، الحلف بين نور الدين وأنر ، هذا الحلف الذي فرضته الأحداث وسياسة نور الدين الرشيدة ، وهو الأمر الذي كان الافرنج يتهيؤونه وقد مهدوا له يجشمهم وسوء تصرفهم . فلما بلغت الحملة الصليبية الثانية بلاد المشرق ، وجدت أمامها هذا الحلف القوي الذي يؤلف سداً فولاذياً في وجوه المعتدين .

ذلك ان سقوط الرها سنة ٥٣٩ هـ ١١٤٤ م في يد عماد الدين ، قد أثار في الغرب موجة جديدة من الحماسة والفرع ، فنهض البايا اوجاتيوس الثالث يحاول تمثيل الدور الذي لعبه اوربانوس الثاني ، داعياً الدول الاوربية الى حملة صليبية جديدة ، ووجد في القديس برناردوس داعية له فأخذ يطوف اوروبا الغربية مستنهضاً العزائم مستشيراً الهمم ، فلبى النداء هذه المرة ملكان عظيمان هما كونراد الثالث امبراطور المانية ولويس السابع ملك فرنسا ، وكان جيش كل منهما يتألف من حوالي سبعين الف رجل . وكان السبب في استجابة لويس السابع للنداء كما يقول فليب مير ان ضميره كان يؤنبه على القسوة التي عامل بها نفراً من رعيته خرجوا عليه ، فأراد ان يكفر عن ذنبه باشتراكه في تلك الحملة^٢ .

وقد اثارت الحملة الصليبية الجديدة مخاوف عمانوئيل الأول امبراطور

١ - نور الدين والصليبيون ص ٤٨ ، وينهب الدكتور حبشي الى ان هذه البادرة تدل على ان أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين ، وانه كان يخشى ان تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النودي .

٢ - التاريخ العام ص ٢٤٨ .

بيزنطية وحفيد الكسيس كومنينوس ، فأخذ ينتظرها في قلق شديد . يقول الدكتور اسد رستم : « ووصل الألمان أولاً وكانوا قد نهبوا ذات اليمين وذات الشمال في اثناء مرورهم في اراضي الروم ، فطلب عمانوئيل الى كونراد ان يعبر جنوده الدردنيل لا البوسفور في طريقهم الى آسية . ولكن كونراد رفض وتابع سيره نحو القسطنطينية . وحطت رحال جنوده خارج اسوارها وسلبوا ونهبوا وأحرقوا . ولم يرض كونراد عن التقاليد المتبعة في التشريفات في القصر المقدس ، فساءت العلاقات بين الكبيرين . ولكن عمانوئيل تمكن من اقناع ضيفه الكبير بوجود الانتقال الى آسية الصغرى ومتابعة السير نحو الأراضي المقدسة . وبعد هذا بقليل في خريف السنة ٥٤٢ هـ ١١٤٧ م أطل لويس السابع يجموعه فحلّ ضيفاً مكرماً على الفيلسوس^١ . واشترك الضيف والمضيف في عيد القديس دنيس في التاسع من تشرين الأول . وساد الحب والتفاهم الأحاديث والعلاقات كلها . ثم طلب عمانوئيل الى لويس السابع وامرأته وأشرفه ان يقسموا بين الطاعة والولاء كما فعل امراء الحملة الأولى . فلم يرض الملك الافرنسي بذلك ، وشاركه في الرفض جميع حاشيته من كبار الرجال . وارتأى احد الأساقفة الافرنسيين أن يُصار الى احتلال القسطنطينية ، ولكن لويس أبى مذكراً الأسقف وغيره بالنذر الصليبي^٢ .

وقد بادر عمانوئيل الاول الى مصالحة الامير مسعود سلطان قونية نكايَةً بالصليبيين ، ومن المؤرخين من يقول انه « بعث بالرسائل الى مسعود يحثه على النهوض لقتال الألمان في الوقت الذي كان يعد العدة

١ . لقب اباطرة بيزنطية .

٢ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

لاستقبالهم ويتظاهر بالاخلاص لهم^١ . ولما وافت الامبراطور البيزنطي انباء الهزيمة التي لحقتها الأتراك السلاجقة بالألمان عند دوريلة^٢ ، زعم للفرنسيين الذين كانوا لا يزالون في القسطنطينية ان الالمان قد احرزوا نصراً ميبناً ، فسارعوا الى مغادرة القسطنطينية للمشاركة في هذا النصر !...

وحيث وصل لويس السابع الى انطاكية في ١٩ آذار (مارس) ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) حاول اميرها ريموند دي بواتيه اقناعه بالزحف على حلب وحماه ، لتوجيه ضربة قاصمة الى نور الدين تقضي عليه او تحدد من مطامحه ، لان مملكته التي ما تفتأ تتسع على حساب المستعمرات الافرنجية ، باتت تؤلف خطراً شديداً على مشاريع الصليبيين . ولكن عوامل متعددة دفعت الملك لويس السابع الى رفض هذه الفكرة ، والاصرار على مغادرة انطاكية للاتحاق بكونراد الثالث الى بيت المقدس . ومن هذه العوامل العلاقة المريبة التي نشأت بين اليانور زوجة الملك لويس السابع وعمها ريموند دي بواتيه أمير انطاكية^٣ ، ولما أصر لويس السابع على عزمه ، رفضت اليانور مرافقته ، وهددت بالطلاق ان هو أبى مرافقة عمها في الحملة على نور الدين ، فأصر على الرفض وغادر انطاكية تحت جنح الظلام .

وفي ٢٨ صفر ٥٤٣ هـ ٢٤ حزيران (يونيه) ١١٤٨ م عقد قادة الحملة الصليبية الثانية من الملوك والأمراء والنبلاء ورجال الدين ، مؤتمراً في بيت

١ - نور الدين والصليبيون ص ٥١ (انظر ايضاً p. 285 Dictionnaire des Croisades)

٢ - Rey: Hist. des princes d'Antioche, p. 367 و Lavissee: Hist. de France, vol

III, pp. 17 - 18



الحملة الصليبية الثانية في شعاب آسية الصغرى

المقدس^١ ، ليقررروا وجهة الجيوش التي جاءوا بها من الغرب ، وقد عرضوا وجوه الرأي كلها إلا ما يتعلق منها بمهاجمة نور الدين ، ثم انتهوا الى اسوأ الآراء وهو مهاجمة دمشق التي كان أميرها أنر ما زال يوادعهم ويطمع بتجديد التحالف معهم ، فقد كان كما يقول غروسة « الخليف الوحيد للصليبيين بين امراء المسلمين في بلاد الشام^٢ » .

ويقول المستشرق لامونت في ذلك : « وعندما جاءت الحملة الصليبية الى الشرق ، وكان هدفها الوحيد استرجاع الرها ، انحرفت عن هذا الهدف نتيجة للخلافات الداخلية والسياسة الأثنية التي اتبعها افرنج القدس الذين عارضوا الحرب في الشمال ، ووجهت للهجوم على دمشق مع انه كان بين دمشق واللاتينيين حلف وثيق دام عدة سنوات^٣ . »

وسرعان ما زحفت على دمشق الجيوش الفرنسية والألمانية وجيوش بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، واحتلت القرى القريبة منها ، وضربت الحصار عليها في السادس من ربيع الأول ٥٤٣ هـ الثاني من تموز (يولييه) ١١٤٨ م .

ولكن أبناء دمشق استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ، ولم يتأخر منهم عن القتال حتى الكهول والزهاد والأئمة والفقهاء^٤ ، وأرسل أنر في الوقت نفسه يستصرخ سيف الدين ونور الدين وغيرهما من امراء المسلمين ، ثم اجتمع بنور الدين عند حصص في أواخر ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ م

١ - نور الدين والصليبيون ص ٥٥ .

٢ - Hist. des Croisades, T 2, p. 255 .

٣ - دراسات اسلامية ص ١٦٥ .

٤ - ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ وكتاب الروضتين ج ١ ص ٥٦ .

واتفق معه على أن يحتل قلعة دمشق فريق من جند حلب لدفع الخطر الصليبي ، شريطة أن يغادرها متى زال الخطر .

وبينما كانت الجبهة الاسلامية آخذة سبيل القوة ، كانت الجبهة الصليبية تتعذر الى الضعف ، بسبب التناقض الذي نشب بين امرائها حول مصير دمشق ، إذ كان كل منهم يطمع في امتلاكها ، وأخذوا يتبايعون ضياعها وجبهاتها ^٢ ، ويذهب مؤرخو تلك الحملة الفرنجة الى ان أثر استطاع ان يرشو فريقاً من امراء الحملة فأنشأوا يشبطون همه كوزراد ولويس ويصعبون أمامها الموقف الحربي ، وأشاروا عليها باخلاء ناحية الفوطة ، وجاز الأمر على الماهلين الأوربيين فانتقلا يجيوشها الى باب كيسان حيث أخذوا يلاقون اكبر المشقة في الحصول على الماء والتخيرة ^٢ ، وهكذا اضطريت صفوف الحملة ، وبدا عجزها ، وقرر ملكا فرنسا والمانية العودة من حيث أتيا .

ويتفق رأي ابن الأثير مع رأي ميشال السوري ^٣ في الدور الذي لعبه معين الدين أنر في التفريق بين « فرنج الشام » وقادة الحملة الصليبية الثانية ، سالكاً طريق الترهيب والترغيب معاً ، قائلاً لهم : « انكم لتعلمون انهم إن ملكوا دمشق ، أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وانه ان شعر بأي عجز عن حفظها سلمها الى سيف الدين ، وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام ، فأجابوه إلى التخلي عن الأوربيين ، واجتمعوا الى الامبراطور والملك ، وخوفوهما من سيف الدين وكثرة

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

٢ - نور الدين والصليبيون ص ٥٧ - ٥٩ .

٣ - Michel Le Syrien, p. 276 .

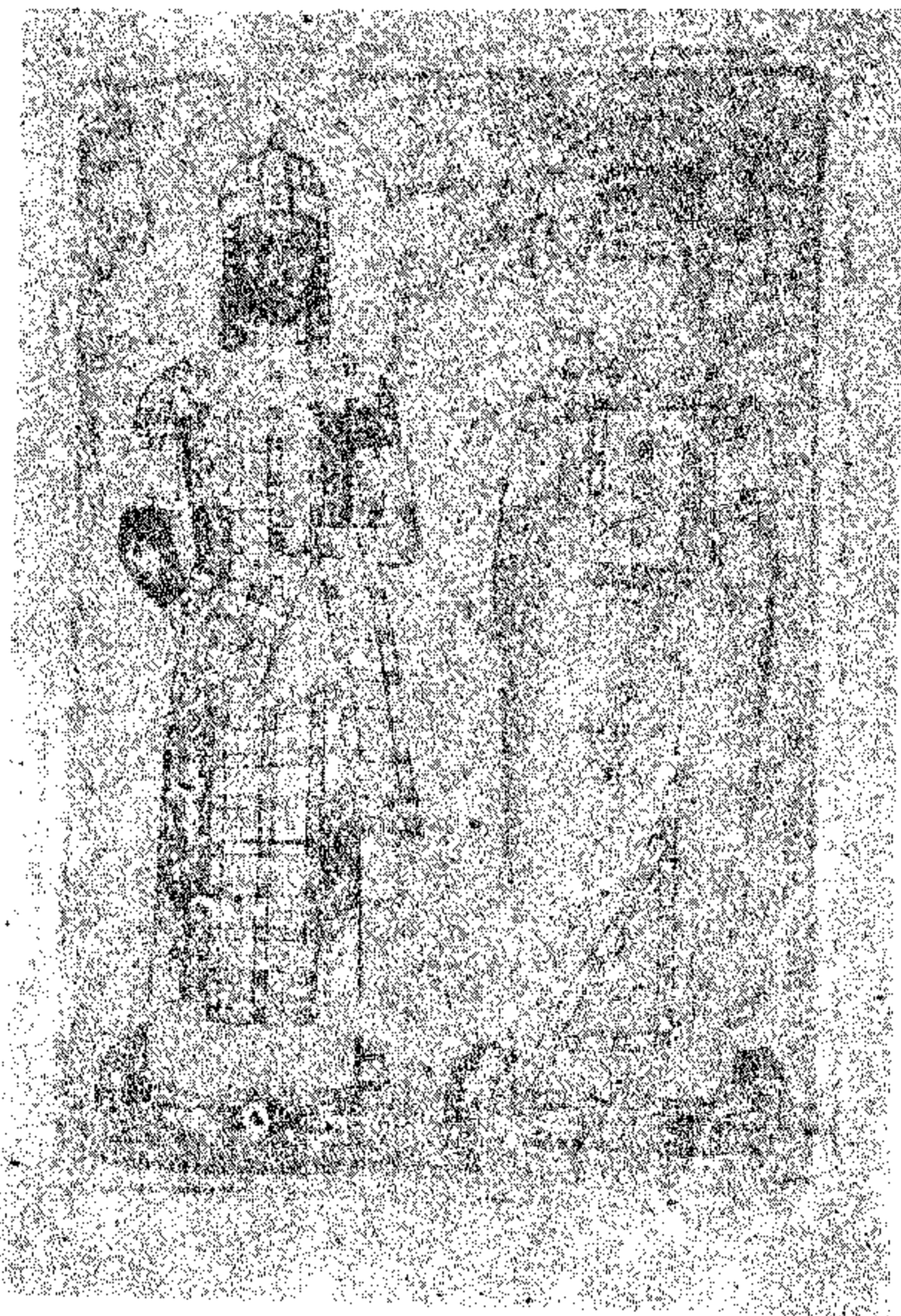
عساكره مع تتابع الامداد اليه ، وأنه ربما تملك دمشق وضعفوا هم عن مقاومته ، وما زالوا بها حتى رحلوا بعساكرهم عن المدينة ، فتسلخواهم قلعة بانياس من أنز كما كان وعدم وارتقدوا من حيث أتوا^١ .

ويجمل الدكتور حسن حبشي العوامل التي أدت الى هذه النتيجة بقوله : « والخلاصة انه اذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربي ، وتضعف قوتهم ونفسياتهم ، واستيلاء اليأس على قلوبهم ، ونهوض نور الدين وأخيه سيف الدين لنجدة أنز ، وبجيء القوات الاسلامية لمعونة دمشق ، وذكرنا النزاع الذي دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها ، وتحرك الأطماع في صدورهم ، ونظرة فرنجة الشام الى الألمان نظرتهم للغريب ، أمكننا ان نحكم بفشل الحملة الصليبية الثانية ، بل ان هذا الفشل تأكد منذ قدومها الى الشرق حين وقف الامبراطور عمانوئيل منها موقفه المتنوي ، ثم نشوب النزاع بين ريموند دي بواتيه وبين لويس السابع ، وعدم مهاجمة حلب رأساً ، مما افاح الفرصة للقوات النورية ان تتأهب للدفاع ، بل وان تتحول من الدفاع الى الهجوم استجابة لاستغاثة انز . لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة من الغرب ان تتلمس السبيل لخروجها سليمة من هذا المأزق الحرج ، فاتفق رأي ملك فرنسا وامبراطور المانية على الرجوع الى بلديهما^٢ . »

أما الدكتور اسد رستم فقد اجمل مسيرة الحملة بقوله : « ولما وصل ملوك الفرنجة الى سورية الشمالية ، رأى ملك القدس ان يتجه الملوك المهامدون نحو دمشق ، فوصلوا اليها في تموز السنة ١١٤٨ وأحاطوا بها

١ - الكامل ج ١١ ص ٥٨ - ٥٩ .

٢ - نور الدين والصليبيون ص ٦٠ .



الامبراطور عثمانوئيل كومنينوس وزوجته ماري الانطاكية

وخرّبوا غوطتها ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة . وأخفقت الحملة الصليبية الثانية ، وعزا امراؤها هذا الاخفاق الى عمانوئيل وحكومته . وعادوا الى الغرب يعدون العدة لحملة ثالثة توجه ضد الروم انفسهم ^١ .

والواقع ان موقف الحذر والمباغضة واساءة الظن الذي وقفه الامبراطور الكيسوس وخلفاؤه من الصليبيين وبادلهم اياه هؤلاء مبادلة تامة ، لم يتغير في وقت من الأوقات . ويقول هامرتن : « وما كان يزيد في تلك المباغضة ان الفرنجة في فلسطين ذاتها ، كانوا يفرقون في المعاملة بين رعاياهم من الكاثوليك ورعاياهم من الارثوذكس (والآخرين يتفقون في مذهبهم مع ابناء الامبراطورية الشرقية) ففرضوا على الارثوذكس الضرائب وأعفوا الكاثوليك منها ^٢ » .

غادرت القوات الصليبية منطقة دمشق ، بعد ان شقت امام نور الدين طريقاً معبداً لتوسيع ملكه وتوطيد سلطانه . والحق ان نور الدين قد اعتبر نفسه بعد تلك الحملة ، القائد المسؤول عن حماية البلاد الاسلامية ، ورأى ان احتلال دمشق ضرورة لا بد منها لتحقيق هذه الغاية على وجهها الأكمل ، مردداً في مجلسه قول ابي بكر : « ايها الناس لا يقعدن بكم عن درء المنكر ان يقول احدكم : علي نفسي ، فتكونوا كركب في سفينة خرقها احدكم فلم يجزوه فهلكوا جميعاً ... » . وادرك ان اهداف نور الدين ، كما ادرك الافرنج الخطر الذي تنطوي

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٢٩ .

٢ - تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، ص ٧٥٥ .

عليه تلك الاهداف ، فعاد التعاطف الى سابق عهده بينهم وبين اتر ، ثم بينهم وبين مؤيد الدين الرئيس ^١ الذي خلفه بعد وفاته سنة ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م . وقد استغل نور الدين ذلك للطعن في مؤيد الدين وجماعته وتشويه سمعتهم امام المواطنين وامام الدماشقة انفسهم . واخذ يعمل على استثارة الهمم واستنهاض العزائم ، منتدياً نفسه للدفاع عن حوران وهي من اعمال دمشق ، ولانقاذ عسقلان وهي من اعمال مصر ، معلناً اسفه لان الصليبيين يهاجمون هذه المدينة وهو لا يستطيع الوصول اليهم ودفعهم عنها ، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ^٢ ، موجهاً الى حكام دمشق اعنف اللوم والتأنيب :

« انني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكايه المسلمين من اهل حوران والعربان الفلاحين الذين اخذت اموالهم ، وشئتت نساؤهم واطفالهم بين الافرنج ؛ وعدم الناصر لهم ، لا يسعني مع ما اعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصره المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجل ، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي بمجزمكم عن حفظ اعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا احداً من المسلمين ^٣ . . »

١ - كان اهل الرأي قد اجتمعوا في منزل معين الدين أتر بعد وفاته ليتداولوا فيمن يخلفه ، وقد انتهى رأيهم الى ان يكون مؤيد الدين الصوفي خلفاً للأتابك الراحل ، ومجير الدين ابق اميراً على دمشق .

٢ - مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٠ .

وما لبث نور الدين ان اعلن عزمه على احتلال دمشق ، الا انه عاد فتخلى عن هدفه هذا لينصرف الى صد هجوم جوسلين على الرها . فعقد مع أبق صلحاً وافق صاحب دمشق بموجبه على اقامة الخطبة لنور الدين من منابر المدينة بعد السلطان وكتابة اسمه على السكة^١ . ثم انتقل الى الرها ليدفع عنها جيوش جوسلين ويأسره (٥٤٥ هـ ١١٥٠ م) وعاد لفوره الى دمشق مجدداً عزمه على احتلالها ، ولكنه اراد احراج صاحبها امام الرأي العام الاسلامي فكتب اليه قائلاً : « أنا ما أؤثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين ، وخلص من في ايديهم من الاسارى ، فان ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الامر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار والمراد^٢ » .

ولم يجب مجير الدين أبق على كتاب نور الدين ولكنه ارسل الى ملك بيت المقدس يستنجد به ، وكان بلدوين الثالث « بلدوين » بعد ان تحرر من وصاية امه ميليزاند^٣ قد عرض عليه العودة الى الحلف القديم ، ورأى أبق ان نور الدين اشد خطراً عليه لان ملك الفرنجة كان يتجه باطماعه الى مصر . واتفق الحليفان على ان يخرجوا جيوشها الى بصرى

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

٢ - المرجع السابق ص ٣١٣ .

٣ - رفضت ميليزاند ان تتنازل لابنتها بلدوين الثالث عن العرش بالرغم من بلوغه سن الثانية والعشرين ، ثم وافقت على ذلك تحت ضغط الرأي العام ، الا انها طلبت من بطريك القدس ان تتوج مع ولدها دلالة على مشاطرتها له اعباء الملك ، ودعا بعض انصار الملك الى ان تقسم المملكة معه ، الا ان بلدوين رفض ذلك وأجل موعد تنويحه ، ثم فاجأ البطريرك بدخوله الى كنيسة القيامة منفرداً وطلب منه تنويحه ملكاً على مملكة بيت المقدس ، فاضطر البطريرك الى تنفيذ طلبه ، وانقسمت البلاد إثر ذلك بين مؤيد للملك الشاب ونصير لأمه ميليزاند ، واصطدم الفريقان في حرب اهلية انتهت بانتصار بلدوين واقرار الصلح بين الفريقين .

في منطقة حوران ، لاستدراج نور الدين الى هناك وابعاده عن دمشق .
وكان نور الدين قد بعث بقسم من جنده الى حوران لنجدة سرجبال
عامله في بصرى وقطع الطريق على الافرنج فيما اذا قصد جيشهم تلك
الناحية . وجاء جيش الفرنجة تلبية لطلب صاحب دمشق وتنفيذاً لخطته ،
ولكن جيش أبق لم يوافه الى حيث دعاه . فاصطدم الصليبيون مرة
بجند نور الدين ومرة بجند سرجبال ، وهزموا في كلتا الموقعتين ،
فجمعوا قلوبهم وعادوا الى بيت المقدس خائبين ناقلين على صاحب
دمشق .

وتقدمت جيوش نور الدين شطراً دمشق حتى شارفتها دون أن
يحرك أبق ساكناً ، ولا ريب في انه كان على يقين بأنه اضعف من ان
يقاوم خصمه ، لاسيما وان هذا الخصم كان قد ظفر بمكانة لا تضاهى في
قلوب المسلمين ومنهم ابناء دمشق الذين أخذوا ينظرون اليه كبطل من
ابطال الاسلام وولي من اولياء الله الصالحين ويتناقلون عنه رائع القصص
والاساطير . وهكذا نرى أبق يسارع الى عقد الصلح مع نور الدين
(١١٥١ هـ ١١٥٦) ويدخل نور الدين دمشق دون قتال ، ويغدو أبق
تابعاً له .

لقد خطا نور الدين بذلك الصلح الخطوة الاولى نحو ضم دمشق قلب
البلاد الاسلامية ومفتاح طرقها ، وكانت الخطوة التالية انه انشأ يكاتب
أبق من حلب متظاهراً بأنه ينحصر بالحرب والرعاية ، موغراً صدره في
الوقت نفسه على كل من توم في التمسك باستقلال دمشق ومقاومة
ضمها الى مملكته ، حتى قضى عليهم جميعاً . وحينئذ عاد نور الدين الى
قطع المؤونة عن دمشق حتى جاع الناس ونقموا على أبق ، ثم بادر الى
محاصرتها متخذاً من اضطراب المدينة ذريعة لاحتلالها . وادرك مجير
الدين أبق الخطأ الذي ارتكبه حين وثق بنور الدين واطمأن اليه وقضى

على خصومه في دمشق ، فبادر الى الاستغاثة مرة جديدة ببلدوين الثالث ،
متمهداً بأن يتخلى له عن بعلبك وبعض نواحي البقاع إن هو ردّ الخطر
النوري عن دمشق .

ولكن نور الدين لم ينتظر وصول الافرنج ، بل سارع الى مهاجمة
المدينة ، وما لبث ان دخلها بمساعدة انصار له في الداخل فتحواله الباب
الشرقي وباب توما ، دون ان يضطر الى اراقة الدماء . « ولما دخل
نور الدين صاح اصحابه : « نور الدين يا منصور » وامتنع الاجناد
والرعية عن القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه للرعية
ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره ^١ .

كان ذلك في ربيع الاول سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ ايار (مايو) ، وقد
استقبل نور الدين بالتهليل والتكبير ومنحه الخليفة العباسي لقب الملك
العادل . وخشي مجير الدين ابقى على حياته فاعتصم بالقلعة ، ثم فاض
نور الدين على الاستسلام له مقابل ان يقطعه مدينة حمص ، فوعده
بذلك ، ولكنه ما لبث ان غادر بلاد الشام الى بغداد وبقي فيها حتى
مات سنة ٥٦٤ هـ ١١٦٨ م .

وهكذا « صفت الممالك بالشام لنور الدين ^٢ » ، وحقق حلم ابيه
عماد الدين زنكي ، بل حقق ارادة الشعوب العربية والاسلامية التي عرفت
النتائج الاليمة التي ادى اليها الخلاف والفرقة بعد تمزق الامبراطورية
العباسية الى عشرات الامارات والدويلات . واصبحت مملكته تمتد من

١ - خطط الشام ج ٢ ص ٣١ .

٢ - مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٨ .

دمشق الى الرها ، وتؤلف سداً منيعاً أمام عدوان الفرنجة ، وبدأ في ملحمة الصراع بين الشرق والغرب تحول خطير ، ويمكن القول ان سيرة نور الدين محمود كانت حداً فاصلاً بين مرحلتين من مراحل ذلك الصراع العنيف بالنسبة لأبناء الشرق : مرحلة التقهقر والتخاذل والاستسلام ، ومرحلة القوة والعزيمة والثبات التي بدأت مع صعوده الى ذرى الجهد .

وقد أطرى الشعراء نور الدين وتغنوا بآثره وأثنوا على شجاعته وبلائه ، ومن قصائد العماد الأصفهاني فيه قوله :

عقدت بنصرك راية الايمان وبدت لعصرك آية الاحسان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد الليوث وفارس الفرسان .
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوي التيجان .
أحلى أمانيك الجهاد وإنه لك مؤذن أبدأ بكل أمان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها قد سار في الآفاق والبلدان
قتصت قومصهم رداءً من ردى وقرنت رأس برنصهم بسان
وملكت رق ملوكهم وتركتمهم بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلاهم وسحبتم هوناً على الأذقان

على ان وجوه العظمة في شخصية نور الدين لم تقتصر على انه ظل عشرات السنين من حياته الحافلة مرابطاً للعدو ملازماً للجهاد ، يابى ان يستظل بجدار حق يثار لبلاده وقومه ، فان مجده في السلم فاق مجده في الحرب ، وكان مثال الحاكم العادل الذي يتحرى الحق والانصاف ، وقد أنشأ دار العدل في دمشق فصارت ملجأ المظلومين من اقاصي البلاد ، وقرب العلماء واکرمهم واحسن اليهم ، وما تزال المدارس والمساجد والخانات والبيمارستانات التي بناها وأوقف لها الاموال قائمة في بلاد الشام حتى الآن .

الفصل السادس

الملك العادل والامارات الصليبية في المشرق

كان بين نور الدين وجوسلين الثاني الفارس الصليبي الشهير ، عداً قديم لا تحبو ناره حتى تشتعل وتضطرم من جديد . فمئذ وفاة ابيه عماد الدين سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) واقتسام مملكته بينه وبين اخيه ، اعتقد جوسلين الذي كان ما يزال يحتفظ ببعض اعمال الرها ، ان الفرصة سانحة لاستعادة هذه المدينة من ايدي المسلمين ، فقام بمحاولة جريئة للاستيلاء عليها ، ولكن نور الدين نهد له من حلب واضطره الى الفرار .

وانتظر جوسلين الثاني اربع سنوات ، ثم انتهر فرصة اهتمام نور الدين بأمر دمشق سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م ليهاجم الرها من جديد ، مما دفع نور الدين الى مصالحة أبق كما رأينا ، والانطلاق الى الرها لصد عدوان جوسلين الثاني وأمره وساقه الى حلب حيث ظل في الأسر تسع سنوات . وقد قال ابن القيسراني في ذلك من قصيدة طويلة :

دعى ما ادعى من غره الأمر والنهى فما الملك الا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار في صهوة العلى فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر

ومنها :

أتى رأسه ركضاً وغودرشلوه وليس سوى عافي النسر له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة هي الفتك لولم تغضب البيض والسمر

وتولت بياتريس زوجة جوسلين الثاني - بعد أسره - حكم ما تبقى من
امارة الرها ، الا ان نور الدين بادر الى انتزاع عزاز وحارم منها ،
وكانه اراد ان يقيم على طول الحدود حاميات تحول دون تقدم النجدات
الصليبية فيما اذا اشتبك مع بياتريس في حرب فاصلة لاستخلاص بقية
الامارة . وهرع بلدوين الثالث لنجدة بياتريس ، ولكنه ادرك ان قواته
اضعف من ان تنتصر على قوات نور الدين ، فكتب الى عمانوئيل الأول
امبراطور بيزنطية يطلب مساعدته في نصرته الأميرة المهتدة . ورحبت
الدولة البيزنطية بهذا الطلب بغية ان تقوي حدردها وتخومها ، عساها
تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معاً في هذه المنطقة يوماً ما ،
وما لبث عمانوئيل الأول ان عرض على بياتريس التي هربت الى قل باشر ،
ان تبيعه ما بقي تحت حكمها من امارة الرها ، وأغدق عليها الوان
الهدايا والوعود ، فأثار هذا العرض جدلاً كبيراً بين قادة الصليبيين ، اذ
استنكر بعضهم بيع الامارة الصليبية الى العاهل الذي كان في اعتقادهم
مبياً في اخفاق الحملة الصليبية الثانية ، كما كان ابوه ألكسيس كومنينوس
مبعث قلق شديد ومصدر خوف دائم للحملة الصليبية الأولى . الا انهم
لم يجدوا بداً آخر الأمر من اقناع الأميرة بالموافقة على بيع قل باشر
وسميساط وروم قلعة والبيرة ودلوك وعنتاب وراوندان - بالاضافة الى
« حقوقها » في البقاع التي كانت تابعة لامارة الرها واستولى المسلمون عليها ،

١ - نور الدين والصليبيون ص ٧٧ .



لامبراطور بيزنطية للتخلص من عبء الدفاع عنها ^١ .

وكان الخصم الثاني لنور الدين ريمون دي بواتيه امير انطاكية الذي شد ما حاول اقتناع لويس السابع بتوجيه الحملة الصليبية الثانية الى حلب بدلاً من ان تتجه الى دمشق حيث اخفقت وهزمت . وقد اشتبك هذان الحصان في القتال مرتين ، فكان القتال سجلاً بينها ، ثم اشتبكا سنة ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م في معركة ، وكانت قوات ريمون دي بواتيه قليلة العدد ، فنصح احد الاسماعيليين ^٢ بانتظار المدد قبل ان يلتحم مع نور الدين في قتال ، الا انه لم يعمل بهذه النصيحة ونازل قوات نور الدين اللجبة بقواته القليلة ، فهزم جنوده وقتل في المعركة بيد اسد الدين شيركوه ^٣ وقتل معه رينو صاحب مرعش وكيسوم ، وعلي بن وفا الزعيم الاسماعيلي الذي كان يرافق الصليبيين في تلك المعركة ^٤ .

لقد حدث ذلك كله قبل ان يستولي نور الدين على دمشق سنة ٥٤٥ هـ ١١٥٠ م ، اما بعد هذه السنة الفاصلة في مجرى التاريخ ، فقد اشتد

١ - كان الامبراطور البيزنطي قد اعتقد بأن شراءه تلك البقية الباقية من اعادة الرها سيتيح له التوسع في الاطراف الشرقية من مملكته ، لكنه سرعان ما تم التحالف بين مسعود سلطان سلاجقة الروم ، وزوج ابنته نور الدين محمود ، وقرناش الارمني صاحب ماردين ، على اقتسام تلك المنطقة ، فاستولى كل منهم على قسم منها ، وذلك قبل مضي عام واحد على شرائها من قبل الامبراطور .

٢ - كان الاسماعيليون ينقمون على نور الدين انه ابطل من الأذان «حي على خير العمل» ومنع التظاهر بسب الصحابة ، ويتحينون الفرص للقضاء عليه (انظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٨٢) .

٣ - هو عم صلاح الدين الايوبي كما سيرى في الفصول الآتية .

٤ - Chroniques du Miché, T III, p. 289

التنافس بين امبراطور بيزنطية وملك بيت المقدس على رعاية كونستانس ارملة ريمون دي بواتيه التي آلت اليها امارة انطاكية ، فبادر الأول الى خطبتها لأمير من اقربائه ، بينما عقد الثاني مجمعا في طرابلس بحضور كونستانس ضم قادة الصليبيين لاستعراض اسماء الأشخاص الطامحين الى الزواج منها ، اما هي فقد رفضت جميع هؤلاء ، كما اعتذرت من عمانوئيل الأول عن الزواج من قريبه ، واختارت فارسا جميلا هو رينو دي شاتيون (ارناط) الذي عقد له عليها سنة ٥٦٨ هـ ١١٥٣ م .

وحكت كونستانس انطاكية باعتبارها وصية على ابنها بوهيمند الثالث ، وكان زوجها رينو دي شاتيون يشاركها في الحكم ، وقد ادت اعماله المعادية للدولة البيزنطية الى غضب الامبراطور عمانوئيل الاول ، ولا سيما حين تعرض لرجال الدين الارثوذكس في انطاكية وقبرص وأطراف آسية الصغرى في حملات متعددة قام بها ضد الممتلكات البيزنطية ، وقد افاضت المراجع فيما فعله بأهل قبرص من قتل وتخريب ، حتى انه جدد انوف رجال الكنيسة واصل آذانهم وقطع ألسنتهم امعانا في التشفي والانتقام ، فخرج الامبراطور سنة ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م لتأديبه في جيش لجب بعث الذعر في قلبي الزوجين الطائشين ، فأرسلا يستنجدان ببلدوين الثالث ، ولكن ملك بيت المقدس تردد في انجادهما ، ولم يجد رينو دي شاتيون سبيلا لأنقاذ نفسه من الأمر او القتل فيما لو اشتبك مع الجيش البيزنطي في القتال سوى ان يعلن خضوعه لعاهل بيزنطية ويلتمس منه العفو والغفران ، فخرج الى المصيصة حيث عسكر الجيش البيزنطي ، حافيا حاسر الرأس ، وركع امامه خاضعا ، وقبل يده مستغفرا ، معلنا قبوله ان يكون تابعا اقطاعيا للامبراطور ، مبديا استعداداه للخلع

البطريرك الكاثوليكي في أنطاكية وتنصيب بطريرك ارثوذكسي^١ مكانه ،
ويضيف الدكتور اسد رستم ان رينو رضي بتسليم قلعة انطاكية للماهل
البيزنطي^٢ .

ويبدو ان هذا الاستسلام الصليبي او بالأحرى الكاثوليكي امام عاهل
بيزنطية ، اي امام الارثوذكسية ، الذي شهدته كما يقول ولیم الصوري
وفود عديدة بينها وفد من قبل نور الدين محمود وآخر من قبل الخليفة
العباسي^٣ ، لم يرق لبلدوين الثالث ، فشخص من بيت المقدس الى
المصيصة ، ودخل فسطاط عمانوئيل الأول وهو ممتط جواده ، فاستقبله
عمانوئيل مرحباً ، وبادره بلدوين بالدعوة الى التكاتف بين الدولة البيزنطية
والامارات الصليبية في وجه نور الدين ومطامحه الخطرة .

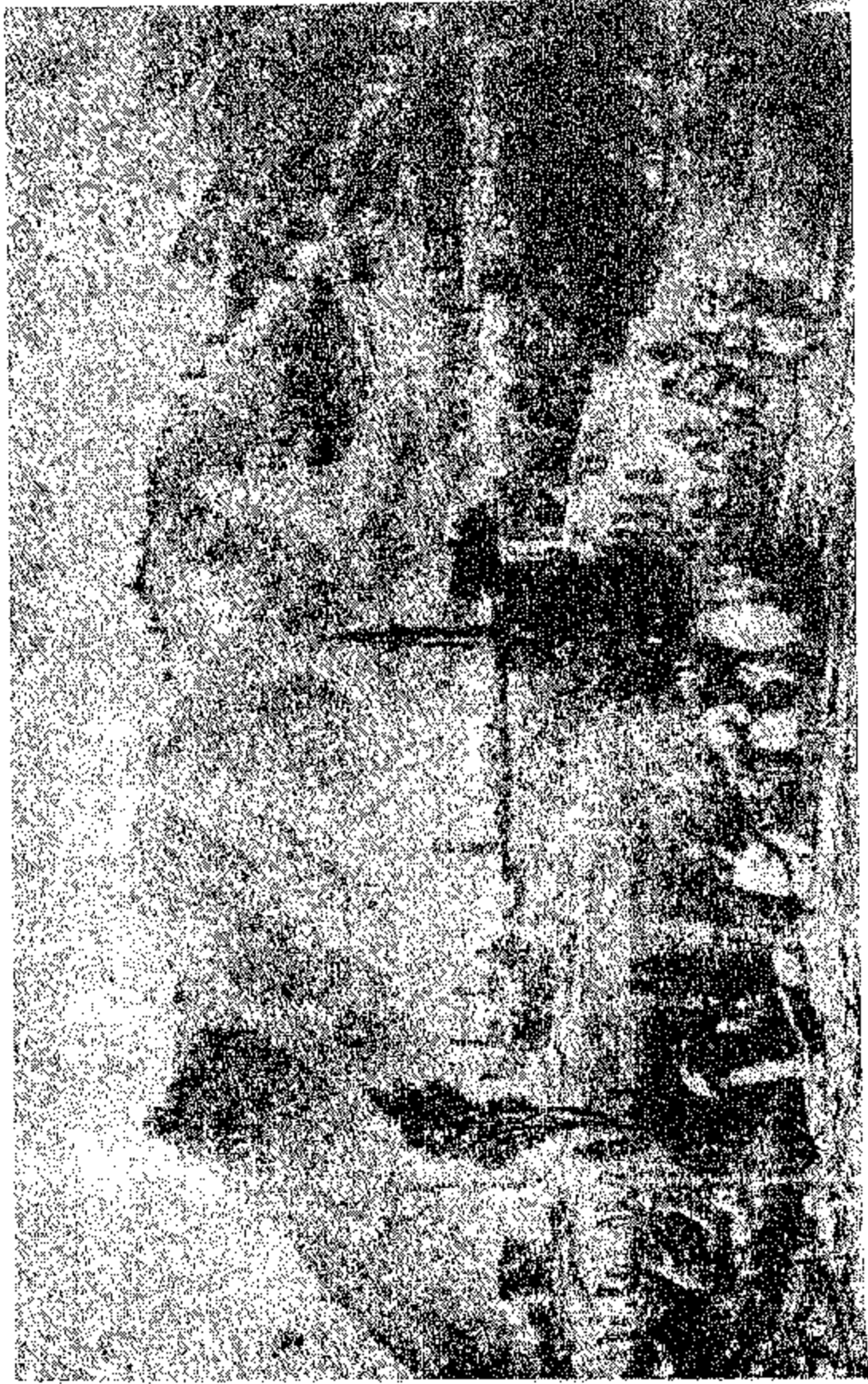
الا ان الامبراطور البيزنطي قد خيب آمال بلدوين والصليبيين جميعاً ،
إذ ما لبث اثناء اقامته في انطاكية محاطاً بكل مظاهر العظمة والمجد ،
ان عقد في جمادي الأولى سنة ٥٧٤ ١١٥٩ م حلفاً مع نور الدين ،
وارسل اليه الهدايا النفيسة من الجواهر والخيول وأثواب الحرير والديباج .
وبالرغم من القوة التي يتمتع بها الملك العادل فإنه « آثر الصلح مع مانويل
حتى لا يجعل مملكته بين عدوين^٤ » ، وبأدر الى اطلاق سراح ستة آلاف

١ - شغل البطريرك الارثوذكسي اثناس الثاني كرسي انطاكية من سنة ١١٦٥ الى سنة
١١٧١ ، وقد أغضب ذلك رجال الدين الكاثوليك وأثار فتنة وقلقاً لدى عامة الصليبيين استمر
طوال تلك الفترة - انظر Michel Le Syrien, pp. 326 - 332 .

٢ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٢ .

٣ - Guillaume de Tyr, p. 860 .

٤ - نور الدين والصليبيون ص ٨٦ .



الطراكية في عهد الحروب الصليبية ، عن لوحة قديمة

من اسرى الافرنج^١ . أما عمانوئيل فكان « يجري على السياسة التقليدية التي رمت دائماً الى توازن القوتين الاسلامية والصليبية في الشام ، بحيث لا تطفى احدهما على الأخرى طغياناً يهدد مصالح الامبراطورية البيزنطية ومطامعها^٢ » ولا شك كما يقول الدكتور سعيد عاشور : « ان تجارب الامبراطورية البيزنطية مع الصليبيين علمت اباطرة القسطنطينية أن الصليبيين عدو خطير للامبراطورية ، وانهم لا يتجهون اليها الا في أوقات الحاجة والشدة^٣ » ويرى شالاندون ان امبراطور الروم وجد نور الدين خير كابح لجناح اللاتينيين الذين كانوا يرغبون بالاعتراف بسلطانه حينما يتهددم خطر من الشرق . وعلى هذا الاساس قرر الامبراطور عدم محاربة نور الدين . وعلى كل حال فقد عقدت هدنة بين الفريقين ، واصبح نور الدين متحرراً من مشاغله فسار الى مكة لاداء فريضة الحج التي كان ينوي القيام بها منذ سنوات^٤ .

يقول الدكتور حسن حبشي : « وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين اطلاق يد المسلمين في الأعمال الصليبية ومكايده صليبي الشام ، ولعل الاتفاق قد تم بينها على ان يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون نيابة عن الامبراطور . ومن الدليل على ذلك انه حدث ان علم رينو بوجود عدد من الماشية والأغنام لبعض المسلمين فيما بين مرعش ودلوك من اعمال امارة الرها ، فقام في نوفمبر ١١٦٠ م وخرج في شردمة ضئيلة للاستيلاء عليها ، وقد تربص مجد الدين بن الداية

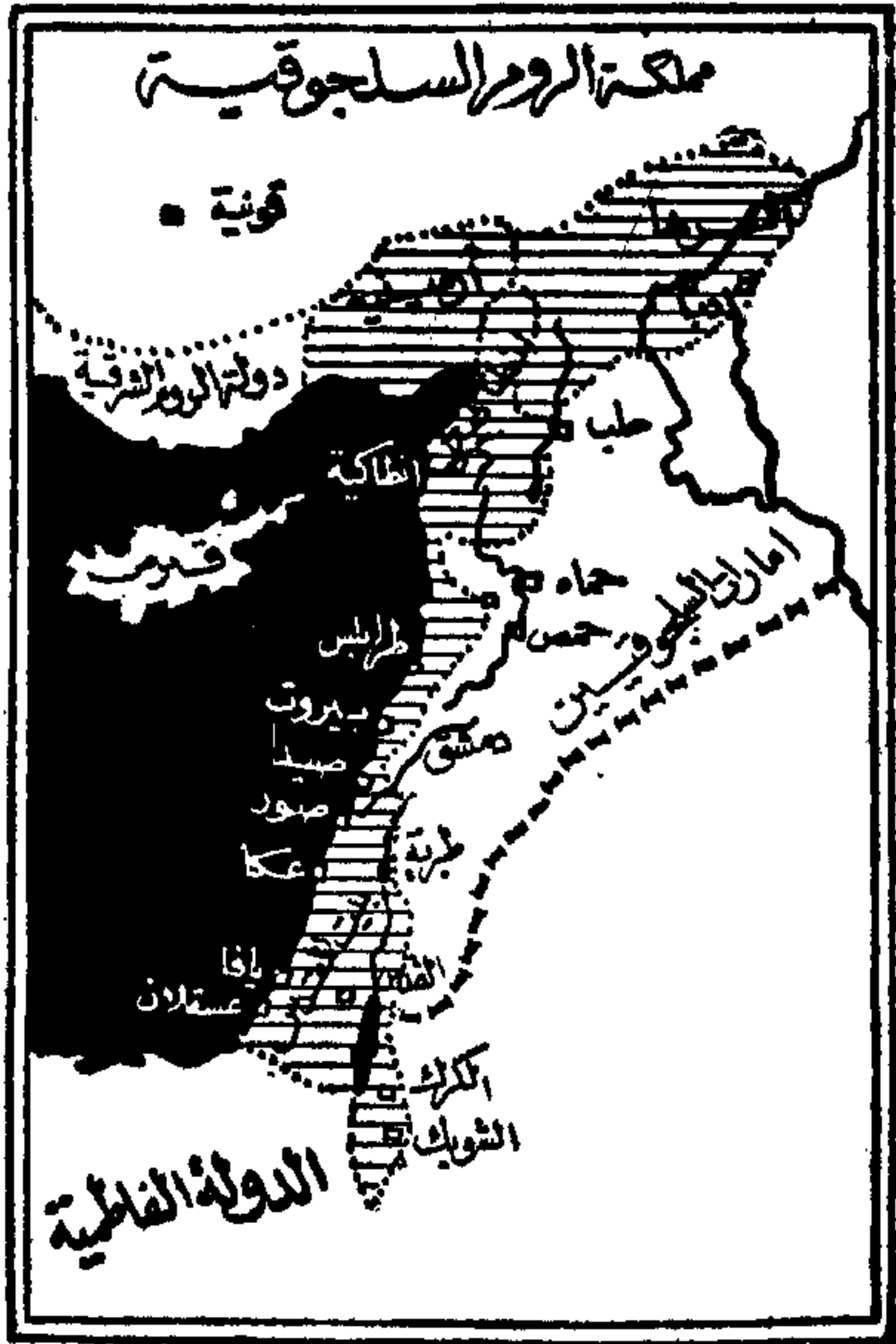
١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ - نور الدين والصليبيون ص ٨٧ .

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٦ استناداً الى Runciman : Hist. of the Crusades,

T 2, p 355

٤ - دراسات اسلامية ص ١١٦ .



الامارات الصليبية وما جارورها

عامل نور الدين. على حلب لرينو في الطريق وهاجمه وأحاط به وبين معه ، واستطاع اخذه اسيراً حيث بقي في سجن حلب الى سنة ١١٨٦ م ، اي الى ما بعد موت نور الدين ، دون ان يتحرك الامبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الاقطاعي ، وهكذا ادت رعونة شاتيون الى جلب الخطر على نفسه وعلى الامارة المنكوبة به ، إذ اوقع البلاد في يد الوصية ، لا سيما وان ابنها بوهيمند الثالث لم يزل غلاماً حدثاً لا يستطيع ان يأخذ مقاليد الأمور في يديه او يدير شؤون الامارة كما ينبغي . وعند ذلك خشي بلدوين الثالث ان يقدم نور الدين على ضرب إمارة انطاكية والاستيلاء عليها بعد ان تمكن من اسر اميرها وإذلاله ، كما انه خشي قددخل مانويل في امورها بحجة تعيين من يقوم مقام شاتيون ، ولذا ذهب بلدوين الى بيت المقدس وجعل الوصاية في يدي البطريرك امري ليمجوس .

ورأى الملك العادل ان مهاجمة انطاكية وقد غدت في حماية بلدوين الثالث ، ستؤلب عليه القوى الافرنجية كلها ، فتخلى عن ذلك منتظراً حتى توفي بلدوين الثالث واعترم شقيقه أموري الاول (امريك) الذي خلفه في الملك القيام بحملة على مصر ، وخرج في تلك الحملة على رأس جيش لجلب ، كي ينهض بدوره للجهاد في شمال سورية ، بعد ان دعا سائر الامراء لمؤازرته في تلك المهمة ، واتجه سنة ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م بتلك القوات الكثيفة الى حارم المؤدية الى انطاكية ، فسرى الذعر في القوات الافرنجية بامارة انطاكية والامارات المحالفة لها ، وتنادى قادتها الى الدفاع عن انفسهم دفاع المستميت ، وخرجوا للقاء نور الدين يتقدمهم بوهيمند الثالث الأمير الشاب .

ولما بلغت انباء الزحف النوري قسطنطين كولمان حاكم قليقية البيزنطي ، اعتبر الهجوم على انطاكية اعتداء على الدولة البيزنطية التي اعترف رينو دي شاتيون بتابعيته لها ، فسار الى ملاقاته نور الدين في حارم ، فانكفا هذا الى ارتاح ، وظن بوهيمند ان نور الدين قد تهيّب منازلته فلهق به للقضاء عليه ، ونصحه قواده بالآ يفعل ذلك ، ولكنه أصر على مطاردة نور الدين ليهزمه ويسحق جيوشه ، واذا بالقوات الاسلامية ترتد عليه شمال شرقي حارم قرب بلدة عم ، فتأسره وتأسر معه عامل بيزنطية على ارمينية ورعيوند الثالث امير طرابلس ، وتنزل بالقوات الافرنجية هزيمة منكرة ، ثم تنقض على حارم فتستولي عليها وتصبح الطريق الى انطاكية ممهدة امامها خالية من كل عائق .

ولكن على الرغم من ذلك ، ومع ان اموري الأول كان ما يزال في مصر ، فان الملك العادل لم يشأ متابعة الطريق الى انطاكية لاحتلالها ، منتهزاً فقدان العائق وغياب العدو ، لأنه كان على يقين بأن اموري لن يلبث حتى ينجد انطاكية ، ولأنه كان يتجنب تحالف الصليبيين والبيزنطيين لقتاله ، وقد التفت الى من معه من الأمراء والقواد الذين كانوا يزينون له متابعة الزحف المظفر قائلاً : « اما المدينة فأمرها سهل ، واما القلعة فثينة ، وربما سلموها الى ملك الروم ، ومجاورة بيمند احب الي من مجاورة صاحب قسطنطينية » .

والواقع ان اموري ما لبث ان عاد من مصر وشخص لفوره الى انطاكية بعد ان ضم اليه قوات كونت فلاندرز اخي زوجته ، واخذ يرسل نور الدين بشأن الاسرى ، فبادر الملك العادل الى اطلاق سراح

١ - الكامل ج ١١ ص ١٣٦ .

بوهيمند الثالث لأن بقاءه اميراً على انطاكية اخف وطأة من وصاية اموري على الامارة . غير ان بوهيمند كان على يقين بأن نور الدين لم يوقف زحفه عند ابواب انطاكية ، ولم يبادر الى اطلاق سراح الأمير الشاب ، الا تجنباً لاغضب امبراطور بيزنطية ، ورغبة في مهادنته وموادعته ، بدليل ان رينو دي شاتيون الذي غاضب الامبراطور ظل يرسف في قيود الأسر . على ان الدكتور اسد رستم يذهب الى ان عمانوئيل وليس اموري هو الذي تدخل لدى نور الدين لاطلاق سراح الأمير الشاب^١ . ومهما يكن من امر فان بوهيمند الثالث ما كاد يستعيد حريته حتى نهى الى القسطنطينية كي يعرب للعامل عن شكره وخضوعه ، ويربط مصير امارته بالدولة البيزنطية ، وقد ساعدت على ذلك العلاقة الودية التي نشأت بينه وبين الاميرة تيودورا ابنة اخي الامبراطور ، وكان من نتائج هذا التقارب ان بوهيمند الثالث اسند الزعامة الدينية في انطاكية الى البطريرك الارثوذكسي اثناس الثاني الرومي الملكاني ، وان البطريرك الكاثوليكي ليمجوس غادر انطاكية غاضباً .

ذلك هو الموقف الذي اتخذه نور الدين من امارتي الرها وانطاكية ، اما طرابلس فقد كان له مع اميرها حادث طريف رواه بروكلمان بقوله : « استشر ريموند قومص (كونت) طرابلس ، الخطر يتهده من حصن عريمة الذي في حوزة القومص برتراند دي تولوز ، فاستعدى عليه كلاً من نور الدين ومعين الدين اللذين هرعا لتجدته ، فدكت جيوشها حصن عريمة دكاً ، وحملت ريموند اسيراً الى حلب^٢ ، ولعل نجدة نور الدين لأمير طرابلس واسره لخصمه ، هي التي اقامت بين

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٢١ .

الرجلين تلك الهدنة الطويلة . وقد قتل ريموند بأيدي جماعة من الباطنية الاسماعيلية وتولت زوجته هوديرن شؤون الامارة من بعده باعتبارها وصية على ولدها ريموند الثاني الذي كان يوم مصرع والده في الحادية عشرة من عمره ، ومن المؤرخين من يتهم هوديرن بأن لها يداً في مقتل زوجها^١ .

بيد ان موقف الملك المعادل من مملكة بيت المقدس كان يتميز بالدقة والحذر ، لأنه كان يخشى ان هو ابتدرها بهجوم مباشر ان تتألب عليه القوات الصليبية والبيزنطية جميعاً ، وان تجتاح الدول الاوربية موجة حماسية جديدة تتجدد في حملة عدوانية ثالثة . وكانت ابرز مواقفه مع بلدوين الثالث ، المعركة التي خاضها لاستخلاص حصن بانياس سنة ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م وكان في يد همفري (الهمفري) وهو من القلاع الاستراتيجية الحصينة ، فزحف اليه وشدد الضغط على حاميته ، فهرع بلدوين لنجدة صاحبه وانقذ الحصن من السقوط ، الا ان نور الدين ما لبث ان تصدى له وهو في طريق عودته الى القدس فهزمه واسر طائفة كبيرة من قادة جيشه وفرسانه المشهورين ، وهرب بلدوين الى قلعة صفد واختبأ فيها عدة ايام ثم خلس منها الى عكا فبيت المقدس ، بينما جدد نور الدين هجومه على حصن بانياس ، فتألبت عليه القوات الصليبية من كل مكان وردته عنه .

وفي تلك السنة نفسها تعرضت بلاد الشام لعدد من الزلازل ، ونشبت فتنة طائفية أثارها الشيعة في حلب مطالبين « باعادة رسمهم في الأذان :

١ - 792 - 789 pp. Guillaume de Tyr, T I, انظر ايضاً : اللجنة في ظلال السيف لجاماتي ص ٦٣ - ٧١ .

«حي» على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر^١ ، وساءت صحة نور الدين حتى 'حمل الى قلعة حلب على محفة وهو في حالة تدعو الى القلق ، وأوصى بأن يخلفه اخوه نصره الدين في حلب وبأن يكون اسد الدين شيركوه نائباً له في دمشق^٢ ، وقد قلقت من جراء ذلك النفوس وجزعت القلوب واضطربت الأعمال ، فحاول بلدوين الافادة من هذا الوضع ، وهاجم حصن شيزر بالتعاون مع امراء انطاكية وطرابلس وقيليقية ، ولم يكن هذا الحصن قد دخل بعد في طاعة نور الدين ، فانتهر الملك العادل هذه الفرصة حين شفي من مرضه واستولى على الحصن وصد العدوان الصليبي عنه . وكان بلدوين يتوهم بان الاسماعيليين في تلك المنطقة سيناصرونه ويحاربون الى جانبه لما بينهم وبين نور الدين من عداوة مستحكمة بسبب تعصبه لمذهبه السني ، ولكنهم أخافوا ظنه وقاوموا عدوانه مقاومة ضارية^٣ .

ويروي انه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين ، وهم يعدون العدة لغارات جديدة ، عقدوا مجلساً للمداولة فيما بينهم ، وقالوا لنور الدين : « اننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد . فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة ، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية ، للاستيلاء عليها قبل ان تجف دموع الصليبيين ، وقبل ان يصحوا من ذهولهم ، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعف والضعف . ان حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب ! »

١ - نور الدين والصليبيون ص ٩٧ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٠٩ .

٣ - ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩ .

فلم يشاطروهم نور الدين الرأي ، وقال لهم : « ان مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق ، عمل لا يليق بي وبكم ، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة . فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده متخناً بالجراح ! ان اعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم ، وقد احاط قوادهم بichte مليكهم ويكونه ويترحمون عليه ، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجم ونخرجهم من ارض نعدّها ملكاً لنا ، ونرفع عليها اعلامنا . اما اليوم ، فاني سأبعث اليهم بوفد من ابطالنا ، لا للتحدي ولكن للتعزية ! » وما لبث ان ارسل الى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة^١ معزياً اياها بوفاة العاهل الراحل ، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كانت الامبراطور البيزنطي قد ارسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً ، وأكدت لها الرسول ان نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً ، ولن يهاجم لهم قلاعاً ، ولن يعترض قوافلهم ورسلم في السهول والجبال ، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد ، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت اليه مع رسوله مندبها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بحميلة ومرورته^٢ .

أما النزاع بين نور الدين وأموري خليفة بلدوين الثالث ، فقد تجلّى في تنافس العاهلين على مصر وتسابقها الى احتلالها ، كما سنرى في فصل

١ - هي الاميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت الى بلدوين الثالث سنة ١١٥٣ هـ .
١١٥٨ م وهي في الثالثة عشرة من عمرها ، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة .

٢ - اللجنة في ظلال السيوف لحبيب جاماتي ص ٧٥ - ٧٧ .



الملكة تيودورا ورسول نور الدين

مقبل . ذلك ان احتلال اموري لمسقلان ، واحتلال نور الدين لدمشق ، فتح امام كل منها الطريق الى القاهرة ، فضلاً عن ان الخلافة الفاطمية كانت تمر بدور الاحتضار ، وكان كل منها يخشى ان يؤدي سقوطها الى احتلال خصمه لمصر فيحاول ان يسبقه اليها .

وصفوة القول ان مهمة الملك العادل قد اقتضت على توحيد الدويلات الاسلامية المتاخمة للصليبيين في مملكة قوية كبرى باتت تؤلف سداً منيعاً في وجه العدوان الفرنجي ، وتقي الشرق العربي شر الحملات الأجنبية التي كانت تتدفق عليه كالسيل الهادر ، الا انها لم تتعد ذلك ، برغم معاركه الجانبية الكثيرة مع الصليبيين ، الى مهاجمة الفزاة في الأراضي التي يحتلونها ، والعمل على تحريرها من قبضتهم ، تاركاً هذه المهمة الجليلة لبطل آخر كمل سيرة نور الدين وحقق ما عجز عنه .

ذلك البطل الذي تمخض به الشرق العربي ، في تلك الفترة العصيبة من التاريخ ، هو صلاح الدين الأيوبي الذي نشأ في كنف نور الدين ، فلبس من هديه ، وتثقف في مدرسته ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى لمع اسمه ونبه شأنه وأصبح رجل الشرق وبطل المسلمين .

الجزء الثاني عن صلاح الدين

● كان صلاح الدين الأيوبي أعظم رجال عصره ،
وفريد دهره شجاعة وبسالة وشهامة .

الامبراطور غليوم

● ولقد كان صلاح الدين شريف النفس ، هماماً
وشجاعاً ، حليماً ورحيماً ، وفياً وكريماً ، طاهر القلب
ناصح الحياة ، وهو بحق مثال البطولة في الاسلام .

ستانلي لينبول

● كان صلاح الدين نبأ في الشرق العربي ، وما
زلنا نستعيد ذكرياتنا عن حروبه فنحس الفخر والعزة
والشرف .

سلامة موسى

الفصل السابع

مولد في الشاذ

في ليلة داجية من شتاء سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م ، وفي برية مقفرة ليس فيها اي اثر لانسان او حيوان او نبات ، كان يسري رجلان طويلا القامة شديدا البأس ، يتبعها بضع نساء واطفال ، ودابة هزيلة أهبطها ما تحمل من اثاث ، واجهدها طول السرى في ذلك الطريق الوعر ، يجرها شيخ بدين كأنه مثال للرضى والقناعة والصبر العجيب .

كان احد هؤلاء الرجلين ، وهو اطولها قامة واكبرها سناً ، يدعى نجم الدين ايوب ، واما الثاني ، وهو اكثر امتلاء وأوفر قوة ، فيدعى اسد الدين شيركوه ، وكلاهما ولد شادي بن مروان احد زعماء الأكراد في دوين ، وهي بلدة في اطراف اذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج على ما قال ابن خلدون^١ . وكانت الاقدار قد حملت هذا الزعيم من

١ - وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٧٠ - ٤٧١ ، ومن المؤرخين من يرجع بأسرة صلاح الدين الى أصل عربي ، لأن قبائل العرب كانت تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم ، وهم يذهبون الى ان هذه الامرة من نسل الروانيين فرع بنتي امية ، مستدلين على ذلك بأن صلاح الدين هو يوسف ابن نجم الدين ايوب بن شادي (او شاذي) بن مروان الكوردي ، وان ربط هذه الاسرة =

بلادته الى بغداد ، فرحب به حاكمها بهروز لصداقة قديمة بينهما ، واقطعه قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل ، ولمامات عهد القلعة الى ابنه نجم الدين وجعله حاكماً لها فظل على ذلك اعواماً طويلة .

ثم اخذ بهروز يتنكر لنجم الدين شيئاً فشيئاً ، حتى بلغه ان اخاه أسد الدين شيركوه قد قتل احد الضباط لملاحاة جرت بينهما ، وان المدينة نائرة على الحاكم وأخيه ، فأرسل اليه يأمره بتسليم القلعة الى عامل آخر والخروج مع اهله من تكريت .

وكان نجم الدين قد ألف القلعة وصارت اشبه بوطن له ، فمظم عليه الخروج منها شريداً طريداً ، ناهيك بما في ذلك من خزي وعار . وبينما هو يطيل التفكير في امره ، ورسول بهروز لم يبارح مجلسه بعد ، إذا برسول آخر يقبل من بيته ويبلغه ان زوجه تبشره بانها قد وضعت غلاماً ، وانها سمته كما اتفقاً : يوسف صلاح الدين . فتشام الرجل من هذا الاتفاق ، وتطير بالوليد الصغير . ثم ما لبث ان التفت الى اخيه وقال له :

— اني خارج منذ الآن متستراً يجنح الظلام ، كي لا اشميت بي الناس في وضع النهار .

= مروان الكردي لا يقصد به اتصالها بجد حقيقي عرف بهذا الاسم ، اكثر مما يقصد به الى انها من سلالة مروان بن محمد آخر الامويين الذي كانت امه كردية (انظر : الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد ص ٤٤ ووفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٧٠ - ٤٧١ والكامل ج ٤ ص ٣٢٢ والخطط للمقرئ ج ٣ ص ٣٧٨) ويقول ابن خلكان انه اطلع على كتب كثيرة باوقاف واملاك هذه الاسرة فلم يجد لها جداً بعد شادي ، أما المقرئ فيرى ان نسبة صلاح الدين الى أصل عربي هو من اقوال الفقهاء الذين ارادوا التقرب منه والحظوة لديه ، والذي ترجح ان اسرة صلاح الدين كردية الاصل وقد استعربت يوم نزلت الى العراق ١٢ استعرب كثير غيرها من الأسر الكردية والتركية والفارسية في مختلف أنحاء الوطن العربي .



مولد بطل في ليلة عابسة

ونفض فنهض اخوه ، وسار قتيبه . وما هي الا ساعة حتى كانا خارج القلعة مع نساءهما واولادهما ، وشيخ نصراني من بغداد كان يكتب لهما ، واخذوا يضربون على غير هدى في جوف الليل .

ظلت القافلة الصغيرة تتابع السرى حتى بلغت بقعة من الارض لا يميزها وسط تلك القفار سوى عدد من اشجار النخيل . وكان الصبح يوشك ان يطلع ، وقد مسح بيده عتمة الليل ، فأخذت الأشياء يتميز بعضها عن بعض . فوقف نجم الديم يفكر ، ووقف اخوه الى جانبه منكس الرأس مثقل الضمير ، لا يجرؤ ان يرفع اليه عيناً ، لاعتقاده بانه سبب الكارثة التي حلت باخيه ، واذا بالوليد الصغير ينفجر باكياً على يدي امه ، فازداد نجم الدين حنقاً وتطيراً ، وهم في ثورة غضبه أن يبطش به ، ليربح نفسه من عبثه ويربجه من حياة ليس من يدري اين تقضي بها هذه البداية المخوفة ، فصرخت الام باكية متوسلة ، وهرع نحوه اخوه مهدئاً من روعه ، وأمسك كاتبه النصراني بيده وهو يقول له بصوت متضرع شفيق :

- الا ناشدتك الله ان تسبقيه ، فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما انت فيه من كدرٍ وغم ، ولعل الله جاعل له شأناً ..

فأجاب الأب الحائق : وأي شأن عساه يكون له ؟ الا ترى انه نذير شؤم وبؤس ؟.. ألا ترى في اي يوم جاء ؟.. فما عسى ينتظره من الحياة وما عساني انتظر منه ؟

فقال الشيخ : رويدك يا نجم .. اشفق عليه وعلى نفسك ، فلعل فيه الخير وانتم لا تعلمون ..

وانه لحائر لا يدري أيتجه الى يمين ام الى يسار ، وهل ينكفيء

صوب الشمال ام يضرب في البادية نحو الجنوب ، اذ اضاء في ظلمة حيرته
ويأسه شعاع من امل : لماذا لا يذهب الى عماد الدين زنكي ؟ لقد
جاءه هذا الرجل منذ سنوات في ليلة تشبه هذه الليلة يجوها العاصف
وظلمتها الداجية ، وفي حالة تشبه حالته الآن يقلقها العنيف وحيرتها
الطاغية ، وكان قد سار يجيشه لمظاهرة السلطان مسعود على الخليفة
المسترشد فانهمز في المعركة التي خاضها ، وارتد راجعاً الى الموصل ، ومر
في طريقه بتكريت ، وهو وفلول جيشه المهزوم على حال مروعة من
اليأس والاعياء والجوع ، فلاذوا بنجم الدين ووضعوا مصيرهم بين يديه ، ان
شاء ابقى على حياتهم وساعدهم على متابعة طريق العودة الى بلدهم ، وان
شاء امرهم وقضى عليهم ، فأثر المكرمة والمعروف ، وآواهم وموتهم ،
ثم ساعدهم على اجتياز دجلة بما اعطاهم من قوارب وبما وفر لهم من سبل
النجاة ، بالرغم مما في ذلك من تحد للخليفة وتعرض للخطر^١ . ولا ريب
في ان عماد الدين يذكر له هذه اليد ويعرف له تلك الصنيعة^٢ ، ويود
لو يجزيه على جميله خير الجزاء . فلماذا لا يلجأ اليه وهو اليوم أحوج
ما يكون الى المعين والناصر .

وقد صدق ظن نجم الدين ايوب ، فانه ما كاد يبلغ وأخوه الموصل
حتى احسن صاحبها عماد الدين زنكي وفادتها ، واكرم مثواهما ، وأقطعها
ارضاً يعيشان فيها .

١ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ج ٢ ص ٨ .
٢ - عاد عماد الدين الى مركزه في الموصل حينما قتل السلطان مسعود الخليفة
المسترشد في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ٢٨ آب (اغسطس) ١١٣٥ م وخلفه
ابنه الراشد بالله . والراجع ان الباطنيين هم الذين اغتالوا المسترشد وهو اسير في
معسكر مسعود (انظر مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٤ والنظم الاسلامية ص ٩٨
والفخري ص ٢٧١) .

وقابل الأخوان هذه المكرمة بما تستحقه من عرفان الجليل ، فخدما في جيش عماد الدين ، وأخلصا له الخدمة ، واحرزا انتصارات عديدة زادت في حبه لها وتقديره اياهما ، فلما سقطت بعلبك في يده سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) عهد بإدارتها الى نجم الدين ^١

وحين توفي عماد الدين زنكي ، وآل ملكه الى ولديه الأرشدين ، هبت دمشق التي كانت في ايدي اسرة توغتكين ، لاسترجاع بعلبك من ابنه نور الدين . وأدرك نجم الدين ايوب ان هذه المدينة لا بد من ان تسقط في ايدي الدمشقيين لضعف حاميتها ، فسلمهم اياها مقابل تعهدهم باقطاعه عشر قرى في جوار دمشق ^٢ . وما لبث ان رحل الى هذه المدينة فأقام فيها والتحق بخدمة ابيك اكبر اولاد توغتكين . وما زال هذا يقربه منه ويمجازه على خدماته حتى جعله قائد قواد الشام . بينما بقي اخوه اسد الدين شيركوه في خدمة نور الدين فكان سيفاً من سيوفه ، ما عهد اليه بغزو الا كان النصر على يديه ، وأبدى من ضروب الاخلاص والشجاعة ما جعله قائداً لقواد حلب .

وكان ملك نور الدين يتسع ، وفقوذه يتعاضم ، حتى طمع بضم الشام الى إمارته ووجه اليها في اواخر سنة ٥٤٧ هـ ١١٥٤ م جيشاً بقيادة شيركوه ، واقبل أسد الدين يجيشه اللجب فحاصر دمشق ، ووقف اخوه نجم الدين ايوب على رأس جيش توغتكين مدافعاً عنها .

وحرار الاخوان فيما يصنعان . وكانت تساور نجم الدين عواطف قوية متضاربة ، فهو لا يريد ان يحارب اخاه ويخشى ان يصيبه من هذه الحرب

١ - وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٧٤ وخطط القرظي ج ٣ ص ٢٧٨ .

٢ - الكامل ج ٩ ص ١٦ .



صلاح الدين في شبابه كما تخيله أحد الفنانين

سوء ، ثم ان الجيش الذي يقوده اخوه هو جيش نور الدين بن عماد الدين زنكي الذي احسن اليه لما هاجر من تكريت واکرم مشواه ، وهو الى ذلك على يقين من ان جيش دمشق اضعف من ان يثبت في وجهه الجيش المهاجم الى النهاية .

وما لبث ان عمد الى مفاوضة اخيه على ابرام الصلح بينهما ، واستمرت هذه المفاوضة ستة ايام انتهت بتسليم دمشق^١ وانتقالها الى يد اقوى امير في سورية عهد ذلك . وعرف هذا الأمير لنجم الدين ايوب حسن مسعاه فعينه حاكماً لدمشق ، وأدناه من مجلسه حتى اصبح من اخص المقربين اليه . وحياة صلاح الدين في هذه الحقبة يحيط بها الغموض ، لم تعرف تفاصيلها على وجه التدقيق . ويذهب بعض المؤرخين الى انه كان خلالها شاباً ناسكاً بلغ من تقواه انه كان ينزوي في اركان المساجد وزوايا البيوت . والراجح انهم يببالغون في ذلك بعض الشيء ، مدفوعين بالرغبة في التوفيق بين حياة صلاح الدين في مراحلها المختلفة ، او ليرفعوه فوق حياة الناس العادية .

وفي وسعنا ان نتخيل حياة صلاح الدين في هذه الحقبة فنراه بدرج في المغاني الفيحاء والبساتين المطردة بين بعلبك ودمشق ، محاطاً بعناية موفورة ، متمتعاً برغد العيش ، ثم نراه يختلف الى كتاتيب دمشق فيتلقي العلوم والآداب المعروفة في ذلك العهد ، ولا بد من ان نرافقه الى فلواتها الفيح وسهولها الممتدة على تخوم البادية العربية حيث تمر على ركوب الخيل ولعب الكرة^٢ والقنص ومنازلة الابطال وغير ذلك من اعمال

١ - خطط المقرئ ج ٣ ص ٤٧٨ .

٢ - يذهب الاستاذ جمال الدين الشيال الى ان صلاح الدين كان امير اللاعبين بالكرة والصولجان بين جنود نور الدين وقواده ، وان نور الدين كان يحب هذه اللعبة ريتقنها ولا يغلبي فيها الا صلاح الدين ، ولذلك كثيراً ما كان يدعوه ليشركه اللعب (انظر : مصر والشام بين دولتين ص ٤٧) .

الفروسية التي برع فيها ؛ وربما شهدناه بين حين وآخر في مجلس من مجالس الأدب والظرف او في حلقات الجامع الاموي يستمع الى محاضرات عبدالله بن عمرو ، فلا ريب في انه قد عرف هذا كله وخبره خبرة طويلة ، وعرف كبار القادة والفرسان وعائشهم وتأثر بهم ، كما تأثر بشخصية نور الدين الفذة التي افتتن بها كل من احاط به وعرفه من الكبراء والشعراء واهل العلم والرأي ، حتى اکتملت له تلك الرجولة الغارمة والشخصية الجليلة ، وتوافرت له صفات الفروسية العربية من شجاعة وشهامة ونبل ومروءة اكثر مما توافرت لأي فارس من فرسان العرب والمسلمين .

اما ابن شداد الذي رافق صلاح الدين وكانت ترجمته له اوسع التراجم العربية القديمة ، فهو يجمل حياته في هذه الحقبة بقوله : « واتفق لوالده الانتقال الى الشام ، ثم اعطي بعلبك وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه امارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك المعادل نور الدين حمود بن زنكي رحمه الله تعالى ، وعود عليه ونظر اليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه اسباب تقضي تقديمه الى ما هو أعلى منه » .

الفصل الثامن

صراع على أرض الكنانة

كانت الخلافة الفاطمية المتهاككة في مصر تسير نحو الانهيار شانت الخلافة العباسية العجوز في العراق . وقد شاع الانحلال في الخلفاء لانفماسهم في المتارف ، فاكتفوا بما يتمتعون به من رغد العيش ، وتركوا حكم البلاد الى خدمهم ومواليهم ، فجعل هؤلاء الموالي يقبضون على أزمة الامور ويستأثرون بها ، حتى اصبح السلطان الحقيقي في ايديهم . وغدا الخليفة الفاطمي في القاهرة وهو على عرشه الباذخ ، كزميله العباسي في بغداد ، طيفاً من الوهم لا يملك من الوجود الا لقب الخلافة :

خليفة في قفص بين وصيف وبغنا
يقول ما قال له كما تقول البغنا

وباتت الدولة من الضعف بحيث كان يسهل على اي مُغير فتحها والاستيلاء عليها من غير عناء . ولم يكن بقاؤها في ايدي الفاطميين الا لفقدان الفاتحين الاقوياء فيما يجاورهم من البلدان ، لأن السلاجقة كانوا قد ضمفوا هم ايضاً لانقسامهم وتفرقهم . اما الفرنجة في القدس ، فكان الفاطميون يسدون افواههم بالذهب فيدفعون به شرم عن مصر .

على ان وادي النيل كان قد اصبح مطمح انظار الفرنجة منذ استيلائهم

على عسقلان التي كانت القاعدة التي تخرج منها القوات الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة في جنوب فلسطين^١ ، قبل ان تنحدر الخلافة الفاطمية الى بؤرة من المؤامرات والانقلابات والدسائس لا يتورع الاب فيها عن قتل ابنه^٢ .

كما غدا مطمح انظار نور الدين محمود الذي اتسع ملكه وقوي نفوذه بعد استيلائه على دمشق وانتصاره على الفرنجة في عدة معارك نشبت بينه وبينهم . وكان كل من نور الدين وحاكم الفرنجة ، يرى في الاستيلاء على مصر سبيلاً لترجيح كفته على الآخر في ميزان القوى والحروب في الشرق الاوسط ، ويعتد العدة لاقتحامها والظفر بها .

وكان طبيعياً ان يتنازع امراء الدولة الفاطمية وقوادحها على منصب الوزارة ، وقد غدا المنصب الاول في الدولة ، لما لصاحبه من نفوذ على الخليفة نفسه^٣ . وكان هذا النزاع الداخلي يمزق مصر ويشتت قوى

١ - قام الفاطميون بعدة حملات برية وبحرية على المواقع الصليبية لعل اهمها تلك التي جرت في عهد الوزير الافضل بن بدر الجمالي ، قبل ان تغرق مصر الحروب الاهلية والمؤامرات الداخلية .
٢ - قتل الخليفة الفاطمي الحافظ ابنه حين علم انه يتآمر عليه فدمس له السم ليتخلص منه : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٢٥

٣ - بدأ تسلط الوزراء الفاطميين في عهد الخليفة المستنصر بالله حين اشتدت الفتن وكثرت المجاعات - بعد فترة ازدهار امتد سلطان الفاطميين خلالها على بلاد الشام والموصل وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال افريقية - حتى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية واوشكت على الزوال ، فلبى الى راليه في عكا بدر الجمالي لانقاذ العرش المهدد ، فأقبل بدر الى مصر سنة ٥٤٦٧ هـ : ١٠٧٠ م ، وقبض على زمام الامور بيد من حديد ، وغدا رئيس الدولة الفعلي أو ما عرف بوذير التفويض ، وقد جاء في سجل تولية بدر : وقد قللك امير المؤمنين جميع جوامع تدبيره . وناط بك النظر في كل ما رواه سريره (انظر : الحطط القرظية ج ٢ ص ٣٠٤ ، تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٩ و ٢٧٩)

شعبها ، والفرنجية على الحدود يزدادون كل يوم قوة وملكاً .

وقد شهدت سنة ٥٥٧ هـ ١١٦٢ م صراعاً عنيفاً على هذا المنصب بين اميرين عنيين ، اولهما ابو شجاع شاور بن مجير السعدي الذي كان والياً على اعمال الصعيد ، فخافه الخليفة لتعاظم نفوذه فأمر بعزله ، فاذا به يجمع الجموع ويذهب الى القاهرة فيحتل قصر العادل ويقتله ، ويتولى الوزارة مكانه في ولاية العاضد الذي تولى الخلافة وهو لا يتجاوز التاسعة من عمره ^١ ، وكان يومذاك دون العشرين عاماً . وثانيهما ابو الاشبال ضرغام بن سواد ويلقب بالنصور ، وقد انشأ ينازع شاور فظهر امره وعلت كلمته ، حتى استولى على الوزارة ، وارغم شاور على الهرب ، فانطلق من مصر الى الشام يستنجد بنور الدين ويتعهد له بثلاث خراج مصر ^٢ وبأن يكون نائبه فيها ^٣ ويتصرف على امره ونهيه واختياره ^٤ ، إن هو أنجده وأمدته يجهش لاستعادة منصبه ، بينما لجأ ضرغام الى اموري الاول ملك الدولة اللاتينية في القدس ، فعقد معه حلفاً ، وطلب منه ارسال جيوشه الى مصر ، وكانت هذه الجيوش

١ - تولى الفائز بنصر الله الخلافة وهو في سن الرابعة وحكم بين سنتي ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ ١١٥٤ - ١١٦٠ م ، والسبب في ذلك ان اختيار الخليفة الفاطمي لم يكن يتم بمبايعة الامة الاسلامية ، كما هي الحال في اختيار الخلفاء السنيين ، ولكن بما عرف بالتنصيب أو النص ، لأن الامام هو الذي ينص على من يخلفه ، وليس لهذا النص نظام معين ، فقد يكون تحريراً أو شفويًا أو حتى بالتلميح بالمطف ، كما انه ليس ثمة شروط خاصة بعمر الامام أو حالته الجسمية والنفسية كما في تقاليد السنة ، غير ارادة الامام التي هي في اعتقادهم من ارادة الله (انظر فصل الامامة في كتاب « نظم الفاطميين ورسومهم في مصر » للدكتور عبد المنعم ماجد)

٢ - الكامل ج ١١ ص ١٢٣

٣ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦

٤ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٣٠

الافرنجية قد اقبلت لافتتاحها منذ امسد يسير ثم ارتدت عنها لأن
ضرغام قطع الجسور ، وكان النيل مرتفعاً ، فأغرق البلاد من ناحية
بليس التي اقبلوا منها .

الا ان بعض المؤرخين ينزهون ضرغام من جريمة الاستغاثة بالفرنج ،
ويذهبون الى ان الخليفة العاضد هو الذي اشار بذلك فأباه ضرغام ،
فلما لم يجد عنده ما يريد ، رأى ان يستقل من ورائه بتدبير ما يراه ،
فعرض الامر على دهاقين السياسة في القصر ، ويقال لهم الاستاذون ،
وهؤلاء هم الذين يحفظون اسرار السياسة التي يجري عليها القصر منذ
زمن قديم ويتوارثونها استاذاً عن استاذ ، وهم دائماً موضع ثقة الخليفة ،
لا يقطع في امر دون مشورتهم ، ولا يتصرف في شأن من الشؤون
العامة إلا بعد موافقتهم ، وبفضل هؤلاء اطردت سياسة القصر منذ
عهد الحاكم بامر الله الذي كان أمة وحده ، على سنن واحد لا يختلف
الا باختلاف الظروف والاحوال ، على تعاقب الخلفاء الذين يجلسون على
العرش ، واختلافهم في الكفاية والسن ، فقد كان بعضهم أطفالاً لم
يبلغوا الحلم او لم يصلوا الى سن الرشد ، وهذا العاضد نفسه كان عمره
حين ولي الخلافة دون العاشرة ولم يزل حتى اليوم دون العشرين ، فما
كان في الامكان أن يبدي ما ابدي من الدهاء وبعد النظر ، وسعة
الحيلة والبراعة في تدبير الامور وإحكام الخطط ، وفي التلاعب بأقدار
الرجال - لو لم يكن هؤلاء الاستاذون من ورائه يبصرونه ويسددونه ،
وكان عنده ذكاء خارق فأعانه ذلك على ان يعي عنهم من اسرار السياسة
التوارثة في القصر ما جعله وهو في دون العشرين يتصرف تصرف

الكهول بل يناطهم دهاء وحكمة ، وكأننا كان يشعر في اعماقه بقرب نهاية حكمه وحكم أسرته ، فتجمع فيه ما تفرق من مواهب آباءه وأسلافه ، كاللمعة الاخيرة قبل انطفاء السراج ..

وبعد ان انتهى العاضد من التشاور مع دهاقيه المهنكين ، استقر رأيه على ان يكتب سراً الى الفرنج ليمنعوا نور الدين عنه ، ويكتب في الوقت نفسه الى نور الدين يستنجد به ليخلص البلاد من بقي ضرغام وطفيانه ^١ .

وقد وجد طلب شاور هوى في نفس أسد الدين شيركوه قائد قواد الشام وعمّ صلاح الدين ، وحث ملكه نور الدين على نجدته ، فقبل هذا بعد تردد يسير ، وكان سبب تروده ان اموري كان شديد العداوة له ومملكته تفصل بين املاك نور الدين ومصر ، فخاف اول الامر على جنده واتباعه لوعورة المسلك وبُعد المطلب . كما وجد اموري في تحالفه مع مصر سبباً قد يهد له طريق الاستيلاء عليها ^٢

وهكذا تسابقت جيوش نور الدين محمود وجيوش الفرنجة الى ارض

١ - سيرة شجاع لعللي احمد باكثير ص ٤٧ - ٤٨

٢ - سبق لابن السليم ونزيه الخليفة الفاطمي الظاهر (٥٤٤ - ٥٤٩ ٥٥٤٩ - ١١٤٩ - ١١٥٤ م) ان ارسل اسامة بن منقذ في بعثة الى الشام ليطلب من نور الدين العون في غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر ، وفي تلك الاثناء يسر الوزير بنفسه الى غزة وعسقلان ، وعلى الرغم من ان نور الدين لم يستجب لتلك الدعوة او انه أوجأها ريثما يمكن لنفسه في سورية ويوطئ مركزه فيها ، فقد كان معنى هذا الرجاء كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ، تدخل نور الدين في شؤون مصر ، او على الاقل افهامه ان مصر لم تعد قادرة على ان تقف وحدها في وجه الصليبيين ، وذلك ما اتاح اخيراً الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد (انظر : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٢ وكتاب الاعتبار ص ٧)

الكنانة ، فكانت الاولى هي السابقة في الدخول اليها . وكان علي رأس هذه الحملة أسد الدين شيركوه ، وقد اصطحب معه ابن اخيه صلاح الدين وكان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً « وكان جيش اسد الدين اقل من جيش مصر عدداً وعدة ، ولكنه اقوى روحاً وأشد اقداماً ، كما كان يمتاز بشجاعة قواده ' ، وقد ابدى هذا الجيش مهارة كبرى وبسالة عظيمة ، فاستطاع دحر الجيوش المصرية في بلبس والفسطاط ومحاصرة ضرغام في القاهرة (٥٦٠ هـ ١١٦٤ م)^٢ .

وتختلف الروايات بشأن ضرغام ، بعضها ينسب اليه الظلم والطغيان ، وبعضها يبرئه من كل سوء ، اما الاستاذ علي احمد باكثر فيصف موقفه في حصار القاهرة بقوله :

« وقف العاضد في اول الامر يتفرج كأن الامر لا يعنيه ، لقد اطمأن انه باق على العرش مها تكن النتيجة ، أليس قد كتب الى نور الدين يستغيث به هو ايضاً من طغيان ضرغام ؟ بل لعله الآن يميل الى انتصار شاور لأنه لم يفقد الأمل فيه ، كما فقد في ضرغام . هل بلغ شاور قط من الجرأة عليه بعض ما بلغه ضرغام ؟ ولكنه لم يجامر بيمه الى فريق شاور واسد الدين ، الا حين ايقن ان الدائرة ستدور على ضرغام !

أما ضرغام فقد أحس انه يقاتل في المعركة وحده ، فالقصر يكرمه ويضيق به ، والناس يكرهونه لظنهم انه في صف القصر ، واسد الدين

١ - مصر والشام بين دولتين ص ٥١

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٣٤ - ١٤٤ وفيات ، الاعيان ج ٣ ص ٤٧٦

لم يستجيب الى ما دعاه^١ لأنه لا يثق بغير شاور ، والجند قد انشقوا عليه كما دعتهم حين يظهر في الميدان منافس جديد ، فامتلات نفسه ياساً وتنزى قلبه ألماً ، ولكنه لم يجد بداً من المضي في القتال ، فقاتل مستبسلاً وهو يرى جنوده يتفرقون عنه ويتسللون ، ويرى الناس يلقون عليه وعلى رجاله الطوب والحجارة والماء الساخن من سطوح منازلهم ، ثم اجتروا عليه بعد ذلك وقد تفرق عنه رجاله جميعاً « فأدركوه في الحس الاعظم بين القاهرة والفسطاط ، فأردوه عن فرسه^٢ ، ثم قتلوه وقطعوا رأسه وساروا بها مهلين في شوارع القاهرة ، وهم يصرخون : هذا جزاء الخائنين^٣ ..

يقول لينبول : « وهكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام ، والشاعر البطل الحسن الخلق والخلق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذي كان فارس عصره ، واحسن من نبيل بالقوس في مصر^٤ . »

وتداعى بذلك حصار المدينة ، فدخلها جند شيركوه ، وجلس شاور على سرير الوزارة المصرية ، وكتب له العاضد تفويضاً بذلك ذكر فيه انه ما اختاره الا لحنكته في السياسة والتدبير ، ودعاه الى المحافظة على الدعوة الفاطمية^٥ .

١ - كان ضرغام قد فاض اسد الدين على ائتخالف معاً لمحاربة الفرنج ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمساعدة فلم يلق بالألرسائل ضرغام (انظر : مصر والشام بين دولتين ص ٥١ وسيرة شجاع ص ٥٧ - ٥٩)

٢ - سيرة شجاع ص ٦٣

٣ - صلاح الدين تأليف الدكتور مصطفى الوكيل ص ٤١

٤ - تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٩١

٥ - صبح الاعشى ج ١٠ ص ٣١٠ - ٣١٨

ولكن لم تكن الامور تستقيم لهذا الوزير وتستتب ، حتى انقلب على حلفائه ومفيشي لهفته واصحاب الفضل عليه ، فاحتال على اسد الدين شيركوه وجنده حتى جعلهم خارج القاهرة واغلق ابوابها استعداداً للحصار ، ثم امتنع عن تنفيذ الوعود التي قطعها لهم ، وارسل الى شيركوه يطلب منه العودة الى الشام ، فشق ذلك على شيركوه وامتنع عن تلبية الطلب ، وبادر الى احتلال بلبليس حيث التف من حوله عرب كنانة . ومن المؤرخين من يذهب الى انه قد تحصن بهذه المدينة عملاً بنصيحة صلاح الدين الذي تجلت عبقريته العسكرية منذ تلك المعارك التي خاضها في مصر^١ .

ولما شاور حينئذ الى اموري ملك الفرنجة يستنجد به ويخوفه من نور الدين إن هو ملك مصر ، وضاعف الوعود التي قطعت له في عهد ضرغام^٢ ، فاذا بالنجدة الفرنجية التي كان زعيم الدولة اللاتينية قد أعدها لمقاومة شاور تقبل لنصرته ، وتحاصر شيركوه وجنده في بلبليس ، بعد ان عقد اموري مؤتمراً في بيت المقدس استعرض فيه وجوه الرأي مع امراء الصليبيين ، فانفقت كلمتهم على ضرورة المسارعة لنجدة شاور لما في امتداد النفوذ النوري الى مصر من خطر على الوجود الفرنجي في المشرق . الا ان اموري كان يستعجل شاور في الوقت نفسه دفع ما تمهد به من نفقات الحملة ، فيتسلم منه في كل مرحلة يمتارها الف دينار حتى بلغ ما تسلمه سبعة وعشرين ألفاً^٣ .

واستمر القتال بين الفريقين ، واستمر شهوراً ثلاثة ، وشيركوه يمتنع

١ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٧ وتاريخ العالم لمامرتن المجلد الخامس ص ١٠٨

٢ - الكامل ج ١١ ص ١٢٤

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٢٥ ومفرج الكروب ج ١ ص ١٣٩

في بلبس يغادي الفرنجة القتال ويراوهم حتى اعيام دون ان يبلغو منه غرضاً ، « وذلك بفضل مؤازرة أهلها له من الكنائية ، وبفضل صاحب رأيه صلاح الدين »^١ .

وعبثاً حاول اموري اقتحام أسوار المدينة ، بسهامه ومجانيقه أولاً ، وبالترويع والتجوييع أخيراً ، فان المدينة قد صمدت ببسالة رائعة وتضامن أهلها مع جند الشام دفاعاً عن الوطن والدين ، كما كان بعض القدائيين المصريين يتسللون من القرى القريبة الى خيام الفرنج فينزلون بهم خسائر فاحشة في الارواح والاموال ثم يهربون تحت ستار الليل ، بعد ان هال الكثيرين موقف شاور وتركه اسد الدين « يقاتل الاعداء دفاعاً عن أرض مصرية ، واهل مصر واقفون يتفرجون »^٢ ثم اتفق الفريقان على الصلح بأن يتخلى كل منهما عن أرض مصر . وقد اضطر اموري الى قبول الصلح والاسراع في العودة الى بلاده ، حين وافته الانبياء بان نور الدين ما كاد يعلم بالحصار الذي ضربه الفرنجة حول جنده في بلبس حتى اخذ يغير على اطراف املاكهم في بانياس وحارم والقدس غارات عنيفة مظفرة اسر في احداها جميع امراء الصليبيين الذين اشتركوا في المعركة ، كما روينا في فصل سابق ، وتعاضم هلع العاهل الصليبي حين ارسل نور الدين اعلام الفرنجة التي غنمها في تلك الغارات لتنشر على اسوار بلبس^٣ .

وغادرت جيوش الشام مصر في زهو واعتداد وتحدو كأنها تغادر المعركة وهي في اوج انتصارها . وقال ابن الأثير :

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي للدكتور نظير سعادري ص ٨ نقل عن مخطوطة قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر لابن مخزومة .

٢ - سيرة شجاع ص ١٣٨

٣ - ملرج الكروب ص ١٤٠ والخطط القرظية ج ٢ ص ١٧٤

« حدثني من رأى اسد الدين شيركوه حير خرج من بلبس قال :
 اخرج اصحابه بين يديه ، وبقي في آخرهم ، وبيده لب من حديد
 يحميهم ، والمسلمون والافرنج ينظرون اليه . فأتاه افرنجي من الغرباء
 الذين خرجوا من البحر فقال له : « أما تخاف ان يقدر بك هؤلاء
 المصريون والافرنج ، وقد احاطوا بك وباصحابك ، فلا تبقى لكم بقية؟ »
 فقال شيركوه : « ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما افعله . كنت والله
 أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال ، وحينئذ يقصدكم
 الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وقني شجعانهم ، فنملك بلادهم
 ونهلك من بقي . والله لو اطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من اول يوم
 ولكنهم امتنعوا !... »

★

عاد قائد نور الدين الى دمشق ، وعاد ملك الفرنجة الى القدس ،
 وظلت الأمانى تجيش في قلب كل منها ، ولم ينقض وقت قصير حتى
 كان اسد الدين شيركوه يستعد لمهاجمة مصر بعد ان اقنع نور الدين بأنها
 بلا رجال تحميها^٢ ، وان حكومتها قلقة على الدوام ، وان تربتها من
 اخصب بقاع العالم ، واتفق معه على ان محاربة مصر انما هي جهاد ديني
 « فهو بفتحها اياها - كما يزعم - انما يحارب عدوين للإسلام احدهما الخلافة
 الفاطمية وثانيها الصليبيون ، وبذلك ينقذ الاسلام وهذا البلد - كما يدعي -
 من الفوضى السياسية وغيرها^٣ » وقد اقر الخليفة العباسي في بغداد هذه

١ - الكامل ج ١٢ ص ١٣٦

٢ - النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ص ٢٩

٣ - نور الدين والصليبيون ص ١٠٩

هذه الحملة لمحو الخلافة الفاطمية^١ ، وتوحيد البلاد تحت راية بني العباس .

ومرة اخرى استنجد شاور بأموري ، وبادر ملك الفرنجة الى الزحف على مصر على رأس جيش لجب ، بقية طرد جيش نور الدين منها وتمكين أقدامه في هذه البلاد الجبلية الوافرة الثراء ، بعد ان اتفق على ذلك مع اشراف الصليبيين .

بار شيركود الى البلاد المصرية بألفي فارس من خيرة رجال نور الدين (٥٦٢ هـ ١١٦٧ م) ، واتخذ طريق الصحراء مؤثراً مجابهة رياحها المتناوحة ورمالها السواني على انتهاج طريق الساحل والاصطدام فيها بجيش الملك اموري . بيد ان هذا الاصطدام لم يلبث ان وقع في مصر ، بعد ان عقد ملك الفرنجة مع الخليفة الفاطمي العاضد ، نزولاً عند طلب شاور ، معاهدة تقضي بأن تدفع مصر خراجاً سنوياً للقدس وتكون تحت حمايتها . وقد طلب اموري من شاور ان يتعهد بدفع اربعمائة الف دينار ثمناً لهيئة في تلك الحملة ، واصر على أخذ نصف المبلغ مقدماً ،

٣ - كان ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م على يد عبيد الله من سلالة فاطمة بنت الامام علي ، وقد تلقب بالمهدي وتسمى بأمر المؤمنين ، وعرف خلفاء الفاطميين من بعده بالعبيديين نسبة اليه ، واستولوا على مصر والشام ولم يستطيعوا الاستيلاء على بغداد للقضاء على الخلافة العباسية ، فتحول العداء بينها وبينهم الى دراع سياسي كلف مسرحه في اكثر الاحيان بلاد الشام . وقد توألى على مصر من الفاطميين أحد عشر خليفة حكموا مائتي عام ونيفاً من سنة ٣٥٨ حتى ٥٦٧ هـ (٩٦٨ - ١١٧١ م) أولهم المعز لدين الله وآخروهم العاضد لدين الله ، وقد بنيت القاهرة في عهد المعز إثر افتتاح مصر على يد قائده جوهر ، وقد امر جوهر ببنائها لاستقبال المعز فيها ولتكون عاصمة للدولة الفاطمية ، وكانت القسطنطينية عاصمة مصر من قبل .

فقبل شاور هذا الطلب مشروطاً الا يغادر اموري ارض مصر قبل ان يؤدي المهمة التي جاء من اجلها .

وقد وصف مؤرخو الفرنجة. اللقاء التاريخي الذي تم بين الخليفة الفاطمي ورسولي ملك بيت المقدس على الشكل الطريف التالي :

« اختير هيو حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسولين من الملك اموري ، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) وجعل يقنحهم بهم كل رسوم الاوضاع السرية . فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من اقوياء السودان ، وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة ، حتى بلغوا صحناً فسيحاً لا سقف له الا السماء وحوله اقبية قائمة على عمد من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً ببديع الألوان ، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فواره من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي ليس مثلها في بلاد الغرب ، ثم يريان هناك انواعاً من الحيوان لا مثيل لها الا ان يصور الوانها مصور بارع ، او يخترع صورتها شاعر ماهر ، او يحلم بها حالم في عالم الخيال . وهكذا كانا يريان اشياء لا يريان مثلها في بلادها إذ هي بما لا يوجد الا في بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان الدرش ، فأعلن قدومها عدد عظيم من الحشم يلبسون حلالاً بيية ، ثم تقدم الوزير خالماً سيفه وقبل الارض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ، ثم اعقب ذلك ان انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه حلال وزينة تزي بما يتحلى به الملوك . فقدم اليه الوزير بنحشوع الرسولين الفارسين ، وبين بصوت منخفض ما

كانت عليه البلاد من خطر ، وما كان ممن شأن صداقة ملك بيت المقدس له . وكان الخليفة شاباً اسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا ، فقال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد في ان يمدّ يده عندما طلب الرسول منه ان يمدّ يده دليلاً على صدق عهده ، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب ، غير ان الخليفة مد يده بعد قليل الى السيرهيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال : « مولاي ان الحق لا غطاء له ، وان كل شيء مكشوف في عهود الامراء ، فتبسم الخليفة برغمة وخلع قفازه كارهاً ، ثم مد يده الى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعاهدة بصدق واخلاص ١ »

وما هي الا ايام حتى ذاع نبأ وصول اسد الدين « ففرح الناس بهند النبأ وإن اشفقوا ان تكون هذه النجدة ممن نور الدين قد وصلت متأخرة بعدما تمكن الفرنج من العاصمة وتوثق التعاون بينهم وبين شاور ٢ » .

★

عسكر جيش الشام في الجزيرة بالقاهرة على الضفة اليسرى من النيل وعسكر جيش الفرنجة على الضفة اليمنى ، بحيث كان كل منهما على مرأى البصر من عدوه لا يفصلها سوى الماء ٣ ، وكان هذا النهر العظيم

١ - صلاح الدين الايوبي تأليف محمد فريد ابر حديد ص ٦٨ - ٦٩ نقل عن ستانلي لينبول

٢ - سيرة شجاع ص ١٥٢

٣ - نور الدين والملبيون ص ١١١

باعتراضه بينهم ، وفصله بين جند الحق وجند الباطل ، قد أراد أن يشهد الله ويشهد الناس ويشهد التاريخ الى اي الفريقين انحاز شاور بجند مصر^١ .

ويبدو ان أسد الدين قد هالته كثرة جند العدو ووفرة استعداده ، فاجتمع بقيادة جيشه وتداول الامر معهم ، فأشار بعضهم بوجوب المبادرة بالرحيل الى الشام ، ولكن القادة المقربين منه هاجموا هذا الرأي وأصروا على وجوب القتال^٢ ، ثم اجتمعت الكلمة على ضرورة الصمود والاستماتة في مواجهة العدو فاما نصر مؤزر او شهادة كريمة .

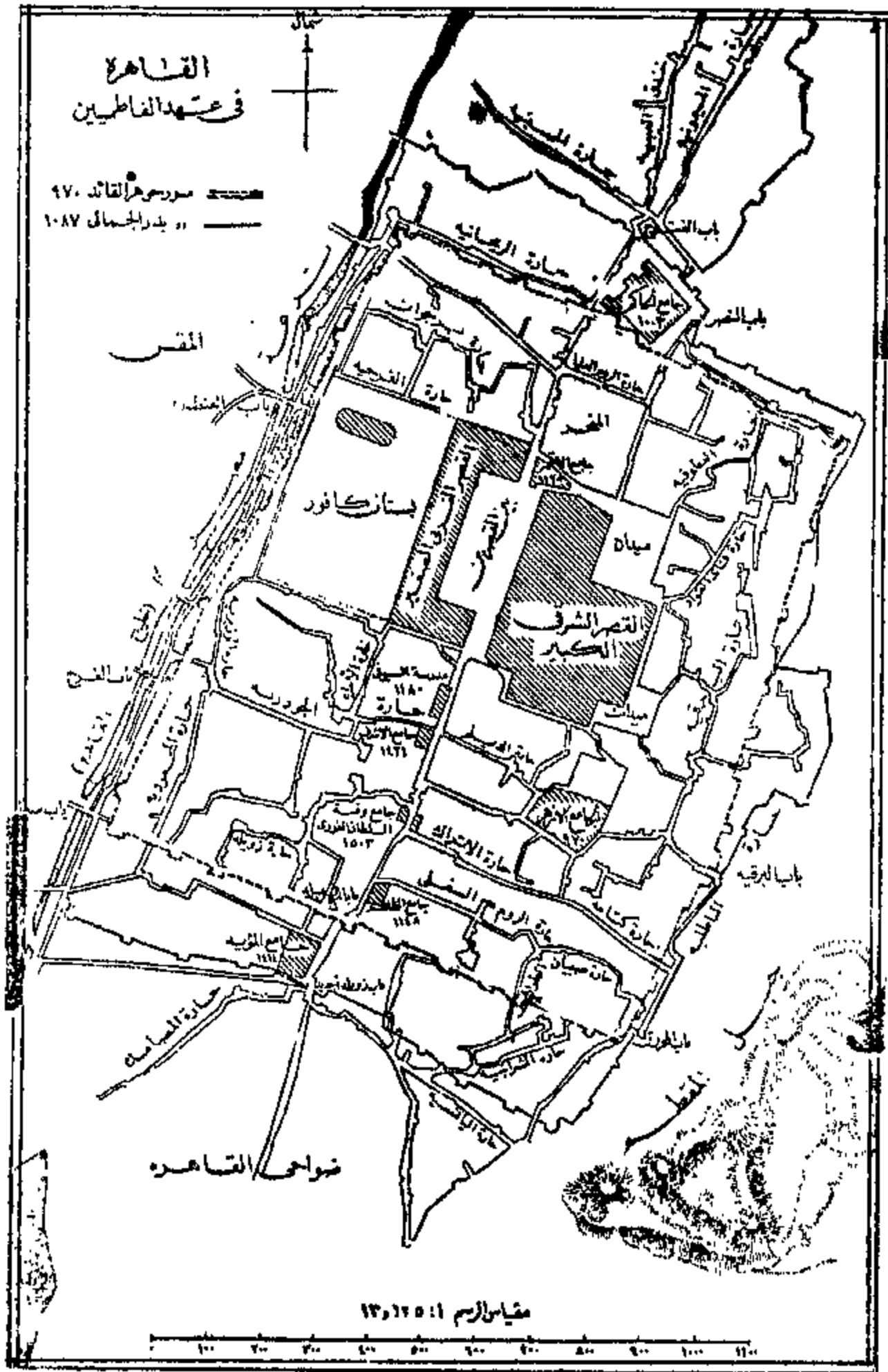
بيد ان أسد الدين اراد ان يبذل مسعى أخيراً لكسب شاور الى جانبه ، والحيلولة دون اراقة دماء المسلمين بأيدي المسلمين ، فأرسل اليه كتاباً يدعو فيه الى التعاون معه للقضاء على العدو الباغي ، وبما جاء في هذا الكتاب :

« انا احلف لك بالله الذي لا إله الا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من اخيه ، انني لا اقيم ببلاد مصر ، ولا اعاود اليها ابداً ، ولا امكثن أحداً من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه ، وما أوئل منك الا نصر الاسلام فقط ، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة ، وخلصه عسر ، وأريد منك ان تجتمع أنا وانت عليه . ومنتزه فيه الفرصة التي قد امكنت ، والغنيمة التي قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، ونحمد ثأثرته ، وما اظن به يعود ويتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة ابداً^٣ . »

١ — سيرة شجاع ص ١٥٣

٢ — الكامل ج ١١ ص ١٢٥ - ١٤٦

٣ — كتاب الروضتين ج ١ ص ١٦٨



ولكن جواب شاور كان اشنع جواب يمكن ان يخطر على بال ، إذ عمد الى قتل الرسول الذي يحمل الكتاب وابلغ الصليبيين ما جاء فيه ، وأخذ ملك الفرنج وشاور « يستعدان للقاء اسد الدين ، ويرتبان جنودهما ، ويمدان العُدَد ، ويدبران الخطط ، متعارفين متكافلين كأنهما فريق واحد » ، فثار اسد الدين حينذاك وثار من معه من فرسان المسلمين ، وقرروا خوض المعركة والاستماتة فيها ، وعمسد اموري الى اقامة جسر ليعبر عليه وجتده ، فاستعد لهم جيش الشام ، ولكن حالت دون التحام الفريقين عاصفة هوجاء أرغمت الصليبيين على الالتجاء الى احدى الجزر ، فانتهز شيركوه الفرصة ورحل بجيشه الى الجنوب ، ثم لحق به الجيشان الصليبي والفاطمي ، والتحم الفريقان عند « البابين » .

وقد عمد اسد الدين الى تقسيم جيشه الى يمنة ويسرة وقلب « وجعل الاثقال في القلب وعليه صلاح الدين ابن اخيه » ، وامره ان لا يصدقهم في القتال ، بل يتظاهر بالانهزام حتى يعبر اموري فتيبه . واما اسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصدق عزيمتهم وصبرهم في اللقاء ، ووقف بينهم في الميمنة ، والتحم الحصان ، وكر الصليبيون على قلب العسكر النوري ، وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة ، حتى قام اسد الدين بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور ، وأسر العدة الجم ، ففر الباقيون على وجوههم ، فكان هذا من « اعجب ما يؤرخ ، ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل » .

ولكن فلول الصليبيين عادت فاجتمعت يجند شاور ، وانضمت اليها نجدة وفدت بقيادة جبر ان دي بوجي وكانت قد سبقتها نجدة بقيادة

١ — سيرة شجاع ص ٩٥٣

٢ — نور الدين والصليبيون ص ١١٤

الهنفري صاحب شقيف تيرون وقليب التابلسي ، واحتشدت جميعاً في القاهرة استعداداً للقاء جند الشام ، الا ان اسد الدين شيركوه انتقل بجيشه الى الاسكندرية بدلاً من تعقب الفلول المهزومة ، ويقال ان اهل الاسكندرية نقموا على شاور استعانته بأعداء دينهم ووطنهم ، فسكاتبوا أسد الدين ، وبعثوا اليه برسالة حملها رجل يدعى الأدريسي^١ اتبعوها بخزانة من السلاح ، فسار الى الاسكندرية واحتلها وترك فيها ابن اخيه صلاح الدين في الف فارس^٢ ، وعاد هو الى الصعيد ليشتت قوى اعدائه^٣ ويجمع المؤن والأموال ، فانتهز الصليبيون وشاور هذه الفرصة وحاصروا الاسكندرية من البر والبحر^٤ وشاركهم في هذا الحصار اسطول بيزة وقراصنتها ، فاشتد بذلك الضغط على سكان الاسكندرية ، وخافوا من المجاعة ، وأثرت فيهم دسائس شاور ، فشر صلاح الدين بالخرج ، فهو في قلة من الجند وكل ما في وسعه ان يبت ما في نفسه من ثبات في قلوب من في المدينة من تجار وصناع وعامة ، فكان حيناً يعدم بقدم شيركوه بالزاد والثروة ، وحيناً يخيفهم من ايقاع الفرنج وقسوتهم ، وحيناً يرغبهم في الصبر والثبات في سبيل نصر الدين^٥ . وقد كتب الى عمه يشرح له موقفه^٦ فسار اسد الدين الى بركة

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٦٨

٢ - من المؤرخين من يرى ان تسليم الاسكندرية الى شيركوه راجع ايضاً الى ان أهلها كانوا من السنة الذين يكرهون التشيع وكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجئ اليها (انظر : الناصر صلاح الدين الايوبي للدكتور عبد المنعم ماجد ص ٥٥ ؛ استناداً الى السجلات المستنصرية)

٣ - الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٥٤

٤ - درر التيجان ص ٣٦٧

٥ - صلاح الدين الايوبي تأليف محمد فريد ابو حديد ص ٧١

٦ - الكامل ج ١١ ص ١٤٦

الحبش وفي عزمه ان يحتل القاهرة ، ولكنه وجد نفسه امام مقاومة ضارية .

وقد بلغت اموري خلال ذلك انباء الحملات التي يقوم بها نور الدين على حصن المنيطرة وحصن الأكراد وحصن العريمة وحصن هونين في سائر الانحاء التي يسودها الصليبيون ، فساوره القلق على مملكته في القدس ، كما بدأ جنوده الذين طال حصارهم للاسكندرية على غير طائل ، يعلنون تدميرهم ورغبتهم في وضع حد لهذه الحرب المجهولة النتائج . ولكن شاور كان يرى ان الفرصة مؤاتية ، وان اسد الدين خطر عليه وعلى حياته فلا بد أن ينزل به ويحيشه هزيمة نكراء. تودي به أو تردعه فلا يعود يفكر في مصر ، فظل يماطل الفرنج ويراوغهم ويمدحهم بالمال كسباً للوقت ، ولكن الملل كان قد بلغ بهم منتهاه ، كما كان الخوف على بلادهم من نور الدين يملك عليهم افنتهم ويقض مضاجعهم فلا يحسون طعم الراحة في اقامتهم في مصر ، فاضطر شاور ان يدعن ، وسارت الرسل بين المعسكرين تعرض شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل ، حتى اتفق الفريقان أن يرحلا عن مصر على أن يقدم شاور لأسد الدين جميع ما غرمه في هذه الحملة وثلاثين الف دينار اخرى ، وان يقدم ملك الفرنج لصلاح الدين السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبر البحر الى الشام ، وقد رفع الحصار عن القاهرة والاسكندرية في وقت واحد .

وغادر صلاح الدين مصر وقد تلقى فيها الكثير من الدروس والعبر ، وخاض اولى المعارك الكبيرة التي قادها منفرداً واطهر فيها ألواناً رائعة

١ - مصر والشام بين دولتين ص ١١٠ - ١٠١ ، انظر ايضا التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ص ١٢ - ١٣

من المهارة والشجاعة كما عاني كثيراً من الاخطار والأهوال ، وكان
اعظم ما عاناه وبعثه على التأمل في ما صار اليه وضع الشعوب العربية
والاسلامية يومذاك انه قد حاربه في الاسكندرية وهو يحميها من الفرنجة
جند وزير يزعم انه عربي وانه مسلم وقد كان اولى به لوصح ذلك ان
يناصره ويشد ازره في مقاومة المعتدين الفاصبين ..

وقد كره صلاح الدين من اجل ذلك النزال والقتال ، وقرر الا يعود
الى مصر ابداً ..

هذا ما قرره صلاح الدين وعزم أمره عليه ، اما القدر فكان يُعدّ
للبطل الشاب طريقاً مغايراً مصيراً آخر ..

الفصل التاسع

فتح مصر

كان من شروط الصلح الذي عقد بين أسد الدين شيركوه وملك الفرنجة ان يكون أسد الدين هو البادئ بمغادرة الاراضي المصرية ، فما كاد يغادرها حتى عقد اموري اتفاقاً خاصاً بينه وبين شاور يقضي ببقاء حامية صليبية في مصر ، وأن تكون أبواب العاصمة في أيدي فرسان الفرنجة لتدراً جيوش نور الدين إن هي عاودت الهجوم ، كما اتفق الفريقان المصري والصليبي على ان يكون للصليبيين من دخل مصر مائة الف دينار في كل عام^١ .

ولكن سرعان ما تغير ما بين شاور وقادة الحامية الفرنجية في مصر « فقالوا عنه الى العاضد منذ تردد شاور في الموافقة على ما طالب به ملكهم امورى قبل رحيله ، ولم يرحل حتى رسم لهم سياسة التقرب الى العاضد والاعتماد عليه ، ومساعدته في المستقبل على ازاحة شاور عن كرسي الحكم ليجلس عليه من يرشحه العاضد لذلك ، كما كان ديدنه من

١ - نور الدين والصليبيون ص ١١٧ - ١١٨

قبل ١ ، وكان عدد أفراد الحامية مائتين وخمسين فارساً فازدادوا الى الف ، وقد بذلوا كل جهد ولجأوا الى كل وسيلة ، لاشاعة البلبله والهرقة في صفوف المصريين ، وركزوا مساعيهم على التفريق « بين المسلمين واخوانهم الأقباط ، وايتارهم بالمصالح والمنافع ، وايتار صدورهم على اخوانهم للمسلمين ، وتذكيرهم بأنهم واياهم على دين واحد ، وان المسلمين جميعاً اعداؤهم ، وانهم قد جاءوا من بلادهم لانقاذ الأرض المقدسة من ايدي المسلمين ورفع لواء المسيحية في ربوع الشرق ، فعليهم ان يكونوا إلباً واحداً على اعدائهم المسلمين . ولكنهم كانوا يُقابلون بمن اتصلوا بهم من الأقباط بالاعراض والازورار ، وربما جادلهم بعضهم كما وقع من زكريا بن أبي المليلح أحد وجهاء الاقباط وشعرائهم ، إذ تصدى لهم يوماً ، فلما حاوروه قال لهم : « نحن جميعاً مصريون ، وهؤلاء اخواننا وبلادهم بلادنا ، والدين لا يفرقنا إذ نحترم دينهم ويحترمون ديننا ، وما أتم بأحق منا منهم ، حتى الدين لا يجمعنا وإياكم ، فان مذهبكم يختلف عن مذهبنا ، فليس يجمعنا بكم شيء ٢ . »

وكان معنى ذلك كله ان الفرنجة قد احتلوا مصر احتلالاً جزئياً ، تمهيداً لتحقيق مطامعهم في هذه البلاد الباذخة الغنى التي طالما تاقوا للاستيلاء عليها . وقد بدأ الفرسان الصليبيون المقيمون في القاهرة يكتبون الى اموري يستحثونه على العودة ، ويدعونه الى الاستعانة بملوك اوربة لفتح مصر ، ويهونون عليه أمرها لما في أيديهم . منها ،

١ - سيرة شجاع ص ١٩١

٢ - المرجع السابق ص ١٩٣ وفي الصفحات ١٩٣ ١٩٧ من هذا الكتاب امثلة مروعة عن الاساليب التي لجأ اليها الفرنج لاثارة التعصب الديني بين المسلمين والاقباط ، ومواقف رائعة من تضامن هؤلاء الاخوة في الحفاظ على وحدتهم أمام المعتدين الغاصبين .

لا سيما وانهم قد تمكنوا من معرفة مواقع الحصون والأماكن التي يمكن أن يغزوا البلاد المصرية منها ' ،

إلا ان ملك بيت المقدس لم يشأ دعوة ملوك اوربة لما يعرف من مطامع قادتهم الى انشاء امارات خاصة بهم في الشرق ، وآثر الاسطنة بعاهل القسطنطينية ، ومهد لذلك بخطبة الاميرة ماري ابنة اخي الامبراطور في صور (٥٣٦ هـ ١١٦٧ م) وعلى اثر هذا الزواج اتفق الملكان في ايلول (سبتمبر) من تلك السنة على توجيه حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر احتلالاً كاملاً ، على ان تكون رئاسة الحملة لأموري وقيادتها العسكرية لقائد الجيش البيزنطي .

بيد ان هذا الاتفاق لم يرض الفرسان الصليبيين ، لأنه يحمل اليهم شريكاً يقاسمهم خيرات مصر ، فألحوا على أموري بالشروع في الحملة منفرداً ، وعقد قادة الجند مؤتمراً قلبوا فيه وجوه الرأي ، وشرح أموري مزايا الحملة على مصر ومضارها فقال ولعله أراد ان يعرف حقيقة ما يضمرون :

— ايها الامراء ، الرأي عندي بعد ان سمعت اقوالكم أن لا نقصد مصر فهي طعمة لنا وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين ، وان نحن قصدناها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلونها الينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف متاعلي تسليمها لنور الدين ، ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام .

وما كاد ينتهي من حديثه حتى علت اصوات القواد والأمراء تعارضه
في شدة ، وقال كبير الاستبارة^١ :

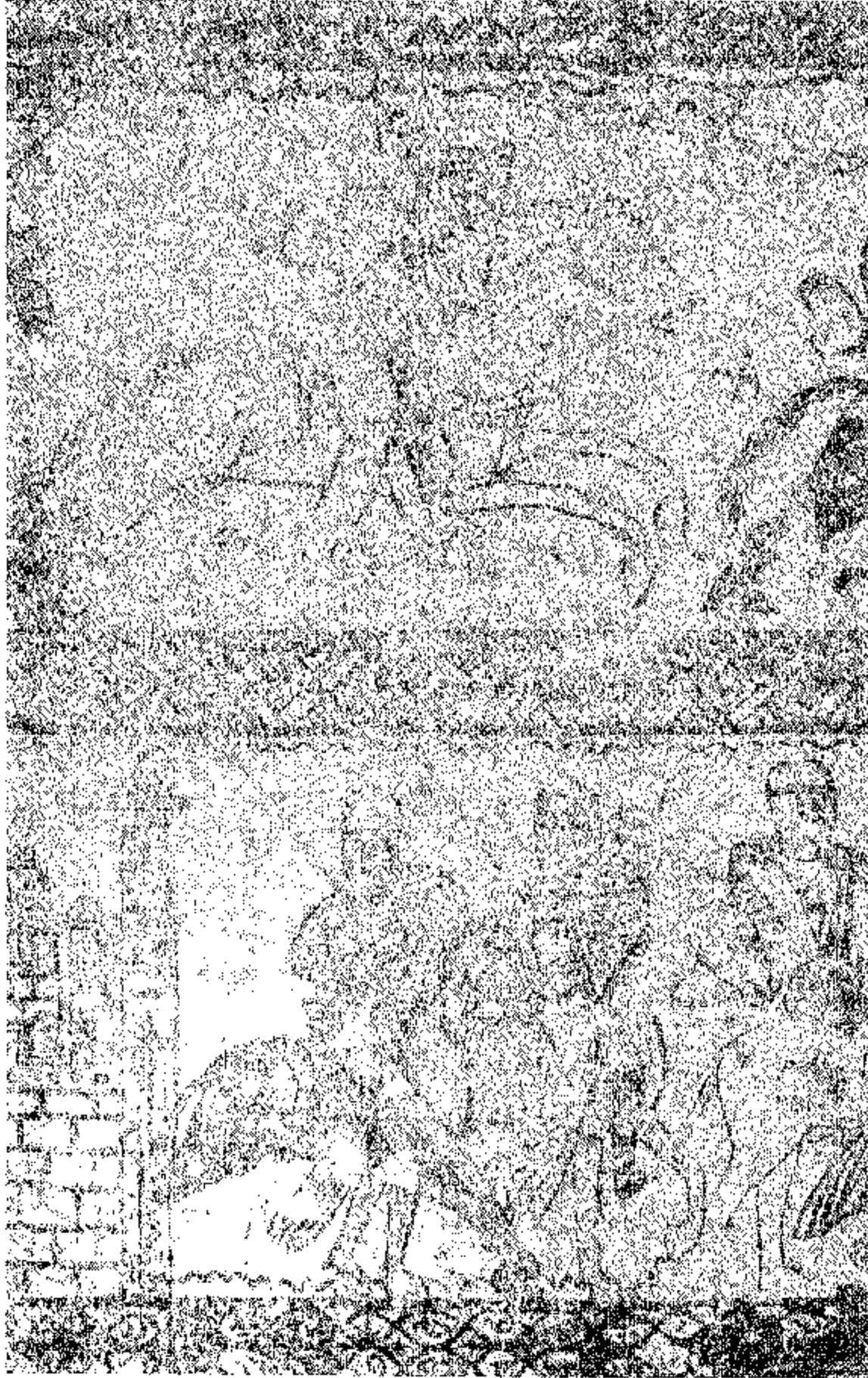
- ايها الملك ، اتنا لانعبأ بمن في مصر من جنود ، وسيكون لنا
النصر عليهم ، أما ما يرد اليك من مال مصر فهو قليل من كثير ،
ولأن تحوز الكثير خير من ان تحوز القليل ، وإن انت لم تسر لمملك
مصر ، فوالله لنسيرن نحن اليها قبل ان يقصدها أسد الدين مرة
اخرى^٢ .

فاعلن اموري حينئذ الموافقة على ما قرره فرسانه وامراؤه ، وسار
في شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١١٦٨ م (٥٥٦٤) على رأس جيش
ضخم ، قاصداً ارض الكنانة ، بينما اعلن انه زاحف على حمص ليشغل
نور الدين عن التطلع الى مصر .

وسرعان ما أدرك شاور ان اموري لم يعد الى وادي النيل حليفاً
وانما عاد عازياً فاتحاً على أسوأ ما يكون الغزاة الفاتحون ، وانه قدّم

١ - كان فرسان الصليبيين ينتهون الى منطمتين كبيرتين : فرسان المستشفى وهم فرسان
القديس حنا وقد سموا كذلك لانهم نظموا فرقهم في بدء امرهم بين رهبان مستشفى القديس
حنا في القدس (ويسميه العرب : الاستبارة) وفرسان الهيكل وقد سموا كذلك لان بناء
منظمتهم قد شيد حيث كان يقوم من قبل هيكل سليمان (ويسميه العرب : الداوية) وقد
اضاف فرسان القديس حنا الى نذورهم الدينية نذور القروسية ، واضاف الهيكليون الى نذورهم
العسكرية نذور الدين ، فترسخت بذلك الغايتان المتخالفتان في الظاهر : غاية الراهب وغاية
الفارس . وكانت هاتان المنظمتان تملكان الحصون والأساطيل ولهما حق عقد المعاهدات
وجباية الضرائب . (انظر : التاريخ العام لفليب فان نس ميرص ٢٤٧ - ٢٤٨ والنجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٣٣ والناصر صلاح الدين للدكتور ماجد ص ٢٩ والعلاقات بين العرب
والافرنج خلال الحروب الصليبية للدكتور النقاش ص ٣٥)

٢ - مصر والشام بين دولتين لجمال الدين الشيبان ص ١٠٥



فرسان الهيكل ، عن لوحة قديمة

في عدة وعتاد لا يقبل مصر بهما . قال بيرانت وبالميرفي كتابهما
« القدس » : « سار فتیان القدس وما حولها من المدن واستولوا على
بليس بعد مسيرة عشرة ايام في الصحراء ، في طريق قد عرفوه من
قبل ، ولم يقاوم اهل بليس الا مقاومة ضعيفة استمرت ثلاثة ايام
استولى الفرنجة عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع في قبضتهم »
وكان اموري قد طاب من طي بن شاور وهو في بليس أن يسمح له
بدخولها فقال له : « أتحسب ان بليس جينة تأكلها ؟ » فأجابه : « نعم
هي جينة والقاهرة زبدة » . . . ! »

ثم اغار الافرنج على الريف يقتلون وينهبون ، لا يتركون شيئاً الا
استباحوه منتقمين متشفين « وما ضاعف حقدهم وحنقهم انهم وجدوا في
هذه المرة مقاومة من الناس في كل مكان ، فصاروا يقتلون كل من بلغته
أيديهم : فلم يتركوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ، وارتكبوا من
الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتنخلع له القلوب » . ٣ .

وقد اضطرب شاور لهذا الأمر اضطراباً عظيماً ، وأرسل الى اموري
يسأله عن سبب حملته ، فأجابه ان المال الذي تدفعه مصر قليل ،
فأنظره الى أجل قريب « وقرر مقاومته » ، وبادر الى احراق

-
- ١ - حياة صلاح الدين الايوبي الدكتور احمد بيلي ص ٩١ ، انظر ايضاً :
الكامل ج ١١ ص ١٥٠ - ١٥١
 - ٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٠
 - ٣ - سيرة شجاع ص ٢٠٢ ، انظر ايضاً : الفاطميون في مصر لحسن ابراهيم
حسن ص ٣٠٥
 - ٤ - الخطط القرية ج ٢ ص ١٤٣ وذيل النوادر ص ٢٥١

الفسطاط^١ كي لا يحتلها الفرنجة ، فظلت النيران متأججة فيها أربعة وخمسين يوماً^٢ ثم صارت تحبو بعد ان اوضحت رماداً .

وأخذ الوزير الطاغية يفكر في الاستنجد بنور الدين ، ولكنه لم يجرؤ على الكتابة اليه بنفسه بعد ان مكر به واخلف عهده له ، وجراً الافرنج على بلاده واستعدادهم على قومه ، واطلمهم على خفايا مصر وعوراتها . فكتب الخليفة الفاطمي الى نور الدين كتاباً مؤثراً « سختم اعلاه بالمداد الاسود^٣ » وأرسل معه شيئاً من شعور نسائه وقال فيه :

« هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الافرنج ! .. »
وما كادت أستغاثه العاضد تصل الى نور الدين وهو في حلب ، حتى بادر الى اعداد حملة كبيرة من خيرة جنده لانقاذ مصر من المعتدين ، وكان من الطبيعي ان يسند قيادتها الى اسد الدين شيركوه وهو أمضى

١ - هي العاصمة القديمة التي انشأها عمرو بن العاص لما فتح العرب مصر ، ويرى معظم المؤرخين ان احراق هذه المدينة التاريخية زلة لا تغتفر لشار ، وأنه قد اقدم عليها إما نتيجة خطأ في التخطيط الحربي حين اعتقد بأن احراق الفسطاط هو الخطة المثلى لصد عدوه ، او قصد القضاء على القوة الشعبية التي تركزت في الفسطاط خشية ان تغلبه على امره في المستقبل أو تكون عوناً لجيش نور الدين عليه كما كانت من قبل ، وقد عانى ابناء الفسطاط في هجرتهم الى القاهرة واقامتهم فيها ألواناً مروعة من الشقاء والهول ، وقال القريري في وصفهم : « كأننا خرجوا من قبورهم الى الحشر لا يعبأ والد بولده ولا يلتفت أخ الى اخيه (انظر سيرة شجاع ص ٢٠٨ ، مصر والشام بين دولتين ص ١٣٥ ، الخطط القريرية ج ٣ ص ٣١٤) وقد سفه اسد الدين شيركوه رأي شار في احراق المدينة ، وأخذ يساعد اهله ويأسو جراحهم ، ويعمل على تأمين السكن والثروة لهم ، ويدعوم للعودة الى الفسطاط وتعميرها (انظر : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ١٤)

٢ - الكامل ج ١١ ص ١٥١ وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤ - ١٧٠

٣ - مصر والشام بين دولتين ص ١٢٣

سيوفه واشجع رجاله وبطل المملتين السابقتين ، وقد اعطاه مائتي الف دينار ، وزوده بالكثير من الثياب والدواب والأسلحة ، واعطى كل فارس معه عشرين ديناراً عدا الاعطيات المقررة له .

واراد اسد الدين ان يصطحب معه في هذه الحملة ابن اخيه فابى وهو غافل عن الدور الذي 'يعده' له القدر والمستقبل الذي يهيئه له التاريخ .

وروى ابن شداد ان صلاح الدين قال له : « كنت اكره الناس للخروج في هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختيارى ، وهذا معنى قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .^١

أما تاج الدين شاهنشاه بن ايوب فقد وصف هذا الموقف التاريخي على لسان صلاح الدين بقوله :

« أمرني نور الدين بالسير مع عمي شيركوه ، وكان قد قال لي شيركوه بحضرته : « يا يوسف تجهز للسير » فقلت : « والله لو اعطيت ملك مصر ما سرتُ اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا انساها ابداً » فقال عمي لنور الدين : « لا بد من سيره معي ! » فأمرني نور الدين وأنا استقبل . فقال نور الدين : « لا بد من مسيرك مع عمك ! » فشكوت الضائقة ، فأعطاني ما تجهزت به ، فكأنما كنت اساق الى الموت !... »^٢

وبينا جيش الشام يغد السير في طريقه الى مصر ، كان شاور ياطل

١ - النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ص ٣١

٢ - ذيل النوادر ص ٢٦١ انظر ايضاً : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٠

أموري ويرسل له الرسل والكتب ، ويفاوضه على مقادير من المال ، وهو يطلب المزيد ، فيعده بأجابة طلبه ، ويبعث اليه بقسم منه مؤكداً له انه جاد في جمع القسم الآخر ، ويرسل جباته الى انحاء البلاد تجمع من الفلاحين المزيد من المال تحت لسع السياط ، وأموري مستسلم لتلك الوعود وما تثيره في نفسه من الأحلام ، فلا يجيب قواده وجنوده الى ما يريدون من الإسراع في الهجوم على القاهرة ، بل يزحف اليها متباطئاً منتظراً لأنه يريد الاستيلاء على كنوز مصر من اهون سبيل ، ثم يقف في ضواحيها فلا يتقدم ولا يهاجم ولا يحاصر لأن شاور قد انذره بأنه إن فعل ذلك كف الناس عن دفع المال ، ولا يدري انه قد وضع نفسه بذلك حيث أراد شاور ان يكون ، ليضعه بين نارين فيطوقه إذ تصل جيوش نور الدين ويقضي عليه .

وكان اموري يتوهم ان فتح مصر لن يقتضيه جهداً كبيراً ، ولكنه فوجيء بتلك المقاومة الضارية التي كان من بعض مظاهرها احراق المدن والقرى لثلاث سقط في يده فينتفع بخيراتها ويمتنع فيها . وكان يعتقد بان جيش الشام لن يصل الى ارض الكنانة إلا وقد استتب الأمر له فيها ، فيتسنى له طرد هذا الجيش منها بأيسر السبل ، فاذا بأسد الدين يصل الى القاهرة في ٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هـ ١١٥٩ م « وعدته ثمانية آلاف رجل » فتفتح له ابوابها مهللة مرحبة ، وهو ما يزال ينظر اليها من وراء الحصون نظراً المتلهف اليائس .

وأدرك ملك بيت المقدس خطر مواقعه بعد وصول ذلك الجيش الذي كثر جمعاً وتكامل قوة ، فبدأ بمغادرة الاراضي المصرية وهو يلوم

١ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ١٣

نفسه على هذه المغامرة التي افقدته مصر الى الابد بعد أن غدت او كادت تغدو محمية تابعة له .

واذا كان اموري لم ينتظر حتى يقع في الفخ الذي نصب له ، بل سارع الى مغادرة مصر منذ دخلها جيش الشام ورأى شاور يتفكر له ، فانه قد خسر مصر على كل حال ، وخسرهما الى الأبد ، والحقت به هزيمته العار أمام جنده وقواده وحلفائه ، لأن طمعه الذي حمله على تلك الحملة الجنونية وعلى سوء التصرف فيها ، هو الذي افضى به الى تلك النهاية الخاسرة التي افقدتهم صداقة مصر ونقلت هذه البلاد الى حكم قوي جديد .

ويذهب غليوم الصوري المؤرخ للصليبي الشهير الى ان هذا الحادث كان المعول الاول الذي هدم حكم الفرنجة في القدس ويعلق على ذلك بقوله : « ايه ايها الجشع الانساني والشره الآدمي !.. قد كانت كتوز مصر كلها تحت اقدامنا ، وكانت اسباب الامان والسلامة والهدوء متوفرة لأولئك الذين يفدون علينا من اوربة عن طريق البحر ، وكان باب التجارة مفتوحاً لمن يرغبون في ثروة مصر ، ولم يكن لنا عدو في جهاتنا الجنوبية بل كان المصريون دائبين على جلب بضائعهم وخيرات بلادهم الى اسواقنا وانفاق ذهبهم في بلادنا . على ان هذا كله قد ذهب وضاع ، بل تبديل وتغير ، فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة ، واصبح البحر يابى علينا ملاحه مطمئنة ، وصارت البلاد التي تحيط بنا تطيع عدونا ، وتسلمت كل مملكة لحربنا وتدميرنا ، وجميع هذه النتائج المحزنة السيئة انما جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من افرادنا » .



اموري الاول ملك بيت المقدس

لقد شاء القدر أن يدفع بالعامل الصليبي الى تلك المغامرة الحمقاء ، لتكون فاتحة عهد جديد في تاريخ ذلك الصراع العنيف ، ينجز فيه نور الدين رسالة الوحدة بين بلدان الشرق العربي ، ويسلمها الى بطل جديد ينتقل ببلاد العرب والاسلام من طور الدفاع الى طور التحرير .

ولقد حاول شاور ان يعرقل تلك المسيرة الجيدة بدسائسه ومؤامراته حين رأى الشعب المصري يستقبل اجناد الشام استقبال المنقذين ، والخليفة الفاطمي يقرب اسد الدين ويلاطفه وينعم عليه ، والناس ينقطعون عن ديوانه ليغص بهم ديوان الأمير الجديد الذي جعل ينتزع شيئاً فشيئاً كل مظاهر الحكم والسلطان ، وحين لم يعد يسمع في كل مكان سوى تلك الدعوى التي يرى اصحابها انه خير لمصر أن يملكها العرب والمسلمون بدلاً من ان تقع في ايدي الفرنج ، فهي خير مهد لقوة عظيمة يعترف بها العرب والاسلام . ولكن القدر كان لشاور بالمرصاد ، وبعث ولداً من صلبه لفضح تلك الدسائس واحباط هاتيك المؤامرات .

فقد اراد ان يفتك بأسد الدين وقادة الجيش النوري ، خلال مأدبة يعمدها لهم ، فيتخلص بذلك منهم ، ويغدو جند الشام تحت إمرته ، ولكن ولده الكامل شجاع وقف في وجهه مهدداً وقال له :

– والله لئن عزمتم على هذا الأمر لأعرفن شيركوه !

فقال ابوه : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً ..

فقال : صدقت ، ولئن نُقتل ونحن مسلمون ، والبلاد اسلامية ، خير من ان نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فانه ليس بينك وبين عودهم إلا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه .. وحينئذ لو مشى العاضد بنفسه الى

نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملك الفرنج البلاد ، وتزول دولة الاسلام ..

ثم قال : لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق افرنجي ، فان هذا لا يلبث أن يصير عدواً ، أما ذلك فلا يكون الا صديقاً خيماً ومخلصاً أميناً وفيأ^١ .

ويبدو ان اسد الدين قد عرف ما يبغته له الوزير الخادع ، فسبقه الى تدبير مكيدة قضت عليه ، إذ جاء يوماً لزيارة أسد الدين في معسكره بأرض اللوق ، كما دته في مداهنته والتودد اليه ، فقيل له انه قد غادره الى ضريح الامام الشافعي ، فلحق به الى هناك والطبول والأبواق تسبق موكبه الفخم ، واذا بصلاح الدين وعز الدين جرديسك يخرجان اليه ويقبضان عليه ويسوقانه الى حيث ينتظر أسد الدين .

ويقال ان اسد الدين لم يكن يرغب في قتل شاور ، وأنه نهى صلاح الدين وعز الدين عن ذلك ، ولكنه اضطر بعد تورطها في اعتقاله الى الموافقة على خطتها^٢ ، فأبلغنا الخليفة بما صنعا ، فأمر بأن يقطع رأسه . ثم تابع الرسل خشية أن يتردد القابضون عليه في قتله ، فقتل وجيء برأسه اليه^٣ . فملئت نفسه فرحاً ، وأحس كأن كابوساً كان يحتم على صدره فرفع عنه ، وشاع الخبر بين أهل القاهرة وعامة الشعب فخرجوا جماعات وتجمهروا فرحين ، يحمدون الله أن نجاهم من شر ذلك الرجل وظله^٤ .

١ - الكامل ج ١١ ص ١٥٢ وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

٢ - الكامل ج ١١ ص ١٦١ .

٣ - صلاح الدين للدكتور مصطفى الوكيل ص ٥٣ .

٤ - مصر والشام بين دولتين ص ١٦٩ - ١٧٠ .

إلا أن معظم المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بأن مصرع شاور إنما تم بموافقة أسد الدين ونور الدين نفسه ، بعد أن عرض الخليفة العاضد على شيركوه التخلص من الوزير المستبد فهو لا يثق به ولا يطمئن إليه ، فوجوده بلاء وشر على البلد وأهله ، ومن الخير أن يقضى عليه ، على أن يستوزر الخليفة أسد الدين مكانه ^١ .

وقد اعتبر نور الدين خروج الصليبيين من مصر فتحاً جديداً للبلاد بعد فتح عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب ، ومنعة لسائر بلاد الشام ، وحمد الله على أن هذا الفتح قد تم في عهده وعلى يده ^٢ ، وأرسل ابن عسرون ليحمل هذه البشرى إلى الخليفة العباسي ، فابتهجت بغداد مثلما ابتهجت دمشق ، وطفنت عليها موجة صاخبة من الفرح والأمل ، كما ابتهجت القاهرة لهذا التلاقي بين الأشقاء المتباعدين .

أما أسد الدين فقد رحب به الخليفة العاضد بعد مصرع شاور ، وقلده الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش . وقد جاء في وثيقة التولية :

« هذا عهد لا عهد لوزير مثله ، من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة بحير الأمة ، الأمير أبي الحارث أسد الدين شيركوه العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته ، سلام عليك فإنه يحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله

١ - الكامل ج ١١ ص ١٥٢ - ١٥٤ وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٧١ ومصر والشام بين دولتين ص ١٥٩ .

٢ - أتابكة الموصل ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين ، وسلم تسليماً ، تقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، وأسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة ، واتخذة للفوز سبيلاً .

وقد انتقل أسد الدين الى قصر شاور في دار الوزارة ، وأطلق يده في شؤون مصر ، فأقطع جنوده الاقطاعات الواسعة ، وعين على البلاد من الولاة من يشق بهم من أصحابه والمقربين اليه ، وتمت له بذلك السيطرة على مصر دون عناء .

إلا أن هذا المجد الذي دان له لم يستمر سوى شهرين وخمسة أيام ، إذ ما لبث أن توفي في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ ٢٣ آذار ١١٦٩ م ، وخلفه في منصب الوزارة يوسف صلاح الدين ابن أخيه ومساعدته الأول وهو في سن الثانية والثلاثين .

الفصل العاشر سقوط الدولة الفاطمية

إذا كانت الأحداث هي التي صاغت حياة صلاح الدين في طفولته وشبابه ، ودفعت به الى معترك النضال في مصر وهو كاره لذلك ، ومهدت له السبيل الى بلوغ منصب الوزارة في الدولة الفاطمية ، وهو المنصب الخطير الذي رفعه الى ذرى المجد ، وأوضح أمامه معالم الطريق ، ووضعه على قدم المساواة والمنافسة مع الخليفة العاضد في القاهرة والملك العادل في دمشق ، فان الأحداث التي تلت ذلك ، في غمرة صعاب من فوقها صعاب ، انما كانت من صنع يديه ونسج عبقريته ، بقدر ما يستطيع الرجل الفذ أن يسهم في صنع الأحداث اذا عرف طبيعتها ، وسبر غورها ، وخبر وجوه الخير والشر فيها ، فأخذ لكل أمر عدته ، وأعدت لكل موقف أهبتة ، واستطاع أن يسلك في دروب الحياة المتشابكة المتشعبة المسلك الذي يتلام وحاجات الناس ويتفق مع سير التاريخ .

وقد طمع معظم مقدمي الجيش الشامي في مصر ، بأن يخلفوا أسد الدين شيركوه في منصب الوزارة ، وهم أتباعه وأقرانه الذين لا يقلون عنه معرفة في شؤون الادارة وخبرة في امور الحرب ، وكلهم اشد

اعتداداً بنفسه من صلاح الدين ، واكثر أعواناً وأنصاراً منه ، ومع ذلك فان الخليفة العاضد لم يختار شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، او قطب الدين ينال المعروف بالقوة والصلف ، أو عين الدولة الباروقي وهو اكثر القادة طمعاً في المنصب الشاغر ، وانما اختار القائد الشاب دون غيره ، لاعتقاده بأنه اصغرهم سناً وأضعفهم شأناً ، فهو يستطيع أن يسطنعه لنفسه ويوحى اليه برأيه ، وقد قام في وهمه ان الفرصة قد سنحت له لاسترداد سلطانه المفقود ومجده المسلوب ، والعودة بالخلافة الفاطمية الى سابق عزها وازدهارها .

يقول ابن الأثير : « وكان الذي حمل العاضد على اختياره ، ما كان يظنه فيه من الضعف لقلة رجاله وضعف عسكره ، فظن انه اذا ولاه يكون مستضعفاً ولا يجسر على مخالفته ^١ ، على ان بين المؤرخين من يعتقد بأنه لم يكن بين أمراء نور الدين من هو أقوى شخصية من صلاح الدين ، وأن العاضد قد ألزم بتوليته ، ولعل هؤلاء المؤرخين يعنون بذلك المساعي التي بذلها في هذا الشأن كل من عيسى الهكاري الفقيه الذي جمع قلوب الجند من حوله وأرضى عنه الطامعين فيه والمزاحمين له ، وبهاء الدين قراقوش الذي كان قد عين في آخر أيام اسد الدين استاذاً في القصر . ولكن المتفق عليه ان صلاح الدين لم يسع لمنصب الوزارة بل هناك من يؤكد انه قد تعفف عنه ^٢ ، وان كان ثمة من يرى ان تمنعه لم يكن الا أمراً ظاهراً وقد يكون الغرض منه أن يزيد العاضد ثقة واطمئناناً ، حتى اذا استوى على الأمر نفذ خطته واصلاحه الذي صمم عليه ^٣ .

١ - الكامل ج ١١ ص ١٤٥ وأشبكة الموصل ص ٢٥٥ .

٢ - مخرج الكروب ج ١ ص ١٦٩ .

٣ - أيام صلاح الدين ص ٧٨ .



الخليفة العاضد على صورة جواده في موكبه ويحانبه عامل المظلة

وقد ألبسه العاضد حلة الوزارة في حفل كبير ، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين ، وتتكون من عمامة لها طرف (ذؤابة) زي امراء مصر (القواد) وثوب مطرز بالذهب - لعله درّاعة وهي ثوب قصير مشقوق من أمامه ومخلى بعري وأزرار - وجبة بطراز من الذهب ، وعقد جوهر من زي وزراء مصر ، ورداء يلقي على الكتف (طيلسان) زي القضاة الفاطميين^١ . ثم عاد في موكبه وأفراد الشعب يتبارون في اعلان فرحهم وسرورهم ، وقد انتشروا جماعات يغنون ويرقصون ويلعبون ، وهو يتثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحاً ويدخل السرور على قلوبهم بعد أن ران عليها الحزن ، وطال بهم الضنك أياماً وسنين^٢ .

وكانت العادة قد جرت بأن يُطلق على الوزير لقبٌ كبير يُعرف به ، فسمي الوزير الجديد « الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف ابن ايوب » ولكن غلب عليه اسم السلطان دون ان يتلقب به^٣ والسلطان هو لقب امثاله من القادة في بلاد الشام . وفي صبح الأعشى ان العاضد كتب اليه في طغراء العهد بالوزارة : « هذا عهد امير المؤمنين اليك ، وحبته عند الله عليك ، فاوف بعهدك ، وخذ كتاب امير المؤمنين بيمينك . ولئن مضى يجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن اسوة ، ولئن بقي بقربنا اعظم سلوة ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والمعاقبة للمتقين^٤ » .

١ - الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٠ .

٢ - مصر والشام بين دولتين ص ١٩٢ .

٣ - الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٠ .

٤ - صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٠٨ .

تولى الوزير الشاب ذلك المنصب الذي تحيط به الفتن ويتطلع إليه كل امير على شيء من القوة والبأس ، على انه عبء ينهض به ورسالة يؤديها وليس متعة ولهواً ، وقد رأى بحكته المشرقة وخلقه الرفيع ، ان خير ما يثبت به دعائم حكمة العدل بين الناس فعاملهم بما عرف به من كريم السجايا ونديل الصفات ، وكان له من كرمه كما يقول ابن شداد ، ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون الى طاعته ، ولم يخيب رجاء قاصد له ، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب له ^١ ولم يتعرض لمن اعتنق المذهب الشيعي في عهد الفاطميين وقد استمر نحواً من قرنين ، واكتفى بذكر اسم نور الدين زنكي على المنابر بعد اسم العاضد ، موازناً بحكته وكيامته بين المجاهد السني والخليفة الفاطمي .

على ان احترام عقائد الناس شيعيين كانوا ام سنيين ، ومسيحيين ام مسلمين ، كان نزعة اصيلة في نفسه ، وسجية رفيعة من سجاياه ، فعرفت الطوائف المختلفة في عهده اقصى الحرية ، وأحبه الاقباط محبة شديدة ، حتى ليذهب احمد زكي باشا الى انهم قد وضعوا صورته في كنائسهم ^٢ ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها ان الشاعر عبد المنعم الاندلسي زار مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى منها هذا البيت :

فخطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
وقد رفع الملك الناصر المظالم عن المصريين ، وخفف اعباء الضرائب

١ - النوادر السلطانية ص ٣٣ .

٢ - مجلة رعميس ، السنة الخامسة ، العدد التاسع .

التي كانت ترهقهم ، واصدر بهذا الصدد مرسوماً قرىء على المنابر يدل دلالة واضحة على الشدة التي كان يستعملها الولاة في جباية المكوس ، وما جاء فيه قوله : « وخرج امرئاً بمساحة اهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم (المقس) والمنية ، بابواب المكوس ، صادرها وواردها . فيرد التاجر ويسفر ، وينيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برأً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سرأً وجهراً ، لا يُحَل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يُكشَف ما ستره ، ولا يُسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق طريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ، ولا يستباح له حرمة . »

وقد اكسبت هذه السيرة السمعة العادلة صلاح الدين محبة الشعب وايتارهم اياه ، ولكنها لم تصرف عنه كيد الأمراء الموتورين والقواد الطامعين الذين ما فتشوا منذ اللحظة الاولى يتآمرون على حياته ، كل منهم يريد ان يقصيه عن كرسي الحكم ليحل محله فيه . وما لبث مؤتمن الخلافة جناح كبير الخصيان السود^١ ، ان خرج بفكرة التخلص منه الى حيز العمل ، فكتب الى الفرنجة بالزحف على مصر ، ووعدهم بانهم ان وصلوا وخرج صلاح الدين اليهم ، قام يجموعه فضربه من خلف ، بينا تناجزه جيوشهم وجهاً لوجه ، وفي هذا القضاء الحتم^٢ .

وقد وضع مؤتمن الخلافة هذا الكتاب داخل حذاء جديد وأعطاه الى

١ - ورد في بعض المصادر ان اسمه « جوهر » وفي ذلك يقول القريري ان فتح مصر للفاطميين كان على يد جوهر وخراب الفاطميين كان بسبب جوهر (الخطط ج ٣ ص ٤) .

٢ - يشك بعض المؤرخين في المؤامرة التي نسبت الى « جناح » ويرى ان صلاح الدين انما تدرج بهذه التهمة للتخلص من خصومه (انظر : الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٨) .

أخذ رجاله لينطلق به الى مملكة الفرنجة ، فاشتبه رجل من اتباع صلاح الدين بأمر الرسول لما كان عليه من هيئة رثة وثياب بالية وهو يتنعل خفين جديدين ثمينين ، ففحص الحذاء ووجد الرسالة وسلها الى صلاح الدين ، فتجاهل الأمر ولبث يتحين الفرص للايقاع بخصمه ، حتى خرج يوماً الى قصر له خارج القاهرة فارسل اليه من قتله .

فهاج السودان وثاروا ، وكانوا اكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه . فهب صلاح الدين يردهم عن قصره بجيش يتأهله اخوه شمس الدولة توران شاه ، واجتمع الجيشتان في الميدان بين القصرين ، ودارت رحى الحرب بينهما يومين كاملين . وكانت الخليفة العاصد يشرف على الجيشين من احدى مناظر القصر وهو موزع القلب والمواطف ، لا يدري الى اي الفريقين يميل ، ولئن منها يتمنى النصر ، وكلامها قذى في عينيه وشجى في حلقه ، ولم يلبث ان رأى السهام والحجارة تتراعى وتتدفع من نوافذ القصر ، فاضطرب وخشي ان يثير هذا العدا جنود صلاح الدين ، وقد تحقق ظنه فان شمس الدولة توران شاه اثاره الغضب وأسرع فأمر احد الزرايين باحراق منظره العاصد ، وهم الرجل بتنفيذ أمر قائده ، واذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر ويقول : « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم العبيد الكلاب فاقتلوهم او اخرجوهم من البلد ! » وكان السودانيون يهاجمون في شدة وحاسة إذ كانوا يعتقدون ، بعد ان رأوا السهام والحجارة تلقى من القصر ، ان الخليفة يؤيدهم ويشد أزرهم ، فلما سمعوا هذا القول فت في اعضادهم ، وتحاذلوا وأدبروا ،

١ - كثر السودانيون في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة المستنصر لأن امه كانت تربية (انظر : النخطط المقرزية ج ٣ ص ٣ - ٤ و ٢٩ وفصل الجيش في نظم الفاطميين) .

وانتهت المعركة بهزيمتهم ، وطارد توران شاه من بقي منهم الى الصعيد^١ ،
فظل الوجه القبلي من مصر طوال ست سنوات مسرحاً لفتن متواصلة
يدبرها اعداء صلاح الدين من امراء الفاطميين ويذهب ضحيتها السودانيون
الناقون عليه .

وعين الملك الناصر مؤتمناً للخلافة جديداً من اتباعه هو بهاء الدين
قراقوش^٢ ، وكان خصياً ابيض اللون قد اعتقه عمه اسد الدين ، فسيطر
بذلك على حاشية القصر التي كانت تؤلف فرقة كبيرة ذات نفوذ قوي
في شؤون الدولة لم يُعرف لها مثل في قصر اسلامي من قبل ، إذ
يقول القريري ان عددها عند سقوط دولة الفاطميين بلغ ثمانية عشر
الفاً^٣ ، وهي تتكون كما يقول الدكتور عبد المنعم ماجد من موظفين
من كل نوع ولون ودين ، يقومون بأعمال القصر المختلفة ، وان تميزت
بينهم طبقة من العبيد البيض والسود على السواء ، اغلبها من اصل اجني
من الصقالبة الأوربيين او السودانيين ، خصيان وغير خصيان ، يُعرفون
بالاستاذين جمع استاذ ، وهي كلمة من اصل فارسي تعني عبيد القصر .
وقد كان يُشرف على هذا الجهاز الضخم في القصر رؤساء لهم يُعرفون
بالاستاذين المحنكين ، لتمييزهم عن غيرهم بزى الحنك ، وهو ان يمر طرف

١ - الخطط القريرية ج ٣ ص ٣ وما بعدها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٥ -
١٧٧ الكامل ج ١١ ص ١٣٩ - ١٤٠ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٧ ،
مصر والشام بين مولتين ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

٢ - يخلط بعض المؤرخين بين بهاء الدين قراقوش هذا وشرف الدين قراقوش الذي
خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكانت حياته سلسلة مغامرات
وقلاقل ومغامرات ومذابح ألقت في قلوب الناس الملح الذي لا تزال ذكراه بقية الى
اليوم (انظر : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٠) .

٣ - الخطط ج ٢ ص ٣٩٦ .

العمامة تحت الحنك ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس فكان هؤلاء يكوّنون الخاصة للخليفة ، ولهم نفوذ كبير ، إذ كانت الواحد منهم له حق التلقب بلقب الأمير ، كما ان الخليفة والوزير يشتركان معهم - أحياناً - في لبس زيهم مما يدل على خطورة مناصبهم

ولم يكن مركز صلاح الدين من ناحية نور الدين محمود ، بأقل اضطراباً وحرَجاً مما كان عليه من ناحية الأمراء الفاطميين ، فقد كان الحاكم الشاب يريد الاستقلال بمصر ، وكانت نور الدين يستشعر منه ذلك ويخشاه ، فيطلب منه أن يغيّر خطبة الجمعة في المساجد ويجعلها باسم الخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي ، لتكون له عليه سلطة شرعية واضحة ، فيستعمله في ذلك لأنه لا يريد اغضاب المصريين ، ويؤكد له ان اسمه يُذكر على منابر مصر مقروناً باسم الخليفة الفاطمي وتلك خطوة كبرى نحو هدفه ، فكان يأمن بذلك جانب نور الدين ، ويجمع في الوقت نفسه كلمة المصريين حوله ليكونوا عدته في تحقيق الأحلام التي يريد .

وقد خدم الحظ صلاح الدين مرة أخرى ، بعد أن خدمه بالاستيلاء على مصر من أهون سبيل ووفاء عمه الذي وطّد له أسباب حكمها ، إذ لم يكف يحمد ثورة السودانين ، ويتخذ ذلك مبرراً لابعاد خصومه عن مناصب الدولة واحلال قومه ورجال بيته محلهم ، حتى هب اموري ملك القدس ، وقد هاله ان يمتد ملك نور الدين الى مصر ، فاستنجد ببيزنطية ، بعد ان يش من نجدة اوربة لانشغالها بالنزاع بين البابوية

١ - الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ٦٨ ، انظر ايضاً : نظم الفاطميين ج ٢ ص ١٠ وما بعدها .

والامبراطورية^١ ، وزحف بجيشه الى دمياط يريد احتلالها . واتخذ الفرنجة لأنفسهم موقعا بين البحر والمدينة ، في انتظار الاسطول البيزنطي . وكان الملك اموري قد اراد ان يغري فرسان الاسبتارية بمساندته في احتلال مصر ، فأصدر بتاريخ ١١ اكتوبر سنة ١٦٨ مرسوما يقضي بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ، وصييا كبيرا من دخل أهم المدن المصرية مثل القسطاط وتانيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم .. مما يدل على عزم اموري على الاستيلاء على مصر من ناحية ، وعلى اعتقاده في اسكان تحميتي ذلك من ناحية اخرى^٢ .

وكانت دمياط كما يقول ابن واصل « عميلة الاسلام وثغر الديار المصرية^٣ » وعليها من جانبيها برجان بينها سلسلة حديد عليها حرس ، ولا يخرج مركب الى البحر ولا يدخل الا باذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرهما سمت القبلة الى تانيس ، وعلى سورها محارس ورباطات^٤ . فلما علم صلاح الدين بزبا الحملة ، أنفذ الى دمياط الرجال والميرة وآلات السلاح ، عن طريق النيل ، بقيادة ابن اخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي ، فصدت قوات الفرنجة ، ولم ينفع هذه ما حملت معها من المجانيق والدبابات وآلات الحصار ، ومنها ابراج متحركة ذات سبع طبقات تجري على عجل وتقي جوانبها جلود غير مدبوغة

١ - Guillaume de Tyr, p. 961

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١ نقل عن : King: the Knights Hospitallers, pp. 100 - 101.

٣ - مفرج الكروب ج ١ ص ٣٧٤ .

٤ - المآصر في بلاد الروم والاسلام لخاتيل عواد ص ٣٨ .

لتقيها من النار^١ . وكان المسلمون والأقباط يداً واحدة في مدافعة
المغيرين^٢ .

ثم وصل الاسطول البيزنطي الى الشواطئ المصرية وقد عانى في
الطريق اليها من المصاعب ما أضعف من قوته وساعد في القضاء عليه .
يضاف الى ذلك ان الخلافات عادت فتجددت فيما بين البيزنطيين والصليبيين
مما أضعف قوتهم جميعاً ، وهكذا بدأ الانقسام في معسكر العدو ، فكان
البادرة الأولى من بوادر الهزيمة ، والحقيقة ان كل حليف منها كان يشك
في حليفه ويخشى ان ينفرد بالهجوم ليتمكن من الاستيلاء على مصر
وحده ، ولهذا أخذ الصليبيون يعملون على الاتصال بالمصريين ليفسدوا
على البيزنطيين خطتهم .. وقد انتهت الحملة الى الاخفاق بعد هذا الانقسام ،
وعقد نوع من الهدنة بين الفريقين^٣ .

ويقول ستانلي لينبول : « ان زوبعة بحرية شديدة هبت فحطمت ما
بقي من اسطول البيزنطيين فمات كل من كان عليها ، وطفقت جثثهم على
شواطئ البلاد التي كانوا قد جاءوا لفتحها » ، فكان شأنهم كما قال ابن
الأثير كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا اذنين^٤ ..!

وانما قلنا ان الحظ قد خدم صلاح الدين في هذه المرة أيضاً لأن هذه
الموقعة انما كانت برهاناً قوياً على كفايته وجدارته ، فوطدت مركزه

-
- ١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨ .
 - ٢ - نور الدين والصليبيون ص ١٣٧ .
 - ٣ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للعريان والشبال ص ١٥ .
 - ٤ - حياة صلاح الدين الأيوبي للبيبي ص ١٠٩ .
 - ٥ - الكامل ج ١١ ص ١٢٧ .

وعززت مكاتته لدى المصريين ، اذ رأوه يخرج منها مكللاً بالظفر وقد رد خطر الفرنجة عن وطنهم ، ثم تعقبهم الى تخوم مملكتهم رغبة الى ازالة الخوف الذي كان يسيطر على الجنود المصريين من الافرنج . ثم استولى على مدينة العقبة مفتاح البحر الاحمر وطريق الحجاج المسلمين الى مكة^١ ، بحيث ايقنوا بانهم سيكونون آمنين على أنفسهم وأرزاقهم في عهد هذا الوزير الباسل لقدرته على صد العدوان عن بلادهم بحكمته وشجاعته الفريديتين .

بيد أن المؤرخ المنصف لا يسهه الا أن يذكر باعجاب ما كان لنور الدين محمود من فضل كبير في المصير الذي انتهت اليه هذه الحملة الصليبية على مصر ، سواء بالنتجيات العسكرية التي كان يمدّ صلاح الدين بها ارسالاً يتلو بعضها بعضاً ، أو في الحملات الضارية التي شنّها على مراكز الفرنجة في بلاد الشام والحصار الذي ضربه على الكرك^٢ ، وقد بلغ من اهتمامه بحصار دمياط انه حضر مجلساً دينياً وكان فيها ذكره العام الفقيه حديث عن تبسم المؤمن ، فاستعبر نور الدين وقال : « اني لأستحيي من الله ان يراني متبسماً في حين ان المسلمين يحاصروهم الفرنجة في دمياط »

١ - يقول الدكتور نظير سنداوي ان السبب في احتلال صلاح الدين العقبة هو انه ما كاد يعود الى القاهرة من غزوته في فلسطين حتى جاءه الخبر بتلبية نور الدين ورغبته في ارسال ابيه نجم الدين واهله اليه ، وبخروج القافلة بهم جميعاً من دمشق ، فخاف عليهم من الصليبيين ، فخرج قاصداً العقبة وكانت بها قلعة في البحر حصنها الصليبيون عقب احتلال بلدوين لها بقصد السيطرة على طريق القوافل ، فأنشأ صلاح الدين مراكز مفضة وحلها على الجمال ، وأرسلها من القاهرة في عسكر كبير ، وطل مقربة من العقبة أمر بتوكيب المراكب وشحنها بالقنابل ، وزحف بها الى القلعة برأً وبحراً وما زال حتى استولى عليها وأبقى حاميتها وأسكن بها جماعة من تقاته (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩ - ٢٠)

٢ - النوادر السلطانية ص ٥٥



وإذا كان لنور الدين نصيب في أمجاد معركة دمياط ، فإن للعاقد ولا شك نصيباً آخر إذ آرز صلاح الدين في معركته وسانده في موقفه وأرسل إليه على ما قيل الف الف دينار سوى الثياب والذخيرة .

★

أراد صلاح الدين أن يتقدم بعد ذلك خطوة جديدة نحو تثبيت حكمه في مصر ، ونحو تحقيق الأحلام التي بدأت تراوده في توحيد بلاد العرب وجمع كلمة المسلمين ، فأخذ يعمل على تحويل الناس شيئاً فشيئاً عن المذهب الشيعي الى مذهبه ، وهو مذهب السنة ، « كي يتمكن المسلمون في الشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين الذين استفادوا من هذا التشتت ^١ ، فعزل قضاة الشيعة ، وألقى مجالس الدعوة ، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان بحمي على خير العمل ، بدلاً من الأذان بحمي على الفلاح ، وحذف من النقش الديني على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية : « عليّ وليّ الله ^٢ » .

ثم أقام قاضياً شافعيًا في القاهرة فاستناب القضاة الشافعين في جميع البلاد ، وانشأ المدارس لتدريس المذاهب السنية ، وكان في القاهرة دار للشرطة تسمى دار المعونة يجلس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية ، ثم ابنتى المدرسة القمحية وجعلها خاصة بالمالكية ، وانشأ مدرسة للحنفية في دار الوزير البطائحي ^٣ .

١ - الناصر صلاح الدين الايوبي ص ٦٢

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١

٣ - الخطط القرظية ج ٤ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ - ٥٥ ،

مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٨

وكان نور الدين ما يفتأ يلح عليه بتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي المستنجد بالله اعلاناً لالغاء الخلافة الفاطمية ، ولكن صلاح الدين لم يكن يريد ان يتمجل الأمور قبل أوانها ، فظل يرجئ ذلك من شهر الى شهر ومن يوم الى آخر ، على الرغم من الحاح نور الدين^١ وعتاب الخليفة ، تجنباً لفتنة لا تُعرف نتائجها^٢ ، وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد ، فيلغي مخصصاته ، ويحرمه من المال والخيل والرقيق ، ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها ، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته الا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء الى القاهرة !.. وعود الى الخطة نفسها مع امراء الجيش ، فأخذ يحدد من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة ، وأنزل اصحابه في دورم ، وفرق اقطاعاتهم عليهم^٣ .

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة ، وقد خابت الآمال التي عقدها على ما توهمه من ضعف صلاح الدين ، وما ظنه خضوعاً واستكانة منه ، فاحتجب في قصره ، وأنزوى في مخدعه ، فريسة للهم والمرض .

وأدرك صلاح الدين ان الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة ، فعقد مجلساً كبيراً حضره امراء جيشه وقواده وفقهاء السنة ومتصوفوها ، وسألهم الرأي والنصيحة ، وهي بادرة تحولت فيما

١ - الكامل ج ١١ ص ١٤٧

٢ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧ ، مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠

٣ - الخطط القرينية ج ٢ ص ١٧٥ و ج ٣ ص ٣٧٩

بعد الى سنة كان يلجأ اليها كلما تشعبت به السبل أو أظلم الطريق .
وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة
البلاد ، واقترحوا ان يتولى ذلك نجم الدين ايوب حتى إذا أخفق الأب
بأدر الأبن الى تدارك الأمر والاعتذار عما بدر من ابيه .

وفي يوم الجمعة الأول من محرم سنة ٥٦٧ هـ ١٠ ايلول (سبتمبر)
١١٧١ م ذهب نجم الدين ايوب ومعه جماعة من اصحابه الى المسجد
الجامع بالقسطنطين واستدعى اليه خطيب المسجد فقال له : « إن أنت
ذكرت هذا المقيم بالقصر في خطبتك ضربت عنقك ! » فشد الخطيب
وعجب ، ثم سأل : « فلن أخطب اذن ؟ » فقال نجم الدين : « لمولانا
الخليفة العباسي المستضيء بالله » وصعد الخطيب المنبر وقد استولت
عليه الحيرة ، وقال منه الذعر . انه ان أطاع امر نجم الدين فلربما تار
به المصلون وقضوا عليه ، وان لم يطعه عرض نفسه للقتل . فألقى
خطبته مضطرباً مرتبكاً على غير عادة ، وهو لا يدري ما يقول ،
وأخيراً هداه الموقف الشائك الى ان دعا للائمة المهديين ثم للسلطان الملك
الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلي بالناس وهو لا يكاد يتالك نفسه من
الخوف ، فلما انفض الناس دعاه اليه نجم الدين وسأله : « لم لم تفعل
كما أمرت ؟ » فقال الخطيب معتذراً : « انني لم أعرف اسم المستضيء
ولا نعوته ، فاذا علمتها دعوت له في الجمعة القادمة ان شاء الله » وآثر
نجم الدين العفو ، وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء وطلب اليهم
أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسي في الجمعة
القادمة ، فتقدم منهم رجل موصلبي كفيف البصر اسمه الأمين العالم

١ - كان المستضيء بالله قد خلف أباه المستنجد بالله منذ ستة شهور .

الدين بضربة حاسمة ، وغدت مصر تابعة للخلافة العباسية تبعية اسمية ،
في حين اضحى صلاح الدين الأيوبي السيد المطلق فيها .

ولا ريب في ان الأحداث التي سبقت عهد صلاح الدين ، قد مهدت
لسقوط الفاطميين ، إذ «أضحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى
على صد الغزوات الأجنبية ، لما سادها من الأحوال السيئة دهرأ طويلاً ،
وما منبت به من التطاحن الحزبي والمنافسات بين الوزراء الفاطميين ،
حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر
القائد » .

وقد بكى الدولة الفاطمية بعض الذين تقلبوا في أعطاف نعمتها
وذاقوا الخير على يديها ، كالشاعر عمارة اليمني الذي رثاها بقصيدة مؤثرة
تذكر متها هذه الأبيات :

رمىت يادهر كف المجد بالثلل	وجيداً بعد حسن الحلي بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	شقيت مهلاً ، اما تمشي على مهل؟
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة	على فجيعتها في أكرم الدول

الفصل الحادي عشر الاستقلال بمصر

اقام صلاح الدين مأتماً للماضد استمر ثلاثة أيام ، ثم شيع جثمانه ودفنه في موكب عظيم ، وأمر عامه قراقوش بفتح خزائن القصر وكانت تضم كل ما اكتنزه خلفاء الفاطميين وتوارثوه خلال مائتي عام من الجواهر والتحف والنفائس والرياش ، فأهدى الخليفة العباسي والملك المعادل بعضها ، ووزع بعضها على قادة جنده وامراء مملكته ، وباع الباقي وضم ثمنه للخزانة العامة ، وقد استمر هذا البيع عشر سنوات ، ولم يحتفظ لنفسه من كل ذلك كثيراً او قليلاً .

اما اولاد الخليفة ونسأؤه واقاربه وكان عددهم ١٥٢ شخصاً ، فقد اخرجهم من القصر واسكنهم داراً فسيحة احسن معاملتهم فيها واجرى عليهم النعم والخيرات ، ولكنه فرّق بين الرجال والنساء منهم كي لا يتناسلوا . كما اعتق قسماً من الجوارى والعبيد ، ووهب القسم الآخر^١ .

١ - يقول المقرئزي انه كان في القصور الفاطمية عشرة آلاف شريف وشريفة - أي من العلويين - ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادمة وأمة ومولدة (المخطوط ج ٢ ص ٣٩٦)

وكان في القصر مكتبة حافلة بالمؤلفات الثمينة ، فوكل الى القاضي
الفاضل مهمة اختيار الصالح منها للاحتفاظ به .. قيل فتسلم القاضي
الفاضل منها ١٢٠ الف مجلد ، واحرق ما يدعو الى التشيع ، وباع الباقي
وادخل ثمنه الى بيت المال .

وكان قصر الخليفة الفاطمي يتألف من مجموعة قصور من أروع آثار
الحضارة الاسلامية ، منها قصر الزمرد وقصر المظفر وقصر الأقبال
وقصر البحر وقصر الحرم وقصر الشوك ، ودار الوزارة ودار الضيافة
ودار الضرب ، وخزانة البنود وخزانة الكتب وحجر الصبيان ، وتسمى
كلها القصر الشرقي تمييزاً لها من قصر آخر غربي اصغر منه وهو يقوم
الى جانبه ، وبينهما ساحة يقال لها الميدان ، ووراءها متنزه كبير يسمى
البستان الكافوري يحده من الغرب خليج القاهرة الذي تمتد عليه منتزهات
الخلفاء الفاطميين الحافلة بالاشجار والرياحين .

وقد استقبلت دمشق وبغداد العاصمتان السنتان سقوط الدولة الفاطمية
بإبتهاج عظيم ، فازينت الشوارع واغلقت الأسواق واقامت الاحتفالات ،
ونصبت القباب والأقواس ، وأرسل الخليفة المستضيء الخلع الى نور الدين
وصلاح الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين بدلاً من البياض شعار
الفاطميين ، فاحتفل صلاح الدين بوصولها وارتيادها رسمياً ، وكان قد
بدأ منذ الجمعة التالية للألفاء بنصب الأعلام السوداء على منابر المساجد
المصرية ، وألبس الخطباء ثياباً سوداء ، فكانوا يخطبون له بعد الخليفة
العباسي ونور الدين .

ولم ينتقل صلاح الدين الى قصر الخلافة ، بل بقي في دار الوزارة

١ - النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٧

على ضآلة شأنها بالنسبة لفخامة القصر . ولكنه ما لبث ان اخذ يفكر في ان ينشئ على قمة المقطم قلعة كبيرة على غرار القلاع الحصينة في مدن الشام ، ليجعل مقامه ودواوينه فيها ، ويمتنع بها ان عرض له خطر مدام . كما فكر في بناء سور حول المدن الاربع التي تألفت منها مدينة القاهرة ، وهي القسطنطينية التي انشأها عمرو بن العاص ، والعسكر التي انشئت في عهد العباسيين ، والقطنية التي انشأها احمد بن طولون ، والقاهرة التي انشأها جوهر الصقلي .

وقد عزز الناصر مقام اقاربه وابناء عشيرته في الجيش والحكومة ، واحاط نفسه بسور منهم . ولم تكن هذه الحيلة التي يحتاط بها لتدل على شيء بقدر ما تدل على تخوفه من ان يزحف نور الدين زنكي بجيوشه الى مصر لانتزاعها من يده ، او ان يحاول اغتياله او الانتقام عليه قائد ذو بأس او امير فاطمي ناظم .

وفي الحق ان نور الدين كان واغر الصدر عليه منذ قبل وزارة العاضد وأخذ منه خلة الوزارة قبل ان يأتيه منه اذن بهذا القبول ، وكان يمتد بان صلاح الدين انما يعمل للاستقلال بحكم مصر من دونه ، وان كان الملك الناصر لم يدع عملاً يدل على ولائه له الا قام به ، فأمر بالخطبة له بعد الخليفة العباسي ، وضرب النقود باسمه ، وارسل اليه الهدايا الثمينة من كنوز القصر الفاطمي . ولكن ذلك كله لم يكن ليخدع نور الدين عما يجري في مصر ، وعن الهدف الذي يتزعم صلاح الدين اليه .

وكان بين رجال نور الدين من لا يفتأون بوغرون صدره على صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضية ، وفي مقدمتهم عين الدين الباروقي الذي غادر مصر غاضباً إثر اسناد الوزارة الى صلاح الدين ، وكان يمتدع بأنه أحق بها منه ، ولا ريب في ان غضبه قد تعاضم حين رأى ان

منافسه يفتدو حاكم مصر وصاحب الأمر فيها .

وقد بلغ صلاح الدين ان نور الدين عازم على القدوم الى مصر واخراجه منها ، فجمع أهله والمخلصين له ، وعرض عليهم الأمر ، فنهض ابن اخيه تقي الدين عمر وقال : « اذا جاء نور الدين قابلناه كلنا وصددناه عن البلاد »^١ وأيده في ذلك نفر من الحاضرين ، فاستولى الغضب على نجم الدين أيوب وصرخ فيهم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد » وأمر صلاح الدين ان يكتب الى نور الدين بأنه خاضع له منقاد لأمره « فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أم عنده ، والايام تندرج والله عز وجل كل يوم في شأن »^٢ ، فعمل صلاح الدين بنصيحة ابيه ، وأرسل الى نور الدين هدايا ثمينة ، ونهض لغزو بعض الحصون الصليبية القريبة لاثبات حسن نيته^٣ . وان كان يعلم من خلق ذلك الرجل الكبير انه لا يسر يهدية من هذا القبيل .

هذا ما رواه بعض المؤرخين ، وهو أمر لا تطمئن الى صحته ، لاسيما وان هؤلاء المؤرخين أضافوا اليه حديثاً خاصاً جرى بين الابن وأبيه عاتب فيه الأب ابنه على بحث مثل هذا الأمر في مجلس يضم عدداً من القادة والأمراء ، ثم قال له : « ألا فاعلم اننا لا نسلم البلاد له ، ولو أراد قصبة من قصب السكر لحاربناه عليها ، ولا بد للباحث المدقق من ان يتساءل كيف يمكن ان يتسرب حديث خاص من هذا النوع

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٠٤ ، الكامل ج ١١ ص ٢٤٤

٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٩

٣ - مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤

وبهذه الخطورة الى بعض المؤرخين ولا يبلغ مسامع نور الدين . أما ابن شاذان^١ المؤرخ الذي لازم صلاح الدين في سنواته الأخيرة فقد اقتصرته اشارته الى هذا الموضوع على قوله : « ولقد حكى لي السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين انه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة اصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم واقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك^١ . »

وكان استيلاء الفرنجة على مدينة الشوبك في فلسطين قد عرقل سير التجارة بين مصر والشام وأضر بها ضرراً كبيراً . فجهز صلاح الدين حملة لغزوها والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يهاجمها وينال منها ، حتى علم ان نور الدين قد اقبل لمساعدته والاجتماع به هناك ، فخوفه اصحابه وخواصه من الاجتماع بنور الدين وحملوه على الرجوع الى مصر^٢ قائلين له انه اذا اجتمع به « يكون هو المتحكم فيك ان شاء تركك وان شاء عزلك^٣ » فغادر الكرك زاعماً لنور الدين انه اضطر الى العودة لمصر لمساعدة اخيه في القضاء على بقايا الفاطميين^٤ .

وقد اغضب ذلك السلطان نور الدين غضباً شديداً ذهب بكل حله ، ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهرب عامله منه ، ولم يجد لذلك الا تفسيراً واحداً هو ان صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه . فقرر الزحف الى مصر والاستيلاء عليها . على انه ما كاد يستريح من الفتن التي كانت تشغله في

١ - التوادر السلطانية ص ٢٧

٢ - الطوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٤ - ٥٠

٣ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢

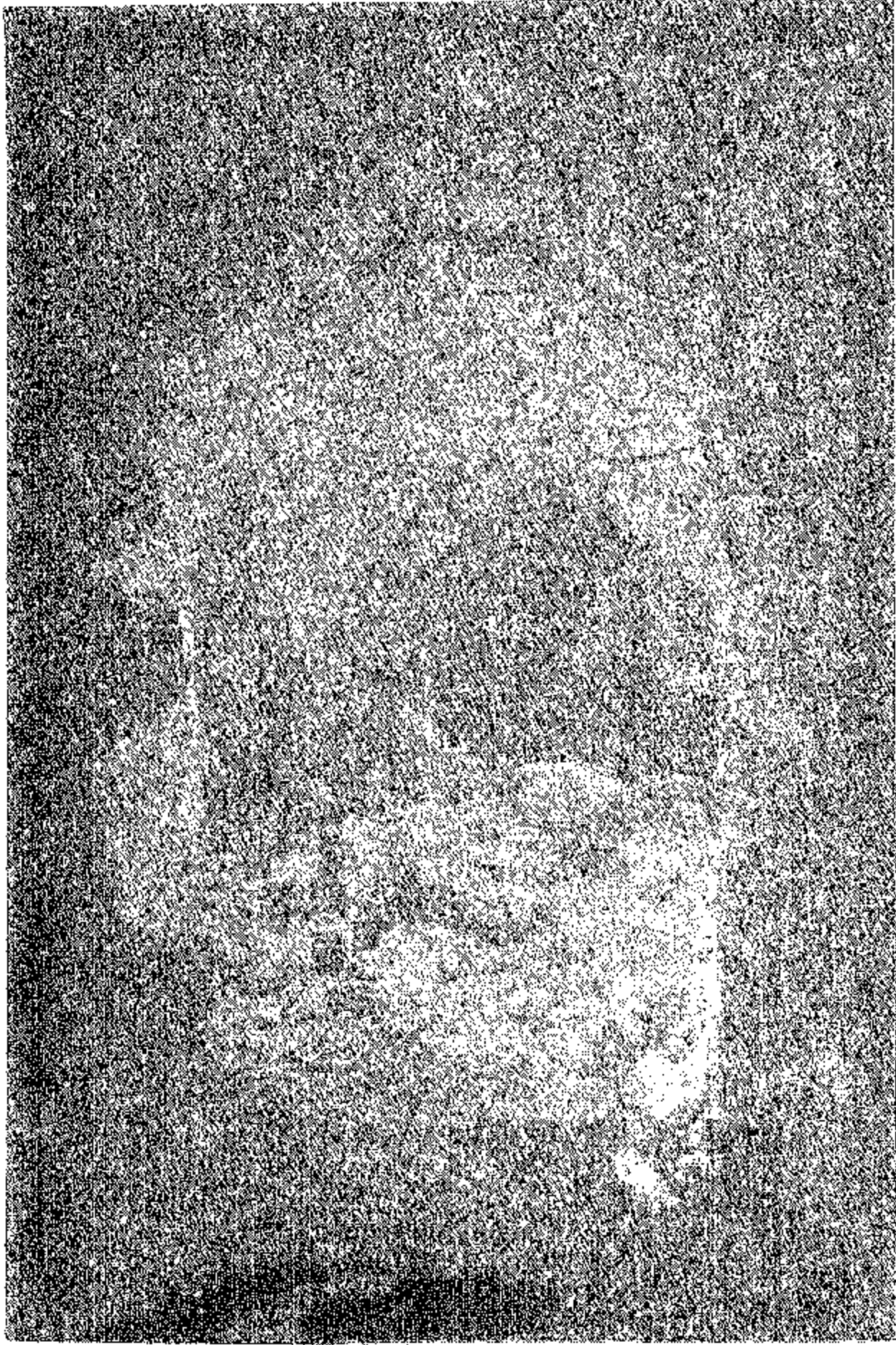
٤ - مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١

ناحية الجزيرة ، ويعتزم الشروع في الحملة على مصر ، حتى وافته من صلاح الدين كتب تؤكد له طاعته وولائه .

اسقط في يد نور الدين ، واعوزته بعد هذه الكتب الحجة التي يبرر بها حملته على مصر ، فاراد تجربة صلاح الدين ، فكتب اليه ان يخرج لفرز الفرنجة في الكرك ، على ان ينهد هو ايضاً الى هناك ، فأبهما سبق صاحبه أقام الى ان يوافيه الآخر . فذهب الناصر بجيشه الى الكرك فحاصرها ، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين وجيوشه اشارته في فتحها ، حتى عاوده الخوف منه .

واتفق أن بلغه في ذلك الحين أن اياه نجم الدين هوى عن جواده فمرض مرضاً شديداً ، فاحتج بمرض ابيه وعاد الى مصر قبل وصول جيوش الشام الى الكرك . وكان أبوه يماني سكرات النزاع ، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين الى القاهرة في ذي الحجة سنة ١٥٦٨ هـ ١١٧٢ م ، فحزن عليه حزناً عظيماً لأنه فقد فيه الأب الخادب والمعلم الراشد والصديق المعين .

وأخذ صلاح الدين يسهى دائماً لتوسيع ملكه وتقوية سلطانه ، فأرسل أخاه تورانشاه الى الشواطئ الافريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس التي أعطته موقعاً استراتيجياً دفاعياً مهماً . ثم أرسله الى بلاد النوبة ، فاستولى على ابريم وعين على حاميتها ابرهم الكردي . ثم بعث به الى اليمن كي يخضعها لحكمه ويضمها الى ملكه ، فسار بمسكوه عن طريق النيل حتى فرص ، ثم عن طريق البر حتى



بعض انقراض سممن الكرك كما تبدر اليوم

عذاب ، ثم عن طريق البحر حتى جدة ، ثم عن طريق البر مرة أخرى حتى مكة حيث زاز الكعبة صحبة أحد اشرافها ، ثم وصل برأ الى زبيد في شوال سنة ٥٦٩ هـ ايار (مايو) سنة ١١٧٤ م وتسلمها بما فيها ، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي ، ثم رحل الى عدن فصنعاء وعاد الى زبيد بعد أن تملك جميع الحصون . ويقال انه فتح وحده ثمانين حصناً ومدينة باليمن ، وان نواب القلاع ارسلوا مفاتيحها اليه دون قتال وهي واحد وأربعون حصناً . وبعد ان استتب له أمر الفتح ، عهد الى اطباء الحملة ان يتخيروا مكاناً صحيح الهواء والماء ليتخذ فيه سكناً ، فوقع اختيارهم على مكان تعز ، فاخطت به تورانشاه المدينة ونزلها بعسكره وبقيت كرسياً لمملكته ^١ . وقد استقام امر الأيوبيين في اليمن نحواً من خمسين سنة .

وقد شجعه على مهاجمة اليمن وأغراه بها وهون عليه أمر فتحها ^٢ ، عمارة اليميني الشاعر الذي أراد الخروج على صلاح الدين وجماعة من شيعة العلويين أصحاب الخلافة المنقرضة ، فزينوا لأخيه تورانشاه غزو اليمن لابعاده عن مصر مع قسم كبير من الجيش ، وكتبوا الى راشد الدين سنان رئيس الاسماعيلية بالشام يقولون له « ان الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وانه ما بين أهلها خلاف ، إلا فيما لا تفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصره » واستدعوا منه من يتم على الملوك غيلة ، أو بيئت له مكيدة وحية ^٣ . وأرسلوا الى اموري ملك بيت المقدس وولم الثاني ملك صقلية ، للوثوب على صلاح الدين ، ووعدوهما بأن

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٤٤
٢ - الكامل ج ١١ ص ١٦٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣١٦
٣ - مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٣

يثوروا عليه متى وصلت جيوشهم الى مصر^١ ولكن كما يشر القدر
لصلاح الدين في كل مرة ما ينقذه كلما أحرق به الخطر فيأخذ بيده
صعداً نحو ذرى المجد ، لقد كشف له عن تلك المؤامرة قبل تنفيذ
خطتها المحكمة بسعي الفقيه زين الدين بن نجاة ، فعاجل المتآمرين وبطش
بهم في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٤ م ، وصلب
عمارة الشاعر وثمانية من زعمائها^٢ . واكتفى بأن نفى من اشترك فيها
من أجناد المصريين ، وتحفظ على من بالقصر من سلالة الفاطميين .

ومن عجائب القدر ان عمارة الشاعر ، كان قد وصف منذ سنوات
انساناً صلب في عهد ابن رزيق لخروجه عليه ، فقال فيه وكأنه كان
يصف نهايته الأليمة :

أراد علو مرتبة وقدر	فأصبح فوق جذع وهو عال
ومُدَّ على صليب الجذع منه	يمين لا تطول على الشمال
ونكتس رأسه لعتاب قلب	دعاه الى الفواية والضلال

وقد اقبل اسطول صقلية الى الاسكندرية وهو لا يعلم باخفاق المؤامرة
وكانت عدته مائتي شقي في كل شقي مائة وخمسون راجلاً ، وست وثلاثين
طريدة تحمل الف وخمسمائة رأس من الخيل ، وست سفن كبار تحمل
آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ، وأربعين مركباً
لحمل الأزواد والرجال . وفيه من الراجل المتفرق وغللمان الخيالة وصناع
المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتم خمسين الف راجل^٣ ،

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٢١

٢ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٥٤

٣ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٤٦

فخف صلاح الدين لتجدة الاسكندرية بنفسه ، ورد الغزاة من حيث أتوا بعد ان كبدهم خسائر كبيرة^١ . اما توران شاه فتابع مسيره الى بلاد اليمن فاحتلها كما ذكرنا ، وضمها الى مملكة أخيه ، وأعاد فيها الخطبة للخليفة العباسي .

ولم يكف صلاح الدين يعود من انتصاره في الاسكندرية ، حتى وافته الانبياء بواسطة الحماس الزاجل الذي كان أول من استخدمه في مصر ، بثورة الامير السوداني كسز الدولة والي أسوان وعباس بن شادي والي قوص ، وكانا من الموالين للفاطميين ، وظلا على هذا الولاء برغم احسان صلاح الدين عليها وحسن معاملته لهما ، فجرد لهما جيشاً كبيراً بقيادة أخيه العادل سيف الدين ابي بكر ففضى على الفتنة وقتل قائديها . وقد عرفت هذه الثورة بثورة الكنز^٢ .

وكان نور الدين زنكي قد استقر يقينه بعد حادثة الكرك ، على ان صلاح الدين قد خرج عليه وخلع طاعته . فتأجج غضبه وشق الأمر عليه ، واقسم لينتقم منه اشنع انتقام .

ولكن الحظ خدم صلاح الدين مرة اخرى . فان نور الدين ما كاد يعدّ العدة للحملة على مصر ، حتى فاجأه الموت في ٢١ شوال سنة ٥٦٩ هـ ١٥ ايار (مايو) سنة ١١٧٤ م وخلفه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل وليس له من العمر الا احد عشر عاماً ، فنسي صلاح الدين ما بلغه نعيه ، ما كان بينها من جفاء ، وذكر وجهه الوسم وخلقه الكريم ،

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٥

٢ - الكامل ج ١٢ ص ٢٨٧ . النوادر السلطانية ص ٣٨ المختصر في تاريخ البشر

ج ٣ ص ٥٦

وذكر نزاهته وعدله ، وجهاده وفضله ، وشجاعته التي ليس بعدها مزيد ،
وسيرته العمرية في رد المظالم وتخفيف المغارم ، فحزن عليه حزناً عظيماً .

ومن مرثي الشعراء لنور الدين محمود قول العماد الاصفهاني :

الدينُ في ظلمٍ لغيبه نوره والدمرُ في غمِّ لفقد أميره
فليندب الاسلام حامي اهله ، والشامُ حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره اذ كان هذا الخطب في مقدوره
من ينصر الاسلام في غزواته ، فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ، من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذللًا لجاحها ، من للزمان مسهلًا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه ، من مشرق في الداجيات بنوره
يا حاملين سريره ، مهلاً فن عجبٍ نهوضكم بجمل ثبيره
يا عابرين بنعشه ، أنشقتم من صالح الأعمال نشر عبيره

ثم ما لبث الموت ان انقذ الناصر من خصم قوي آخر ، هو الملك
اموري الذي توفي في ذلك الشهر نفسه تاركاً الملك من بعده لولده .
الصغير بلدوين الرابع الذي عُرف في التاريخ بلقب بلدوين المجدوم لأنه
أصيب بمرض الجذام في صغره .

وعلى اثر ذلك اتسع امام صلاح الدين الامل لتحقيق الاحلام التي
تراوده ، اذ لم يبق ثمة من يستطيع الوقوف في طريقه اليها .

الفصل الثاني عشر في نبيل حاتم عظيم

اضطرب الامن في ديار الشام بعد موت نور الدين زنكي ، وتصدعت الوحدة التي نذر نفسه لها وقضى حياته في بنائها وتوطيد دعائمها ، وكثرت الفتن والحروب بين امراء الانحاء الذين استقل كل منهم بما يملكه ، او طمع في ضم ملك جاره اليه ، واحتلال مقام السلطان الراحل . وقد اشتد بذلك الخطر من توغل الفرنجة في البلاد ، لاسيما وانهم كانوا الملجأ الذي يلجأ اليه كل امير مغلوب او امير طامع ، للاستعانة بهم على خصومه من الامراء الأقوياء . وكان ابرز هؤلاء الامراء واعظهم شأناً ، شمس الدين محمد بن عبدالله المقدم الذي تولى رعاية الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وخليفته في الحكم ، وسيف الدين ابن عم الملك وصاحب الموصل في عهد ابيه الذي سارع الى الاستيلاء على ارض الجزيرة ، وشمس الدين ابن الداية صاحب حلب. مركز الدولة النورية منذ نشأتها والدولة الزنكية قبلاً وقد اراد ان يأخذ الملك الصغير الى كنفه فاحضره الى قصره من دمشق على كره من امرائها ليتخذنه ترساً ودرءاً واذا بكشتكين ، وهو القائد الذي ارسله لخطف اسماعيل من دمشق ، يثور عليه فيودعه في السجن مع عدد كبير من الامراء وبينهم ابن الخشاب رئيس الشيعة بحلب ، وه انفراد هو بأتابكية الملك الصالح اسماعيل

واستبد بتدبير أموره^١ ، وهكذا غدت الوصاية على الملك القاهر موضع نزاع بين دمشق وحلب .

وامام هذه الفوضى العاصفة . أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بالحاح . بل تحول في نظره الى واجب ينبغي له القيام به ورسالة من الحتم عليه اداؤها ، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد ، وقد انشقت امامه الطريق لانشاء امبراطورية كبرى يبعث بها امبراطورية بغداد ، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد ، وانتزاع اراضيها من أيدي الفرنجة .

ولقد كان واثقاً من ان ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم ، وانهم سيشعرون كما يشعر هو ، بأنه واحد منهم ليس غريباً عن الارض العربية التي وُلد عليها وتغذى منها ودرج في فلواتها ، او عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه منذ كان في المهد صبياً ، او عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده ايما ازدهار ، ومن ثم فليس هو غريباً ايضاً عما يشجى العرب وعما يطمحون اليه ، ولا بدع في ان يتخذ الامل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع اليه مع جنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثرتهم عرب من سكان البلاد ، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم ، والثقافة العربية والشريعة الاسلامية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم ، فقدوا يعرفون بها وفي ظلها يجاهدون .

وكان اول ما فكر فيه ، واراد أن يخطو به الخطوة الاول نحو

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٨ - ١٠

تحقيق هدفه ، الانتصار للملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ووضعه تحت كنفه ، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها الى مملكته في عصر . فكتب اليه والى الامراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه ، كتاباً اعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه ، لانقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة ، وقد قال فيه : « تختلف القلوب والايدي فتبلغ الأعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها الى ان اعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة ، واعضاداً متساعداً ، وقلوباً يجمعها ود ، وسيوفاً يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر باطراف الامل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان . » الى ان يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر : « ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته اليينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت ، بان ولده القائم على الأمر ، وسعد الدين كشتكين الاتابك بين يديه ، فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة في الغيبة والحاضر اديت وفعلت ، وإلا فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناواه وسيفٌ على من عاداه . . الخ » ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح ، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي ، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما بين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير ، واهتمامه بأمره واستعداده لبذل وسعه في سبيله .

ثم أرسل الى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت اليه الحال في بلاد الشام ، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها

ببتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته ، مذكراً اياه من طرف خفي
بانه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسم الخليفة
العباسي مع منابر الشام وبغداد ، بعد ان انقطعت عن ذلك نحواً من
مئتي سنة ، وقد بدأ هذه الرسالة ، وهي من انشاء القاضي الفاضل
وبخطه ١ ، بذكر ما كان لأفراد أسرته من أثر في جهاد الصليبيين
وتأسيس المملكة النورية ، فقال : « كان أول أمرنا أننا كنا بالشام
لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لساكرنا ، نحن
ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو
كسر ، أو مصاف للاسلام معه ضرب ، فما يجمل أحد صنعنا ، ولا
يحدد عدونا أننا نصطي الجهرة ، ونملك الكرّة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب
المقاتلة ، وندير التعبئة ، الى ان ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ،
ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها . »

ثم ذكر رحيله الى مصر وما تم من فتحها وابعاد الخطر الفرنجي
عنها والغاء الخلافة الفاطمية فيها : « فهناك تمت لنا اقامة الكلمة ،
والجهر بالخطبة ، والرفع للواء السواد الأعظم ، والجمع لكلمة السواد
الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفنائها ، وبرأنا من عهدة يمين كان

١ - كان عبد الرحيم بن علي البيساني اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل (٥٢٥ - ٥٩٦ هـ
١١٣٥ - ١٢٠٠ م) من اشهر وزراء صلاح الدين في مصر ، وكان السلطان يستشير
ويستصحبه ويأخذ برأيه ويعهد اليه بتدبير شؤون البلاد أثناء تغيبه في الشام ، وقد عرف
بالاخلاص لصلاح الدين ، والسهر على مصلحة البلاد ، والحض على الجهاد . أمامواجه في
الكتابة والانشاء فقد تغنى بها كثيرون ، وهي قائمة على التزام السجع والافراط في الحسنات
اللفظية التي شاعت في عصره ، وكان صلاح الدين يقول لأعوانه : « لا تظنوا اني ملكت البلاد
بسيوفكم بل بقلم الفاضل ! » انظر : النجوم الزاهرة ٦ : ١٥٦ ، ابن خلكان ١ : ٢٨٤ ،
كتاب الروضتين ٢ : ٢٤١ ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ١٥٨ - ١٧٠ .

ثم حنثها أيسر من إثم بقاءه ، إلا انه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ، وانتقل الى فتح العقبة وحملة النوبة واليمن والاستيلاء على قسم كبير من شمال افريقية « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : لك ، وبرقة ، وقفصة ، وقسطيلية ، وتوزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بالله سلام الله عليه ! »

ويستقل الى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، قائلاً : « .. وتوافت اليها الأخبار بما الملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وان كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع اليه طالب ، والافرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، وان المماليك قدّموا الايدي والاعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الأمر المنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الافرنج يداً ويعلمهم لنظره سداً . »

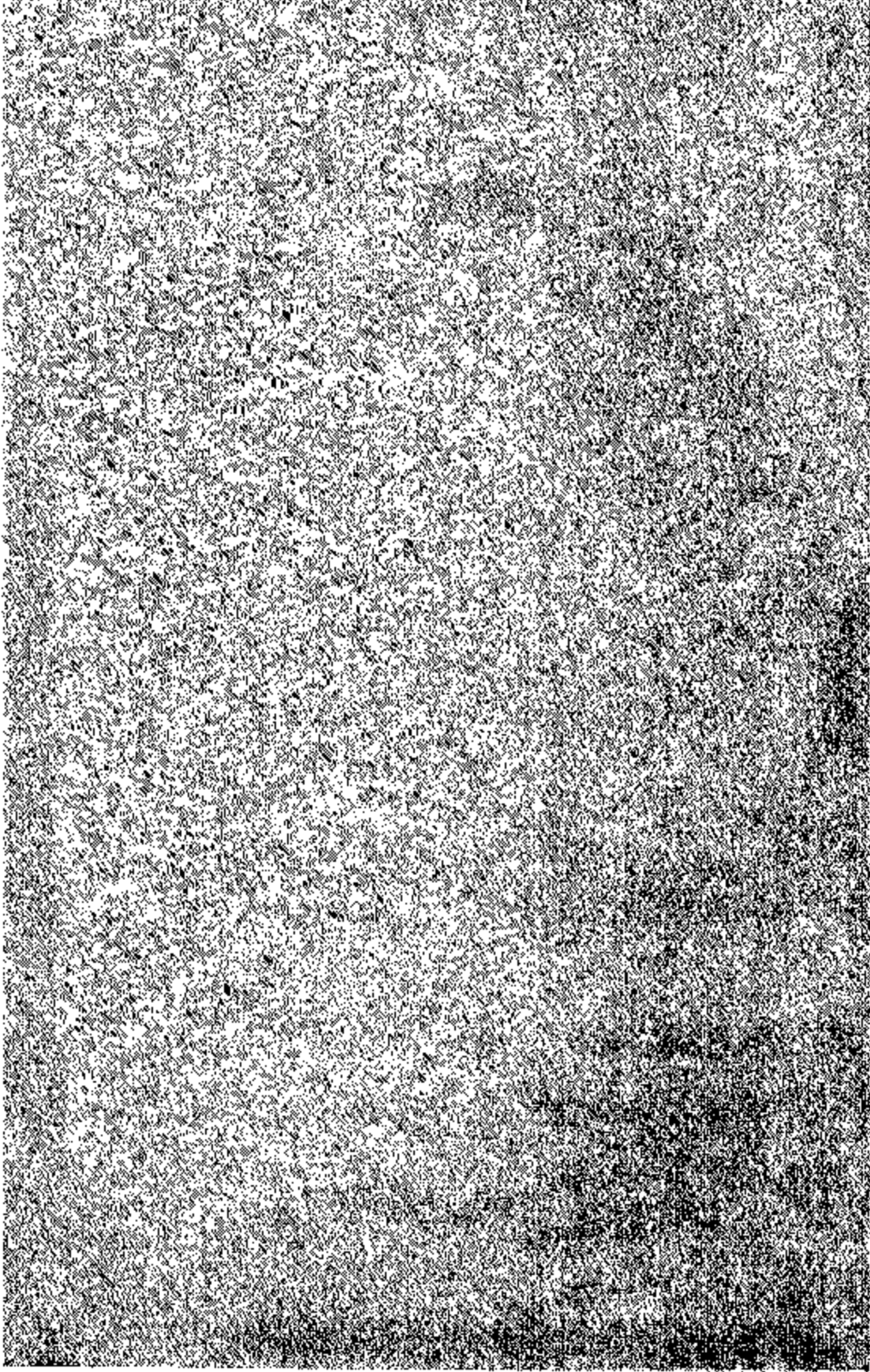
ثم يقول بعد أن يشير الى مطامع الفرنجة واستعدادهم المتواصل : « وعلنا ان البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر ان لم يتجه العزم في قلعه ، وإلا نبئت عروقه ، واتسعت على اهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإننا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العهارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة . فاذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والحيل مستريجة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والاقوات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وامراء متحاسدة ، واطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد

أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه .

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه ، معتبراً إياه مطلباً قومياً وليس مطلباً شخصياً : « والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، إلى أن يقول مفصّحاً عما يريد : « وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتعل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا » .

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة إنها تبرهن أوضح برهان « على سعة أطباع صلاح الدين » كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوربية ، وما فيها من إشارة إلى ما سوف يقوم به من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة إلى نجدتهم . وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث الحربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعاً للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة ، وهو القاضي الفاضل العارف بخطط تطويق الصليبيين من ناحيتين ، وهي الخطة التي وضعها بدر الجمالي الوزير الفاطمي ، واتباعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة ، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ . صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨١
٩٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٤١ - ٣٤٤ .



دمشقي كما رسمها أحمد قنماء الرحالة المغربيين

بدمشق وحلب والموصل ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت
الزنكي فحسب ، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما
استطاع الى ذلك سبيلاً .

ولبت الملك الناصر يترقب الفرص ولا يقدم على أي امر يثير غضب
الشام عليه ومخاوفها منه ، حتى دعاه ابناؤها انفسهم للزحف اليها .

ذلك ان ابن المقدم ومن يواليه من امراء دمشق ، لما رأوا كمشتكين
قد تغلب على ابن الداية وانصاره وسجنهم ، تخوفوا منه وارسلوا الى
سيف الدين غازي صاحب الموصل ان يقبل الى دمشق ليحميهم من عدوانه ،
فأبى سيف الدين ان يجيبهم الى طلبهم ظناً منه انهم يمكرون به
ويتآمرون مع كمشتكين على قتله ، ثم بادر الى اعلان طاعته لابن عمه
الملك الصالح وأقره هذا على ما بيده من البلاد ، فاشتد حينئذ خوف
امراء دمشق ، واتجهوا شطر صلاح الدين ، فكتبوا اليه ان يسرع
لانقاذهم من خطر احدق بهم . وكان الملك الناصر كان في انتظار هذه
الدعوة ، فلم يكذب يتلقاها حتى اقام اخاه الملك العادل أبا بكر حاكماً بمصر مدة
غيابه ، ثم انطلق على رأس سبعماية فارس فقط ، فاخترق عباب الصحراء
وبلغ تخوم سورية .

اقبل صلاح الدين الى الشام مدعواً من أهلها ، مؤيداً من الخليفة
العباسي ، قوياً بجيشه وخبرته ويُعد نظره ، تتقدمه شهرة واسعة باذخة
واسم مقترن في الأذهان بالبأس والنبيل والمروءة ، وشعاره جمع شمل المسلمين
وتوحيد كلمتهم أمام العدوان الصليبي ، فكانت المدن التي مر بها تستقبله
بجالي الفرح والزينة ، والأمداد تلتحق به من كل صوب ، حتى بلغ

١ - التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٥٦ .

دمشق في آخر ربيع الاول سنة ٥٧٠ هـ او آخر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٧٤ م وملكها كما يقول ابن العماد « من غير مدافع وبلا ضربة ولا طعنة » ، بينما امتنع ريجان في القلعة ، فنزل صلاح الدين في دار أبيه التي قضى فيها سني شبابه ، ثم زار قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فرحب به وقال له : « طب نفساً فالأمر امرك » ، والبلد ببلدك ^٢ . ثم ارسل صلاح الدين قاضي القضاة الى ريجان يطلب منه تسليم القلعة ويؤكد له انه ما جاء الى الشام الا لتربية السلطان الطفل والاناة عنه في تدبير دولته ، فما لبث ريجان حتى ارسل الى صلاح الدين رسولا يدعوه لاستلام القلعة ، فمضى اليها واخذ ما فيها من الأموال والكنوز ففرقها على الأهالي وأمر بالزيادة بازالة المكوس وابطال القبائح والمنكرات والضرائب المستحدثة بعد نور الدين ^٣ ، فاستبشر الناس بهذه المبادرة الكريمة ، ومدحه الشعراء بالقصائد الغراء . وكان ما يفتأ يؤكد في كل مناسبة وكل مجلس بانه في طاعة الملك الصالح ، وانه انما قدم لرعايته وحفظ وحدة البلاد وحماتها من الفرنجة ، فعزز ذلك من مكاتبه وجمع حوله القلوب المتفرقة .

ودعش السلطان اسماعيل ووزراؤه حين بلغهم في حلب ، نبأ استيلاء صلاح الدين على دمشق دون أية مقاومة ، وكتب اليه ينذره ويتهدده ويدعوه للعودة من حيث اتى ، وحمل الرسالة الى الملك الناصر الأمير قطب الدين بن حسّان ، فقرأها يهدوه وقال لرسول السلطان : « اعلم يا

١ - شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٦ .

٢ - المرجع السابق ج ٤ ص ٢٤٣ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ . السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص

هذا أني وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكفّ عبادية المعتدين ، فأجاب قطب الدين : « انك وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لا نطاوعك على ذلك ، ودون ما ترومه خرط القتاد وفتّ الأكباد » .

وظل صلاح الدين محافظاً على رباطة جأشه ، فأمر بإكرام الرسول وسلمه كتاباً الى السلطان الطفل قال فيه : « انما جئت من مصر خدمة لك ، ليؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع بمن حولك فتفسد أحوالك ، وتختل أمورك ، وما قصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الفرنج » .

ولما اطمأن الى تأييد دمشق له والتفاتها من حوله ، عهد بها الى اخيه سيف الاسلام ، وشخص الى حمص فاستولى عليها بدون قتال ، ولكن قلعتها امتنعت عليه فأمر فريقاً من جيشه بمحاصرتها وسار الى حماة ، وكان الوالي عليها الأمير عز الدين جرديك أحد الأمراء الذين عارضوا اسناد الوزارة اليه بعد وفاة عمه أسد الدين ، ولكن عز الدين آثر تناسي الماضي والتعاون مع صلاح الدين بدلاً من مخاصمته ، بعد ان رأى الحظ يسير في ركابه والمجد ينقاد له ، فسلمه مدينة حماة ، وقبل ان يكون رسوله الى كشتكين صاحب حلب ، فلم يصغ هذا اليه بل قبض عليه وزجه في السجن مع غيره من الامراء المعتقلين .

وصل صلاح الدين الى حلب في الثالث من جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ .

٢ - مرآة الزمان ص ٢٠٧ .

٣٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١١٧٤م وفيها الملك الصالح ووريه كشتكين ، فاذا بها قد اغلقت ابوابها في وجهه ، فأقام الحصار عليها بعد أن أعلن أهلها انه لم يأت اليها معادياً وإنما اتى لانقاذ سيده الملك الصالح من الأمراء المستبدين وعلى رأسهم كشتكين . ولم يكن الملك الفقي مطمئناً لوزيره ، ولكن قلبه لم يطمئن أيضاً لصالح الدين لشدة ما حرضه كشتكين عليه وخوفه منه ، وقد خشي ان تؤثر اقواله في الناس فيسلموه المدينة كما فعل اهل دمشق ، فطاف بهم قائلاً : « قد عرفتم إحسان أبي اليكم ، ومحبتة لكم وسيرتة فيكم ، وأنا ربيكم ونزيلكم واللجوء اليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب ، وشابكم بمنزلة الأخ ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه ، يأخذ بلدي ولا يخشى الله تعالى ، وأخذ يبكي فأبكي الناس معه ، وتحمسوا له وقاوموا لصالح الدين بكل ما يملكون من قوة .

ولكن ضغط الهجوم وائر الحصار كانا يشتدان على المدينة يوماً فيوماً ، حتى أدرك كشتكين ومن معه إنها لن تستطيع الصمود طويلاً إذا ظلت معتمدة على قواها الخاصة ، وانهم أقلّ خطراً وأضعف شأناً من أن يقفوا في وجه الملك الناصر ، فراسل كشتكين راشد الدين سنات رئيس الطائفة الاسماعيلية . المعتم بصقلية مصياف ليعث من يفتك بصلاح الدين لما يعرف من كراهيته له ، لأنه النفي الخلافة الفاطمية في مصر ، وضمن له على ذلك اموالاً جمة وعدة من القرى ، واستنجد بامير طرابلس ريمون الثالث (القومص) الذي كان نور الدين قد اسره عدة سنوات فأطلق كشتكين سيده لما تولى حكم حلب . فأما رئيس الطائفة الاسماعيلية

فقد ارسل الى صلاح الدين جماعة من اتباعه الفتاكين المعروفين بالحشاشين لاغتياله ، فجاءوا الى جبل الجوشن^١ بضواحي حلب فوق مشهد الدكة حيث نزل جيش الملك الناصر ، واختلطوا بالجنود ، فمُرفوا ونشبت بينهم وبين بعض رجال صلاح الدين معركة عنيفة ، ثم وثب احدهم الى خباء صلاح الدين وقد شرب بيده سكينه ليقتله بها ، فلما صار الى باب الخيمة اعترضه احد الامراء فقتله وطلب الباقين فقتلوا بعد ان قتلوا عدداً من الجنود^٢ .

واما ريمون الثالث وكان في ذلك الحين القيم على بلدوين الرابع ملك القدس ، فقد وجدت دعوة كمشتكين كل التجاوب في نفسه ، فأسرع بجيشه الى حمص ليستولي عليها في غفلة من صلاح الدين ثم يزحف الى حلب فيهدد مؤخرته ، ويضعه بين قوتين معاديتين ، لكن ما كاد الملك الناصر يعلم بذلك حتى فك حصاره عن حلب وهرع الى ملاقات الفرنجة فاذا بهم يعودون من حيث اتوا تجنباً لمنازلته . لاسيما وانهم قد حققوا مهمتهم وهي رفع الحصار عن حلب ، وقد رد كمشتكين جميلهم بأن اطلق سراح أسرى الفرنجة في حلب وبينهم رينو دي شاتيون وجوسلين دي كورتناي^٣ . فتابع صلاح الدين حينئذ سيره الى دمشق ، واستولى وهو طريقه اليها على قلعة حمص وعلى مدينة بعلبك التي قضى فيها سني طفولته الاولى .

ولما رأى كمشتكين وصحبه في حلب ، ما صار الى صلاح الدين من

١ - موقع مدينة سيف الدولة غربي حلب الحالية .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

٣ - Schlumberger : Renaud de Chatillon, p. 144 -



تفوذ وقوة في بلاد الشام ، تخوفوا من عاقبة ذلك ، واتفقوا مع سيفه الدين غازي صاحب الموصل على مهاجمة دمشق ، وزحفوا الى هذه المدينة في جموع غفيرة . فأرسل صلاح الدين اليهم ينصحهم بحقن دماء الأبرياء ، ويحذّرهم من عدوان الفرنجة ، ويرغبهم في الصلح مقابل تسليمه ايام جميع المدن التي استولى عليها في سورية ، على ان يبقى نائباً للملك الصالح في دمشق مبرهنًا بذلك للرأي العام الاسلامي ، انه لم يقصد محاربة احد من المسلمين البتة ، بل اراد توحيد كلمتهم بالتفاهم الودي والاتفاق السياسي اولاً ، حتى اذا اخفق في الاتفاق بالمفاوضة عمد الى القتال في غير هوادة ١ .

وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رآه في خيمة صغيرة على بساط وتحت سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته وسيفه وقوسه ، وجعبته معلقة في عمود الخيمة فلما رأته وقع في خاطري انه المنصور لأنني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنائف الحرير ، والخمور تراق والطبول تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع المحرمات ٢ .

وكان هذا الرسول قد حمل الى صلاح الدين رفض قادة الجيش المهاجم ان يصلحوه إلا اذا سلمتهم كل ما بيده وعاد الى مصر وليس له من الأمر في الشام شيء ، معتقدين بأن دعوته الى الصلح مبعثها الضعف والخوف . فعمد الناصر حينئذ الى جيشه فجهزه وخرج به لملاقاتهم ، واشتبك معهم عند قرون حماة في معارك طاحنة ، حتى اذا ما وصل

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٦٥ .
٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٥٢ .

جيشه من مصر ، انتصر عليهم في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٧٠ هـ
١٣ نيسان (ابريل) سنة ١١٧٥ م انتصاراً عظيماً ، حق غدا الواحد
منهم لا يلوي على اخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا في فرارهم
وهو من ورائهم يستولي على أثقالهم ، حتى دخلوا حلب فحاصرها للمرة
الثانية ، واشتد على الحلبيين الحصار ، فراسلوه في الصلح على ان يكون
له ما بيده من بلاد الشام ، مضافاً اليها المعرة وكفرطاب وبارين ، ولهم
ما بأيديهم منها ، واشتروا ان يكون الدعاء للملك الصالح اسماعيل في
جميع منابر البلاد التابعة لصلاح الدين ، وأن تكون السكة باسمه ، وان
ينجده بنفسه وجيشه كلما قصده عدو ، فأجابهم الى جميع ما طلبوه ،
وعقد الصلح وقفل عائداً الى حماة بعد هذا النصر المؤزر ، وفي ذلك
يقول العماد الأصفهاني :

وتحطمت عند القرون قرونهم بل كَلَّتْ الأنيابُ والأظفارُ
عبروا المعرة مالكين معرةً والعارُ يملكُ قارةً ويُعمارُ

وعاد سيف الدين الى الموصل يتأهب لخوض معركة جديدة ، وفي
اعتقاده ان صلاح الدين لا يد ان يهاجمه في عقر داره فخبر له ان يسبقه
الى الهجوم . وما لبث ان حشد جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف مقاتل ،
وخرج الى ملاقاته جيوش صلاح الدين .

وكان سيف الدين قد أرسل الى الشام رسولاً حمله كتابين أحدهما
الى صلاح الدين يطلب فيه المoadعة تضليلاً له ، والثاني الى أمراء حلب
يلومهم فيه على مصالحة صلاح الدين ، ويدعوهم الى الانتفاض عليه ،

ومشاركته في المعركة التي يُعدّها له . فدخل الرسول على صلاح الدين أولاً ، وأخطأ فسله كتاب غازي الى أمراء حلب ، فقرأه وعرف ما بيّته الموصليون والحلييون ، فأعاده الى الرسول قائلاً : « لعلك قد تبذلت اء فعرف الرسول غلطته ، ولم يكن في قدرته أن يتدارك ما فات ١ .

ولم يكتف سيف الدين بذلك وإنما راسل ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على بيت المقدس يطلب محالفته ومساعدته في الخطوة التالية التي سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين . ولكي يثبت حسن نيته ، أرسل لريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين ١ .

وشرع الملك الناصر يستعد لمقابلة غازي وحلفائه ، واستقدم لهذا الغرض قسماً من جيشه بمصر ، ثم تلاقى مع خصمه في مكان يقال له تل السلطان على الطريق بين حلب وحماة ٢ ، فمزق جيشه شر ممزق ، وغنم مؤونته وعتاده ، وأسر عدداً كبيراً من أفرادهِ ، وهرب الباقون الى حلب ، وواصل هو سيره الظافر الى شمال حلب فاحتل بزاعة ومنبج وعزاز .

وخلال حصار صلاح الدين لقلعة عزاز ، اندس بين جنوده اربعة من الحشاشين تزيوا بزيهم وحاربوا في صفوفهم وابدوا بسالة عظيمة ، وفي ليلة الأحد ١١ ذي القعدة سنة ٥٧١ هـ ١١٧٦ م ، بينما كان جالساً في خباء الأمير جاولي الأسدي الذي اعتاد الاختلاف اليه كل يوم للنظر في

١ - مفروج الكروب ج ١ ص ١٨٦

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٧

٣ - النوادر السلطانية ص ٨٥ - ٨٦

الخطط الحربية ، وثب عليه اعدم ف ضرب رأسه بسكين ، فأصابته
الزردية التي كان يرتديها دائماً فلم تؤثر فيها ، واحس الحشيشي بصفائح
الحديد على رأسه فمد يده بالسكين الى خده يريد ان يطعنه بها ، فلم
يصبه الا بجخدش صغير ، لان صلاح الدين اسرع فقبض على رأس الحشيشي
وجذبه فألقى به على الأرض ثم جاء اعوانه فقتلوه . ثم تتابع على
الخباء الحشاشون الثلاثة الآخرون ، وكل منهم يريد قتل صلاح الدين
فيلقى حتفه ١ .

وقد اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب و ضرب حول مرادقه
برجاً من الخشب ، ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعدته ، ومن عرفه أقره
على خدمته ٢ ، وشاع في البلاد ان صلاح الدين قد قتل ، فأرسل
القاضي الفاضل كتاباً الى الملك العادل اخي صلاح الدين يطمئنه فيه
ويروي له حقيقة الحادث وقد جاء فيه : «السلامة شاملة والراحة
بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من الحشيشي الملعون
إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت
لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكه ، وليس في
الأمر بحمد الله ما يضيق صدرأ ولا ما يشغل سرأ ٣ .»

وقام في ذهن صلاح الدين ان كشتكين هو الذي اغرى به اولئك
المتآمرين وحرصهم على اغتياله ، فعاد بعد استيلائه على عزاز الى حلب
وشدد الحصار عليها وهاجمها هجوماً قوياً ، فخرحت اليه ابنة نور الدين

-
- ١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧
 - ٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٧٥
 - ٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٥٨

زنكي وهي بنت صغيرة^١ ، فاستقبلها احسن استقبال وقدم اليها المال والهدايا ، وسألها عما يطلبه اهلها فأجابت انهم يريدون عزاز فوهبها اياها ، ثم اوصلها الى باب المدينة بنفسه وقدم لها من الجواهر والأموال شيئاً كثيراً^٢ . وعمد بعد ذلك الى إطلاق سراح الاسرى الذين وقعوا في يده في جميع المعارك التي خاضها في الحماة حلب ، وكان بينهم عدد من الجرحى قد احسن معاملتهم والعناية بهم ، فذهب الجميع يشنون عليه ويلهبون بحمده .

وكان الملك الصالح اسماعيل قد خشي ، لما اشتد الحصار على حلب ، ان يفقد هذا الملجأ الاخير الذي يلوذ به ، فعقد مع صلاح الدين صلحاً أقره فيه على ما بيده من البلاد التي افتتحتها على أن يبقي له مدينة حلب وحدها ، فأصبح سيداً على دمشق وحمص وحماة والمدن الصغيرة المنتشرة في ضواحيها وضواحي حلب ، وبينما هو في طريقه الى دمشق وصلت اليه خلع الخليفة المستضيء بالله ، وامر بتوليته على مصر والشام واليمن . وهكذا اعترف به الخليفة العباسي سلطاناً على البلاد المصرية والسورية ، فخطب له على المنابر بدلاً من الملك الصالح اسماعيل ، وضربت النقود في القاهرة باسمه فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن ايوب علا جابه » . وتقدم بذلك شوطاً كبيراً نحو الهدف الذي يتزعم اليه ، وشعر بارتياح كبير لتحرره من عبء النضال في سبيل الحصول على تأييد رسمي لعمله ، وهو عبء كان يكلفه كثيراً من العناء لانه يضطره الى اظهار الولاء للملك الغر الذي يحاربه ويمتنع عليه . وقد

١ - لم تذكر المصادر العربية اسم ابنة نور الدين واكتفت بأن اطلقت عليها لقب الخاتون .

٢ - مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٠ الكامل ج ١٢ ص ٢٩٥

وهب على اثر ذلك الهبات ، وفرق المال ، وأمر بأن توزع على جنوده جميع المغانم التي غنمها منذ قدومه الى الشام .

وفكر السلطان في العودة الى مصر لتفقد شؤونها بعد ان تم له امتلاك الشام وأقام على كل من مدنها أميراً من قبله . ولكنه كان يشعر بأن بينه وبين الاسماعيليين الذين حاولوا اغتياله مرتين حساباً يجب أن يقاضيهم عليه ، فانطلق بقسم من جيشه الى معانقهم في جبال اللاذقية .

الفصل الثالث عشر سنان شيخ الجبل

حاول العلويون ، وهم انصار الامام علي وأولاده من بعده ، الوصول الى الخلافة بمحاربة الأمويين ، وتحالفوا في سبيل ذلك مع أبناء عمهم العباسيين ، ولكن ما كاد هؤلاء يؤسسون دولتهم. على أنقاض الدولة الأموية حتى تنكروا لحلفاء الأمام واضطهدوهم ، فعاد العلويون الى النضال في الحفاء .

وقد تعددت الفرق المتشعبة للامام علي ، واشهرها الاثنا عشرية التي تسلسل أئمتها الى اثني عشر اماماً ، والاسماعيلية التي تقف بأئمتها عند الامام اسماعيل بن جعفر الصادق ، وجميع هذه الفرق تتركز في عقيدتها على ان الامام يجب ان يكون من نسل الامام علي وفاطمة بنت الرسول^١ .

وذهبت طائفة الاسماعيلية الى ان الامام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، وأنكرت موت اسماعيل في حياة ابيه وقالت إنه تغيب ، ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ،

١ - نظم الفاطميين ج ١ ص ٨ وما بعدها

كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة الى موسى بعد وفاة أخيه اسماعيل ، لان الامامة لا تنتقل من أخ الى اخ بعد الحسن والحسين ، ولا تكون إلا في الاعقاب ١ .

وقد اتخذ ائمة الاسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ، وكانوا يبعثون الدعوة من هذه المدينة الى كافة الأقطار الاسلامية ، ويعهدون في تنظيم الدعوة الى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب الأئمة أو الحجج ، وهؤلاء يرسلون دعاة من قبلهم لنشر المذهب الاسماعيلي في أرجاء العالم الاسلامي ٢ .

واستطاع هؤلاء الدعاة ان يهدوا لظهور الخلافة الفاطمية في المغرب ، وكان أول ظهورها على يد عبيدالله المهدي الذي اعلن الخلافة وتسمى بأمر المؤمنين في سنة ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م . وتأسست الدولة الفاطمية اول أمرها في القيروان ثم في المهديّة ، ثم اقتحمت مصر واستولت عليها ، وأخذت تناوىء الدولة العباسية التي كانت قد ضعفت وتضعفت وبدأ السلطان يخرج من يدها لتقبض عليه ايدي الفرس والترك ويتألف في أنحاء بلادها عديد من الدويلات الصغيرة المستقلة .

ومن اعلام الاسماعيلية الحسن بن الصباح الذي ولد في بلدة قم بفارس في عهد السلجوقيين سنة ٤٤٨ هـ ١٠٥٦ م وقيل سنة ٤٤٥ هـ ١٠٥٣ م ، وكان أبوه تاجراً فقيهاً يزعم انه يرجع بنفسه الى ملوك اليمن الحميريين ، ويعتق مذهب الشيعة الاثني عشرية ، ولكن اضطهاد الشيعة في عهد

١ - فرق الشيعة لابي محمد الحسن النوبختي ص ٥٧ - ٥٨ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٠ -

٢ - تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٠

السلجوقيين لاتصال بعضهم بالدعوة الفاطمية ، حمله على ارسال ولده الى جامعة نيسابور الشهيرة التي كانت من اساتذتها الامام موفق الدين النيسابوري .

وفي هذه المدرسة اجتمع ثلاثة طلاب نابغين عرفوا بالمطرفة المتهبة واتقاد الذكاء ، وهم عمر الخيام ونظام الملك والحسن الصباح . وكان هذا اكثرهم دهاء وبعد نظر ، وكثيراً ما كان يخرج اساتذته وزملاءه باسئلة غريبة لا تخطر لهم ببال .

كان هؤلاء الثلاثة الطامحون يعيشون معاً ، وياً كلون معاً ، ويتذاكرون دروسهم سوية ، ويرقدون في غرفة واحدة . وذات مساء ، بعد نزهة مرحة قاموا بها في انحاء نيسابور ، قال الحسن لرفيقه : « تعالوا نتعاهد على ان من يتولى الوزارة منا في المستقبل يقرب رفيقيه الى السلطان ويسند اليها ما يطلبانه من رفيع المناصب . »

فاعجبت هذه الفكرة عمر الخيام ونظام الملك ، وقالوا له : « نعاهدك على ذلك ، وتفرق الشبان الثلاثة ليلتقوا بعد ذلك في اعجب الظروف .. »

عاد الحسن الى قم وكان ابوه قد توفي منذ امد قصير ، فلم يتخذ لنفسه عملاً او صنعة ، بل جعل ينفق من الثروة القليلة التي تركها ابوه ، ويقضي وقته معتزلاً او مع صديق له يدعى علي العطار يتناقشان في السياسة والفلسفة ، او يبحثان عن مغنية يصفيان الى صوتها الرخيم ..

وذات يوم اقبل عمر الخيام الى قم ، وكان قد اضحى شاعراً نرموقاً ، فزار صديقه ابن الصباح وقال له ان زميلها القديم قد شق طريقه الى المجد واصبح وزيراً للسلطان السلجوقي الب ارسلان ، وانه قد زاره مهيناً فبره واکرمه وذكره بعهد المدرسة وقال له لماذا لا يسأله

الوفاء به ، فاجابه ، « بارك الله بك وبوزارتك .. وانما انا رجل لا احب الا الحكمة والفلسفة وان يكون لدي من الدخيل ما يكفيني مؤونة السمي .. » فرتب له الوزير ستائة دينار يقبضها كل شهر ، فعاد الى نيسابور وعكف على التأليف ونظم الشعر ..

ونصح عمر الخيام رفيق الصبي بزيارة نظام الملك والتماس عونه ، فما هي الا ايام حتى رحل الى اصفهان عاصمة السلجوقيين ..

وكان نظام الملك معروفاً بتشجيع رجال الفكر ومساعدة العلماء والادباء ، فلما رأى الحسن بين من دخل عليه لم يعرفه وظنه احد الطلاب او الشعراء المتكسبين ، فقال له : « وانت ماذا تريد هنا ايها الطالب ؟ »

فاجابه : « انا الحسن بن الصباح من جامعة نيسابور ! .. »

فعرفه واكرمه ورفع أمره الى السلطان فولاه رياسة ديوان الجباية والخراج ، وهي مرتبة تلي الوزارة ..

وقيل ان نظام الملك خشي أن ينافسه الحسن في منزلته لدى السلطان لما يعرف من ذكائه ودهائه ، فدعاه اليه يوماً وقال له اني واثق بان سيدنا السلطان سيقدرك ويمطيك المركز اللائق بك ، ولما كنت اعلم حبك للقيادة فقد بدا لي ان ادعوك لتكون قائداً في الجيش ..

فقال الحسن : « ولكني لا احب الخدمة في الجيش »

فقال الوزير : « انت مخطيء ، لان الجيش قوة الهبة .. وانت تعلم ان السلطان محمود الغزنوي لم يتمكن من توسيع رقعة الامبراطورية الا بواسطة الجيش .. »

فاجاب : ان هذه الامبراطورية التي توطدت بواسطة السلاح قد تمزقت ، ويجب صيانتها بشيء آخر غير السلاح .

فقال الوزير : فما هذا السلاح الآخر ؟ ..

فقال الحسن : لنبحث عنه ! .

فقال الوزير : انك لا تزال كما عهدتك لم تتغير أو تتبدل ؟ ..

وبدا الجفاء في وجهه ، فنظر اليه الحسن وذكره بمهدما القديم ، فغضب نظام الملك وقال : ما تعودت ان احث بمهد قطعتة ! ..

فخرج الحسن حاقداً على صديق الامس ، وما زال حق اجتماع بالسلطان وظفر باعجابه ، وشعر نظام الملك بذلك فاخذ يحول دون اجتماعها ، واذا اتفق ان ضمها مجلس حاول اشغال السلطان عن الحسن باحاديث يختلقها او شؤون يرتجلها ..

ثم انصرف السلطان الى الحرب مع بيزنطية ، وهي الحرب التي توطد فيها ملك السلجوقيين في سورية ، وما كاد يعود من معاركه الظاهرة ، حتى ادركته المنية وحل محله ابنه ملكشاه بعد صراع عنيف مع عمه وقتله اياه ..

وبلغت السلطنة السلجوقية في عهد السلطان الجديد شأواً عظيماً ، واستطاع الحسن ان يغدر وزيراً لملكشاه ، ولكن نظام الملك ظل الوزير الاول وصاحب النفوذ الاكبر ، ونشأت من جراء ذلك بين الوزيرين النابغين منافسة قوية خفية .

وسأل ملكشاه نظام الملك يوماً عن الوقت الذي ينبغي له لتنظيم دفتر جامع لابواب الموازنة في الدولة ، فقال الوزير : سنتان !

فاستكثر السلطان المدة وقال انه يريد الدفتر في وقت أقصر ، واذا بالحسن الصباح يقول : في وسعي يا مولاي ان انظم لك دفترأ بموازنة الدولة خلال أربعين يوماً ..

فدهش السلطان ولم يصدق ما سمع . ولكن الحسن اكد له قدرته على ذلك ، فسر وامر كتاب ديوانه بأن يمدوه بما شاء من المعلومات ، وشرع الحسن في عمله وهو على يقين من انجازها في المدة التي عينها .

وحدق نظام الملك ، وخشي على مركزه في الدولة ، فرشا خادم الحسن وطلب منه ان ينتظر حتى ينتهي من عمله ثم يعث فيه ، ففعل .

ودخل الحسن على السلطان ينبئه بأنه قد فرغ من عمله ، فطلب منه حساب احدى الولايات ، فمد يده الى موضع تلك الولاية وسحب ورقتها فلم يجد ما يطلبه ، وسحب اخرى فاذا هي غيرها ، ثم سحب ثالثة ورابعة وخامسة والسلطان يسأله هل وجدتها ، وهو يقول مضطرباً : « نعم .. نعم .. هذه هي . » ثم يبدو انها ليست الورقة التي يريدتها ..

فغضب السلطان ، واغتم نظام الملك هذه السانحة فقال له : « اذا كان مولانا لا يثق بالاكفاء من رجاله الذين يعرفون السهل من الصعب ، والممكن من المستحيل ، ويصغي الى مجنون لا خبرة له بالامور المسالية والحسابية ، فانه لن يلقي الا تدجيلاً وتضليلاً .. »

فانتهر السلطان ابن الصباح ، وامر الوزير بالقبض عليه ، فوثب الحسن من النافذة وتوارى عن الانظار ..

لقد عاد الحسن الى قم يائساً من الوصول الى مركز جديد في دولة السلجوقيين ، حاقدأ اعظم الحقد على نظام الملك ، وانخذ يلتمس لنبوغته

آفاقاً اخرى ، فاجتمع بدعاة الباطنية ، واطلع على تقاليدھا واسرارھا ، فتأثر بالحركة الاسماعيلية واعجب بالتنظيم السري الذي تقسوم عليه ، ورأى ان في وسعه ان يبلغ عن طريقھا النفوذ الذي يريد ، وطفق يقوم بالدعوة للخليفة الفاطمي إمام الاسماعيليين في حماسة وبراعة اكسبتاه اعجاب عبد الملك بن عطاش كبيرهم في العراق ، فجعله من كبار الدعاة ، ونصحہ بالسفر الى مصر ليتعرف بالامام وينهل علوم الدعوة عن شيوخها وفلاسفتها .

وكان نظام الملك قد اتهم الحسن بالدعوة الى الالحاد ، وأرسل رجاله لملاحقته والقبض عليه ، فخرج من قم وسار متتكرراً الى الري واصفهان واذربيجان وسورية ، حتى بلغ مصر بعد سنتين اتصل خلالها بدعاة الاسماعيلية في جميع هذه البلدان ، واحتل منزلة عظيمة في نفوسهم ..

ولما بلغ مصر استقبله المستنصر الفاطمي بحفاوة وقربة واکرمه ، فظل ثمانية عشر شهراً يعيش في رعاية الخليفة ، وينشى دار الحكمة وهي يومئذ أعظم مركز للعلم والعرفان ، فيدرس فيها اساليب الدعوة السرية على أيدي اساتذتها .

ولكن نفوذ الحسن الصباح في الدولة الفاطمية كان ضعيفاً بالرغم من حب الخليفة له وعطفه عليه ، لان الخليفة الفاطمي كان قد غدا كخليفة العباسي رئيساً دينياً اكثر منه رئيساً للدولة ، وتجمعت السلطة كلها في يد بدر الجمالي قائد الجيش ..

وكان بدر شديد الخصومة لكل من يثق به الخليفة ويسترسل اليه ، فنقم على الحسن وأوجس خيفة منه ، وزادت نفقته عليه يوم اشتد الصراع حول ولاية العهد ، اذ عهد المستنصر بالخلافة لابنه تزار وارادها

بدر للمستعلي بن المستنصر الثاني من شقيقة بدر على ما تقول بعض المصادر الاسماعيلية ، وانتصر الحسن لذاك على هذا ، واعتقل الحسن في احدى قلاع دمياط الا انه استطاع ان يفر من معتقله ويغادر مصر على ظهر مركب متجه الى سورية ، وسار الى حلب فاجتمع بالاسماعيليين الذين فيها واخبرهم بالمؤامرة على نزار الذي هو في رأيه الامام الحقيقي ، وكيف ان بدر يحاول اسناد الخلافة الى احمد شقيق نزار الذي لقب فيما بعد بالمستعلي بالله .

وهكذا انقسمت الطائفة الاسماعيلية الى فرقين ، النزارية التي تمسكت بامامة نزار بن المستنصر بالله ، والمستعلية التي سارت وراء المستعلي . وتنتضي شهور عدة وحسن الصباح يتنقل بين سورية والعراق وفارس ، ناشراً الدعوة لمذهبه ، باحثاً عن عبد الملك بن عطاش داعي الدعوة وشيخ الجيل الاول حتى التقى به وقد اقمعه السن ، ففرح عبد الملك به وافضى اليه بجميع المعلومات والاسرار التي كانت في حاجة اليها ، ودله على مراكز الاموال الاسماعيلية والمؤمنين عليها فأنشأ يركز الدعوة حول امامة نزار ، ويعد العدة لانقلاب يطوح بحكم السلجوقيين ويعلن حكم الفاطميين في فارس والعراق وسورية .

ولم يكن هذا المطلب بالامر اليسير ، اما خطة الحسن في الاستعداد له فلم تكن ترمي الى الاكثار من الانصار بقدر ما كانت تهدف الى اختيارهم من الرجال الاشداء الاوفياء الذين يستميتون في سبيل عقيدتهم

وقد اختار من اصفهان خمسين شخصاً منهم من اتبعه ايماناً بالامام المنتظر ، ومنهم من سار معه حياً بالمغامرة والمخاطرة ، فارسل ثلاثين شخصاً منهم للدعوة في انحاء البلاد ، وسار بالباقيين في ارجاء فارس



صورة خيالية الشيخ الجبل

باحثاً دارساً متقصياً ، متصلاً خلال ذلك بالاسماعيليين ، داعياً ايّام الى الثبات والاستعداد ..

وظل شأنه كذلك ثلاث سنوات كاملة وهو يبث دعواته في كل مكان حتى استوثق من امره وقرر البدء بثورته ، فذهب الى قلعة ألموت ، أي عش النسور ، التي تقع على احد جبال مازندان في المنطقة الشبالية الغربية من فارس ما بين الديلم والعراق ، فاتصل بحاكمها ابي مسلم المهدي واظهر له الصداقة ثم وثب به في السادس من رجب سنة ٤٨٣ هـ ؛ ايلول ١٠٩٠ م فاخرجه من القلعة واستولى عليها ..

وما كاد يستتب له الامر في القلعة حتى زاد في تحصينها واخذ يرسل منها الحملات على المناطق المجاورة ، فاستولى على الحصون التي فيها وبنى حصوناً جديدة ، وراح ينظم اتباعه تنظيماً سرياً عجيبياً ، فهم يتألفون من ثلاث مراتب : المستجيبون او الدعاة وهم الذين يقومون بالدعوة لمبادئ الطائفة ويعرفون اسرارها ، والرفاق او المقدمون وهم قادة الجيش والساھرون على تنفيذ خطط الفئة الاولى ، والقدائون وهم الذين يختارون لتنفيذ المهمات الجسام ، ولا يبالون بالموت ان اعترض طريقهم اليها .. وكان هؤلاء يربون في بيوت الرؤساء والمقدمين فيوهمون بأن مخالفة الرئيس هي اعظم خطيئة وان خدمته هي اعظم فريضة واكبر نعمة ١.

ويقال ان الحسن بن الصباح قد انشأ لاتباعه جنة او جنات ملاءها بالوان الجمال والفتنة والغواية ، من زهور وحسان وولدان ، وانه كان

١ - يقول الاستاذ عارف ثامر ان اول من اسس هذه المنظمة وسن منهاجها وابتدع فكرتها هو الداعي الاسماعيلي عبدالله بن عطاش وقد درس الحسن الصباح تعاليمها عليه وقام بتوسيع نطاقها وتعديلها وتحسينها (سنان وصلاح الدين ص ٢٧)

يسقي اخدم الحشيش الذي اكتشفه في مصر ، ثم ينقله الى تلك الجنة وهو غائب عن الوعي ، فاذا استيقظ حسب انه انتقل الى السماء وقضى الساعات مستمتعاً بما يحيط به من متع الروح والحس ، ثم يُسقى الحشيش من جديد ويُعاد الى مكانه الاول ويقول له الرؤساء ان عودتك الى ما كنت فيه من نعم الفردوس رهينة برضى الشيخ عنك .. والشيخ او شيخ الجبل الأول هو عبدالله بن عطاش ، وشيخ الجبل الثاني هو الحسن بن الصباح ، وشيخ الجبل الثالث هو راشد الدين سنان .

وكان نزار حين رأى ان الخلافة قد افلتت منه ، سار الى الاسكندرية مع اخيه عبدالله وابن مصال اللكي ، فاستقبله واليها ناصر الدين افتكين التركي مرحباً ، وبايعه هو وأهل الاسكندرية بالخلافة ، ولقبوه «المصطفى لدين الله» فلما علم الوزير الأفضل بذلك ، خرج لقتاله على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة أولاً على الأفضل وعاد الى القاهرة ، وأخذ يعدّ العدة لقتال نزار من جديد ، ونجح في استمالة بعض اتباع نزار من العريان ، ثم زحف الى الاسكندرية ثانية فحاصرها حصاراً شديداً ، واضطر نزار وافتكين الى طلب الأمان ، فأمنها الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبني عليه فمات ، وقتل افتكين ، وفر ابن مصال الى المغرب ^١ .

وبينا يؤكد اتباع الاسماعيلية المستعلية ان نزاراً قتل على النحو الذي روينا ، سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م ، وبذلك تم للمستعلي القضاء على سلطته ، وان الامام الذي اسس الدولة النزارية في فارس لم يكن من صلب نزار وانما هو من سلالة الحسن بن الصباح ، يؤكد اتباع الاسماعيلية النزارية

١ - تاريخ الدولة الفاطمية ص ٧٢ .

ان الحسن الصباح قد ارسل الى القاهرة كلا من الفدائيين زاده اسد وحسن اسماعيل ، فاخطفوا الحسن بن الامام نزار وحمله الى آلموت فأسس الدولة النزارية فيها وأطلق عليه لقب « الحسن الهادي » ، وأرسل الحسن الصباح البشري بذلك الى قلاع الدعوة في فارس والعراق وسورية كي يفتح المريدون قلوبهم ويفرشوا ارواحهم لأمامهم الحسن هادي المستجيبين وأمير المؤمنين وورث الفاطميين .

وكان ملكشاه على خلاف مع الوزير نظام الملك ، فلما علم باستيلاء الحسن الصباح على قلعة آلموت ، استدعاه اليه واسترضاه واستشاره ، فعرضه على استعادة القلعة منه قبل أن يتعاضم أمره ويستفعل خطره ، فأرسل اليه جيشاً صغيراً حاصره عدة أشهر ، ولكن شيخ الجبل لم يلبث ان بطش بجيش ملكشاه وشتت شمله .

واتفق أن ثار اسماعيلي آخر من أتباع الحسن ، يدعى حسن القبالي ، فجرد السلطان عليه حملة كبيرة حاصرته في قلعة ديره وكادت تظفر به... فأرسل الى شيخ الجبل يستنجد به ويقول له انه ينتظر من كبير الطائفة معجزة تنقذه مما هو فيه ، فقال الحسن : « لبيك .. » وأرسل احد الفدائيين من اتباعه الى قصر الوزير نظام الملك فاغتناله ، واضطرب الامر قليلا من بعده ، مما اضطرب السلطان الى استدعاء الجيش الذي يحاصر قلعة ديره ، وسلم بذلك حسن القبالي وتمت المعجزة !..

ودشنت هذه الجريمة عهداً جديداً في تاريخ الشعوب الاسلامية ظل الاغتيال فيه سلاحاً سياسياً طوال مائة عام ..

مات السلطان ملكشاه واخذ ابناءؤه وامراؤه يقتلون من بعده ، كل منهم يريد ان يستأثر بالحكم من دون اخوته ، وكانت الاسماعيلية وعلى رأسها الحسن بن الصباح تذكي هذه الحرب الاهلية ، وتوغر صدور الأمراء والحكام بعضهم على بعض ، وتمتد يد المعونة وسلاح الاغتيال الى هذا او ذاك ، ولا يكاد يظهر واحد منهم على الآخرين حتى يُقتل ويُقبض على القاتل فيعترف بأنه اسماعيلي ، وبأن شيخ الجبل هو الذي ارسله في هذه المهمة ، وبأنه فخر وسعيد لقيامه بواجبه وإن فقد حياته في سبيله !..

وتعاضم الضغط على الاسماعيليين من جراء ذلك ، واخذهم الامراء بالشدة ، وطلق العلماء يحملون عليهم في المساجد والمجالس العلنية ، وقتلهم الجند فتكا ذريعاً ، ولكن ذلك كله لم يكن ليفت في عضدهم ، بل كان يذكي الحقد في صدورهم ، ويدفعهم في طريق الانتقام ، حتى تناسوا الاهداف الفكرية التي كانوا ينزعون اليها ، وغدوا طوال مائة سنة عصابة سرية فريدة من نوعها في التاريخ ، مدربة على القتل المنظم ، ولا هم لها أو غاية سوى الاغتيال وبث الذعر ونشر الاشاعات المخيفة .

احدى وعشرون سنة مرت والحسن بن الصباح معتصم في حصنه ، ينظم الدعوة ويؤلف الكتب ، ويدرب الجيوش ، ويعلم الشبان ، ويحيك المؤامرات ، ويرسل الفدائيين لقتل الامراء والوزراء والحكام من خصوم الاسماعيليين ، يريد ان يبني لهؤلاء مجداً ويشيد لنفسه سلطاناً ، بالخنجر المسموم والمدية المشهرة في الخفاء .

وفي سنة ٥٠٥ هـ ١١١١ م جرد السلطان محمد بن ملكشاه حملة قوية على حصن الموت حاصرته سبع سنوات كاملة ، ثم غادرته دون ان تنال بغيتها منه عندما نعي اليها السلطان ، فحمل الاسماعيليون على

مؤخرتها وسلبوها من القوت والعتاد ما اعاد اليهم بأسهم وقوتهم

ثم جاء السلطان سنجر وكان قائداً بارعاً ، فاراد ان يقضي على الحسن بن الصباح بنفسه ، ولكنه ما كاد يبلغ بجيشه تخوم قلعة الموت حتى استفاق ذات صباح ليشاهد على فراشه خنجراً حاداً كتب عليه : لو لم تكن محبتي للسلطان قوية لأمرت بوضع هذا الخنجر في صدره ، فتولاه الذعر ، وصالح الحسن متخلياً له عن امتيازات كثيرة .

وفي سنة ٥١٨ هـ ١١٢٤ م توفي الحسن بن الصباح ، بعد ان عين كيازر حمد خليفة له . وقد تعرض الاسماعيليون بعد وفاته لاضطهاد عنيف ، وحملات عديدة ، اهمها الحملة التي وجهها اليهم في فارس سنة ٥٢٢ هـ ١١٢٨ م ابو النصر احمد بن الفضل وزير السلطان سنجر ، والحملة التي تعرضوا لها في العراق سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م بأمر الخليفة العباسي الراشد لله . وكانت ترافق هذه الحملات العسكرية ، مذابح اهلية ، فغزيت قلاعهم ، واستبيحت دماؤهم ، واحرقت قراهم ، وثار عليهم الناس في كل مكان ، فتشتتوا وتفرقوا وهرب الى سورية من استطاع الهرب منهم .

وكانت بلاد الشام طوال الحكم الفاطمي بالمغرب ومصر ، تتلقى فيضاً من الدعاة الاسماعيليين ، كما كانت تستقبل وفود القرامطة وسيل الهاربين من الاضطهاد العباسي والسلاجوقي ، فنشأت للاسماعيلية عدة قواعد في حلب وسلمية وما يجاورها من القرى والقلاع . وكان نشاط هذه القواعد ينمو ويزدهر أو ينخبو ويضعف ، تبعاً لامتداد النفوذ الفاطمي أو انحساره . ثم جاءت موجة الهجرة الاسماعيلية من فارس والعراق ، إثر النكبات التي عاناها الاسماعيليون هناك ، عاملاً قوياً يعزز قواعدهم في سورية ويكثن لهم فيها .

وقد اتجهت انظار المهاجرين الوافدين الباحثين عن معازل جديدة تتوافر فيها الحماية والمنعة ، الى جبال البهرة الواقعة في القسم الجنوبي من جبال العلويين ، لوعورة مسالكها ومناعة حصونها ، فهي تتألف من مرتفعات شديدة الانحدار ، وأودية وعرة المسالك ، ودروب متشعبة ضيقة ، تتشابك في سفوحها الاشجار وتتعاقد في اعاليها القمم ، فتؤلف بذلك منطقة حصينة ، تعري الهاربين من الاضطهاد الديني والسياسي ، من اصحاب العقائد والشائرين ، الذين اختلفوا مع بيئتهم ، باللجوء اليها تعسفاً للحرية والأمن^١ .

وكان اول ما تركزوا فيها سنة ٥٢٥ هـ ١١٣٠ م حين اشترى الداعي ابو الفتح قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرو بالمال ، ثم وثبوا على أغلب القلاع في تلك الجبال الشامخة فسقطت في ايديهم الواحدة تلو الاخرى ، فلكوها وعمروها ووطدوا اقدامهم فيها . ولما انتزعوا مدينة مصياف من بني منقذ سنة ٥٣٥ هـ ١١٤٠ م جعلوا منها مقراً لممثل الامام ومركزاً لنشر الدعوة وتدريب الفدائية ووضع الخطط الحربية للدفاع والهجوم^٢

وفي سنة ٥٥٨ هـ ١٠٦٥ م اختير سنان راشد الدين ليكون ممثلاً ونائباً للامام في سورية ، وكان سنان قد ولد في البصرة وتثقف في المدارس الاسماعيليه بالموت ، وكان الامام القاهر بقوة الله يرعاه ويعطف عليه رعايته لأولاده ، فسار الى حلب متخفياً بزى الدراويش وبقي فيها عدة اشهر ،

١ - الاسماعيليون والدعوة الاسماعيليه بمصياف ص ٤١

٢ - كان احد المصادر التي رجعنا اليها في كتابة هذا الفصل ، مخطوطة قيد الطبع للاستاذ مصطفى غالب بعنوان « سنان راشد الدين » وفي ذيلها تحقيقه لمخطوطة « مناقب المولى سنان راشد الدين »

ثم تنقل دارساً منقياً في جميع المناطق التي كان للاسماعيلية وجود فيها، حتى وصل الى منطقة مصياف فأقام في قرية بصطريون على مقربة من حصن الكهف يعلم الصبيان القراءة والكتابة دون ان يعرف احداً بنفسه ، وكان يجلس على حجر خارج القرية يلقي دروسه عدة ساعات دون ان يتحرك في مجلسه ، ويعالج المرضى بأدوية يصنعها بنفسه من الأعشاب ، ويلبس بردة يمنية يغسلها بيده ويحتذي خفاً من صنعه .

ولما شاعت أخبار صلاحه وتقواه ، دعاه كبير دعاة الاسماعيلية الشيخ ابو محمد المينقي الذي كان يقيم في حصن الكهف ، الى الإقامة في الحصن ، فظل يعمل على خدمة الشيخ أبي محمد مدة سبعة اعوام دون أن يطلعه على المهمة الموكلة اليه ، وهو يدرس خلال ذلك أحوال الاسماعيلية ليتمكن من معرفة كل شخص ويخبر كل شيء . ثم أصيب أبو محمد بمرض شديد ، وكان قد طعن في السن ، فدخل عليه وقدم اليه كتاب الامام الذي يطلب منه تقديم الطاعة لمثله الجديد الشيخ سنان ابن سليمان الملقب براشد الدين ، فبكى أسفاً على ما فاته من امثال الأمر منذ سبع سنوات وهو لا يعلم ان مملوكه هو سيده ، ثم دعا الاكابر والاعيان وقرأ عليهم تقليد الامام ، وقال لهم : وهذا نائب الامام منه السلام والحاكم عليكم بأمره بعدي !.. »

وقد نقل سنان مركز القيادة الاسماعيلية الى مصياف ، وهي قلعة منيعة بموقعها من أعلى الجبل ، وزادها مناعة انها قائمة على صخر جوانبه عمودية يعسر تسلقها ، وان جبل مصياف محاط بالمستنقعات من كل ناحية ، وعلى مسافة من الجبل تقع بلدة مصياف التي يسكنها الفلاحون المشتغلون

بالزراعة ، والقلعة حمراء اللون ذات سور سميك ارتقاعه ستون قدماً ، ليس له الا باب واحد سقفه عقد متين ، فاذا دخل الرجل منه سار في عمركه معقود ، يصل من الداخل الى قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف ، وكلها مبنية من الحجر الصلد . وعلى السور أبراج متلاحقة تقيم بها الحامية ، ترمي الهاجين عليها بالسهم او الحجارة قبل وصولهم الى الباب لمسافة بعيدة ، بحيث يستحيل اخذها بالهجوم الا بعد قتل المئات والألوف .

ثم وجه شيخ الجبل اهتمامه لخلق جيل جديد من المحاربين المدربين على الاعمال الفدائية والامور العسكرية^٢ وكان يقضي ايام الاسبوع متنقلاً في القلاع الأربع : الكهف ، مصيف ، القدموس ، عليقة ، ويقوم بزيارات الى الخواري والمينقة ، ويخصص يومين للاقامة يجبل مشهد حيث ينقطع للتأليف ورصد النجوم والعبادة والتأمل ، وكان يسير بين القلاع في طرق ومعارب سرية مشياً على الأقدام حتى لا يعرفه أحد ، ويكثر من الذهاب الى شيزر وحماة وحمص والشام متخفياً^٣ . وقد بلغت الاسماعيلية في سورية في عهد سنان اوج ازدهارها ، وبسطت نفوذها على جميع المنطقة التي استوطنتها ، وفتحت قلاعها لاستقبال الاسماعيليين المضطهدين القادمين من فارس والعراق والمدن السورية الاخرى .

١ - صلاح الدين ومكايد الحشاشين لجرجي زيدان ص ١٤٤

٢ - اعلام الاسماعيلية ص ٩٨ ، الطائفة الاسماعيلية ص ١٠٠ ، سنان وصلاح الدين ص ٣٢

٣ - سنان وصلاح الدين لعارف عامر ص ٣٣ نقلاً عن كتاب «فصول واخبار»

ص ١٦٤

وتدل الأقاويص التي تروي عن تنبؤاته واطلاعه على اسرار الدول وخفايا النفوس ، على انه « قد بث في أنحاء دولته ودول جيرانه شبكة من المخبرين السريين يرسلونه بواسطة النار والحمام الزاجل الذي مهر في استخدامه الاسماعيليون مهارة فائقة تتمشي مع خطتهم في الحذر والحيلة ، ومع ما تتسم به دعوتهم من غلو في الأسرار ، واغراق في التكم . وفي المساء ، عندما تغفو مصيف يخف سنان راشد الدين الى قمة جبل مشهد ، او يؤوب الى عرينه في أعالي القلعة ، ليتلقى رسائل الأنصار ، تحملها حمامات بيضاء من الشرق النائي او الغرب القصي ، فتقرع النواقد بمناقيرها المقوسة ، وتلمع عيونها في الظلام لتنبه شيخ الجبل ، فيتسلو الرسائل ، ويمكف على دراستها ، ثم يخبر من حضر من اتباعه ، ويتناقل الناس ذلك عنه فيمسي عالماً بالغيب لديهم ، لا سيما عندما تتحقق الأخبار فيما بعد^١ . »

لقد نشأت هذه الدولة الفتية في غفلة من الحكومات المجاورة ، واستغلال للوضع المضطرب في بلاد الشام من جراء الصراع بين امراء المسلمين المتنازعين فيما بينهم من جهة ، وبينهم وبين الصليبيين من جهة ثانية . ولكن سرعان ما اثرت هذه الدولة حفيظة جيرانها ، وحركت عوامل الخوف لدى المسلمين والصليبيين ، « وكانوا كلهم يكرهون مجاورة الاسماعيليين^٢ ، لما اشتهروا به من اعمال الوقيعة والاختيال . »

وكثيراً ما تعرضت قلاع الاسماعيليين للعدوان ، من قبل الامراء المسلمين أو الصليبيين ، فكانوا يخسرون في معركة ليظفروا في معركة ثانية ،

١ - الاسماعيليون والدولة الاسماعيلية بمصيف ص ٦٣ - ٦٤

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٨

ويدفقدون معقلاً ليكسبوا معقلاً آخر ، وربما انحازوا خلال ذلك الى هذا الجانب او ذاك ، حتى رأيناهم يهادنون الصليبيين احياناً او يوادعونهم او يتعاونون معهم . وقد اتهمهم بعض المؤرخين بأنهم انما فعلوا ذلك لأنهم اسماعيليون ، والواقع اننا رأينا بعض امراء السنة يهادنون الفرنجة او يحالفونهم ، كما رأينا امراء بيزنطيين وصلبيين يستعدون الامراء المسلمين على خصومهم وأبناء جلدتهم ، ليدفعوا بهم عدوان جيرانهم ومنافسيهم ، او يستعينوا بهم لبلوغ مزيد من المجد والسلطان ، ولم تكن دوافع اولئك لتختلف عن دوافع هؤلاء ١ ..

ثم جاء صلاح الدين فنقم عليه الاسماعيليون لأنه الفى الخلافة الفاطمية . وتروي المصادر الاسماعيلية ان سنان راشد الدين قد اغضبه ذلك ، رغم الخصومة الشديدة بين النزارية والمستعلية ، فأرسل الفدائي حسن الأكرمي لتهديد صلاح الدين في القاهرة ، فتمكن هذا الفدائي من دخول القصر ، والوصول الى حجرة رقاد صلاح الدين ، فوجده غارقاً في سباته ، فترك قرب وسادته خنجراً مسلواً مغموساً بالدم مع البطاقة التالية : « اعلم ايها السلطان المقتصب العاتي .. انك وان اقفلت الابواب ، ووضعت الحراس ، لا تستطيع ان تنجو من القصاص ومن انتقام الاسماعيلية . اراك قد بلغت القحة واستبديت وقتلت ، وظلمت وسلبت ، دون ان تحسب حساباً لشيخ الجبر الاسماعيلي الذي يقف لك بالمرصاد ،

١ - من الروايات التي نسجت حول الاسماعيليين والتي تشك في صحتها ، ان شيخ الجبل أرسل في سنة ٥٦٨ هـ ١١٧٢ م وفداً الى ملك القدس للمفاوضة بشأن اعتناق اتباعه للنصرانية ، ويقول الدكتور فيليب حتي تعليقاً على ذلك : « وهو تدبير منسجم مع مبدأ التقية الذي يأخذ به غلاة الشيعة ، على ان الفرسان الهيكليين ، حرصاً منهم على الجزية التي كان الحشاشون يؤدونها ، عمدوا الى قتل اعضاء هذا الوفد » انظر تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٤٧ .

ولو أردنا قتلك الليلة لقلنا ولكن عفونا عنك لعلك تقدر هذا ، واتنا ننذرك لتصلح من سيرك وتعيد الحق المقتصب الى ذويه ، ولا تحاول ان تعرف من أنا فذلك صعب عليك وبعيد عنك بعد السماء عن الارض ، إذ قد أكون اخاك او خادمك او حارسك أو زوجك وأنت لا تدري ، والسلام . ١ »

وقد اغفلنا رواية هذه القصة في مكانها حسب التسلسل لشكنا في صحتها . والذي نعتقد ان المصادر الاسماعيلية قد غالت في تصوير راشد الدين سنان ونسبت اليه الخوارق والمعجزات ، وقد نقل المؤرخون الغربيون عنها هذه الروايات لطرافتها وغرابتها ، ثم عاد بعض الكتاب العرب فاتخذوا من رواية اولئك المؤرخين لها دليلاً على صدقها وصحتها .

والواقع ان مؤيدي شيخ الجبل وخصومه علم طرفي نقيص ، فالألوان ينسون اليه الكرامات والمعجزات ، فهو في رأيهم يعلم الغيب ، ويتنبأ عن المستقبل ، ويعرف خفايا القلوب ومكنونات الصدور ، يحدث الأموات فيحييونه ، ويأمر الحجارة فتستجيب لأمره ، ولم يقع حادث غريب مخيف إلا نسبوه اليه وان كان من العوارض الطبيعية كالمطر والرعد والبرق . أما الآخرون فينكرون عليه كل شيء إلا الذكاء الحاد ، والحيلة البارعة ، والتدبير المحكم ، والتلاعب بالساذجين والبسطاء من الناس ! .

ومن هذا القليل الملابس التي رافقت حملة صلاح الدين الأيوبي على معقل الاسماعيليين سنة ٥٧١ هـ ١١٧٦ م وحصاره لقلعة مصياف في ٢٠

محرم سنة ٥٧٢ هـ اول آب (اغسطس) ١١٧٦ م ، فابن واصل يروي ان صلاح الدين قد نصب المجانيق على الحصن « وارسعهم قتلاً وأسراً وساق ابقارهم وخرّب ديارهم » حتى شفّع فيهم صاحب حماة ، وهو شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وقد فسر ابن واصل هذه الشفاعة في ضوء الجيرة بين شهاب الدين والباطنية^١ . أما شاهنشاه تاج الدين أيوب فيقول : « ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسةائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله ان يسمى في الصلح ، فسأل الحارمي الصّفح عنهم ، فاجابه صلاح الدين الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم^٢ ، وكذلك ما ذكره ابن أبي طي ، وكان والده من رؤوس الشيعة ومع ذلك فانه لم يذهب الى ما ذهب اليه متطرفو الشيعة بصدد حملة صلاح الدين على مصياف ، وانما قال ان السبب في تخليه عن حصار مصياف ومصالحة أهلها هو خوفه من أن يستغل الصليبيون غيبته واشتغاله بحصارها فيغيرون على الشام الأعلى ، وقد وصلت الأخبار أثناء حصاره مصياف بوقوع ذلك فعلاً^٣ »

وأما الروايات الاخرى عن هذه الحملة ، فهي مقتبسة في معظمها عن كتاب « مناقب المولى سنان راشد الدين » للشيخ أبي فراس ابن القاضي نصر بن جوش الذي نشره للمرة الأولى المستشرق « غيارد » ، أو متأثرة بها ، وخلاصتها ان صلاح الدين لما جاء الى مصياف يحيشه فحاصرها ، ارسل الى شيخ الجبل رسولاً ، وكان يومئذ في قرية العنيفة من أعمال

١ - مفرج الكروبي ج ١ ص ٤٧

٢ - ذيل النوادر ص ٢٧٣

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧٤

قدموس ، فشاهده جالساً خارج القرية ومعه رجلان ، فتوجه نحوه وهو يستهزئ به ، ولكنه ما كاد يقترب منه حتى لاحظ انواراً باهرة ، وجلالة ظاهرة ، ومهابة زاهرة ، وقوة بقدره الله قاهرة ، مما ادهشه وأطرب له ، وأرعب قلبه ، فأرتعدت فرائصه ، وعظم الامر عليه ، فلم يستطع الدنو منه ، فبعث اليه المولى راشد الدين منه السلام الحاجب دبوس ، فاحضره بين يديه . ولما زالت دهشته ، وتبدلت بالأنس وحشته ، اعترف بذنبه وبما دار في خلدته ، وطلب من مولانا أن يكون من الجماعة ، فيؤدي له الطاعة ، وينتظم في سلك الدعوة ، حتى لا يكون له الى عسكر صلاح الدين بعد ذلك رجعة . فقال له المولى راشد الدين : « بل يجب ان تعود الى عند الملك وتبلغه جواب رسالته التي أتيت بها الينا ، وقل له إن اختار أن يأتي الى عندنا فليأت ، فما عندي غير هذين الرجلين اللذين تراهما ، وان لم يحيى فأنا غداة غد أنزل اليه ، فعاد الرسول الى صلاح الدين وأخبره بذلك ، فقال : « انني لا أغتر بذلك ، ولن اسمح لجيشي بدخول هذه الجبال الشائخة ! »

وتزل سنان بعد يومين من القرية ، وتوجه الى الجبل الذي يشرف على مصياف فقعد على القمة . فلما علم صلاح الدين بذلك ، أمر بأن تضرب حول الجبل حلقة من الفرسان الأشداء ، ثم أرسل نحوه من ستين فارساً للقبض عليه ، فلما شاهد الرجلان المرافقان لسنان هذه الشرذمة من الفرسان ، قالوا له : « ألا تركب خيلنا يا مولانا وتنجو بأنفسنا ؟ » فقال : « لن يصلوا الينا ، ولا يقدرن علينا ، فلما وصل اولئك الفرسان سكنت حركاتهم وبطلت آلاتهم ، فقال لهم : « تقدموا وخذونا كما أمركم الذي ارسلكم الينا » فقالوا : « ان الله قد نجاكم ، ومنا قد حماكم ، وأيدكم بحراسته وعظمته » فقال لهم : « ارجعوا الى صاحبكم واعلموه بما جرى لكم ! »

وأرسل صلاح الدين كتاباً جديداً الى شيخ الجبل ، فلما دنا من مقره توقف جواده « ورفض أن يتقدم فانهاه عليه بالقرعة والمهاميز ، ولكن الجواد كان يتقهر الى الورا ولا يتقدم ، فاضطر الرسول حينئذ الى النزول عن جواده ، فقال سنان لأحد أصحابه : « أدفع اليه كتابي هذا ، واذا أعطاك كتابه فلا تأخذه منه ، وقل له : أرجع الكتاب الى الملك فقد كتبت له الجواب ، ففعل الرجل ذلك ، واخبر صلاح الدين بما رآه وان سنان راشد الدين لم يفض كتابه ولا قرأه ، ثم دفع اليه كتاب سنان « فوجده جواباً لما حواه كتابه فصلاً فصلاً من أوله الى آخره ١ ، فمظم شأن المولى راشد الدين منه السلام عند الملك ، وعلم بأن الله قد منحه سرّاً لأنه من عباده المخلصين واوليائه المكرمين .

يقول الشيخ أبو فراس : « وخاف (صلاح الدين) على نفسه منه ، وهابه مهابة عظيمة ، فأمر بطرح الجير والرماد حول دهليزه ، ورتب لحراسته في الليل الف فارس . ولما اغدق جنح الليل ، وغلب النوم على النيام ، نزل المولى منه السلام من الجبل ، وبين يديه فانوس يضيء ورجاله من القلعة يشاهدون ضوء الفانوس الى أن وصل الى الجيش فغاب عنهم الضوء . وكان مولانا قد دخل الى خيمة صلاح الدين وهو نائم ، فحوّل النور الذي عند رأسه الى عند قدميه ، والنور الذي عند قدميه الى عند رأسه ، ثم وضع بالقرب منه جرادق من خبز الاسماعيلية كانت معروفة في ذلك الزمان ، وشك في الجرادق سكيناً من سكاكين الفدائية مغموسة بالدم الى نصفها ، ووضع فوق الخبز ورقة فيها بيتان من الشعر بخط المولى راشد الدين في المعنى :

١ - لم تنشر نصوص الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين وسنان والتي تفردت المصادر الاسماعيلية بروايتها ، لان ما ورد فيها من الغلو يبعث على الشك في صحتها .

أما وجلال الملك ما تملكونها مراغمة منا ، وذا النصر قائم
نخبركم انا قدرنا عليكم نؤخركم حتى تتم العزائم ا

ثم خرج من عند الملك وعاد الى الجبل . وأما الملك فانه استيقظ
فلمح شعباً يغادر خيمته ، ووجد الأنوار قد تغيرت ، وشاهد السكين
والرسالة مع الجرادق الى جانب فراشه . فصاح صيحة أزعج بها كل من
كان عنده ، فأقبل عليه الامراء والأكابر من أهل مملكته وأمائل دولته
كتقي الدين صاحب حماة^١ وغيره من الامراء والوزراء ، فأخبرهم بما
جرى له ، وعرض عليهم السكين المسموم والجرادق ، ومن ثم قرأوا
الورقة فدهشوا لتلك الجرأة النادرة والخطب الجسيم ، فقالوا : يا للفرابة
من هذا الحلم الجميل والفضل الجزيل ، والبراعة التامة ، والبرهان الباهر،
والمعجزة الظاهرة ، والعمو الكبير عند المقدره ! ثم أن الملك سأل خدومه
وماليكه بقوله : هل سمع أحدكم حساً او شاهد انساً ؟ فقالوا : لا ،
ولكننا عندما سمعنا صراخ الملك يدعونا لمشاهدة الشبح الذي خرج من
خيمته ، توجهنا الى باب الدهليز والشموع في ايدينا ، فرأينا على الجير
والرماد آثار أقدام انسان خارجاً فقط ، ولم نره داخل ، وكانت اليزبك
محيطة بالدهليز والرجال على ظهور الخيل فسألناهم فقالوا : لم نر أحداً !
فازداد تعجب الملك من ذلك وعظم الأمر عليه ، وخاف خوفاً شديداً،
فقال له تقي الدين صاحب حماة : ان الذي استطاع ان يدخل على الملك

١ - يلاحظ ان ابا فراس يطلق على صاحب حماة اسم تقي الدين ، والواقع انه
شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين الذي سمي في الصلح بين الفريقين ، وتزعم
بعض الروايات انه انما فعل ذلك بعد انذار سنان له وتهديده اياه بقتل افراد أسرته
جميعاً (الكامل ج ١١ ص ٢٨٩) اما تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ففسد
تولى حماة بعد ذلك في سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٩ م .



ويصل اليه ويفعل ما قد فعل ، لو أراد ان يقتل الملك لقتله . فقال السلطان : ليس الخبر كالعيان : ومن الواجب أن تجردوا لنا من هذا الرجل أماناً ، ونسأله أن لا يؤخذنا على ما سلف من خطايانا . ثم أمر بأن يكتب الى المولى راشد الدين منه السلام في هذا المعنى كتاباً يرسله اليه .

ويضيف أبو فراس ان شيخ الجبل قد اشترط قبل اعطاء الأمان ، أن يغادر صلاح الدين مصياف ويرفع الحصار عنها ، ففعل ذلك « وترك مولانا عليه السلام جميع الزردخانه على حالها في مكانها ، وجميع الآلات على اختلاف اصنافها ، ثم نزل على جسر ابن منقذ ، وسير الى المولى راشد الدين علينا سلامه من هناك رسولاً يطلب منه الأمان فأعطاه أمانه ، وقسم الآلات التي تركها صلاح الدين على القلاع ، من الطوارق والجنويات والعشي والجلوخ والزرديات وغير ذلك ، فجعل لكل قلعة من قلاع الدعوة سهماً يخصها ويحمل اليها ، وصار له الملك صلاح الدين موالياً بعد ما كان معادياً^١ .

هذا ما يقوله الشيخ أبو فراس ، تعليلاً للأسباب التي حملت صلاح الدين على مصالحة سنان راشد الدين ، ولعل ما في روايته من مبالغة وتهويل ظاهرين هو الذي يجعلنا على الاعتقاد بأن الأسباب الحقيقية التي جعلت صلاح الدين يرحب بتلك المصالحة هي اقتناعه بأن حصاره لمصياف سيطول أكثر مما قدر له لمناعتها وصلابة حياثها بينما سئم جنوده الحرب ورغبوا في العودة الى اوطانهم^٢ ، وقد انتهز الصليبيون انشغاله في هذا

١ - مناقب المولى سنان راشد الدين تحقيق مصطفى غالب

٢ - الكامل ج ١١ ص ٢٧٨

الحصار فأغاروا على بعض أنحاء الشام ، وجاء محمد بن المقدم من بعلبك الى مصياف وهو يسوق معه مائتي أسير من الفرنجة ظفر بهم اثناء غارة قاموا بها على بعلبك ، وشخص تورانشاه الى حماة ليلاقيه فيها بعد ان اشتبك مع بقايا تلك الحملة الخفيفة على بعلبك فور وصوله من مصر الى دمشق .

ومها كانت دوافع شهاب الدين الحارمي في سعيه للصلح وقرار السلام ، وهو الذي يجاور الاسماعيليين وتشده الى بعض زعمائهم أوامر الصداقة والود ، فان سياسة صلاح الدين لم تكن تتعارض وذلك المسمى النبيل ، لأنها لا ترمي الى محاربة المسلمين وهدر دمائهم وتفتيت قوام ، مها اختلفت فرقهم وتباينت مذاهبهم ، وانما تهدف الى الاتفاق معهم وتأليف قلوبهم وتوحيد جهودهم ، واتخاذهم اعواناً وأصدقاء في مقاومة الغزو الأجنبي وصد عدوان المعتدين .

والحق انه كان لهذا الصلح أثره البعيد في سير الحروب الصليبية ، إذ انعقدت وشائج الصداقة بين السلطان وشيخ الجبل ، وانقلب الاسماعيليون الى مؤيدين لصلاح الدين ، فناصروه في حروبه المقبلة ، وأيدوه في مواقفه المختلفة ، كما انه «عامل بلادهم في صلح الرملة معاملته لبلاده ، فاشتراط دخول بلاد الاسماعيلية في الهدنة كي لا تتعرض لضغط الصليبيين^١ ، ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان ، إما ايماناً برسالته او خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين اذا اختفى صلاح الدين من الميدان^٢ .

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٨٤

٢ - تراجم اسلامية لعبد الله عنان ص ٦٠

وقد توفي سنان شيخ الجبل سنة ٥٨٨ هـ ١١٩٢ م وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين ، وهذا ما جعل الروايات الاسماعيلية تزعم ان سنان لم يشأ قتل صلاح الدين ، لانه كان يعلم من حركات النجوم والكواكب أنه سيموت في نفس السنة التي يموت فيها صلاح الدين ١ .

أما صلاح الدين فكان قد هادن الفرنجة ، وحالف الملك الصالح ، فما كاد يصلح سنان شيخ الجبل ، حتى وجه جنوده الى منازلهم ليستريحوا من متاعبهم ويتمتعوا بمفائهم ، ويستعيدوا قواهم استعداداً للمعارك المقبلة ، ثم عاد الى دمشق فأجاب اخاه توران شاه عنه في ادارة بلاد الشام ، وذهب لتفقد احوال مملكته في مصر ، ورؤية أهله ونسائه وأولاده .

وقد تزوج صلاح الدين قبل مغادرة دمشق من الخاتون عصمة الدين ام اسماعيل وأرملة نور الدين ، وكانت قد بقيت فيها بعد وفاة زوجها ويبدو ان القصد من هذا الزواج كان سياسياً بالنسبة له ، واجتماعياً بالنسبة لها «حفظاً لحرمتها وصيانتها» ، إلا أن أحد الشعراء الفرنسيين قد نسج حوله أسطورة خيالية طريفة ، فزعم ان عصمة الدين انما كانت تحب صلاح الدين منذ كانت في دمشق ، وقد سحرها جماله وشبابه ، فدمت السم لزوجها نور الدين ، كي تمهد له سبيل العودة الى الشام ٢ .

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٦٣

٢ - G. Paris ; La Légende de Saladin . Journal des Savants. Mai 1893

الفصل الرابع عشر السلطان المجاهد

اطمان السلطان صلاح الدين الى مهادنته للفرنجة ومخالفته للملك الصالح،
والى استتباب الامن في ملكه بالشام، فعكف في مصر على انشاء الكليات
والمستشفيات والجسور والحدائق العامة، وتقوية وسائل الدفاع عن
الإسكندرية ودمياط، وزيادة قطع الأسطول وشحنها بالرجال واصلاح
ما هو في حاجة منها الى الاصلاح، والاشراف على بناء السور حول
مدينة القاهرة، وتشيد قلعة حصينة على قمة المقطم، وقد نقش على
جدران هذه القلعة صورة نسر احمر على رقعة صفراء وهي صورة علمه
الشخصي، مستفيداً في ذلك من تجاربه الحربية الجديدة وعمليات الحصار
التي قام بها في سورية لأهم قلاعها ومدنها، احتياطاً من غزوة خارجية
أو انقواء لثورة داخلية.

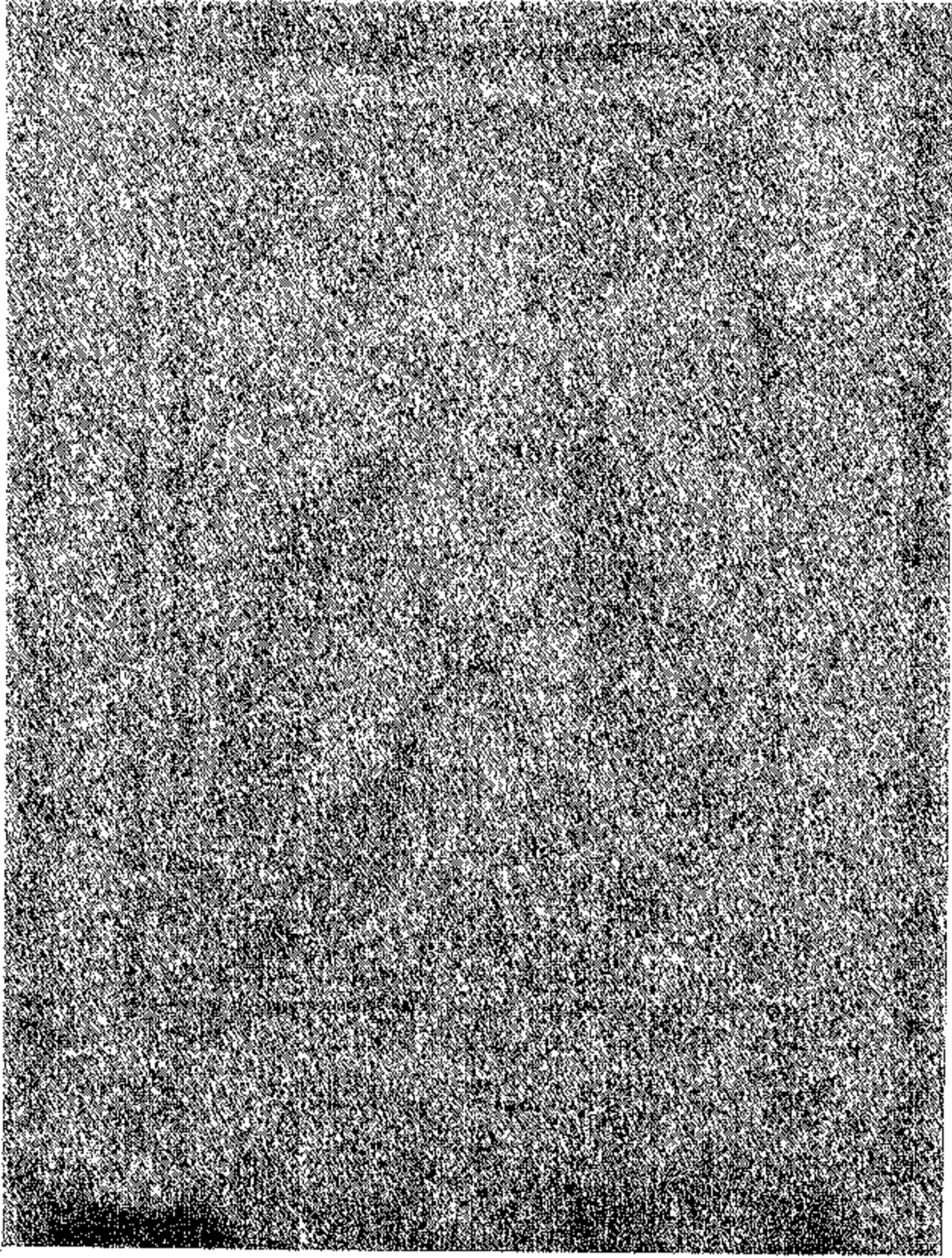
يقول العماد الأصفهاني: « وكان السلطان لما تملك مصر، رأى ان
مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل منهما سور لا يمنعها، فقال إن أفردت
كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفرد يحميها، واني أرى أن ادير
عليها سوراً واحداً من الشاطيء الى الشاطيء، وأمر ببناء قلعة في
الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر
القاهرة ببرج في المنقس، وانتهى به الى اعلى مصر ببروج وصلها بالبرج

الأعظم ، ثم يقول : « ووجدت في عهد السلطان بيتاً رفعه النواب ، وتكتمل فيه الحساب ، ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلمة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان ١ . »

وقد كانت لتلك المشاريع المعمارية أهميتها الحربية الكبرى في ذلك العصر ، أما القلعة فكانت « تشرف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً ، وهي محصنة من الجهتين سواء ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعملين مزدوجين ، وهما ضبط الأهالي وقطع من يخرج منهم عن طاعة السلطان فضلاً عن مقاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة ٢ . »

١ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ ، والعماد الاصفهاني ، او العماد الكاتب (٥١٩ - ٥٩٧ هـ ١١٢٥ م - ١٢٠٠ م) مؤرخ أديب فارسي النشأة ، ولاء الوزير ابن هبيرة النظر بالبصرة ثم واسط في عهد الخليفة المقتفي لامر الله ، ولما توفي ابن هبيرة اعتقل بعض اصحابه ومنهم العماد ، وما كاد يطلق سراحه بعد سنتين حتى انتقل لفروره الى دمشق والتحق بخدمة نور الدين ، ثم اتصل بصلاح الدين لسابق معرفته به وقدم وده له ، فجعله نائباً عن القاضي الفاضل في الكتابة الديوانية ، ولازم السلطان في سلمه وحربه ، وكان من خواصه ومستشاريه ، وله مؤلفات أدبية اشتهر منها كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، ومؤلفات تاريخية فقد معظمها وقد نقل عنها أبو شامة الكثير من وصف الوقائع والأحداث ، كما ان له كتاباً بعنوان « الفتح القسي في الفتح القدسي » حوى تاريخ سبعة اعوام من حياة صلاح الدين ابتداء من تحريره لمدينة القدس ، وكان السلطان معجباً بأسلوبه في الانشاء حتى انه لما فتح القدس لم يعهد الى احد بكتابة رسائل البشارة ، وفضل ان ينتظر قدوم العماد الذي كان متغيباً عنه في مرض (انظر : العماد الاصفهاني لمظفر سلطان ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي ، الحروب الصليبية واثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، ادب الحروب الصليبية لمحنة) .

٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٩٢



نسر احمر على رقعة صفراء نقش على حائط قلعة صلاح الدين وهي صورة على الشخصية

وقد زار الرحالة ابن جبير مصر في اواخر سنة ٥٧٨ هـ (أوائل سنة ١١٨٢) فروى الكثير من مآثر صلاح الدين ومقاصده في العدل والخير، وما قاله في ذلك : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانة : المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتباعد ، يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مكاناً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه واجراءً يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء » .

ثم يقول : « وشاهدنا ايضاً بنيان القلعة وهو حصن . يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذها موضع سكناه ، ويمدّ سوره حتى يقطم بالمدينتين مصر والقاهرة »^٢ ، ويقول : « وما شاهدناه ايضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تاجراً واحتساباً ، وعين قياً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف انواعها . ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدي ذلك القيمّ خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبإزاء هذا الموضع موضعٌ مقتطع للنساء المرضى . ولهنّ ايضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين

١ - رحلة ابن جبير ص ١٥

٢ - المرجع السابق ص ١٥

موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً من يتفقد كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها . والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه ١ .

وبعد ان يعدد كثيراً من هذه المرافق يقول : « ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، انه امر بعمارة محاضر ومدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم ٢ » .

الا ان ما يستوقف ابن جبير اكثر من أي شيء آخرها أعرب عنه بقوله : « ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي ابقاها ذكراً جيلاً للدين والدنيا ، ازاله رسم المكس المضروب ووظيفة على الحجاج مدة دولة المبيدين .

فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيادتها عتناً مجتهداً ويُسامون فيها خطة خسف باهظة . وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس ، ويعجز عن ذلك ، فيتناول بألم العذاب بعذاب ، فكانت كاسمها مفتوحة العين . وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الاتشين أو غير

١ - المرجع السابق ص ٢٦

٢ - المرجع السابق ص ٢٧

ذلك من الامور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدره . وكان يجده
امثال هذا التنكيل و ضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعينداب ووصل اسمه غير
معلم عليه علامة الاداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفن
عوضاً عنه ما يقوم مقامه من اطعمة وسواها ، وعين مجي موضع معين
بأسره لذلك ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز ، لأن الرسم
المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة ، عمرهما الله فعوض من ذلك
أجل عوض ، وسهل السبيل للحجاج ، وكانت في حيز الانقطاع وعدم
الاستطلاع ، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً
عظيماً وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن
حجّ البيت الحرام احدى القواعد الخمس من الاسلام ، 'حق يعم' جميع
الآفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الاصقاع وبقعة من البقاع ،
والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو ، جلّت قدرته ، لا يضيع أجر
من احسن عملاً . إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب
على كل ما يُباع ويشتري مما دق أو جلّ ، حتى كاد يؤدي على شرب
ماء النيل المكس فضلاً عما سواه . فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة
كلها وبسط العدل ونشر الأمن

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا
يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعنيه ، ولا يستشرون لسواده هبة
تثنيهم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بعصر والاسكندرية حينما
تقدم ذكره .

وفيا هو منصرف الى أعماله العمرانية وتصريف شؤون مملكته ، بلفته

أنباء مثيرة من الشام ، مفادها ان الفرنجة نقضوا الميثاق الذي عقده معهم ، فحاولوا الاستيلاء على بعلبك في غير طائل ، ثم غزوا أطراف دمشق فانتصروا على جنوده ، وأسروا قائده ابن السلار ، وهزموا أخاه توران شاه شرمزية . فساوره الغضب الشديد ، وسارع بجيشه الى غزو غزة وعسقلان في جنوبي فلسطين ، وغرضه من تلك الغزوة غير واضح بالمصادر المعاصرة ، وان كان الظاهر منها فتح الطريق الساحلي بين مصر وفلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالي الشرقي من خطر الصليبيين كما فعل بالطريق المار بوسط شبه جزيرة سيناء ، فضلاً عن اجتذاب جزء من قوات الصليبيين نحو تلك الجبهة ، لتخفيف الضغط عن الحاميات الاسلامية المرابطة بحماة وحارم^١ ، وهما المدينتان اللتان اتجهت اليهما الحملات الصليبية الجديدة .

لقد أراد القيام بحملة عسكرية خاطفة ، قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال ، فهاجم الداروم وغزة ثم ركز حملته على عسقلان لضعف حاميتها ، فأسرع بلدوين الرابع لتجديتها ، إلا ان صلاح الدين ما لبث أن حاصره فيها ، فخلت بذلك المدن والقلاع الصليبية من جيوش تحميها ، ولما رأى المسلمون ذلك انبسطوا واسترسلوا ، وتوسط السلطان البلاد^٢ ، ووصلت جنوده الى اللد والرملة ، وتسلسل بعضهم الى الجهات الواقعة بين ارسوف ونابلس^٣ وتفرقوا جميعاً منشغلين بالغنائم ، فأتاحوا الفرصة لبلدوين الرابع كي ينجو من الحصار ويحشد القوات الصليبية القريبة منه ، ويباغت صلاح الدين بمساعدة رينو دي شاتيون (أرنات) (

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٠٩

٢ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٩

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٨

وهو في قلعة من الجند عند تل الصافية على مقربة من الرملة .

وقد ركز الفرنجة حملتهم على صلاح الدين ، ووصف ذلك بنفسه فقال : « رأيت فارساً يحث نحوي حصانه ، وقد صوب إليّ سنانه ، فكاد يبلغني ، ومعه آخران قد جملا شأنها شأنه ، فرأيت ثلاثة من أصعابي خرج كل واحد الى واحد منهم ، فبادروا وطعنوه وقد تمكن من قربي فما مكنوه ، وهم ابراهيم بن قنابر ، وفضل الفيضي ، وسويد ابن غشم المصري^٢ »

الا ان فرسان الفرنجة احاطوا بصلاح الدين ، يريدون القضاء عليه ، فاضطر الى الافلات من بينهم والانطلاق في القلاء على غير هدى ، يتبعه اولئك الشجعان الثلاثة ، « الى ان دخل الليل ، وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا زاد أو علف . وأوقع اختفاء صلاح الدين الرعب في الصفوف ، فخرج القاضي الفاضل في بعض أدلائه يتلمس مكان صلاح الدين ، وبثهم في الرمال حتى اهدوا اليه وأسعفوه بما كان معهم من الزاد والعلف . ثم جدّ الجميع في السير الى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلّ عليهم القوت والماء ، وهلك كثير من دواب المسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير . وأما المسكر الذي تفرق في طلب الغنيمة داخل حصون الصليبيين في فلسطين فان اكثرهم ذهب بين قتيل وأسير^٣ »

وكان من اسرى المسلمين في تلك المعركة الفقيه عيسى الهكاري الصديق القديم لصلاح الدين وقصد اقتداه فيما بعد بستين الف دينار . ويقول

١ - A. Champdor : Saladin , Le plus pur Héros. de l'Islam , p. 98

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧٣ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٤

٣ - التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١١١ - ١١٢

شامبدور : « وقد كانت غلطة صلاح الدين انه استهان بحامية عسقلان ملك القدس الصغيرة المحاصرة في عسقلان ، فبدلاً من ان يتغلب عليها دون أي قتال ، بحصار لا يتجاوز بضعة ايام ، لأنها لا تملك قدراً كافياً من المؤن ، فضل ان يرسل جيوشه عبر الحقول المجاورة لاحتراق الرملة ومحاصرة اللد والانطلاق على طول الساحل حتى أرسوف^١ ، أما أبو الفرج ابن العبري فقد عزا في تاريخه السرياني هزيمة المسلمين الى ربيع عاصفة هبت في وجوههم وأثارت الرمل في عيونهم^٢ ، بالإضافة الى تفرق الجند وتشقت المقاتلين .

وقد تركت هذه الواقعة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين ، فأقسم أن لا تضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيين ، وكتب الى أخيه توران شاه كتاباً ، استهله بهذا البيت من الشعر :

ذكرتك والخطي تخاطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر^٣

ثم أنبأ بما حدث له وقال : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر^٤ »

كان ذلك في سنة ٥٧٣ هـ ١١٧٧ م فلم يُقبل شهر رمضان من تلك السنة نفسها ، حتى سار السلطان صلاح الدين الى دمشق على رأس جيش كبير ، بعد ان اتاب عنه اخاه الملك العادل . وكان الفرنجة قد اغتسموا

١ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 97

٢ - تاريخ سورية للطران يوسف الدبس ج ٦ ص ٧٩

٣ - الخطي والمثقفة السمر : الرماح .

٤ - الكامل ج ١٢ ص ٢٩٧

فرصة قيام الخلاف بين الملك الصالح وكششكين وحاصروا حارم التي كانت اقطاعاً لهذا الوزير ، ولم يتخبروا عنها الا بعد أن اعطاهم الملك مبلغاً كبيراً من المال . ثم نشب خلاف آخر بين السلطان وابن المقدم الذي امتنع عليه في بعلبك ، وانتهر الفرنجة هذه الفرصة ايضاً وشرعوا في بناء قلعة بالقرب من طبرية عند بيت النبي يعقوب في مكان كان حرماً بين الفرنجة والعرب يُسمى « بيت الأحزان » لزعيمهم « ابن يعقوب » اعتماد الانفراد فيه للبكاء على يوسف ^١ .

وما كاد بناء هذه القلعة يتم حتى ملأها الفرنجة بالموثونة والذخيرة ، وحصنوها تحصيناً قوياً لجعلها قاعدة لغزواتهم ، ثم سار بلدوين الرابع شطر دمشق ليقاثلها ، فأرسل صلاح الدين لملاقاته الأمير فرخشاه ابن أخيه وشخص الى ناحية طبرية لتخريب قلعة يعقوب وقد أدرك اهميتها الاستراتيجية وخطرهما على مواصلات المسلمين ^٢ ، فالتصر فرخشاه على بلدوين الرابع وكاد يأسره لولا شجاعة البطل همفري (الهنفرى) الذي أسرع لانقاذه والدم يتزف من جراحه ، وقد أدى ذلك الى وفاة همفري بعد عدة ايام في حصن هونين ^٣ . وبقي صلاح الدين يحاصر القلعة وقتاً طويلاً ، ويرسل السرايا خلال ذلك الى بيروت وصيدا وغيرها لتغزوها وتعود اليه .

وعلى اثر الهزيمة التي مني بها بلدوين الرابع ، والغزوات التي ما يفتأ صلاح الدين يوجهها الى بلاده ، اشتدت حماسة الفرنجة ، واتحد نبلاؤهم

١ - مرآة الزمان ص ٢٢٥

٢ - كان صلاح الدين قد عرض على الفرنجة مائة الف دينار مقابل هدم هذه القلعة فرفضوا

ذلك (انظر خطط الشام ج ٢ ص ٤٢)

٣ - Guillaume de tyr , p. 1052

وتألبت جموعهم ، وساروا في جيش عظيم من صفد الى أعالي وادي الأردن ، وانحدروا الى مدينة مرجعيون ، وأنزلوا بالمسلمين خسائر قاسية في النفوس والأرزاق . ولكن صلاح الدين ما لبث ان وافاه الى هناك ، وخصاه معهم معركة عظيمة تكلفت بانتصاره في الثاني من المحرم سنة ٥٧٥ هـ (يونيه ١١٧٩ م) وأسره عدداً كبيراً منهم ، بينهم ريمون أمير طرابلس ، وهوج أمير طبرية ، وبلدوين أمير الرملة ، وقد أفتدى هذا نفسه على ما قيل بمائتين وخمسين الف قطعة من الذهب والفضة من أسرى المسلمين^١ .

وسرت حمية النصر في صلاح الدين ، فعاد الى حصار قلعة يعقوب ، فما هي الا أيام قليلة حتى استولى عليها « بعد قتال وحصار » فغنم منهم مائة الف قطعة حديد من أنواع الاسلحة ، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها ، وأسرنحو السبعمائة ، وخرّب الحصن حتى سوّى به الأرض^٢ .

وقد اضطرب بذلك موقف الفرنجة ، ثم اشتد هذا الموقف اضطراباً وحرماً حين انتقل السلطان الى مهاجمة عكا « قسطنطينية الفرنج » ، بما أعدّ لهذا الهجوم من أساطيل ، بينما كانت سراياه تغزو أنحاء صفد وطبرية ، حتى لم يجد ملك القدس بداً من مصالحته ، فعقد معه (٥٧٦ هـ ١١٨٠ م) هدنة لمدة سنتين شملت جميع المدن التي كانت بيد

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤

٢ - انظر تفاصيل حصار قلعة يعقوب واستيلاء صلاح الدين عليها في الكامل ج ١١ ص ٣٠١ - ٣٠٣ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١ - ١٣ ، السلوك ج ١ ص ٦٧ - ٦٩

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥

الفرنجة ما عدا طرابلس التي ظلت تقا تل المسلمين ردها من الوقت ثم صالحتهم ، وانطاكية التي حالت خلائفاتها الداخلية دون قيامها بعمل عدائي ذي شأن ضد المدن المجاورة لها .

وجرى امراء الجزيرة وما وراءها على غرار ملك القدس ، فعقدوا مع صلاح الدين - في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٦ هـ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٠ م ، بعد فتن ومعارك عديدة - معاهدة لمدة سنتين ، توسط بشأنها عز الدين قلع ارسلان ، ووقعها امراء الموصل واربل وكيوه وماردين وقونية وملك أرمينية أيضاً ، وتعهدوا فيها بأن لا يشهروا خلال تلك المدة على السلطان سيفاً فاطمان صلاح الدين على بلاد الشام ، ولا يبا بعد أن وصلت رسل الخليفة، الناصر لدين الله الذي خلف اياه المستضيء بأمر الله ، بالتفويض والتشريف والتقليد والموافقة على طلب صلاح الدين بامتلاك الرها والرقة والخابور ونصيبين ، وعاد الى مصر بعد أن أتاب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه ، للنظر في أحوال الاسكندرية واليمن بعد وفاة أخيه توران شاه الذي كان أميراً عليهما ، ومواصلة أعماله العمرانية وانشاءاته العسكرية هناك ، وتعزيز أسباب الأمن الداخلي والدفاع الخارجي .

ويجمع المؤرخون الغربيون على ان صلاح الدين كان أميناً للعهد الذي قطعه على نفسه في الهدنة التي عقدها مع ملك القدس ، كما كانت طول حياته أميناً لعهوده ومعاهداته ، ولكن رينودي شانيتون (أرناط) صاحب الكرك ، قد خالف شروط تلك الهدنة ، ولم يكتف بتحصيل رسوم المرور من قوافل الحجاج التي تمر بالقرب من بلاده ، بل أخذ يفكر في الزحف على المدينة المنورة لاحتلالها ، وخرج في صيف ٥٧٧ هـ ١١٨١ م الى الصحراء العربية وتوغل فيها حتى وصل تباء الواقعة بين الشام ووادي القرى ، على طريق الحجاج المسلمين ، فيسلب قافلة غنية ،

وقطع طريق الحج نهائياً^١ . فكانت جواب صلاح الدين على ذلك انه استولى في ثغر دمياط على مركب كان يقل بعض السياح الاوروبيين ، بينما أغار عز الدين فرخشاه على امارة الكرك وخرب قراها واكسح نواحيها ، فقلق رينودي شاتيون عليها وتخلي عن مشروعه العدواني وعاد مسرعاً الى الكرك كما عاد فرخشاه الى دمشق^٢ .

وفي خريف تلك السنة نفسها ، استقبل صلاح الدين في القاهرة رسولا من قبل العاهل البيزنطي الكيسوس كومينوس الثاني ، وعقد معه صلحاً وطد أواصر الصداقة والسلام بين الدولتين ، وكفل صلاح الدين بتلك المعاهدة عدم مساهمة الاسطول البيزنطي في أية حركة هجومية على مصر ، ومن ذلك التاريخ صارت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطية في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين^٣ .

على ان صلاح الدين ما لبث أن ندم على تنبيهه عن بلاد الشام ، إذ ما كاد يفادرها حتى توفي سيف الدين غازي أمير الموصل ، وترك ملكه لأخيه عز الدين ارسلان بن مسعود ، ثم مات الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين في ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ (كانون الاول (ديسمبر) ١١٨١ م ، موصياً بملكه لابن عمه عز الدين كي تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة .

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٢٦

٢ - الكامل ج ١١ ص ٣١٠ .

٣ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٢٧ نقل عن :

Stevenson : The Crusades in the East p, 214

وكان صلاح الدين يعدّ نفسه الوارث الشرعي للملك الصالح ، فرأى ان تغيبه عن سورية في تلك الفترة قد ضيع عليه فرصة مؤاتية للاسيلاء على حلب ، وأوجد مزاحماً قوياً له هو عز الدين ارسلان بن مسعود ثم عزاه بعض الشيء ان هذا المزاحم الجديد ، ما كاد يستقر في حلب حتى كتب له أخوه عماد الدين امير منجارج ، في أن يستبدل حلب بسنجار ، فأجابته الى طلبه وعاد الى الموصل ، وأقبل عماد الدين الى حلب ، وهو أهون شأنًا من أخيه وأقلّ قوة .

ومن ثم كانت حياة صلاح الدين بعد عودته الى سورية^١ في صفر سنة ٥٧٨ هـ حزيران (يونيه) ١١٨٢ م ، حياة نضال متوزع بين امراء الفرنجة الذين نقضوا الهدنة ولم ينقطع عدوانهم على المسلمين ، وعز الدين مسعود الذي لم يبق من امراء بلاد المسلمين من يناقسه غيره ، إذ ما كاد ينقضي أجل المعاهدة التي سبقت الاشارة اليها حتى دخل في طاعته

١ - غادر صلاح الدين القاهرة في ٥ محرم سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٥ أيار (مايو) ١١٨٢ م ، ثم استفرقته هموم الجهاد ومشاغله في بلاد الشام فلم يعد اليها بعد ذلك ، لأن الشام كانت جبهة العرب والاسلام وميدان النضال بينهم وبين القوة المغيرة ، ويقال انه كان في مجلس وداعه بالقاهرة وهو ينتظر اجتماع الجيش ليسير معلم لبعض اولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور ،

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير السلطان وتتكد المجلس .

والواقع ان صلاح الدين كان قد أدرك انه لا يتمكن من بلاد الفرنجة وهو في مصر ، لبعده المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب عن المسير ومتابعة الجهاد ، وقد جرب فهلكت القوافل عند الكرك والشوبك عدة مرات ، فرأى انه لا يمكنه فتح القدس الا من الشام ، فرأى ان يملكها ويسوق الجند منها فيكون الفتح قريباً والحرب سهلة التموين ، (انظر : مفرج الكروبي ج ٢ ص ٢٩) .

امراء حران وكيوه والرها وسروج والرقه وقرقيسية ونصيبين . فبينما نراه يقاتل الفرنجة في طبرية وبيسان ، ثم يحاصر بيروت براً بعد أن حاصرها بجزراً في محاولة لفصل امارتي طرابلس وانطاكية عن مملكة بيت المقدس ، اذا به يتجه نحو الشرق فيحاصر الموصل حين واقته الانباء بأن اميرها قد تحالف مع الصليبيين لضرب مؤخرة صلاح الدين ١ .

وتمتنع الموصل عليه ، فيغادرها بعد شهرين ليهاجم سنجار ويستولي عليها ، ثم يستولي على آمد ويولي عليها محمد بن قرا ارسلان ، وكان فيها كثير من الذخائر فوهبها له ، فقيل له في ذلك فقال : « لا أضن عليه بما فيها من الأموال ، فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ، ونحن انما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ٢ » .

وانتقل بعد ذلك الى محاربة عماد الدين امير حلب واضطره الى طلب الصلح على أن تعاد اليه ولاية سنجار مقابل الدخول في طاعة السلطان ، فيقبل صلاح الدين ذلك ، ويغادر عماد الدين حلب وأهلها يشيعونه بالهتاف : « يا حمار . بعث حلب بسنجار » ، ويدخلها صلاح الدين فيستقبله أهلها باحتفال وسرور عظيمين وكأنهم في يوم عيد . ويصعد السلطان الى القلعة مبتهجاً ، مدركاً أهمية هذا الفتح العظيم ، ويقول لمن حوله مقتبلاً : « والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢ - ٢٣ ،
النوادر السلطانية ص ٦٨

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٥٧ .

المدينة ، والآن تبينت أنني أملك البلاد وعلمت ان ملكي قد استقر
وثبت ١ ،

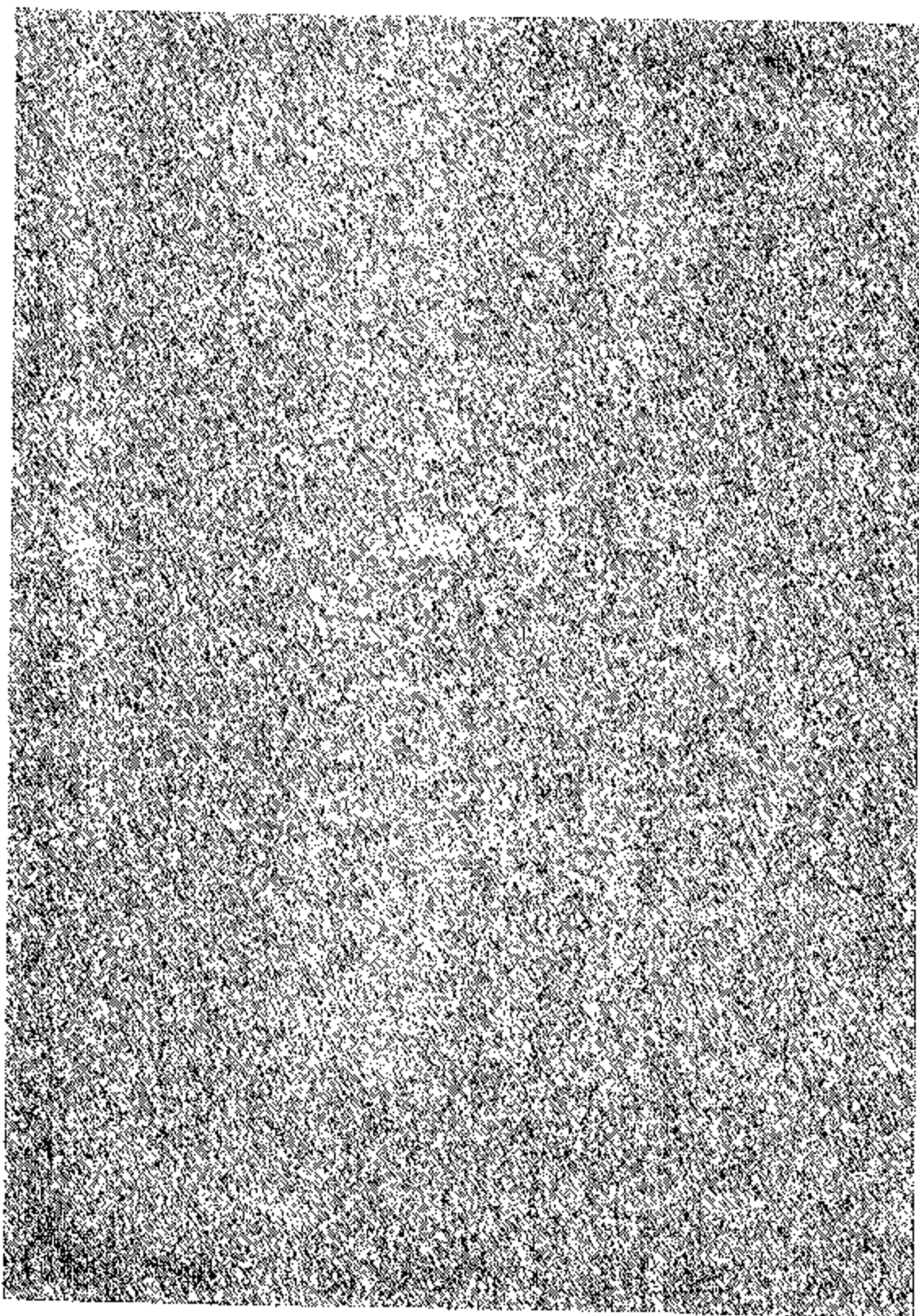
ويروي انه قد بلغته اثناء دخوله حلب ، وفاء اخيه طاج الملوك
بوري ، إثر طعنة اصيب بها في فخذة خلال المعركة ، فتألم لذلك ألماً شديداً
وقال : « ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملوك ٢ » ، ولكنه انطوى
على ألمه وأسر النبأ في نفسه ، كي لا يفسد على جنده سرورهم بالانتصار
الذي أحرزوه

وما عثم هذا الانتصار أن أعقبه انتصار آخر ، إذ دخل عز الدين
مسعود في طاعة صلاح الدين ، بعد معارك وأهوال ومفاوضات كثيرة ،
وتدخل الخليفة العباسي الناصر لدين الله إثر استعانة الموصليين بالخليفة
بواسطة القاضي ابن شداد ٣ ، والتخلي عن المدينة مرة للعودة الى حصارها

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٥ ، الكامل ج ١٢ ص ٣١٣

٢ - وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٩

٣ - كان بهاء الدين ابو المحاسن المعروف بابن شداد (٥٣٩ - ٦٢٣ هـ ، ١١٤٥ -
١٢٣٤ م) من علماء الموصل ، تولى التدريس والقضاء وعرف بالحكمة والاتزان ، فأرسله
الموصليون الى الخليفة العباسي ليتشفع لهم عند صلاح الدين فيرفع الحصار عنهم ، وحالفه التوفيق ،
فأرسله صاحب الموصل بعد عامين نائباً عنه الى مؤتمر اسلامي دعا اليه صلاح الدين بدمشق ،
وقد أسفرت مناقشات المؤتمر عن اعجاب ابن شداد بصلاح الدين فأيد سياسته مخالفاً في ذلك
وجهة نظر اميره ، كما اعجب السلطان بمقدرة ابن شداد ، فلما التقى به مرة ثانية في سنة ٥٨٤ هـ
١١٨٨ م وهو قائم على حصار كوكب وكان ابن شداد قد أتى لزيارة القدس بعد تحريرها ،
استبقاه وولاه قضاء العسكر ، ومنذ ذلك التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ، وقد
روى سيرته في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتماداً على مشاهداته الشخصية
وما سمعه عن لسان صلاح الدين (انظر : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ص ١٤
- ١٩ . دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٢١٠ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٨)



مجلس في عهد المردب الصليبية ، عن لوحة قديمة

مرة اخرى بعزيمة أشد وأقوى ، واستخدام الذكاء والدهاء حيناً والسيوف والمنجنيق حيناً آخر ، لأن عز الدين قد حشد فيها عدداً ضخماً من لقاتلين « ومن السلاح والأت الحصار ما حارت به الأبصار » ، الى ان تقرر ت قواعد الصلح نهائياً في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ ٣ اذار (مارس) ١١٨٦ م على أن يسلم عز الدين الى صلاح الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وولاية بني قفجاق ، وأن يترك له صلاح الدين الموصل وأعمالها ، على ان تكون الخطبة والسكة باسم صلاح الدين وأن يحضر عز الدين بعسكره في خدمته حين يدعو الى المشاركة في قتال الافرنج .

وقمت بذلك لصلاح الدين سيادة مطلقة على جميع أنحاء سورية والجزيرة وجزء من العراق ، تتصل بسيادته على حوض النيل وسواحل افريقية الشمالية وبلاد اليمن وعدن ، وتؤلف معها وحسدة متمسكة بجبارة تنتظم أقوى دولة في الشرق الأوسط

وقد ختم هذه الصفحة من حياته النضالية الشاقة ، بمعاهدة على الهدنة لمدة اربع سنوات عقدها مع ملك القدس في اواخر سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ، بعد غزوات عدة قام بها على بلاد الفرنجة تركز اكثرها حول مدينة الكرك التي كانت عقبة كأداء في الطريق بين مصر والشام ، أما انطاكية فقد رجفت رعباً ، على اثر استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها ،

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ .
٢ - الكامل ج ١١ ص ٢٤٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٤ ، النوادر السلطانية ص ٥٦ .

وسارع أميرها الى امان السلطان ١ . ثم عاد الى دمشق قلب المملكة الكبيرة التي انشأها ، لينصرف خلال هذه الحقبة من السلام ، الى توطيد ملكه وتنظيم بلاده وتقوية دفاعه ، استعداداً لانجاز البناء الذي وضع اسسه وتحقيق الهدف الذي يطمح اليه .

يقول لامونت : « ولو ان صلاح الدين كان ذلك المتعصب ، كما يُصوّر أحياناً ، لاستهل فتوحاته بمهاجمة الافرنج المضعفين المنقسمين على انفسهم وربما كان الاستيلاء على الدول اللاتينية أسهل منالاً من الاستيلاء على القسم الاسلامي من سورية . ولكن صلاح الدين رأى أن يوطد مركزه في سورية الاسلامية قبل ان يهاجم الدول اللاتينية . كان يشعر أنه سيقهر اللاتينيين لا محالة ، ولكن عليهم ان ينتظروا الى ان تسنح المناسبة التي تلائم الفاتح ٢ . »

وقد زار ابن جبير خلال رحلته الشهيرة العراق والجزيرة وبلاد الشام ، في عام ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ، وسجل انطباعاته التي حفظت لنا صوراً حية عن الحياة العامة في ذلك العصر ، وقد استوقفه ما رأى فيها من كثرة الألقاب « فلا تسمع الا القاباً هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائفة ، قد تساوى فيها السوق والملوك ، واشترك فيها الغني والصعلوك ، ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق ، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، المشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردّها التجريح ، ودعوى نسبة للدين

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

٢ - دراسات اسلامية باشراف نقولا زيادة ص ١٢٠ .

براحت به أي تبريح^١ !»

ثم يقول : « وهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ،
المعروفة بديار ربیعة ، وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب
عن الطريق وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميتافارقين
وغيرهما مما يطول ذكره ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم
الى طاعته وإن كانوا مستبدين ، وفضله يُبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك
منهم لفعله^٢ . »

ويصف ابن جبير دمشق ومعالمها ومرافقها وصفاً مسهباً دقيقاً ، ومن
مشاهداته فيها « كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تُعرف بكنيسة
مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وهي حفيلة البناء ،
تتضمن من التصاوير امرأ عجيباً تبته الأفكار ، وتستوقف الأبصار ،
ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها^٣ . »

واعجب الرحالة اعجاباً شديداً بما شاهدته من مرافق الغرباء في دمشق :
« ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من ان يأخذها الاحصاء ، ولا سيما
لحفظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم
عجيب جداً . وهذه البلدة المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال
بهذه البلدة أكثر والاتساع أوسع . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا
فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات
كثيرة . فأولها فراغ البال على امر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان واهمها ،

١ - رحلة ابن جبير ص ٣١٦

٢ - المرجع السابق ص ٢٢٢ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٥٥

فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالمعجز والتسويق ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المشرق باب مفتوح لذلك ، فادخل ايها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد وتقرع من الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد ، لا إله سواه ، قد نصحتُ إن ألفتُ سامعاً مجيباً ، ومن يهد الله فهو المهتد ، جلّت قدرته وتعالى جدّه ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لأكرام الغرباء وإيثار الفقراء ، ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدار الى برّ الضيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها .

ويتحدث ابن جبير عن صلاح الدين فيقول : « وقد تقدم الذكر ايضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات : صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب ، وما له من المآثر الماثورة في الدنيا والدين ، ومثابرتة على جهاد اعداء الله ، لانه ليس امام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فببب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه . إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللتناها وقد خرج لنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضاً له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله يعينه على فتحه .

« وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث

مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه ، رأينا اثباتها هنا : لإحداها ان الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه : أما أنا فلأن أخطيء في العفو أحب إلي من أن أصيب في العقوبة . وهذا في الحلم منزع احنفي . وقال ايضاً ، وقد تنوشدت محضرته الأشعار وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجوادهم : والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغنت له جميع ما في خزائني لما كان عَوْضاً بما أراقه من 'حر' ماء وجهه في استمناحه اياي . وهذا في الكرم مذهب رشدي أو جعمرى .

« وحضره أحد بماليكه التمييزين لديه بالخطوه والاثرة مستعدياً على جمال ذكر انه باعه جملاً معيباً أو صرف عليه جملاً بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره ونواهيه ممتثلة ، وانما انا عبد الشرع وشحنته - والشحنة عندهم صاحب الشرطة - فالحق يقضي لك أو عليك . وهذا في العقد مقصد 'عمرى' . وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً ، والله يمتنع ببقائه الاسلام والمسلمين بمنته . »

الفصل الخامس عشر اجساد الأعظم

لقد رأينا بلاد العرب زمن ولادة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٢٢ هـ ١١٣٧ م ، وقد تمزقت الى امارات عديدة يتقاسمها الحكام الأقوياء ويتنازعون عليها ، كل منهم يرغب الاستئثار بملكه ويطمع بالسيادة على ملك جاره . ثم رأينا هذه البلاد سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م وقد وحدها ذلك الرجل الفذ تحت سلطانه بعد نضال شاق استغرق شطراً كبيراً من حياته . وها نحن نراه الآن مستوياً على سدة ذلك الملك المنبسط من الفرات شرقاً الى برقة غرباً ، ومن الموصل وحلب شمالاً الى النوبة واليمن جنوباً ، وهو ينهد الى الخمسين من عمره دون أن يفكر بالخلود الى الدعة والتفرغ للاستمتاع بخيرات هذا الملك الباذخ الذي صار اليه ، بل هو يفكر في معارك جديدة يخوضها ومجد جديد يضيفه الى اجماده .

ورب قائل ان صلاح الدين انما كان يعمل لنفسه ، وانه انما وجد البلاد العربية لتكون له ، دون غيره ، السيادة التامة عليها ، ونحن لا ننكر ان في هذا القول كثيراً من الحق ، ولكننا لا نرى فيه ما يقلل من اهمية العمل العظيم الذي قام به . فصلاح الدين قد وحد بلاد العرب في وقت هي احوج ما تكون الى هذه الوحدة ، وهو قد وحدها

في ظل مبادئه انسابه خيرة واخلاق كريمة رحيمة تنشده الحرية والحق والعدالة ، وليس في ظل الحديد والنار والارهاب الذي يلوي عنق الامة الى الوراء ويقضي على تراثها الفكري ، ويخنق فيها روح التجدد والتوثب والابداع .

ذلك هو الحادث التاريخي المجيد الذي قام به صلاح الدين الايوبي ، وهو حادث ليس ينقص من اهميته في شيء ، كونه قد اكسب صاحبه مجداً شخصياً أو انفقته أهدافه مع مطامحه الشخصية . وفي اعتقادنا ان سر العظمة في حياة الأبطال الكبار الذين تفخر البشرية بهم ، انما هو توفيقهم بين مطامعهم الشخصية ومطامح شعوبهم ، وليس تسخيرهم لها واستثمارها في سبيل مطامع رخيصة وغايات حقيرة واهداف تصفية رجعية ، بحيث تترج تلك المطامح وتتفاعل وتصبح كلاً واحداً يستطيع ان يؤثر في التاريخ بتعميد طريقه وتعجيل سيره نحو الاغراض الانسانية الرفيعة التي تتمخض بها مرحلة من مراحله ، او قنزع اليها امة من الامم في عصر من عصوره ، وذلك هو الدور الذي قام به صلاح الدين .

وزيد في أهمية الوحدة التي بناها الرجل الكبير ، كونها اتجهت ، منذ تم بناؤها ، الى تحرير بقية البلاد العربية من ذلك البنبان الطفيلي الذي زرع في غير بيئته وأرضه ، وقد ارتدت هذه المهمة التي استفرقت المرحلة الاخيرة من حياته ، وهي مرحلة قصيرة بمدتها عظيمة بالأعمال التي حققتها ، طابعاً اسلامياً يبل الطابع المسيحي الذي اصطبغت به الحروب الصليبية التي شنّها الفرنجة على الاقطار العربية والاسلامية ، ولكنها تظل في حقيقتها وجوهرها مهمة تحرورية ، إذ بدافع التحرر من الحكم الاجنبي ، وبعامل الغيرة الوطنية والحمية القومية والذود عن المقدسات الاسلامية ، وباسم خلافة بغداد العباسية العربية سارت الجيوش الجرارة تحت لواء صلاح الدين ، وأقبلت اليه الأمداد من كل صوب ،

وأيدته القبائل في كل مكان .

ويذهب البيرو شامبيدور إلى أن الحروب الصليبية إنما كانت بالنسبة للعرب والمسلمين حرب دفاع عن الأرض والذات ، ولم تتخذ طابعاً دينياً إلا « بعد المبادرة الحقاء التي قام بها رينو دي شاتيون ، إذ اعتدى ، برغم معاهدة الصلح ، على القافلة الآمنة التي مرت بأراضيه في طريقها إلى الحج ^١ ، ويقول الزعيم جوزف سيمان : « ولا بد من الاعتراف بأن العرب لم يذهبوا في مقاتلة المشركين والكفار إلى الحد الذي ذهب إليه فرسان الحروب الصليبية ^٢ ، ومن الملاحظ أن بعض أمراء المسلمين لم يكونوا ليجدوا حرجاً في مخالفة الصليبيين لمقومة خصومهم من الأمراء المسلمين ، إلا أن ذلك قد انقطع نهائياً أو ندر كثيراً بعد هذا التاريخ .

وقد ساعدت صلاح الدين على إحراز انتصاراته مع الفرنجة عوامل عديدة ، منها اختلاف أمرائهم فيما بينهم اختلافاً شديداً بعد وفاة بلدوين الرابع ، إذ خلفه في الملك بلدوين الخامس وكان طفلاً ، فكفله ريمون الثالث أمير طرابلس وبادر بوصفه الوصي على مملكة القدس إلى عقد هدنة مع السلطان لمدة أربع سنوات تمتد من سنة ٥٨١ هـ ١١٨٥ م إلى سنة ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م ، وبادر إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين في طرابلس ، واتفق مع صلاح الدين على مكافحة المجاعة التي اجتاحت الشرق الأدنى في ذلك العام ^٣ .

ولكن الموت فاجأ الملك الطفل في صيف سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م ،

١ - 15 - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam , p.

٢ - الفروسية العربية ص ٧٣

٣ - Hist. des Croisades et du Royaume Franc du Jerusalem, II. p. 760

فاعتقد ريمون الثالث بأن من حقه البقاء في مركز الوصاية وتعهده شؤون الحكم ، ولم تجاره سيبييل ام الملك في اعتقاده هذا ، بل أرادت الملك لزوجها الجديد غي دي لوسيفيان (جفري) وقد عارض ذلك الأمراء البارزون ، الا انها اصرت عليه وايدتها البطريرك ورئيس الهيكلين ، ودعيا الامراء المجتمعين في نابلس الى حقة لتتوجهها هي ، فأجاب الأمراء انهم لا يقبلون ان تملك عليهم امرأة ، فأقفل الهيكليون (الداوية) أبواب المدينة وسارت سيبييل الى كنيسة القبر المقدس ، فأخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع أحدهما على المذبح والآخر على رأس سيبييل ، ثم قال لها : « مولاتي ، انت امرأة فيجب ان يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة ، خذي هذا التاج وتوجهي به من ترينه أهلاً لذلك ، فأخذت التاج ودعت زوجها لوسيفيان وقسالت : « مولاي ، تقدم اليّ واقبل هذا التاج ، فأنني لا أرى أجدر منك به ، فجئنا أمامها ووضعنا التاج على رأسه ، ونودي بهما ملكاً وملكة ^١

ولما بلغ النبا الامراء المجتمعين في نابلس ، شق الأمر عليهم ، إذ كان غي كما يقول ولیم الصوري ملكاً تنقصه الفروسية والحكمة ^٢ ، فرفض بوهيمند الثالث أمير نطاكية ان يقدم للملك الجديد فروض الولاء والتبعية ، وهجر أمير الرملة امارته وسار الى انطاكية فقام فيها ، وذهب ريمون الثالث الى طبرية ، وكانت قد آلت الى زوجته البارونة ايشيف ، مؤثراً التخلي عن امارته على العمل تحت حكم غي ، ففضب هذا واعتزم مهاجمته هناك مدعياً انه يريد محاسبته على الأموال التي جباها في عهد وصايته . وكان ريمون قد عقد اثناء وصايته على ملك

١ - تاريخ سورية، للطران يونسف الدبس ج ٦ ص ٣٢

٢ - Guillaume de Tyr. p. 1116



بيت المقدس ، اواصر الود بينه وبين صلاح الدين ، فلما لجأ الى طبرية
تطلع الى السلطان « واتمى اليه واستعضد به ، وطلب منه المساعدة على
بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعدوه
النصرة ^١ ، وشد عضده بإطلاق من كان في الأمر من أصحابه ، فقويت
مناصحته للمسلمين ^٢

وفي غمرة تلك الأحداث نقض رينو دي شاتيون أمير الكرك المعاهدة
التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين ، كما نقض المعاهدة السابقة من
قبل . يقول الدكتور فيليب حتي : « ولعل رينو هذا كان أشد زعماء
اللاتين مقاومة ، واكثرهم تعدياً ونقصاً للعهود ، وأوفرهم المأماً باللغة
العربية . وحين كانت الكرك في عهده أوقع مراراً بالقوافل الآمنة
يسلبها امتعتها ، بينما كانت اصحابها يجتازون الطريق خلف اسوار
حصنه . كل هذه الأمور أتاها خروجاً على شروط العهود والمخالفة .
وبلغ منه الكيد للمسلمين أن جهز اسطولاً أخذ يبعث في شواطئ الحجاز
فساداً ويُنزل الأذى بمراكب الحجاج ، وقد أقسم صلاح الدين ليقتلن
هذا الرجل وينتهزها فرصة لضرب الفرنجة في الصميم . ويرى كثير من
المؤرخين الغربيين ان مغامرات دي شاتيون ، هي الثغرة التي سببت انهيار
الملكة اللاتينية في القدس أو عجلت بانهارها ^٣ .

ولا ريب في ان القراء يذكرون ان رينو دي شاتيون كان أميراً
لانطاكية ، وقد حاول أن يتحدى فيها الدولة البيزنطية ، فأثار عليه
غضب عاهل القسطنطينية واستياء ملك القدس ، فلما اسره مجد الدين

١ - الكامل ج ١١ ص ٣٤٨

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٤

ابو بكر بن الدابة أحد أمراء نور الدين سنة ٥٥٦ هـ ١١٦٠ م لم يتقدم
أحد لفدائه ، فظل سجيناً في قلعة حلب ستة عشر عاماً حتى أطلق
كمشتكين سراحه سنة ٥٧٢ هـ ١١٧٧ م .

وكانت اتينيت دي ميلي التي ورثت عن أبيها حصني الشويك والكرك ،
يومذاك أرملة لا يزينها شباب أو جمال . وقد سبق لها ان تزوجت
مرتين ، الا ان رينو دي شاتيون ما لبث ان تزوج منها طمعا بما
ورثت ، وأضحى أميراً على تلك المنطقة الهامة التي تتحكم في مواصلات
المسلمين .

وكان رينو شرساً حاقداً لم ينس قط سني الأسر التي قضاها في حلب
بل زادته حدة وتوتراً ، ولم يستطع ان يقدر ظروف الصليبيين التي
غدت أميل الى المهادنة والمسالمة مع أبناء البلاد المغتصبة وانتقلوا من
طور الهجوم الى طور الدفاع ، ولم ينتبه الى تطور أوضاع المسلمين الذين
استفاقوا من زهول الصدمة الاولى ، فاتحدوا بعد فرقة ، واستقوا بعد
ضعف وخذلان .

ذلك هو كما يقول البير شامبدور : « الفارس الذي لا يعرف الخوف
ولا يملك الضمير ، والذي قاد مملكة الفرنجة الى اسوأ المغامرات ، فتحمل
امام التاريخ أفدح المسؤوليات »

أما المؤرخان م . ج . كينغ وك . م . سيتون ، فقد وصفه الأول
بقوله : « انه نموذج للفارس اللص في عصره ، اتصف بالجنح وعدم
الوقار والقدر والوحشية والتعصب الاعمي ، ولم تقلح الخمس عشرة

سنة التي قضاها أسيراً في حلب في تعديل سلوكه او تهذيبه ، وقال الثاني فيه : ولم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون ببيادى الفروسية ، وانما كان لا يصلح الا للسلب والنهب وشن الغارات على الابرياء والمسالين^١ .

واذا كان هذا هو رأي المؤرخين الغربيين في رينودى شاتيون ، فاننا لا نستغرب قول أبي شامة فيه انه «أعذر الفرنجية واخبثها ، وأفحصها عن الردى والرداءة ، وانقضها للعوائق المحكمة والأيمان المبرمة ، وأنكتها وأخبثها^٢ .»

لقد راودت رينودى شاتيون الأحلام بالسيادة على البحر الاحمر وغزو مكة والمدينة ، فبدأ خطته تلك بالاستيلاء على العقبة وحمل اجزاء السفن حتى ذلك الخليج حيث ركبت وأنزلت الى البحر فاستولت على جزيرة القلعة ، واغارت على الموانئ المصرية ، ونهبت بعض المراكب التجارية ، ثم انتقلت الى شاطئ الحجاز «فمظم البلاء وأعطل الداء ، وأشرف أهل المدينة النيوية منهم على خطر عظيم^٣ ، وكان صلاح الدين كما ذكرنا في الفصل السابق في حلب فاسرع الملك العادل الى انشاء اسطول قوي في البحر الاحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ فطارد مراكب الفرنجة واستولى عليها وأسر من فيها . ثم وافى العادل اخاه صلاح الدين الى حصن الكرك وكان قد زحف اليه وحاصره ونصب عليه سبع منجنيقات لقذفه بالحجارة ليلاً ونهاراً ، الا انه ما لبث ان

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٥ نقلًا عن : King: The Knights-Hospitallars, p.111

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٥٦

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥

تمخلى عنه وعاد الى دمشق حين علم بتجمع الصليبيين لدفعه عن الكرك .

وقد عاود صلاح الدين حصار الكرك بعد ذلك مرات عديدة وفي سنوات متعاقبة ولكنه لم ينل منه غرضاً^١ ، لمناعته وقوة تحصينه ، فقد كان ذلك المعقل الهائل من المناعة بحيث سمى الناس «صخرة الصحراء» . ومن اطرف ما حدث سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م ان السلطان كان يحاصر الكرك للمرة الخامسة ، واخذت المجانيق تدك بجاراتها أبراج الحصن وأسواره وستائره حتى تهدمت ، ولم يحل دون دخول المسلمين الى الحصن إلا خندق واسع يبلغ عمقه ستين ذراعاً ، ولا سبيل الى اجتيازه الا بطمه وردمه . فأمر صلاح الدين بضرب اللبن وجمع الأخشاب لبناء سرداب تحت الخندق ، ومرعان مسا بنى العسكريون ثلاثة سرايب مسقفة بالخشب ، اتخذوها طرقات آمنة يسرون بداخلها الى سور الحصن ، وسارع المسلمون الى ردم الخندق واستبشروا بالعمل والنصر^٢ ، الا انهم ما لبثوا أن تلقوا أمراً بوقف العمل ، وتمخلى المقاتلون عن تلك الفرصة التي كادت تتيح لهم الاستيلاء على الحصن .

ذلك ان اتينيت زوجة رينو دي شاتيون كانت تحتفل بزواج ابنها همفري (ربيب رينو) من الاميرة ايزابيلا شقيقة بلدوين الرابع ملك القدس ، فطلبت سيدة الحصن من صلاح الدين أن يمنحها هدنة قصيرة حتى تتم حفلات الزواج ، وأرسل رينو الى السلطان هدية من حلوى العرس معتذراً بأن الوقت لم يسمح له بأن يقدم لضيفه ما يليق به ، فبادر صلاح الدين الى وقف القتال ، بينما انتهز دي شاتيون الفرصة

١ - السلوك ج ١ ص ٨١ - ٨٢

٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٥٣ - ١٥٤

لطلب النجدة من القدس ١

وما هو صاحب الكرك يعمد مرة اخرى الى نقض الهدنة ومعاودة الغزو « لأن ذلك الفارس اللص - كما يقول غروته - كان لا يستطيع الحياة دون أن يسرق وينهب ١ ، فينصب كميناً لقافلة متجهة من القاهرة الى دمشق علم انها تحمل نفائس ثمينة و ثروات طائلة ، ويستولي عليها ويلقي بأفرادها أسارى في حصن الكرك .

وقد بادر صلاح الدين أول الأمر الى الاحتجاج لدى رينودى شاتيون ، ثم الى جان دي لوسينيان ، مذكراً بمعاهدة السلام ، ولكن صاحب الكرك ابي الاصغاء الى احتجاج السلطان واستخف بتهديده ، ورفض أوامر ملك القدس بإطلاق سراح الأسرى واعادة ما سلبه منهم ، كما عرض من قبل عن طلب بمائل لبلدوين الرابع حين نقض المعاهدة الأولى ، فاشتد غضب صلاح الدين ، واقسم لينتقم منه شر انتقام ، واعتبر عدوانه على القافلة وعجز لوسينيان عن تسوية الأمر ، نقضاً للهدنة ، وقرر اعلان الحرب على مملكة القدس ٢ .

ولعل صلاح الدين كان يعتقد بأن الحرب بينه وبين الصليبيين قد تقتصر على مملكة القدس وحدها ، فقد رأينا أن ريمون الثالث أمير طرابلس كان على صلات ودية بالسلطان ، أما بوهيمند الثالث أمير

١ - Hist. des Croisades , II, p. 778

٢ - يذهب المؤرخون الغربيون الى ان اخت صلاح الدين كانت بين افراد القافلة ، ويعلمون ذلك سبباً للغضب الشديد الذي استولى عليه ودفعه الى الانتقام ، وليس في المصادر العربية ما يؤكد ذلك أو يشير اليه .



فارس من المسلمين في عهد الحروب الصليبية

انطاكية فقد جدد الهدنة المعقودة بينها ، وظل اميناً لها حين نشبت المعركة الكبرى . والواقع ان شؤون الحب كانت قد شغلت بوهيمند عن شؤون الحرب ، فتزوج سرأً بامرأة تدعى اورجيليز الى جانب زوجته البيزنطية تيودورا كومنينوس ، ثم تزوج امرأة ثالثة تدعى سييل دى بورزي كانت ترأس صلاح الدين وتطلعه على أوضاع بلادها ١ ، ويقول ابو شامة في ذلك : « وكانت امرأة ابرنس انطاكية ، وتعرف بدم سييل ، في موالة السلطان عيناً له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على اسرارهم ، والسلطان يكرمها لذلك ويهدي اليها انفس الهدايا ٢ ، وقد أغضب سلوك بوهيمند البطريك اميري فأصدر بحقه قرار الحرمان لاقترافه جريمة تعدد الزوجات .

وقد حال المرض دون صلاح الدين وخوض المعركة الكبرى في تلك السنة (٥٨٢ هـ ١١٧٦ م) ويبدو انه خشي ان يقضي عليه المرض فتنهار المملكة المترامية التي بناها بكثير من الجهد والنضال ، فاوصى بولاية ابنه العزيز عثمان على مصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر ، وبولاية ابنه الملك الأفضل على الشام بكفالة عمه المعادل صاحب حلب ، وشاع أمر هذه الوصية ، فسرت أناساً واغضبت آخرين ، ويروى ابو المحاسن ان علاء الدين سليمان بن جندر أحد امراء حلب لقيه مرة ، فقال له : بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تنفذ ، كأنك كنت خارجاً الى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك ، أما تستحي ان يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة ؟ فقال صلاح الدين وهو يضحك : وكيف ذلك ؟ قال ابن

١ - Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. p. 145

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

جنود : اذا أراد الطائر ان يعمل عشا لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه ، وأنت سلمت الحصون الى اهلك وجعلت اولادك على الأرض ، هذه حلب وهي ام البلاد بيد أخيك ، وحماة بيد ابن أخيك ومحض بيد ابن عمك ، وابنك الأفضل مع تقي الدين ابن عمك بمصر يخرجك متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد ! فقال صلاح الدين : صدقت ، فاكم هذا الأمر ١ ،

وما كاد يشفى من مرضه حتى عمد الى تعديل في المناصب فاستدعى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي من مصر لمنافرة بينه وبين ابن عمه تقي الدين عمر ، وافرّ ولده الظاهر على حلب وفي خدمته الشحنة (رئيس الشرطة) حدام الدين بشارة والوالي عيسى بن بلاشوا . وشق ذلك الأمر على الملك المظفر تقي الدين عمر وحدثته نفسه بتملك الديار المصرية وامتنع عن العودة الى الشام وهم بملاحقة مملوكه قراقوش الذي استولى على برقة وبلاد المغرب ، فسير اليه صلاح الدين عيسى الهكاري لمراجعته ، وكان عيسى مهاباً مطاعاً بين الجنود المصرية فنجح في اقناع تقي الدين عمر بالخروج الى دمشق ، حيث استقبله صلاح الدين استقبالاً حاراً بمرج الصفر وأقطع حماة ومنبج والمرة وميافارقين ٢ ، اما شقيقه الملك المعادل فقد ولاء دمشق ليكون على مقربة منه يفيد من خبرته ونصحه .

لقد كان نقض رينو دي شاتيون لشروط الهدنة ، في سنة ٥٨٢ هـ ١٨٦ م ، فلما كانت السنة التي تلتها ، وتأهب امير الكرك لاقتناص

١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠ - ٣١
٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٦٨

الحجاج وهم قافلون ، أعلن صلاح الدين الجهاد في جميع أنحاء بلاده ، واستنفر الناس ، وأثار الرأي العام ، وطلب الجند من مصر والشام وحلب والجزيرة وديار بكر ، وجاء بالفقهاء والرواة لتلاوة القصص الحماسية وأخبار الغزوات الإسلامية في أوساط الجيش والمجالس العامة ، وخرج بصحبة ولده الملك الأفضل فأبقاه عند رأس الماء قرب دمشق في انتظار تجمع قوى الشام والجزيرة ، وعسكر هو في قصر السلام بالقرب من بصرى ، وظل هناك حتى مر الحجاج بسلام .

ولا بد من الإشارة هنا الى الوضع الاستراتيجي للبلاد العربية آنذاك ، مستعينين بما كتبه الدكتور نظير سعادوى^١ الذي تخصص في هذا الموضوع ، فقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على السواحل السورية والفلسطينية التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج ، وعلى سلسلة القلاع الضخمة المبتدئة من ذعيرة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك المعاب من الكرمل وبيت جبريل وداروم ، وخلف هذا الخط الأول القلاع الممتدة من شقيف ارنون الى صفد والقسطل ، وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين ، ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة : انطاكية وطرابلس وعكا وصور وطرسوس والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي اطراف القوى الصليبية من ناحية البحر ، ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبرية ، وامتازت هذه الحدود الصليبية بأن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية . أما الخصائص الاستراتيجية الإسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط

١ - المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٣

مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة ، ففي الشمال حلب وحماة ، وإلى الشرق منها الموصل وقلع الجزيرة ، وكلها مدن حصينة ، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب والنوبة واليمن . ثم إن القاهرة غدت منذ غادرها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م قاعدة لتدريب الجند وإعداده وتكوينه ، وبها تُرسل الجرحى والأسرى ، ومنها يُطلب الامداد لسد النقص في ميادين القتال . على حين غدت دمشق منذ استقرارها صلاح الدين مسرحاً لنشاط سياسي ، وساحة لحركات عسكرية مستمرة ، ومعملاً لدراسة الخطط الحربية ، وآية ذلك قول صلاح الدين في وصف دمشق وقتذاك ، بأنه ما بقي له دار إلهي حق « يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين » .

وقد انتظر صلاح الدين حق واقفاه جيش مصر بقيادة الملك العادل ، فضعه إلى جيش سورية ، وسار بها إلى قلعة عشترة حيث أخذ بعدة العدة للموقعة الحاسمة بينه وبين الصليبيين ، بينما الجيوش العربية والإسلامية تلتحق به من جميع أنحاء مملكته ، والاسطول المصري يتجه إلى شواطئ الفرنجة بقيادة الأمير لؤلؤ استعداداً للجهاد .

الفصل السادس عشر حطين معركة التاريخ

كانت اصابع الفجر الوردية تمزق عتمة الليل ، والنجوم تتلاشى واحدة بعد اخرى ، ثم ما لبث ستار الظلام أن انحسر عن سهول ممتدة الأطراف تتخللها تلال صخرية تنحدر من الشمال الى الجنوب أشبه بجيش اسطوري يزحف في أرض الأساطير ، وظهر في الشرق شعاع قرمزي ضئيل ما زال يمتد ويتركز حتى بدا وكأنه سيل من هيب ثم انبثق منه قرص الشمس كركبة ذهبية تمخر عباب الهيب ..

وكان لسهول الأردن في ضوء النهار منظر رائع يُشيع في النفس الرهبة والخشوع ، لشدة اتساعها وفرط جمالها وقوة الصمت فيها ..

وبينا كان افراد المعسكر ينهضون لاستقبال اليوم الجديد ، كان قائد المعسكر ، وهو الرجل الوحيد الذي لم ينم في تلك الليلة ، جالساً أمام خيمته ، وقد التفّ بعباءته ، واصابعه تعبت بالرمال ، وهو يرسل الى الافق البعيد بين حين وآخر ، نظرات شاردة لا تبحث عن شيء ولكنها تدل على أن في صدر صاحبها عاصفة من القلق العميق .

كان ذلك في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ ٢٥

حزيران (يونيه) ١١٨٧ م ، وما إن ارتفع الضحى حتى كان صلاح الدين الأيوبي يستعرض جيوشه اللجبة ، وينظمها ، وينفخ فيها روح الحماسة والجرأة استعداداً لليوم الفاصل ومعركة المصير

وكان عدد الفرسان اثني عشر الف فارس وعدد المشاة ثلاثة عشر ألفاً ، وذلك عدا الجيش الاحتياطي والمتطوعة وهم كثيرون^١ .

وكذلك اجتمعت جيوش الفرنجة ، وتنادى امرأؤهم وتناسوا خلافاتهم ، وأرسلوا الى طبرية طائفة من أصحاب الرأي فيهم على رأسهم جوزيف أسقف صور وبالبيان صاحب بيت جبريل ورينولد صاحب صيدا لاسترضاء ريمون الثالث ذي اللحية البيضاء ، فقبل وساطتهم وعاد الى صفوفهم ، ولا سيما حين « هددوه بالحرمان وفسخ زواجه^٢ » .

وعقد الملك غي دي لوسينيان مجلساً سأل أمراءه فيه ان يرشدوه الى ما ينبغي له عمله أمام استعداد صلاح الدين لمقاتلتهم . فأشار ريمون عليه بأن يحشد جيشه في صفورية لأنها ملائمة للعمليات الدفاعية ، فاحتشد في هذه البلدة اثنان وعشرون الف مقاتل بين راجل وفارس^٣ . وهناك من يذهب الى ان عدد المقاتلين بلغ الخمسين^٤ او الستين ألفاً^٥

وفي يوم السبت عبر صلاح الدين بجيشه نهر الاردن جنوبي طبرية ، وقد آثر هذه الناحية اعتماداً على صداقته مع ريمون ، وبات برجاله تلك

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦

٢ - الناصر صلاح الدين الأيوبي لماجد ص ١١٥

٣ - Les Colonies franques de Syrie aux XII et XIII siecles, p, 340

٤ - تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ج ٦ ص ١٠١

٥ - L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, p, 115

الليلة عند الاقحوانة ، وارسل العيون لمعرفة مواقع العدو ، ثم سار الى تل كفر سبت جنوبي غربي طبرية محاولاً الاشتباك مع الفرنجة ، فلم ينهضوا لملاقاته ، فترك حينئذ في ذلك المكان نخبة جيشه ، وزحف بالقسم الباقي منه الى طبرية نفسها فاستولى عليها في ٢٤ ربيع الثاني ٢ تموز (يولييه) ولكن البارونة ايشيف زوج ريمون امتنعت في قلعة طبرية مع اولادها وحاشيتها ، وأرسلت الى الملك غي في صفورية تدعوه الى انقاذها ؛ فجمع هذا مجلس امرائه واستشارهم فيما يصنع ، فاشار ريمون بعدم مهاجمة المسلمين كي لا يتخلى الفرنجة عن مواقعهم الحصينة القريبة من مراكز المياه ، وقال إن صلاح الدين لا بد من ان يرحل عن القلعة اذا لم تتقدم اليه الفرنجة ، وان ضياع طبرية اذا تم لا يضير المملكة اللاتينية في شيء ، فخالفه رينو دي شاتيون وجيرار دي ريدفور مقدم الداوية وقالوا له : « قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك انك تريدهم وتقبل اليهم ، وأما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الخطب » فاجاب . « ان انقاذ طبرية يعني شخصياً اكثر من أصعب السمو الامراء ، فهي خاضعة لسلطاني وفي داخلها امرأتي واولادي وثروتي ، ولكني لا ارى ما يراه الزملاء من وجوب مهاجمة العدو في طبرية ، لاننا اذ نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه صلاح الدين لنا ، وهو الاندفاع في هذه المنطقة الصحراوية القاحلة في شهر تموز (يولييه) . وعندني ان نترك قوى العدو وشأنها في طبرية لأن سقوط هذه المدينة وقلعتها لا اهمية له من الوجهة الحربية . فان غرض السلطان من مهاجمتنا هو استدراجنا الى الخروج من صفورية لنهلك عطشاً وبجد السيف في الصحراء القاحلة . أما اذا لزمنا موقفنا الدفاعي

الحالي فان صلاح الدين يضطر الى الجلاء عن طبرية فندخلها دون قتال^١ .
ان جيش صلاح الدين اكبر من جيشكم وفرسانه امهر من فرسانكم ،
فامكثوا هنا وانتظروا هجومه تناولوا الفوز . دعوا طبرية يصيبها ما
يصيبها وفيها أهلي وثروتي ، واذنذوا جيشكم الذي هو آخر رجاء
للفرنجة في الشرق ! »

ولكن نصائح ريمون الحكيمة ذهبت في الهوان ، وأنكر زملاؤه أن
يصدر عنه هذا الرأي وهو صاحب طبرية وزوجه هي التي تستغيث ،
وظنوا فيه الخيانه لسابق صداقته مع السلطان

وما زالوا حتى حملوا الملك على إصدار أمره للجيش بالزحف عند الفجر
للاقاء الأعداء ، فانحدروا نحو طبرية كالجبال المتحركة ، وواصل هذا
الجيش اللجب زحفه بين الرمال والصخور . تحت أشعة الشمس المحرقة ،
وكان معظم افراده يسرون مكرهين ، بنفوس يعصف بها القلق واليأس ،
لانهم لا يجهلون الخطر المحدق بهم من كل صوب .

وعلم صلاح الدين في غداة اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني
٣ تموز (يولييه) بتحرك جيش الفرنجة نحو طبرية وكان السلطان
انما يبغى اجتذابهم اليه ليحاربهم وجهاً لوجه في معركة مكشوفة وأرض
خالية من كل شيء ، ولا سيما اذا وصلوا اليها متمبين ، وكان هو قد ادّخر
جهده وجهد رجاله^٢ ، فلما قيل له انهم قد تركوا مواقعهم في صفورية
لمهاجته هتف فرحاً :

١ - L'Estoire d'Eracles , II, pp, 49 51

٢ - الكامل ج ١١ ص ٤٣٢ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ ، الحركة الصليبية

ج ٢ ص ٨٠٤



طرابلس وجزيرة الطرابلس

- المحدثه .: هذا ما كنت ارجوه !

وما لبث أن أضرم النار في طبرية ، ورجع الى حيث ترك نخبة جنوده غربي المدينة ، وأمرهم بالاستيلاء على موارد الماء لندرته في تلك القلاة القفر . فلما وصل الفرنجة الى ذلك الأتون الذي استدرجهم اليه بين لوبين وحطين ، بعد أن اجتازوا ستة عشر ميلاً ، وقد أدرهم التعب وأجهدهم العطش ، لوعورة الطريق وحرارة الجو وقلّة الماء ، تعذر عليهم الحصول على الماء لإرواء ظمئهم ولم يكن معهم منه الا القليل الذي يحملونه في جعبهم ، وحملت عليهم جيوش المسلمين وهم على هذه الحال ، فنالت منهم منالاً عظيماً ، وهي تحمل تارة على طليعة الجيش الذي يقوده الكونت ريمون ، ثم ترتد قبل ان يتمكن الفرنجة من الالتحام معها ، وتلتف تارة لتهاجم مؤخرته حيث يسير فرسان الهيكل وفرسان المستشفى وفصيحة رينو دي شاتيون ، وتنقض تارة اخرى على القلب حيث يسير الملك وقد احاط به كبار الامراء .

واستولى التعب والاعياء على الرجال والجياد قبيل الغروب ، وصاح الجنود في قوادهم يطلبون الماء وليس في المكان ماء ، ووقف الكونت ريمون امام الملك يتوسل اليه أن يأمر بمواصلة الزحف ، كي يشق الجيش المجهد طريقاً الى البحيرة ، فيجد الراحة والطمأنينة ، ويستعيد نشاطه وعزيمته . ولكن غي دي لوسينيان أجاب وهو أشد ما يكون حيرة وقلقاً ، انه لا يستطيع اصدار مثل ذلك الأمر ، لأن الجنود لا يريدون السير خطوة واحدة في هذا اليوم .

وسارع الفرنجة الى تلال حطين فلاذوا بها وباتوا فيها على اسوأ حال ، وزحف السلطان بجيشه ليلاً فأحاط بتلك التلال من جميع جهاتها ، ورتب نظام الجيش ، وأوقف كل جماعة في مكانها استعداداً للمصاف .

وفي فجر اليوم التالي (٢٦ ربيع الثاني ، تموز - يوليه) وهو يوم
جمعة ، وكان صلاح الدين يتخير لحروبه هذا اليوم لتفاؤله به ، التحم
الجيشان على بعد ميلين من حطين ، وكان المسلمون هم البادئين بالقتال ،
إذ أخذوا يطلقون على العدو سهامهم فتجندل الفرسان والجياد ، حتى
عمت الفوضى في صفوف الفرنجة ، ثم انقصوا عليهم انقضا الصخور
المنحدرة من الجبال وه. يصبحون ويهللون ، واخذوا يقاتلونهم وجهاً
لوجه ، فالتحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت العصي ، وارتفع
الصليل والصهيل والصراخ ، وصلاح الدين يكرّ ثارة على هذه الجماعة ،
ويغير ثارة اخرى على تلك ، او يعود الى صفوف جنوده ينظمهم ويحثهم
على الإقدام والاستبسال .

ولقد ابدى الفرنجة ضروباً مدهشة من الشجاعة والثبات ، ولكن
الشمس كانت تملو في كبد السماء ، ووهج الظهيرة يشتد في تلك الأرض
الرملية الخلاء ، والمسلمون يشعلون النار ويلقون بها عليهم فيضاعف لها
ودخانها من اضطرابهم وتضعفهم وقد اجتمع عليهم « غار الضرام » وثار
الأوام ، وثار السهام^١ ، ثم يكرون عليهم فيحاولون صدّهم مستعدين
شيئاً من عزيمتهم وإقدامهم فلا يستطيعون الى ذلك سبيلاً ، حتى بلغوا
اقصى دركات العياء والكلال ووهنت قواهم وهناً عظيماً ، فاندفعوا
يريدون الوصول الى بحيرة طبرية ليرووا بجائها ظمأهم ويستعيدوا
نشاطهم ، ولكن صلاح الدين اسرع فوقف امامهم كالسد المنيع ممثلة
من الفرسان . فجمدوا في اماكنهم فوق التل مترددين حائرين ، وقد
احاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، ومليكم غي يستثيرهم
ويدعوهم الى الهجوم ، فيجيبونه بانهم يضطرمون عطشاً ولا يستطيعون

١ - كتاب الرضتين ج ٢ ص ٧٧

الحرب مع هذه اللظى المستعرة في جوائنهم ، والشمس المتوهجة تعشى لها عيونهم ، والرمال المحرقة تلتهب تحت اقدامهم

وكرت عليهم وهم في تلك الحال من الحيرة والتردد والقنوط ، فصيلة من فرسان المسلمين فقتلت منهم طائفة واسرت طائفة اخرى ، والقى كثير منهم اسلحتهم مستسلمين من غير قتال بينا شهر بعضهم السلاح في وجوه رفاق لهم لاستلابهم ما معهم من قرب الماء !..

ولم يبق للفرنجة اخيراً إلا أمل واحد عقده على ريمون قائد الفرسان ، فأمره الملك غي بالهجوم ، فأنحدر هو وفرسانه يتدفقون كالسيل ، فتراجع أمامهم تقي الدين عمر عامداً ، وظن اولئك انهم قد فتحوا ثغرة في صفوف المسلمين فاندفعوا فيها متحمسين ، واذا بتلك الثغرة قد سدّت ، وانفصلت فرقة ريمون عن بقية الجيش .

ويُلقي مؤرخو الفرنجة كثيراً من علامات الاستفهام حول موقف ريمون ، ويتساءلون عما اذا كان قد سبق له الاتفاق مع صلاح الدين على فتح تلك الثغرة في صفوف المسلمين ، كي ينفصل غيرها عن قومه ويخرج من المعركة ^١ ، بينما يرى مؤرخو المسلمين انه عندما رأى امارات الخذلان تحمل بالفرنجة وأيقن بهلاكهم أراد الفرار بأية وسيلة « فحمل حملة مكروب » وعندئذ فتح له تقي الدين عمر طريقاً خرج منه ولما خرج « التأم الصف ^٢ » .

وبعد أن خرج ريمون وأفراد فرقته من المعركة ، أو أخرجوا

١ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. pp, 154 , 163

٢ - النوادر السلطانية ص ٦٢ ، الكامل ج ١١ ص ٣٦٢



(21)

22

منها ، بدأ قواد الفرنجة يجيئون مستسلمين ومن ورائهم أعداد هائلة تتهاقت على الاسر ، وتفتطم في حباله ، حتى لقد رؤي جندي من جنود حوران يجرّ في حبل خيمة نيّفا وثلاثين أسيراً أخذهم وحده ، ونظّمهم في الحبل وجرم به ، لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان ، ثم رؤي المائة والمائتان قد اجتمعوا في مكان واحد تحت حراسة جندي فرد^١ .

وبقي الملك على التل وليس حوله الا جماعة من الامراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود ، وقد التفوا جميعاً حول خباء غي لحمايته ، فحملت عليهم ثلة من فرسان المسلمين فردّوها ، ثم كرت عليهم ثانية فردّوها مرة اخرى .

وكان صلاح الدين يراقب هذا المشهد على مقربة من التل الى جانب ابنه الافضل وهو حينذاك في سن الحادية عشرة ، فصرخ يحنوده صرخة غاضبة مثيرة ، فاذا بهم يعاودون هجومهم بحمية اكبر واندفاع أشد ، واذا بنخيمة الملك الحمراء تهوي ويستولى المسلمون عليها^٢ ويقع الملك في وسطها كما يقع الطائر في الشرك ، فيستسلم جميع الامراء والنبلاء الفرنجة ، وفي ظليعتهم مليكهم غي دي لوسيليان ، وكان بينهم رينو دي شاتيون امير الكرك ، وجفري أخو الملك ، وهوغ صاحب جبيل ، وابن همفري ، وابن صاحب اسكندرون ، وصاحب مرقية ، وجيرار دي ريدفور مقدم الداوية ، وظائفة من كبار الفرسان .

ولما رأى ريمون الثالث أمير طرابلس ، وكان يراقب المعركة من بعيد ، استسلام الملك وحاشيته ، آثر النجاة بنفسه ، وأطلق لجواده

١ - أيام صلاح الدين ص ١٩٧ ، النوادر السلطانية ٦٣

٢ - الكامل ج ١١ ص ٣٦٣ ، الفتح القسي ص ٢٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٠

العنان ، وظل هائماً على وجهه مع شردمة من فرسانه حتى وصل الى
صور سالماً ، فمكث فيها قليلاً ثم غادرها الى طرابلس حيث مات بعد
ثلاثة اشهر في غمرة طاعية من الحزن واليأس ، إذ شاع بين قومه انه
قد خان رفاقه وتخلي عنهم في وقت حاجتهم اليه .

واستقبل صلاح الدين أسراه العظام في خبائه واكرمهم ، وكان
الملك غي متداعي القوى وقد أوشك هناك على السقوط مفشياً عليه لما
قاله من الظماً والإعياء ومرارة الاخفاق ، فأسرع اليه صلاح الدين فأمسك
به وأجلسه الى جانبه ، وقدم اليه كأساً من الماء المثلج المعطر شرب الملك
نصفها وأعطى رينو دي شاتيون النصف الباقي فشربه ، ففضب صلاح
الدين وقال لترجمه : « قل للملك انه هو الذي سقاه وليس أنا !... »
إذ كان من جميل عادات العرب أن الأسير اذا أكل وأشرب شيئاً في
بيت من أسرهم أمن ، فقصده السلطان بقوله هذا ان الملك غي آمن وأما
رينو فلم يأمن^١ .

والتفت السلطان الى رينو وأنشأ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه
المواثيق والعهود ، فقال رينو : « لقد جرت بذلك عادة الملوك^٢ !... »
ثم قال له : « ترى لو ركبت أنا رأسي وسلكت مسلكك ثم وقعت
أسيراً في قبضتك ، فأبي المواقف يكون موقفك مني ؟ »

فأجاب رينو دي شاتيون ساخراً متحدياً : « أقطع رأسك دون
تردد ! »

١ - النوادر السلطانية ص ٦٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٩

٢ - مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤

فانتفض السلطان وصاح به غاضباً نأثر الأعصاب : « يا لك من وقع !
أفي نخمي وتحت رحمتي تجيبني بهذه اللهجة ! »

وطعنه بسيفه في كتفه ، وانقض عليه مرافقو السلطات فأجهزوا
عليه ^١ أما الملك غي ومن معه من النبلاء والفرسان فقد أرسلهم الى دمشق
آمنين مكرمين ^٢ ، وأبقى اسقف الناصرة مع مرضاهم كي يتولى العناية
بهم حسب تقاليدهم . وقدر المؤرخون عدد الأسرى جميعاً بثلاثين ألفاً
والقتلى ثلاثين ألفاً أيضاً ^٣ .

ولم يصب الفرنجة ، ولا وقعت بهم كربة منكورة ، منذ خرجوا
الى الشام في سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٦ م ، اشد وأدهى مما وقع بهم في
حطين ^٤ . وقد ارجع بعض المؤرخين هذا الانتصار الى كثرة عدد
المسلمين ، في حين رأى آخرون ان انتصارهم انما يرجع الى تنظيم
قواهم على يد صلاح الدين ، واتحاد هدفهم بالعمل على استنقاذ اراضيهم
المحتلة ، على عكس الصليبيين الذين اصبحوا عناصر يسودها الاختلاف ،
ليس لها اهداف محددة غير الطمع والتنافس فيما بينهم ، هذا فضلاً عن
التكتيك الحربي الرائع الذي استخدمه صلاح الدين ، يفهمه للأرض التي
يجارب فيها ^٥ .

أما رينه غروسه فيقول : « يجب الا ننحو كثيراً باللائمة على غي

١ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 158

٢ - Hist, des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, II, p. 798

٣ - التايزخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨٤ نقلاً عن :
Belok : The Crusades. p. 289 , Lamb ; The Crusades . p. 55

٤ - ميجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ ، ذيل النوادر ص ٢٩٠

٥ - الناصر صلاح الدين الأيوبي ص ١١٨

دى لوسينيان في موقعة حطين التي انحطم فيها جيش الفرنج ، لأن
الحالة التي وضعت فيها وحدة امبراطورية صلاح الدين ، الفرنج ، كانت
عسيرة جداً ، وعاجلاً أو آجلاً كان لا بدّ لهم من هذا المصير ، فأسرّ
طبقة الاشراف في هذه المستعمرة التي لم تكن الا « مستعمرة لرجال
الادارة » كان الاستئصال التام لشأفة الاستعمار هناك دفعة واحدة .

وقد طرب المسلمون لهذا النصر العظيم والفتح المبين وابتهج المجاهدون
وتغنى به الشعراء ، ومن ذلك قول ابن الساعاتي يخاطب صلاح الدين :

جلت عزماتك الفتح المبينا	فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيدة الاسلام لما	غدا صرف القضاء بها ضمينا
يقاتل كل ذي ملك رياء	وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت في وجنة الأيام خالاً	وفي جيد البلا عقداً ثمينا
فيا لله كم سرّت قلوباً	ويا لله كم أبكت عيوناً
وما طبرية الا هدى	ترفع عن أكفّ اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء	وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا	يصد اللبث أن يلج العرينا
هناك ندي أهل الأرض طراً	سواك ، ومعقل أعبا القرونا
قست حق رأت كفوّاً فلانت	وغاية كل قاس ان يلينا
قلو ان الجهان يطيق نطقاً	لناداك ادخلوها آميننا
جعلت صباح أهلها ظلاماً	وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء	يخضون الحديد مقنعينا
ليضك في جماجمهم غناء	لذيد علم الطير الحنينا

تتميل الى المثقفة العوالي
يكاد النقع يذهلها فلولا
فكم حازت قدود قناك منها
وغيد كالجأذر انسات
ولما باكرتها منك نعمى
أعدت بها الليلالى وهي بيض
فليس بعادم مرعى خصيبا
فلا عدم الشأم وساكنوه

فهل أمست رماحا أم غصونا
يروق القاضبات لما هدينا
قدوداً كالفنا لونا ولينا
كفيد نذاك أبكاراً وعونا
هتان تفضح الغيث الهتونا
وقد كانت بها الأيام جونا
أخو سغب ولا ماء معيننا
ظبي تشفي بها الداء الدفيننا

الفصل السابع عشر تحرير بيت المقدس

لم يسبق للفرنجة مذ وطأت اقدامهم بلاد العرب ، أن عانوا مثل الخسارة الفادحة التي كابدوها في موقعة حطين . وقد ضاعف من أهميتها ونتائجها ، أسر ذلك الفريق الكبير من الأمراء والقواد والفرسان وفي طليعتهم الملك غي دي لوسيفيان ، حتى لم يبق لديهم من يصلح لولاية أمورهم وقيادة جيوشهم . ومن ثم لم يكن تقدم صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك تقدماً سريعاً في جهات فلسطين وجنوب لبنان ، حرباً بالمعنى الصحيح ، بل كان تتمتع لما أحرزه من نصر مبين في يوم حطين ، إذ كثيراً ما كانت القلعة أو المدينة التي يشخص إليها تسارع إلى الاستسلام وطلب الأمان لمجرد وصوله أو بعد مقاومة يسيرة محدودة ، لضعف دفاعها وغياب قادتها ، ولما غدا لاسمه من الرهبة في قلوب الفرنجة ، ولكنها رهبة يمازجها الإعجاب والاحلال لما اتصفت به فتوحاته من النبيل والشهامة والمروءة ، كما كان لتسامحه مع الصليبيين وحسن معاملته لأسراهم أثرهما الكبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تذكر .

لقد تسلّم السلطان حصن طبرية ، وأكرم الكونتيسة ايشيف زوجة

ريمون الثالث « وأخرجها من حصنها بالأمان ، ووفى لها وللفرسان بنيتها بشروط الايمان ، فخرجت بما لها ورجالها ونساءها ، وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بما لها وحالها ^١ » ثم سار نحو عكا فاحتلها دون مقاومة إذ ما كاد يشارفها حتى أرسل اليه صاحبها جوسلين الثالث دي كورتناي مفاتيح المدينة ^٢ مشروطاً تأمين الفرنجة على ارواحهم وأرزاقهم « فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرتهم بين الأقامة والظعن ^٣ » .

وبينا كان صلاح الدين ينظم شؤون عكا ، كانت سراياه تزحف على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والقلعة وسبطية وتبنين فتحتلها جميعاً ، وكانت أخوه الملك العادل سيف الدين يزحف من مصر اجابة لطلبه فيستولي على مجدل يابا وياقا ^٤ .

ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فسلمت بعد حصار قصير . وكان هونغ صاحب جبيل معتقلاً مع غيره من امراء الفرنج بدمشق ، فلما احتل المسلمون بيروت أرسل الى السلطان يطلب منه اطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل ومن فيها من امرى المسلمين ، فقبل السلطان ذلك ، واطلق سراحه وتسلم منه المدينة ^٥ .

لم يتم صلاح الدين منذ موقعة حطين إلا لماماً ، ولم يركن الى راحة ،

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٩

٢ - *Saladin Le plus pur Héros de L'Islam* , p. 166

٣ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٦

٤ - السلوك ج ١ ص ١٩٥

٥ - الفتح القسي ص ٣٥

جل تابع انتصاراته بحكمة وجرأة وبراعة ، حتى استطاع أن يستولي في مدة قصيرة على جميع المدن الكبيرة التي يحتلها الفرنجة في فلسطين وجنوبي لبنان ، ولم يبق في أيديهم منها الا صور وعسقلان وبيت المقدس .

يقول البير شامبدور : « وكانت الخطون الثلاثة التي صمدت وقتاً طويلاً أمام الحصار الصلاحي ، هي حصون شقيف ارنون وصفد وهونين ، ولما استسلمت أخيراً كافأ صلاح الدين حماتها على شجاعتهم بإطلاق سراحهم ، ومنحهم الحرية في الذهاب الى حيث يشاؤون » .

ولقد كان صلاح الدين يترك الصليبيين في المدن والقلاع التي يحتلها احراراً ، مختيراً ايهم بين البقاء حيث هم أو الذهاب الى حيث يشاؤون ، فتجمع معظمهم في صور^٢ ، ثم أقبل الماركيز كونراد دي مونتفرات الماركيس) احد امراء ايطالية من القسطنطينية مع عدد من الفرسان لخلاف نشب بينه وبين عاملها ، وكان يحمل ثروة طائلة وخبرة عظيمة وعزيمة جبارة ، فحفر فيها الخنادق ، وأنشأ الأبراج ، وجدد الأسوار ، ودرّب الجنود ، وقوّى النفوس ، وشحذ العزائم ، حتى أصبحت مركزاً حصيناً للفرنجة يفدون اليه ويحتمون به ويعتمدون عليه ، ثم أضحت قاعدة للحملة الصليبية الثالثة .

ويرى المؤرخون في مجيء الماركيز الى صور ، حادثاً تاريخياً هاماً غير الموقع بالنسبة للصليبيين ، إذ وجدوا فيه زعيماً التقوا حوله وعقدوا عليه آمالهم ، بعد أن ذهب عنهم زعمائهم في واقعة حطين ، وكان في

١ - ١67 - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam , p.

٢ - النواذر السلطانية ص ٤٦٤ السلوك ج ١ ص ٩٧

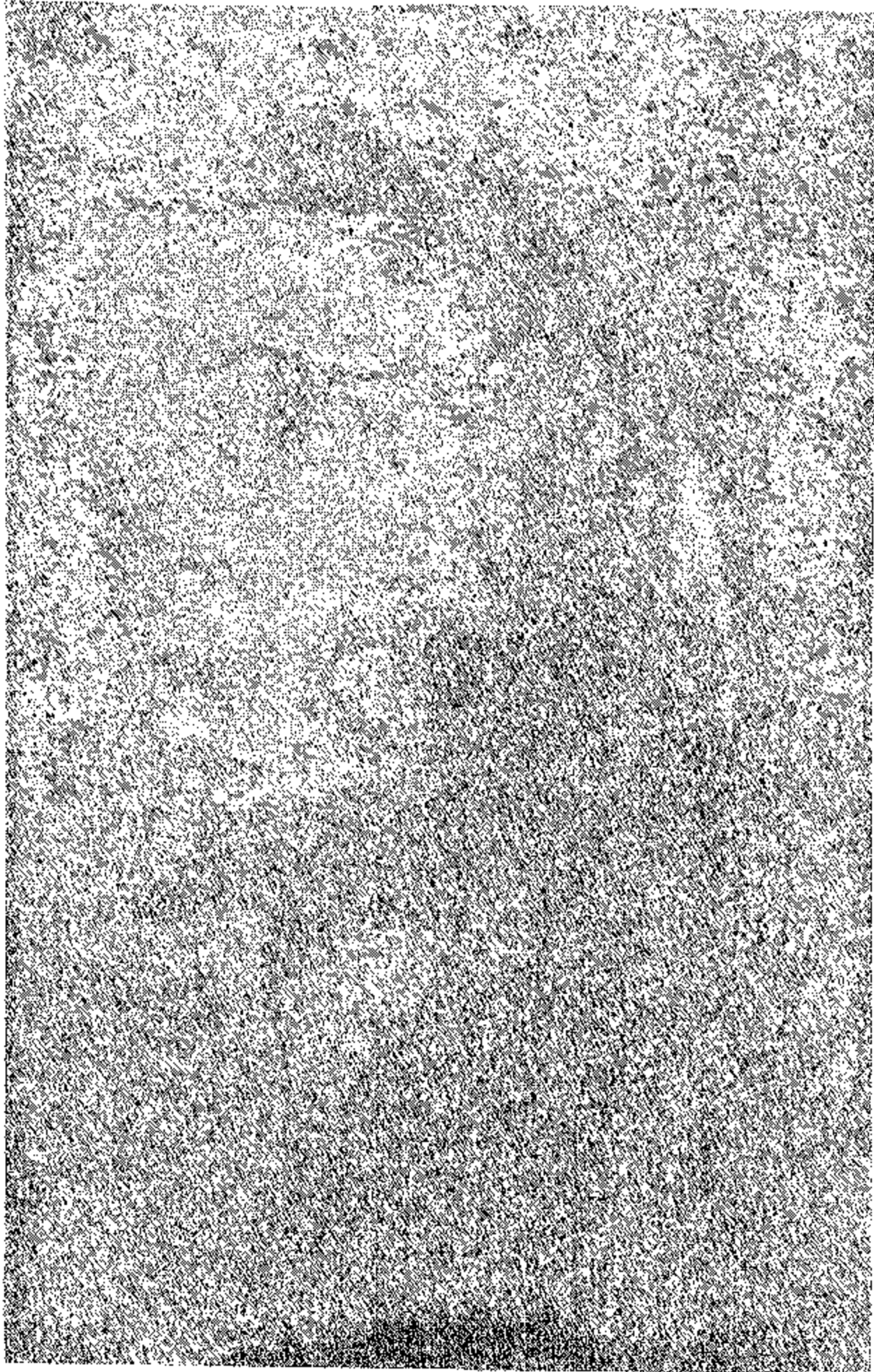
عزم أهل صور مكاتبة صلاح الدين في طلب الأمان وتسليم البلد اليه ،
فلما جاءهم المركيز ردّهم عن ذلك العزم وقوّى نفوسهم وضمّن لهم
حفظ البلد ^١ .

وقد انتبه السلطان بعد فوات الأوان الى تهاونه في أمر صور ،
وأراد أن يحتال على المركيز ليسلمه المدينة ، فأحضر أباه دوق مونتفرات
وكان أسيراً في دمشق ، وعرض عليه ان يطلق سراحه مقابل تسليمه
المدينة ، وهدده بقتله امام عينيه إن هو رفض طلبه ، فأجاب المركيز
انه لا يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور ولو فقد أباه ، وان
والده قد عاش طويلاً فيكفيه ما عمّر ، وليقتله السلطان إذا شاء !
فأعجب صلاح الدين بجواب كونراد وأعاد أباه الى مكانه من الأسر في
دمشق ، الا انه ما لبث ان أطلق سراحه وارسله معزراً مكرماً الى
ابنه في صور ^٢ .

ورحل السلطان عن صور الى عسقلان « باب القدس » فحاصرها هو
وأخوه العادل وولده العزيز عثمان . وأراد ان يعيد تجربته مع حامية
هذه المدينة ، فأحضر الملك غي ، وأبلغ الحامية انه مستعد لاطلاق
سراحه ان هي استسلمت له ، فأبت ذلك ، ورفضت مساعي غي ،
فأعادته الى الأسر ثم افرج عنه بعد بضعة أشهر اعترافاً بمساعيه هذه ،
وشدد الهجوم على المدينة فاستسلمت بعد عدة ايام ، ثم بعث بسراياه
في انحاءها فاستولت على حصون الهيكلين (الداوية) بجنوب فلسطين وهي
غزة والقطرون وبيت جبريل مقابل اطلاق مقدمهم جيرار دي ريدفور ،

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٨٩

٢ - Grousset : Hist. des Croisades, III. p. 18



1974

ثم احتلت الرملة والداروم والخليل وبيت لحم .

حدث ذلك كله في غضون شهرين كان صلاح الدين ينتقل خلالها من ظفر الى اخر ، وكأنه يسابق في ذلك الزمان . وفي نهاية هذه المرحلة القصيرة الحافلة بالانتصارات المعجزة ، غدت طريق القدس مفتوحة امامه ، فسار اليها يحييه وايمانه ، وكلامها قوي عظيم ، فبلغها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢٠ ايلول ١١٨٧ ، لا أنه لم يشأ مهاجمتها فوراً لحرمتها لديه ، ففاوض حاميتها على التسليم ، متعهداً باحترام الاماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية وعواطف المسيحيين ، وكتب لهم في ذلك كتاباً قال فيه : « اني انا نظيركم ايضاً ، واعرف ان القدس هي بيت الله ، ولست آتياً لكي اؤنس قدسيتها بسفك الدماء ، فعليكم ان تدعوها وأنا اكنفيكم أمركم وأهب لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون ان تعملوا فيه ، إلا أنهم رفضوا الدعوة الى السلم ، وأبوا الا المقاومة والقتال

وكان كثير من جنود الفرنجة قد لاذ بالقدس كما لاذ غيرهم بمدينة صور ، إلا أنهم كانوا يفتقرون الى القادة المدربين لأسر قادتهم في موقعة حطين ، واتفق ان باليان ديبلان (ابن بارزان) امير الرملة كان اسيراً لدى صلاح الدين ، فاستأذنه في الرحيل الى القدس ليعود بامراته واولاده ، واقسم ألا يمكث فيها الا ليلة واحدة ، فسمح له السلطان بذلك ، فلما وصل باليان الى القدس ناشده كبار الفرنجة ان يبقى بينهم ويقود جندهم ويحمي عاصمتهم ، فقبل طلبهم متناسياً العهد الذي قطعه على نفسه ، وحين اقبل صلاح الدين وفاوضهم على التسليم رفضوا ان

١ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق لوزنود ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم

ج ٢ ص ٩٠

يجيبوه الى طلبه اعتماداً على الآمال التي عقدها على باليان .

وقد عمد باليان الى تجنيد كل من استطاع من الشبان والصناع والتجار ، واستولى بالاتفاق مع البطريرك على كل ما في كنيسة القيامة من نفائس فضية وذهبية ، وسبكها وحولها الى نقود لتحسين وسائل الدفاع واستئجار المزيد من الجنود^١

وطاف السلطان بمدينة القدس عدة أيام دارساً متفحصاً ، ثم اتخذ جبل الزيتون مركزاً لجنده ، لأنه وجد أسوار المدينة في هذه الناحية اضعف منها في أية ناحية اخرى : فهي إذن اصلح مكان لمهاجمتها منه ، ثم نصب عليها المجانيق ، وضابقتها بالزحف والقتال . وكان فرسان الفرنجة يخرجون كل يوم الى ظاهر البلدة يقاتلون مستبسلين ثم يعودون.

ولما كان اليوم السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢ تشرين الأول ١١٨٧ م ، حمل المسلمون على المدينة حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنجة عن مواقعهم ، واضطروهم الى دخول المدينة ، وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ، ووصلوا الى السور فنقبوه ، تحت وابل من قذائف الفرنجة وسهامهم^٢ .

١ - Eracles . II. p. 70 ، Saladin Le plus pur Héros de L'Islam. p 176

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٩٤ ، السلوك ج ١ ص ٩٦ والثوادر السلطانية ص ٦٦ ، ومن الطرائف التي تروى ان احد الفقهاء أو أحد الشعراء كان قد تنبأ بفتح القدس في رجب عندما هناك بفتح حلب ، وهي نبوءة كما يلاحظ قضت بها القافية .:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب
- كما تنبأ أحد المنجمين له بقوله : «تفتح القدس وتذهب احدي عينيك» فأجابه : «رضيت ان افتحه واعى»

وأخذ الحصار يتطور من فزع الى فزع ومن هول الى هول ، والمدافعون عن المدينة يرمون المحاصرين بالحجارة دون انقطاع ، والسهام تتطاير في الجو من كل مكان ، وفرسان صلاح الدين يحومون حول الأسوار ، بينما الآلات تقذف النيران على المدينة ، والجنود يحفرون لأنفسهم طريقاً تحت الأسوار والأبراج .

ويذهب بعض المؤرخين الغربيين الى ان الخلاف كان على أشده داخل مدينة القدس ، أثناء محاصرتها ، بين الارثوذكس والكاثوليك ، وان الفريق الاول كان يصرح بأنه يفضل حكم المسلمين على حكم الكاثوليك . الا فرنج ، وهناك من يعتقد بأن زعماء الارثوذكس قد كاتبوا صلاح الدين لمساعدته في فتح المدينة ^١

ولما ايقن افراد الحامية بأن المدينة صائرة الى السقوط الحتم ، رغم بسالتهم واستماتتهم في الدفاع عنها ، أجمعوا رأيهم على طلب الأمان فأرسلوا باليان الى السلطان يفاوضه في الصلح على أن يدفع سكان المدينة له مائة الف دينار ^٢ .

وأمسك صلاح الدين بيد اليان وقاده الى باب الخيعة ، وأشار الى الأعلام الصفراء التي اخذت تحنق فوق عدد من أسوار المدينة ، والى العلم الذي كان رجاله يرفعونه في تلك اللحظة فوق ثغرة جديدة احدثوها في السور القديم ، وقال له : « هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروطاً للصلح ؟ »

١ - Grousset ; Hist des Croisades. pp. 811 - 812

٢ - Saladin Le plus pur Héros de .L'islam p. 181



احد شوارع القدس

فقال الرسول : « ايها السلطان ، ان في المدينة خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم الا الله ، وهم انما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فان رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلنّ ابناؤنا ونساءنا ، ونحرقنّ أموالنا ومتاعنا ، ولا نترككم تغتمون ديناراً او درهماً واحداً ، ولا تأسرون ولا تسبون رجلاً او امرأة أو طفلاً ، فاذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها ، وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها ، ثم بعد ذلك نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم نخرج اليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل منكم امثاله ، فتموت أعضاء أو نظفر كراماً^٢ .

يقول محمد كرد علي : « وكان رأي صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته أولاً من اهراق دماء الفرنج كما اهرق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام^٢ »

ويقول سيد أمير علي : « لقد تغلبت رقة قلب السلطان على رغبته في الاقتصاص ، وسمح للروم ونصارى القدس بالاقامة في بلاده وبالتمتع

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٧ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٤

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٦١

بمقوقهم المدنية كلمة ، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاؤوا ان يقيموا في فلسطين بوصفهم رعايا السلطان . أما المحاربون داخل المدينة فقد امر برحيلهم خلال أربعين يوماً ، وضمن لهم سلامة الوصول بحراسة جنوده الى صور او طرابلس ، وحدد فدية الرجل منهم بعشرة دنانير شامية وخمسة دنانير المرأة ودينار واحد للطفل ، فمن عجز عن أداء الفدية أخذ اسيراً ، غير ان هذا الشرط لم يعمل به قط ١ .

وقبل الفرنجة هذا الشرط ٢ ، وبدأوا يغادرون القدس منذ ذلك اليوم نفسه ، والسلطان وجنده ينتظرون في ظاهرها ، وشرطته تحفظ الأمن في داخلها ، كي لا يقع أي اعتداء او انتقام ، وكي يسود التسامح والشرف والاباء ٣ .

١ - مختصر تاريخ العرب ص ٣١١

٢ - للكاتب الانكليزي ريدر هيجارد رواية عن صلاح الدين ذهب فيها الى ان احد نبلاء الانكليز كان قد اختطف شقيقة السلطان وصحبها معه الى انكلترا حيث اعتنقت الدين المسيحي وانجبت فتاة دعته « روز اموند » أي «وردة العالم» وأن صلاح الدين رأى في المنام ان ابنة اخته هذه ستنقذ السلام في البلاد المقدسة ، وتكرر هذا الحلم ثلاث مرات ، فأرسل الى انكلترا من اختطف الفتاة وجاء بها الى دمشق ، فلاحق بها ابناء عمها وهما فارسان بسلان ، وبدأت مقامرات واهوال هربت وردة العالم وبلأت الى دير في بيت المقدس ، فلما حاصرها صلاح الدين ، وجاء باليان لمفاوضته طلب ان تأتي اليه وردة العالم ، والا فانه سيحيل القدس قاءاً صنفافاً ويعمل السيف في رقاب سكانها ، فجاءت الملكة سيبيل وضاء الاشراف يتوسلن الى الفتاة ان تفتدي بنفسها المدينة المقدسة ، واستجابت وردة العالم لطلبهن ومضت الى صلاح الدين ورجته أن يعفو عن المدينة ، فقبل السلطان رجاءها ، وتحققت بذلك رؤياه ، وهكذا نجت بيت المقدس من المصير الرهيب الذي كانت تنتهي اليه امثالها من المدن التي كان يحتلها الفاتحون في القرون الوسطى ، ومن الواضح ان كل ما جاء في رواية ريدر هيجارد انما هو من نسج الخيال .

٣ - Saladin Les plus pur Héros de L'islam, q. 182

ويقول رانسيان في ذلك : « كان المنتصرون معقولين وانسانيين ، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم ، لانجد في هذه المرة بناءً نُهب ، ولا انساناً أصابه أذى ، ونرى الحراس - تنفيذاً لأوامر صلاح الدين - منبثين لحراسة الطرق والابواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم ^١ ،

ويثني المؤرخون جميعاً ، غربيين وشرقيين ، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين اثناء فتح بيت المقدس ^٢ ، ويتحدثون باعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والمحتاجين من الفرنجة ^٣ ، وعن إكرامه النساء ، ورأفته بالأطفال . ورعايته للضعفاء منهم . ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة ، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير ، أيّ امر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على ايدي الجنود المنتصرين ، والتي وقع كثير منها لما احتل الفرنجة القدس ، ويقول الدكتور فيليب حتي في ذلك : وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للعدنيين من الافرنج ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثمانين سنة ^٤ ،

وفي كتاب « تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، الذي ألفه مكسيموس مونروند ونقله الى العربية البطريرك مكسيموس مظلوم ، وطبعه دير الرهبان الفرنسيين بالقدس سنة ١٨٦٥ » يتحدث المؤلف عن المجازر التي رافقت احتلال الفرنجة للقدس

١ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٣٨

٢ - انظر : Champdor, P. 183, Crousset, II, p. 800, Ernout. p. 171,

٣ - مرآة الزمان ص ٢٥٢

٤ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٣٨

ويقول : « فالمؤرخون بنوع خاص ذموا قساوة هؤلاء الجنود البربرية عن هذا القمل » ثم يقول ^١ « وأما نحن فنحول نظر تأملنا في هذا المشهد البربري المكروه ^٢ ، وعندما يتحدث عن فتح القدس من قبل صلاح الدين واعمال الرحمة والشهامة التي بدرت منه نحو الصليبيين لا يسهه الا ان يقول : « فالفضل لشهامة الملك المعادل اخي السلطان صلاح الدين واشفاقه الذي به ساعد هؤلاء » ثم الحمد لرأفة هذا السلطان نفسه بما ترأف به عليهم ^٣ .

وقد كان البطريرك اللاتيني ايراكلوس اول من غادر القدس ، وكان يحمل مقداراً كبيراً من الأموال والجواهر ^٤ ، فقبل للسلطان : « خذ ما معه لتقوي به المسلمين » فقال : « لا اغدر به ا » ولم يأخذ منه غير عشرة دنائير ^٥ ، وهم بعض الامراء باعتراض البطريرك لما رأوا معه من الأموال ، فمنهم صلاح الدين وقال لهم : « الوفاء خير ^٥ »

ثم خرجت الملكة سيبيلا يحيط بها الأشراف والاميرات ، فبالغ للسلطان في اكرامها ، وخاطبها باسلوب مهنذب رقيق ، وبعث بها الى زوجها غي السجين بقلعة نابلس حيث مكثت في ضيافته حتى أطلق سراحها معاً .

وسمح بخروج الملكة ماريا كومنينوس ارملة اموري الأول وزوجة

-
- ١ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣
 - ٢ - المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥ - ٩٦
 - ٣ - المرجع السابق ج ٢ ص ٩٥
 - ٤ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٥ تاريخ سورية للطران الدبس ج ٦ ص ١٠٨
 - ٥ - دول الاسلام ج ٢ ص ٧٠

باليان وامر بحراستها ومن معها من بيت المقدس حتى طرابلس

وخرجت طائفة كبرى من النساء ووقفن في حضرة متهيبات ،
يختلسن النظر اليه فلا يرين ملامح الوحش الكاسر ، آكل لحم البشر
وشارب الدماء ، فقال « ما تردن ؟ » فقلن : « ايها السلطان ! اترانا
الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بين زوج أو ام او ابنة لاولئك
الجند الذين ما يزالون في أسرك ؟ ونحن الآن نصادر هذه الديار الى
الابد ، وهؤلاء الجند الذين تركهم هم عدتنا في حياتنا وسلاحنا في
أيماننا ، فاذا فقدناهم فقدنا الحياة ، أما اذا وهبناهم لنا فقد وهبت لنا
النعم ، وخففت بذلك الامنا ، وازحت بؤسنا ، وابتعدت عنا شقاءنا ،
فانا لا نكون على ظهر هذه الأرض من غير مساعد او عائل ... »

فتأثر السلطان لقولهن ، واطلق سراح ابنائهن وازواجهن وآبائهن
جميعاً ، وعوض اللاتي مات اولياؤهن مالا كثيراً ، وجدد الأمر على
عماله بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الأسرى^١

وكان بين الأسرى الذي اعتقهم صلاح الدين فتاة فرنسية ، فتولاها
الغضب وتقدمت نحو صلاح الدين قائلة : لقد قتلت أبي ايها المحرم
السفاك ، واسرت اخوي^٢ ، فلم يعدي عائل ، وها انت تم علي بالعتق
كيا يزداد بلائي !

فلم تثر تلك الشتائم صلاح الدين ، وبعث بمن احضر اخوي الفتاة ،
وقال لها :

١ - Eracles. II, pp. 81 . 84

١ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ٢ ص ٩٥



- أما ابوك فقد قتل في حرب هو الذي اشعل نارها واعتدى بها على القوم الامنين ، واما اخواك فاني اطلق سراحهما اكراماً لامرأة في حاجة الى العائل والمعين ..

فقلت الفتاة : عفواً مولاي ، فانما هي ثورة الحزن ، وما كنت اسمع في بلادي عن ظلم المسلمين .. هذا ما جعلني أنطق بما لا اعني ، وانني مع هذا لست يائسة من صفحك وكرم عفوك .

ولما همت بالانصراف قال السلطان : الى اين انت ذاهبة ؟
فقلت : الى بلادي .

قال : وماذا انت قائلة لقومك ؟

قالت : اقول لتمصبيهم كلمة الحق في الاسلام والمسلمين ^١ .

وخرج فوج من الفرنجة الذين يحملون افسارهم المرضى على ظهورهم بدلاً من ان يحملوا امتعتهم وارزاقهم ، فهذا المشهد حرك حنو السلطان صلاح الدين فاشفق على هؤلاء المساكين وسمح للرهبان صياف الغربا (الاستتارية بأن يستمروا باقين في اورشليم ويتمموا واجبات رسومهم بالاهتناء بجميع الذين من المسيحيين لم يكونوا قادرين على السفر ^٢ ،

وهذه امرأة من نساء الفرنج وقفت على خيمة السلطان وبكت بكاء

١ - ابطال الشرق ص ١٥

٢ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ٢ ص ٩٦ ، والاستتارية هم فرسان المستشفى الذين كانوا من ابرز فرسان الصليبيين الذين حلوا السلاح في وجه صلاح الدين في معركة بيت المقدس وغيرها من المعارك ، وقد كان سماحه لهم بالبقاء في القدس للعناية بالمرضى من أغرب واعظم مآثره

شديداً ، وهي تمرغ وجهها في التراب ، وتستغيث به وتستنجد ، فقد ارسلها قومها اليه قائلين : « انه اشرف محارب رأيناك ، على هذه الأرض . هو قاس على المقاتلين ، ولكنه رؤوف بالأطفال والنساء ، فاستدعاها اليه ، وعرف من امرها انها فقدت رضيعاً لها لا يزيد عمره عن ثلاثة أشهر ، فرق قلبه لها ، ودمعت عينه لمنظرها ، وامر بالبحث عن رضيعها ، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلمه بيده الى امه كي تقرّبه عيناها ، وقال لها : « خذيه ولا تربيه على بغضنا ، فنحن لسنا وحوشاً مفترسة ، ولكننا ندافع عن حقنا وارضاها . »

وتقدم من السلطان شيخ مسيحي من يملك بذراع شاب مسلم وقال له بصوت متهدج : « ايها المولى ، انا فرنسي من بلدة تولوز اقيم في هذه المدينة منذ عشرين سنة ، وقد جاءني هذا الشاب منذ سنتين ، هارباً من مدينة عسقلان ، فأضفته في بيتي وكتمت خبره عن الناس . وقد اقام في بيتي هذه المدة كلها ، يأكل ويشرب وينام ، فلما استرجعتم القدس ، وخسر الصليبيون كل شيء ، وشعر هذا الشاب بأنني غدوت ضعيفاً واصبح هو قوياً ، انقلب عليّ وطرمني من بيتي واستولى على كل شيء فيه . فهل انتم تطلقون الأيدي في السلب والنهب وتقررون خيانة الضيف للمضيف ؟ ام تطبقون علينا شروطاً قبلناها وارتبطتم بها ؟ ان هذا الرجل خائن وسارق ، فهل تعاقبه يا صلاح الدين ، ام تسكت عن خيائته وسرقاته ؟ » فلم يتردد صلاح الدين لحظة في الجواب ، بل التفت الى الملك العادل وقال : « اعيدوا الى هذا الشيخ بيته وماله ،

١ - صلاح الدين بطل حطين ص ١٢٢ ، دعة صلاح الدين ص ٩ ، قصص من التاريخ ص ١٨ ، وقد روى ابن شداد قصة هذه الام بين الحوادث التي جرت اثناء حصار عكا : انظر النوادر السلطانية ص ١٢٦

واعفوه من دفع الفدية او الجزية ، واسجنوا هذا الشاب حتى تنظر في امره ^١ ،

ومن حق التاريخ ان نقول ان قوافل الفرنجة التي ارسلها صلاح الدين مخفورة كي لا تتعرض لأي اعتداء ^٢ ، قد اغلقت في وجهها ابواب طرابلس وانطاكية اللتين كانتا ما تزالان في ايدي الفرنجة ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقبولوا بكل ترحاب ^٣ . ويقول البير شاميدور انه لما اغلقت ابواب طرابلس وانطاكية في وجوه اللاتين من الفرنجة واعتدى عليهم بنو قوسهم المقيمت في طرابلس ونهبهم حتى ان احدى النساء قد انتابتها ثورة عصبية شديدة دفعت بها الى القساء وليدها في الميم ياساً وأماً « امر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيام والأطعمة دون مقابل الى ان يستطيعوا الابحار الى الغرب ، ونقل عدداً كبيراً منهم الى الاسكندرية أملاً في تسهيل رحيلهم على المراكب الايطالية ، ولكن قادة سفن بيضة وجنوة والبندقية لم يقبلوا في سفنهم الا من كان يملك اجور السفر ونفقات الغذاء طوال مدة الرحلة ، مما أدهش المسلمين هناك وأغضبهم فاندفعوا لتأمين الغذاء والمأوى لأولئك المسيحيين الأوربيين المشردين ^٤ ،

وهكذا يقبأرى المؤرخون الغربيون في الاشادة بسيرة صلاح الدين في فتوحه ، مؤكداً انه « ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب ، بل يفوق

١ - الناصر صلاح الدين لجاماتي ص ٩٢

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٥ نقلاً عن Besant et Palmer : Jerusalem P. 400

٣ - Ernoul . p. 281 ، مختصر تاريخ العرب ص ٣١٢

٤ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, pp. 183 - 184

المثل العليا التي لم يصل اليها اولئك الفرسان في يوم من الأيام ١ »

ويقول المطران يوسف الدبس بعد ان لخص أقوال المؤرخين المسلمين في فتح بيت المقدس : « اما المؤرخون الفرنج فرووا اخبار فتح صلاح الدين اورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقلّ ما زادوا عليها . وما زادوه كان المؤرخون العرب أولى منهم بذكره ، فانهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم اخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة ، وبعد أن يروي معظم ما رويناها في الصفحات السابقة من مآثر صلاح الدين يقول : « ودفع الملك العادل أخو صلاح الدين فدية ألفي أمير فاقتدى به السلطان أخوه وكسر اغلال كثيرين من الفقراء والأيتام . وقد اشار اليه بعض المسلمين ان يدك حيثئذ كنيسة القبر المقدس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج الى القدس أو من ان يتذرعوا بتكريمها الى الاستيلاء على هذه المدينة ، فأثر ان يخالفهم في بقاء الكنائس ولا سيما كنيسة القبر اقتداء بعمر بن الخطاب ، إذ أبقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الاسلام ٢ »

أما من بقي من الفرنجة في القدس فقد رعام صلاح الدين وأحسن اليهم . واما المسيحيون السوريون والبيزنطيون من سكانها فقد وسّع لهم في املاكهم ومنحهم من الحرية ما كانوا يتمتعون به في اليهود العربية السالفة ٣ ، شأنهم في جميع أنحاء بلاده ، مؤكداً بذلك انه لم يكن يحارب المسيحية والمسيحيين وإنما كان يقاوم الاستعمار والمستعمرين .

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٣١ قلا عن : Stevenson : the Crusades : the East. p. 254

٢ - تاريخ سورية المجلد السادس ص ١٠٩ ، انظر أيضاً دول الاسلام ج ٢ ص ٧١

٣ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج ٢ ص ٩٤

ومن اطرف ما يروى ان عيد الميلاد أطل بعد تحرير بيت المقدس
باسابيع معدودة ، في ليلة مطرة حالكة السواد ، فاحتفل المسيحيون
الباقون في القدس بعيد المرح والبهجة في ظروف تكتنفها الكآبة والحزن.
يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وفي مساء ذلك اليوم ، أقدم الرجل
الذي هزت انتصاراته العالمين في الشرق والغرب ، والذي كان عظيماً في
حربه ، عظيماً في سلمه ، على عمل نبيل تجاه المسيحيين الحزاني
المكلمين ، لم يذكر التاريخ له مثيلاً من قبل او من بعد . فقد سار
السلطان صلاح الدين الأيوبي في مياه الأزقة وأوحال الطرقات ، يبحث
عن النصارى الافرنج القابعين في عقر بيوتهم والذين لم يفتدم اهلوم
فوجدوا انفسهم في ضنك شديد ، حاملاً اليهم تهائنه وهداياهم . كانت
يطرق الأبواب ، فتفتح صارخة على رزازها ، ويبدو الشيوخ والنساء
من ورائها خائفين مرتاعين أو يطل الاطفال من الطاقات والنوافذ
مدعورين باكين ، ثم تعود الطمأنينة الى نفوسهم فيستقبلون الوافدين ،
ويتقبلون منهم الهدايا من مآكل وملبس ومال . ولم يكن اولئك الوافدون
غير السلطان ورفاقه ، وقد راحوا ينشرون الغبطة والسعادة والرخاء ،
في بيوت النصارى بالقدس ليلة عيد الميلاد^١ .

ويروي الشاعر اليهودي الاسباني يهودا الحريزي الذي زار القدس في
سنة ١٢١٦ ، أن اليهود قد افادوا من جو الحرية الدينية الذي شاع في
عهد صلاح الدين ، فلبجات الى القدس جماعات كبيرة من اليهود وفدت
اليها من جميع أنحاء العالم^٢ .

١ - الناصر صلاح الدين ص ١١٩

٢ - Saladin Les plus pur Héros de l'Islam. p. 188

وقد كتب صلاح الدين الى الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني
انجيلوس يخبره باستعادة بيت المقدس ، ويردّ اليه مائة وتسعين من
رعايا بيزنطية كانوا قد وقعوا اسرى في يده أثناء حروبه مع الصليبيين ،
فأجابه العاهل البيزنطي مهنتاً .

الفصل الثامن عشر

تتمت المجلد

أقام صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس شهراً كان خلاله موضوع
حتفال السكان وتمجيد الشعراء وتهنئة الأمراء من جميع الأنحاء . وتؤلف
نصائد الشعراء في تحرير القدس لوناً خاصاً في الأدب العربي يعرف باسم
«القدسيات» .

ومن «القدسيات» قول ابن الساعاتي :

أعياء وقد عاينتم الآية العظمى	لآية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق	وشاع الى ان أسمع الأسل الصما
فليت فني الخطاب شاهد فتحها	فيشهد أن السيف من يوسف اصمى
وما كان إلا الداء أعياء دواؤه	وغير الحسام العضب لا يحسن الحسا
وأصبح ثغر الدين جذلان باسماء	وألسنة الأعماد توسعه لسما
سلوا الساحل الخشي عن سطواته	فما كان إلا ساحلا صادف اليمنا

ومن «القدسيات» ايضاً قول ابن سناء يخاطب صلاح الدين :

لست أدري بأيّ فتح 'تهنا يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول اني أولى ، وهو أولى لأنه كان أمننا

قد ملكت الجنان قصراً فقصر إذا فتحت الشام حصناً فحصناً
 إن دين الاسلام من على ال خلق وأنت الذي على الدين منّا
 لك مدح فوق السموات ينشأ ومحل فوق الأسنّة يُبنى
 كم تأنى النصر العزيز عن الشا م ، ولما نهضت لم ينأى
 لم تقف قط في المعارك إلا كنت يوسفاً كيوסף حسناً
 يُجتبى النصر من ظباك كان ال قضيب قد صحفوه أو صار غصناً
 قصدت نحوك الأعداء فرد الله ما أملوه عنك وعنّا
 لم تلاق الجيوش منهم ولكنك لاقيتهم بلاداً ومدناً
 خانهم ذلك السلاح فلا الره ح تثنى ولا المهند طناً
 وتصيدتهم بجلقه صيد يجمع الليث والغزال الأغنا
 وجرت فيهم الدماء بحاراً فجرت فيهم الجزائر سفناً
 صنعت فيهم وليمة وحش رقص المشرقيّ فيها وغنى
 وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
 لا يُخص الشام فيك التهانى كل صقع وكل قطر منها
 قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
 واغتندى الوصف عن علاك حسيراً أيّ لفظ يقال أو أيّ معنى
 ورأينا ربنا قال اطيعوا ، فسمعنا لربنا وأطعنا

وقد عني السلطان بتنظيم شؤون المدينة ، وتأمين السلام والحرية
 لجميع ابنائها . ثم اخذ يستعد لمهاجمة صور لعلمه انه إن أخر امرها
 اشتد . وقد كتب له في ذلك بعض الأمراء ١ . ولكن هذه المدينة
 كان قد أصبح لها من المنعة ، بما انشأ فيها المركز كونراد من أسباب

الدفاع ، وبما تجمع فيها من أجناد الفرنجة الهاربين من كل مكان ، ما جعل الاستيلاء عليها امرأ عسيراً ، ان لم يكن مستحيلاً . فظل ينازلها بضعة اسابيع من البر والبحر ، دون طائل .

وقد اشترك مع السلطان في محاصرة صور ولداه الأفضل والظاهر وشقيقه العادل وابن عمه تقي الدين عمر ، فوزعهم وغيرهم من الأمراء على أسوار المدينة ووكّل كلا منهم بناحية منها ، وبدأ يرميها بالمجانيق والعرادات والجروح ، ومهاجمتها بالدبابات . ولما لم يجد ذلك قسم جنده الى ثلاثة اقسام ، وجعلهم يتناوبون على القتال خلال اربع وعشرين ساعة ، كي لا يدع للمدينة المحاصرة سبيلاً الى الراحة ليلاً أو نهاراً ، ولكن ذلك كله لم يؤد الى نتيجة حاسمة .

وقد اشتهر في هذه المعارك فارس افرنجي اطلق عليه لقب « الفارس الأخضر » ، لأنه كان يرتدي قميصاً أخضر ، ويجعل على ذراعه الأيسر ترساً أخضر اللون ، ويقود الفرنجة المحاصرين فيندفع بهم الى صفوف المسلمين فيزحزحهم عن مواقعهم . ويقال ان صلاح الدين قد اعجب بهذا الفارس وما يتحلى به من شجاعة فائقة ، فدعاه مرة الى خيمته ، وأهداه خيولاً وجوهر ، وعرض عليه ان يقطعه ارضاً في بلاد الشام اذا قبل العمل معه ، ولكن الفارس الأخضر رفض كل ذلك ، وقال انه لم يأت من بلاده ليعيش مع الشرقيين ولكن ليحاربهم !..

وكان موقف الفرنجة وهم وراء حصونهم المنيعة ، افضل من موقف المسلمين في القلاة وفي بقعة ضيقة من الأرض تركزت هجماتهم فيها ،

نظراً لموقع صور الجغرافي الذي يجعل منها مدينة بحرية أكثر منها مدينة برية ، ولا عجب فهي سيدة البحر في العصور القديمة ، فكانت قذائف الفرنجة وسهامهم تفعل في المسلمين أضعاف ما تفعل قذائف هؤلاء وسهامهم في الفرنجة .

وقد وصف ابن جبير مدينة صور وأعطى صورة دقيقة عن مناعتها ، فقال عنها : « مدينة يُضرب بها المثل في الحصانة ، لا تُتلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدّها الأفرنج مفرعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ، هي انظف من عكا سككا وشوارع ، واهلها ألين في الكفر طبائع ، واجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلانقهم اسجح ، ومنازلهم اوسع وافصح ، واحوال المسلمين بها أهون واسكن ، وعكا اكبر واطفى واكفر . واما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدث به ، وذلك انها راجعة الى بابين : احدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها الا من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويمدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصن . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمركب الا عند ازلتها . وعلى ذلك الباب حراس وامناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم . ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسو خارجها والمراكب

الصغار تدخل اليها ، فالصورية اكمل واجمل واحفل ١ ،

وادرك صلاح الدين خطورة الموقف فعمد الى اشراك سفنه في الحصار ، ولكن ذلك ادى الى كارثة كبرى خسر فيها المسلمون عشر سفن بمن فيها من النوقية والمقاتلة ٢ . وقد كان على الاسطول المصري الذي اشترك في حصارها بدران الفارسي ، ومع انه كان رجلاً ناهضاً جلدأ في البحر ، فقد غفل عن وصية قائده عبد المحسن امير البحر بأن يأخذ حذره ويتيقظ ، لأن الفرنجة اقدر في البحر وامكن ، ومتى سنحت لهم الفرصة فلن يهلوها ، ولكن بدرات وبحارته كانوا مأخوذين بانتصارت صلاح الدين وقوته فغفلوا عن الوصية واهملوها ، وبأكرم اسطول الفرنجة من صور فلم يطيقوا قتاله ، وقتل العدو جنداً عظيماً بعد أن اصابوا السفن وغنموا عدداً منها وعليها مقدمو المقاتلة في الأسطول ٣ .

وعقد السلطان مجلس شورا الذي كان يرجع اليه في كل امر خطير ، فانقسم اعضاء المجلس الى فريقين ، يرى احدهما تأجيل حصار صور ريثما تستكمل المعدات والآلات اللازمة لذلك ، لاسيما وان الشتاء قد اقبل والمقاتلون الذين تمودوا الفتح السريع يريدون العودة الى اهلهم ، ويرى الفريق الآخر مصابرة البلدة ومضايقتها حتى تسقط ٤ . وقد اخذ

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ - ٢٧٨ وتجدر الملاحظة بأن الرحالة قد وصف صور وتحصينها ومناعتها سنة ٥٨٩ هـ ١١٨٤ م أي قبل الانشاءات التي اقامها كونراد فيها .
٢ - راجع تفصيل ذلك في الفتح القسي ص ٦٢ - ٦٩ ، النوادر السلطانية ص ٧٥ ، الكامل ج ١١ ص ٣٦٦ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨
٣ - ايام صلاح الدين ص ٢١٧
٤ - الكامل ج ١١ ص ٣٦٨ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩

المجتمعون برأي الفريق الأول ، وكان لذلك كما يقول الدكتور نظير سعداوي : « أثر شيء في العمليات الحربية التالية ، لأن رفع الحصار عن صور يوم أول يناير سنة ١١٨٨ (ذو القعدة ٥٨٣ هـ) كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحربي وفي انتصارات صلاح الدين ^١ ،

ولم يكن صلاح الدين ليريد ارغام قواده على الحرب وهم لها كارهون ، فرفع الحصار ورحل الى عكا ففضى فيها فصل الشتاء ، ثم دعا بهاء الدين قراقوش وكلفه القيام بتحصينها ، وغادرها الى دمشق ففاجأه نائب ديوانه الصفي بن القابض بأنه استجد داراً في قلعة دمشق لينزل بها السلطان وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبلغ في تزيينها شيئاً عظيماً ، فرأى صلاح الدين ان في ذلك اسرافاً لا مبرر له ، وعزله من الديوان وعين مكانه بدر الدين مودود وقال : « هذا منزل لا يصلح لمثلي ابداً » وان منزلي دائماً خيمة تعصف الرياح من خروقتها ، وانها لأحب الى نفسي من هذا القصر وغيره من زخارف الدنيا .

وقدجهز في دمشق جيشاً كبيراً وسار به في شهر ربيع الاول سنة ٥٨١ هـ ايار (مايو) ١١٨٨ م صوب طرابلس وانطاكية ، فاستولى على اللاذقية ومن اطرف ما حدث في معركة هذه المدينة ، ان السلاح قد نفذ من الفرنجة والعرب جميعاً ، فأخذوا يتقاذفون بالحجارة ، وتكاثر المسلمون فغلبوا وسلم الفرنجة . وكتب قاضي جبلة الأمان الذي طلبوه : كتب ان يُطلقوا بأنفسهم وذراريهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات الحرب والدواب ، ما عدا ما يركبونه منها ليصلوا الى مآمهم ^٢

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩٨

٢ - أيام صلاح الدين ص ٢١٨



صورة خيالية لصلاح الدين الأيوبي وهو في المعقد الخامس من عمره

ثم استولى على طرطوس وفيها اطلق سراح الملك غي بعد ان اقسام له الا يعود الى محاربته ابدأ « وهو وعد بذله جيرارد مقدم الداوية وجي وغيرها من الاسرى دون أن يفي به أحد منهم ^١ ، ثم احتل مرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون وسرمينية وبزورية ، وقد اسر أمير بزورية وأفراد أسرته ثم اخلى سبيلهم وأرسل معهم من اوصلهم الى انطاكية ومعهم صاحبة الحصن شقيقة سييل التي ما فتئت تراسله وتكشف له مواطن الضعف في مواقع الصليبيين ^٢ ، فأحسن السلطان معاملتها وكراماً لامرأة البرنس (سييل) فشكرته على ذلك ودامت مودتها له ^٣ ، وكانت بينهم عروس أسر جنوده عريها فأمر برده اليها .

ولما استولى على حصني دريساك وبغراس ، وأصبح على مقربة من انطاكية ، خافه أميرها وناشده ان يهادنه ثمانية اشهر . وكان صلاح الدين قد شعر بتبرم جنوده لكثرة ما قادم اليه من المعارك ، فقبل الطلب وعقدت الهدنة بينها .

عاد صلاح الدين الى حلب تلبية لدعوة ولده الملك الظاهر ، ففضى

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٠٥ ويقول الدكتور عاشور : « كان صلاح الدين قد وعد باطلاق سراح جاي لوزجنان ، حتى اذا ما كان صيف ١١٨٨ ارسلت اليه زوجته الملكة سييل ، ترجوه تحقيق وعده ، وعندئذ غلبت على صلاح الدين روح الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد ، وهي الصفات التي تحلى بها دائماً في جميع تصرفاته مع الصليبيين والتي طالما عانى كثيراً من المتاعب بسبب تمسكه بها ، في الوقت الذي لم يعرف خصومه في معاملاتهم معه سوى الغدر والخيانة ونكث اليهود . وكان أن افرج فوراً عن لوزجنان في يولييه سنة ١١٨٨ ، ولم يشأ ان يتركه ينصرف وحيداً ، وانما افرج ايضاً عن عشرة من اعيان الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له ، منهم اخوه عموري ومقدم الداوية «الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٥٣

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

٣ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٦٧

بضعة ايام بين اهله واولاده ، ولكم كان يود لو تطول هذه الايام
السعيدة ، ولكن الجهاد كان يدعوه الى غمراته ، ولم يكن هذا الرجل
الكبير ليؤثر على تلبية دعوة الواجب شيئاً ومن ثم غراه يسرع الى
دمشق فيصلها في النصف الثاني من شعبان سنة ٥٨٤ هـ ٢٠ تشرين الأول
(اكتوبر) ١٨٨ م ليتابع منها نضاله ، وكان هناك دافعاً خفياً يحثه
على الاسراع وكسب الوقت « فالعمر قصير - كما كان يقول - والأجل
غير مأمون » . ولكن جيشه لا يحس هذا الدافع ، « وقد ملّ
العسكر الغريب الاقامة وأبدى الآمة ٢ » ، فيسرح اولئك الجنود ،
ويسير الى صفد بحرسه وحد ، فيبلغ ضاحيتها في مساء بارد تعصف
فيه الرياح من كل جانب ، ولكنه يأبى أن يغمض له في تلك الليلة
جنف قبل أن ينصب بجانبه الخيمة ، فلم يطلع الصبح حتى كان قد
اقام حول المدينة الات الدمار وضرب الحصار عليها .

وقد طال ذلك الحصار شهراً سلّمت المدينة في نهايته ، فأنتقر الى
حصار كوكب ولبث ينازلها تحت سيل الامطار وفي غمرة الاوحال حتى
سلّمت في منتصف ذي العقدة سنة ٤٨٤ هـ أوائل كانون الثاني (يناير)
١١٨٩ م . وفي تلك الفترة بلغه سقوط الكرك بيد أخيه العادل ، بعد
ان حاصرها حصاراً شديداً اضطر اهله من وطاته الى أكل الدواب ٣ ،
ثم سقط حصن الشوبك بعد ذلك ببضعة اشهر ٤ .

وهكذا لم يبق في ايدي الفرنجة من القلاع الحصينة « التي كانت

١ - خطط الشام ج ٢ ص ٦٥

٢ - الفتح القسي ص ١٢٩

٣ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١

٤ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٤

بجانبه الخافر الأمامية^١ ، لهم ، سوى حصن الشقيف أو شقيف أرنون ،
فسار صلاح الدين الى مرجعيون استعداداً لمهاجمته ، وكان يحتمي فيه
رينو دوسا جيت صاحب صيدا الذي التجأ اليه إثر سقوط مدينته ،
فما كاد يعلم بأن السلطان يقصده حتى عمد الى زيارته واعلان رغبته في
تسليم الحصن ، على أن يتعهد صلاح الدين بحمايته والسماح له ان يجيأ في
دمشق ، ويقول ابن شداد في ذلك : « وما أحسنه الا وهو قائم
على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل ، فاحترمه وأكرمه . وكان
من كبار الافرنج وعقلائها ، وكان يعرف العربية ويتكلم بها ، فحضر
بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر انه بلوكة
وأنة تحت طاعته ، وانه يسلم المكان اليه من غير تعب ولا قتال ،
واشترط ان يُعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فانه بعد ذلك لا يقدر
على مساكنة الفرنج^٢ ، الا ان الحامية الصليبية رفضت تسليم الحصن ،
ولم تستسلم الا بعد دفاع ضار وقتال عنيف . ويقول شامبدور ان رينو
دى سانجيت كان يخادع صلاح الدين ، وقد طلب منه مهلة ثلاثة اشهر
لاحضار أسرته من صور قبل ان يسلمه الحصن ، فأمهله السلطان وأخذ
يستقبله في مخيمه وينظره في القضايا الدينية ، بينما كان رينو يكسب
الوقت لتعزيز وسائل الدفاع عن حصنه ، ولما انتهت المهلة المحددة طلب
مهلة جديدة مدتها تسعة اشهر ، ولكنه ما كاد يتجه الى الحصن للعودة
اليه كعادته ، حتى اعتقله رجال صلاح الدين ، فأدرك أن حيلته قد
كشفت ، ونادى افراد الحامية محذراً ايهم من الاستسلام ، فاعتقل
وسيق الى دمشق . ويضيف شامبدور ان الوقت الذي قضاه صلاح

١ - الحركة الصليبية ج ٣ ص ٨٣٠

٢ - النوادر السلطانية ص ٨٠



الدين امام حصن الشقيف ، بخدعة بارعة ، هيا المرصعة لغني دي لوسينيان
للظهور بعد قليل أما صور وتحت إمرته سبعة الاف مقاتل^١ .

واطلت سنة ١١٩٠ وليس في أيدي الصليبيين من مملكة القدس سوى
مدينة صور ، ومن امارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة طرطوس
وحصن الاكراد ، ومن امارة انطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية
وحصن المرقب^٢ .

الا ان هذه الانتصارات الكبرى لم تمر السلطان بالخلود الى الراحة
فانتقل الى القدس يعالج شؤونها ويتفقد حصونها ، إذ كان يشعر بأن
ثمة زوبعة عاتية توشك أن تهب في بلاده .

والواقع ان صلاح الدين كان قد بلغ ذروة مجده . ويقسم المؤرخون
الحربيون مرحلة الجهاد الصلاحي قسمين تفصل بينها بداية سنة ١١٨٩ م
(أو اخر سنة ٥٨٤ هـ) : أحدهما عهد الفتح والغزو والغنائم ، وثانيهما
عهد الدفاع والتحصين والمقاومة . وقد اتضح ذلك تماماً لصلاح الدين
نفسه منذ بداية تلك السنة ، حين وصلت مجهوداته الى نقطة التشبع ،
ولم يقو بعدها على مغالبة بقايا المقاومة الصليبية في صور بزعامة
كونراد ، وفي طرابلس بزعامة حي دي ليزجان ، وفي انطاكية التي
ارشكت هدمتها على النهاية بزعامة بوهيمند الثالث . ولذا تحول صلاح
الدين في خططه العسكرية منذ بداية سنة ١١٨٩ من جانب الهجوم الى
الدفاع ، وهي خطة اتفق عليها فيما يبدو مع أخيه العادل في اجتماع

١ - 214 216 - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p.
٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٣٧ ، 835 834 Grousset. II, pp.

صحراء بيسان ، ودلت عليها رحلته التفتيشية للمدن الداخلية والحصون الساحلية ، ورتب صلاح الدين العادل والعزیز عثمان لحماية مصر وسواحلها ، والأفضل عليّ لحماية جنوب فلسطين وسواحلها ، وتقي الدين عمر لمراقبة امارة طرابلس وما حولها ، أما هو فعزم على منازلة امارة انطاكية غداة انتهاء الهدنة معها .^١

وكان غي دي لوسينيان الذي أطلق السلطان سراحه بعد أن قطع على نفسه عهداً بالأيشهر في وجهه سيفاً وأقسم بذلك على الانجيل^٢ ، قد حنت بيمينه وأخلف وعده ، فلم يسافر الى اوربة وانما ذهب الى صور للعمل مع أميرها كونراد ، ثم تنافس الاثنان على الزعامة فقادها الى طرابلس وعمد الى جمع الجنود وتدريبهم .

وبينا كان الفرنجة في المشرق يتجمعون ويستمدون ، كانت اوربة تضج لسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين وتنادى الى حملة صليبية ثالثة ، مثلما ضجت يوم سقطت الرها في يد عماد الدين زنكي منذ أربعين سنة فتنادت الى الحرب الصليبية الثانية . وعمد كونراد الى ارسال جوسياس رئيس اساقفة صور الى اوربة مستنجداً بملوكها مستصرخاً البابا اوربان الثالث وخلفه غريغوري الثامن^٣ .

وقد بلغ من اهتمام ملوك اوربة هذه المرة بالحرب الجديدة التي

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢١٣

٢ - Saladin Le plus pur héros de L'islam, p. 217

٣ - خلف غريغوري الثامن البابا كليمنت الثالث ، وقد استطاع البابا الجديد أن يعرّف بين ملوك اوربة وامراتها هدنة عامة لمدة سبع سنوات كي يوجهوا اهتمامهم الى الشرق . انظر تفصيل ذلك في Laviss : hist, General, II. P. 303

اعلنوها على الشرق ، وتناسوا من أجلها أحقادهم وخصوماتهم^١ ، انهم فرضوا على كل من لم يشأ التطوع فيها او تعذر عليه ذلك ، ان يدفع عشر مداخيله مع عشر ثمن املاكه المنقولة ، وسموا هذه الضريبة « العشور الصلاحية » رمزاً لانتصار صلاح الدين عليهم ، وحرّم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها ، وهي أول ضريبة عامة فرضت في تاريخ اوربة ، وقد كان تجمع هذه الأموال السبب الأول في نشوء المصارف^٢

وكان اول من لبى الدعوة الصليبية الجديدة ، ملك صقلية وليم الثاني الذي انجد طرابلس باسطول يتألف من ستين سفينة عزز مقاومتها وحال بين صلاح الدين والاستيلاء عليها^٣

وتتابعت بعد ذلك أمداد الفرنجة ، إذ طاف الرهبان والقسس وبطربرك القدس الذي أطلقه صلاح الدين بما معه من مال ، في اوربة يستنجدون بها ، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس الناسك ، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر له عوضاً أو اعطى معونة ، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الاحصاء^٤ .

وحين تكامل لغني * دي لوسينيان في طرابلس جيش وافر القوة

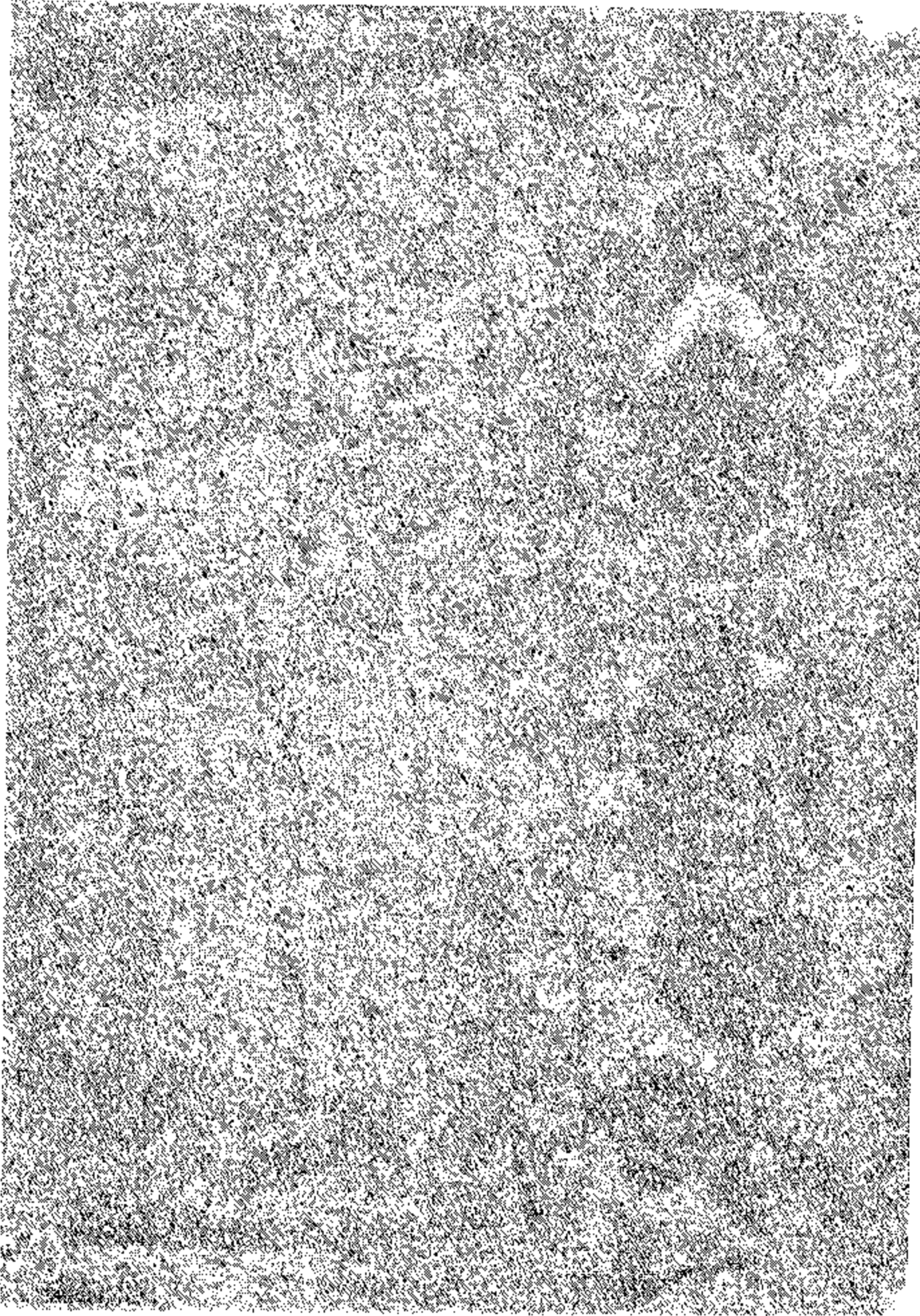
١ - Michau. ; II. pp. 314 315

٢ - L'Eglise et l'Orient au Moyen Age, P, 118

٣ - Croussea ; hist des Groisades, III. p. 8

٤ - أيام صلاح الدين ص ٢٢٠

٥ - ويسميه المؤرخون العرب ايضاً « الملك العتيق » لان السلطان أعتقه من الأسر .



الرسالة التي كتبها أحماد الملكة لألمانيا آل فريدريك أرفست محمد علي الأحماد في المجلد الثاني

والعدد ، ذهب به الى صور فرفض. المركيز كونراد السباح له بدخولها ، فاضطر الى الاقامة في ضاحتها اربعة اشهر ، واتفق ان غرت من هناك شردمة من المسلمين فنازلها وغلبها ، فشجعه ذلك على السير الى عكا ، فزحف اليها على رأس عشرة آلاف مقاتل . فلما علم كونراد ببغيته ، خشي ان يستأثر منافسه باقتحام هذه المدينة ، فلحقه بجيش لجب ، واشترك الاثنان في ضرب الحصار عليها ، وكان السلطان قد أغفل شأن غي ومن معه لما خيم في جوار صور ، كما تهاون بشأن صور واحتشاد الفرنجة فيها واقبالهم اليها من جميع المدن والقلاع التي تخلوا عنها ، فعظم أمر غي ، وعظم أمر صور ، وكان من نتائج ذلك أن حوصرت عكا براً وبحراً وباتت مهددة بالضياع .

ويلقي بعض المؤرخين المسلمين تبعة الاخفاق الذي مني به السلطان في صور ، وتحول هذه المدينة الحصينة الى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة ، على صلاح الدين وما ابداه من تسامح وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين ، والسباح لهم بالهجرة منها آمنين ، الى مدنها وقلاعهم على الساحل ، ولا سيما مدينة صور التي كانت تمتاز بانساعة الجغرافية ، فأصافت الى ذلك المناعة البشرية ، وعدة اولئك المؤرخون ذلك منه تهاوناً وتفريطاً وغلواً في الشهامة والنبل أدى الى أسوأ النتائج .

يقول محمد كرد علي : « وذكر المؤرخون ان اطلاق امرأ الفرنج من الامر وحملهم الى صور كان من أعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا ، أما ابن الاثير فيحمل على صلاح الدين قائلاً : « ولم يكن لأحد

ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين ، فانه هو الذي جهز اليها جنود الفرنجة ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور ، فصار اليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجأون اليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها ،

ويلتقي مع ابن الاثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطة التي انتهجها صلاح الدين ، بدعوة المدن والقلاع الى التسليم مقابل الأمان بدلاً من الفتح بالسيف ، قد أدت الى نجاة عشرات الألوف من القتل والأسر ، وانطلاقهم احراراً الى مراكز تجمعهم الجديدة ولاسيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة^٢ .!.. حتى ان لامونت يرى ان هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماسة ، ولعله يعني حد السذاجة ، واليك تفصيل ما قال : ولم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حله وشهامته مثار اعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالماً . وقد أبدى في معاملته لشعوب البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مبادئاً كل المباني للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من

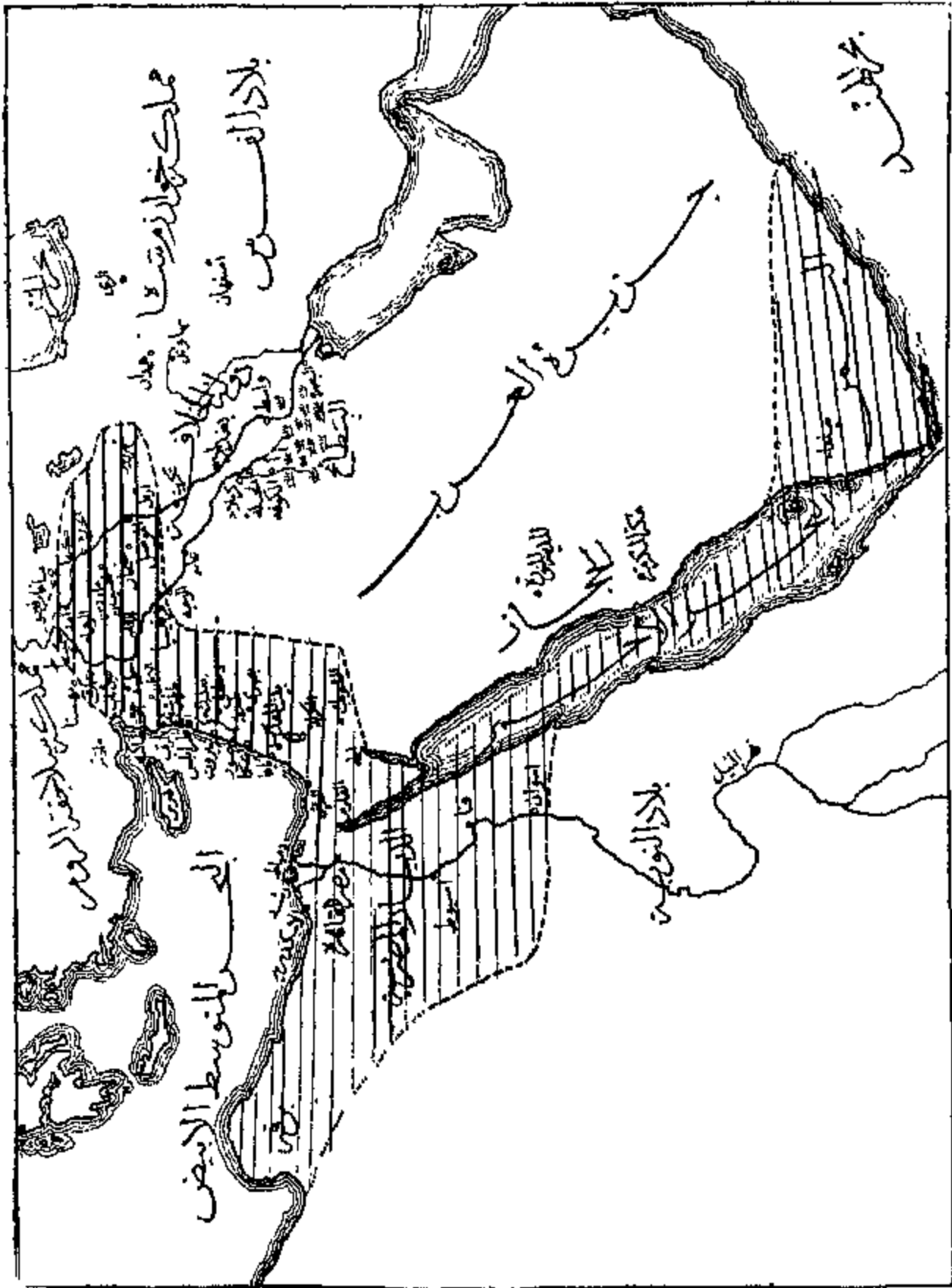
١ - الكامل ج ١١ ص ٣٦٨

٢ - Cibi p. 67 , Lane pool p. 243 , Stevenson PP. 255. 256

بلاد النصارى المحتلة الى معقل النصرانية في صور سياسة نبيلة الى حد
الحماقة ، لأنها أدت الى تحشد أعدائه ، ومن ثم منعه من احتلال مدينة
صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول
محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين ، وان يضع
اساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً الى جنب تحت ظل السلطان ...
وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن اباده
المسيحيين ' .

والواقع ان ابن الاثير ينسى الجانب الانساني في الموضوع ، فهو يحاكم
صلاح الدين كقائد حربي « لا يذغبي - كما يقول - أن يترك الحزم وان
ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خيراً له من ان يظفر مفترطاً مضيقاً
للحزم !.. » وفي اعتقادنا ان صلاح الدين لم يكن محارباً الا بالضرورة ،
فهو ليس فاتحاً بل محرراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير ، وبين
الموت والحياة . ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه ، فان المحرر يقاتل
بإيمانه ، واذا كان من اخلاق الفاتحين أن يصونوا اجمادهم بالحديد والنار ،
فان من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضعف حتى لأولئك الذين
يضطرون الى شهر السيف في وجوههم . أليس صلاح الدين هو القائل
وقد لامه أصحابه لأنه صفح عن جريرة أحد الجبابرة عليه : « لأن اخطيء
في العفو أحب اليّ من ان أصيب في العقوبة ! »

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة ، وليس رجل حرب
وهدم وضعف ، وبعد كل معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشية الحرب
وغبائها ، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها ، كانت



مملكة صلاح الدين الأيوبي

تدفع به مضطراً الى ساحة القتال ، دفاعاً عن الأرض التي امتزج تراثها
بدمه ، واختلط نسيما بانفاسه ، وارتسمت طبيعتها في عينيه ، وبأوبل
الحرب ، آفة البشرية وعار التاريخ ، اذا لم تكن دفاعاً عن الذات .
ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك عظم مأساة يعانيها
الانسان ، حين يريد السلم وتفرض عليه الحرب ، وينشد الرحمة وتطلب
منه القسوة ، ويسير في الطريق الملوث بالوحل والمخضب بالدم بمشاعر
الملائكة وأخلاق القديسين .

اذا كانت جميع الطرق ملأى بالاشواك ، فلا بد من ان نملك
طريقاً شائكة . واذا فرضت الحرب نفسها ، وغدا الشر خبز الحياة
اليومي ، وحلق شبح الدمار مثل طائر اسطوري رهيب لا يستطيع
أحد ان يهرب من تحت جناحيه ، فيحسب المرء ان يُبعد عن قلبه ظل
الحقد ، لعل زهرة واحدة للحب تتفتح في مستنقع البغضاء ..

هكذا شاءت الاقدار ، بل هكذا شاءت الاطماع التي دفعت جمحافل
الفرنجة الى الشرق ، متدفقة مثل سيل لا نهاية له . واذا كان المعتدون
قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الغارة الجاهلة ، فان سر عظمة صلاح
الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية ، الا بعفو الكريم وتسامح
النبييل ، فكان اسوة حسنة ومثلاً يُضرب للناس ، وكسباً للعرب
والاسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه ، وهذا ما جعل تشرشل
يقول عنه أنه من اعظم ملوك الدنيا ، ودفع الكاتب الانكليزي ريدر
هيجارد الى القول بأنه اعظم رجل على وجه الأرض ا

الفصل التاسع عشر

الحملة الصليبية الثالثة وملاحة عكا

كان الشرق والغرب يحشدان قواهما البشرية والمادية ، ليلتقيا من جديد عند ابواب مدينة وادعة تطل على سهول الأردن وتغسل اقدامها في مياه البحر الابيض المتوسط ، مدينة كانت « مجتمع السفن والرفاق » وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق^١ . و شاء القدر مرة اخرى أن يكون ذلك اللقاء بين القارتين ، دامياً مدمراً رهيباً ، بدل ان يكون لقاء التعاون الفكري والتبادل الحضاري ، اللذين كان هذا البحر الهديء الجميل مهدياً لهما ومسرحاً لعطائهما السخى ، على تتابع الأجيال وتعاقب العصور .

و حين هرع صلاح الدين لانقاذ عكا^٢ ، وجد ان جيوش الفرنجة قد سبقته الى احتلال الاماكن المنيعه والتحصن فيها ، وباتت حائل دون

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٧٦

٢ - عرفت عكا في عهد الفينيقيين باسم بتولجايميس يقول اتيين البيزنطي أحد جغرافيين القرن الخامس ان هرقل عضته أفعى فلم يجد دواء يشفيه الا في هذا المكان ، فدعي من اجل ذلك « عكا » وهي مشتقة من كلمة اغريقية تعني الشفاء !

وصوله اليها ، فأقام غير بعيد عنها ، وأخذت الامداد تصل الى الفريقين ^١ .

وفي اصيل اليوم الثاني من شعبان سنة ٥٨٥ هـ ١٥ ايلول (سبتمبر) ١١٨٩ م ، هاجم السلطان حشود الفرنجة دفعة واحدة ، فزحزحهم عن اماكنهم قليلاً ، وشقّ طريقاً الى باب المدينة فدخلها قسم من جيشه بكيات من الذخائر والأموال والسلاح والفلال ، وعاد بمن بقي معه الى معسكره لمعاودة القتال في اليوم التالي ^٢ .

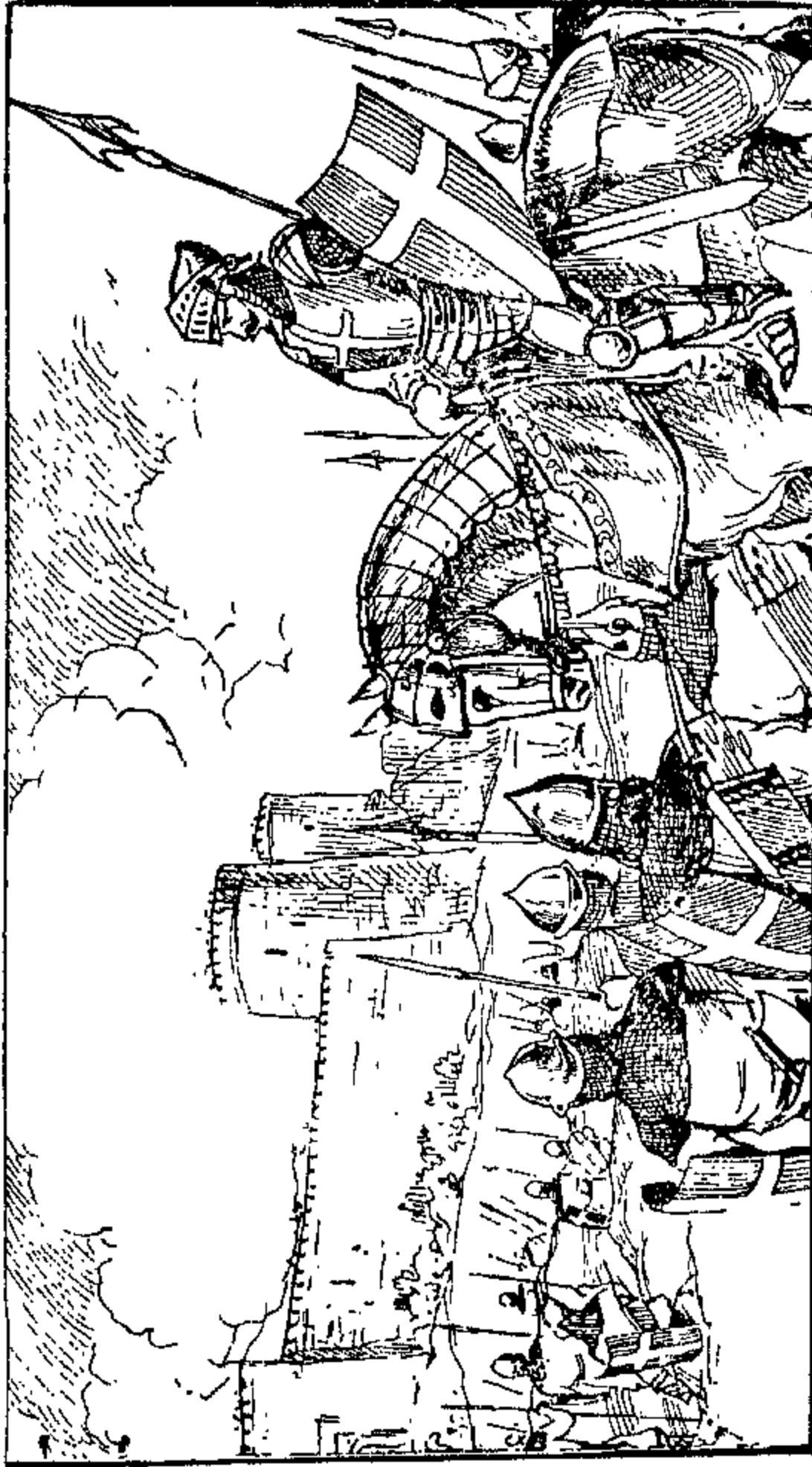
ولكن الفرنجة رفضوا منازلته في ذلك اليوم والأيام التي تلتها ، ولبثوا على ذلك شهراً انصرفوا فيه الى تعزيز مراكزهم وتحصين مواقعهم ثم انقضوا على خصومهم فشتتوهم وارغموهم على التقهقر ، وانزلوا بهم خسائر فادحة .

وكان الشتاء قد اقبل ، وحل شهر رمضان ، ثم جاءت هذه الهزيمة المروعة ، فشجع ذلك كله امرء صلاح الدين على الالحاق عليه بوقف القتال وارجائه الى وقت اخر ، لرغبتهم في العودة الى بيوتهم انتجاعاً للراحة والاستمتاع بالحياة العائلية الرخية ، فلم يجد بداً من اجابتهم الى طلبهم ، وخرج هو وحرسه الى الخروبة .

لم يقصد صلاح الدين بيته لانتجاع راحة او طلب مسرة ، ولم يذهب

١ - كان من رأي صلاح الدين ان يهاجم الفرنجة وهم في الطريق الى عكا لئلا يتمكنوا من اراضيها فخالفه قواده ولم يرضوا قتالهم الا متجمعين امام عكا ، فكان من جراء ذلك ان الصليبيين سبقوا المسلمين الى المدينة وعسكروا بالأماكن الحصينة في ضواحيها - الفتح القسي ص ١٢١ ، الكامل ج ١٢ ص ٢١

٢ - الفتح القسي ص ١٥٦



الفرجة يحاصرون مدينة عكا

الى احدى عواصم الخمس : القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وحلب
فتمتع بالمجد الباذخ والنعيم الوارف ، وانما شخص الى الخروبة القائمة في
الفلاة القفر ، وارسل في طلب الامداد من جميع انحاء بلاده ، ولبت
يفتظر ويفكر ويراقب ، وقد لجّ به الهم ، والح عليه المرض ، وماجت
من حوله عواصف الشتاء ورياحه المتناوحة .

في تلك البقعة القصية المنعزلة قضى السلطان شهر الصيام ، والعبيد
السعيدين ، وفصل الشتاء بطوله ، وهو دئب على عمله في مراس قوي
وعزم فولاذي ونشاط لا يفتر . حتى اذا كان شهر ربيع الاول سنة
٥٨٦ هـ نيسان (ابريل) ١١٩٠ م ، عاد بما تجمع لديه من قوة الى
المكان الذي فارقه من سهل عكا ليحاول انقاذها مرة اخرى . ولكن
هذه المحاولة كانت عسيرة وعسيرة جداً . فقد اعد الفرنجة اثناء الشتاء
عدداً كبيراً من الات الدمار ، واقاموا الدبابات والابراج الشاهقة ،
ليقذفوا المدينة منها بقذائفهم المروعة . وكان صلاح الدين يحسب ان
منازلته اياهم ستشغلهم عن المدينة ، فاذا بهم قد غدوا من القوة والكثرة
بحيث استطاعوا منازلته ومواصلة الهجوم على عكا في ان واحد .

واستمر القتال في البر والبحر عامين كاملين خالدين في تاريخ الحروب
والفروسية ، تكبد فيها الفريقان خسائر فادحة وكوارث جسيمة ،
وابدى كل منها ما يدهش ويروع من ضروب التضحية والبطولة ،
وشاركت نساء الفرنجة رجالهن في كثير من المعارك ، والعماد الاصفهاني
وصف مؤثر للنساء الصليبيات وما كن يبذلنه في سبيل قومهن من نفس
وتفيس ، قال : « ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة

الوفر ، وهي في بلدها مالكة الأمر ، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم
واتباعهم وغلمانهم وأشباعهم ، وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من
المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركبانها ،
ويحملون بحملاتها ، ويشبون لوثباتها . وفي الفرنج نساء فوارس هن دروع
وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن
عمل أرباب الحجال وهن ريات حجال ، وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخافن
انهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه هن عادة ... وفي يوم الواقعة قلمت
منهن نسوة ، هن بالفرسان اسوة ، وفيهن مع اليهن نسوة ، وليست هن
غير السوابغ كسوة ..

وأبدت عكا المحاصرة براً وبحراً ، مثلاً فريداً من صبر أهلها وصمود
حاميتها وشجاعة جندها وقنالمهم المستميت . الا ان طول مدة القتال
أضعفت من معنويات الجنود حتى ان الصليبيين كما يقول البير شامبدور
لم تعد تحركهم الدوافع الحماسية أو الدينية ، وكل ما كانوا يتشدونه هو
الاستيلاء على المؤن التي قد يجدونها في المعسكر الآخر .

لقد كانت ملحمة لا مثيل لها في التاريخ ، يحاصر الصليبيون فيها
المسلمين في عكا ، وجيوش صلاح الدين تحاصر الصليبيين ، والقتال مستمر
في البر والبحر ، والطواعين والمجاعات تفتك بالجميع ، والمركة قد طالت
اكثر مما قدر لها الفرقاء ، فانهارت القوى وتراخت العزائم وتداعت
النفوس ، ولكن البحر كان ما يفتأ يمد الافرنج كل حين بمدد جديد
وحياة جديدة

ولعل اشهر المعارك التي نشبت امام عكا ، تلك التي يسميها المؤرخون

المسلمون « الواقعة الكبرى » وقد هجم الفرنجة فيها على المسلمين « غداة وصول كونراد بعساكره من صور ، ووصول سفن صليبية من اوربة تحمل اقواماً مختلفة من السكنديناويين والألمان ، فهزمهم واضطروهم الى الفرار ، ووصلوا الى خيمة السلطان فقتلوا من حولها ، ولكن صلاح الدين وقف في وجه المهاجمين ، يقاتل ويصاول ، ويصرخ بصوته الجهير ، ويطوف على فلول المسلمين يدعوهم الى المقاومة ويحثهم على الجهاد ، فأنهض ذلك من عزيمة رجاله ، فعاد الى القتال من بقي منهم في جوار المعركة ، وأرغموا الفرنجة على التقهقر ، بعد أن قتلوا منهم خمسة آلاف مقاتل^٢ ، وهكذا استطاع صلاح الدين بشجاعته ورباطة حاشد وسرعة خاطره أن يحول الهزيمة المؤكدة الى نصر مؤرر^٣ .

ومن الوقائع المشهورة أيضاً الواقعة التي اشتهرت باسم « العادلية » ، وبطلها الملك العادل ، وكان صلاح الدين قد أمر أمراء المدن الشمالية في الشام بالعودة الى منازلهم لمقاومة الصليبيين الزاحفين من البر ، فشرع معسكر الفرنجة بأنه اصحى في قلة من الجند ، فنهضوا لقتاله وأغاروا على ميمنته ، وكانت بقيادة الملك العادل ، فهب للقائهم ومكر بهم ، واستدرجهم الى قلب المعسكر الاسلامي ، وشغلهم بالنهب والسلب ، ثم حمل عليهم حملة صادقة ، ولحق به صلاح الدين لنجدته وشده أزره ولكن المعركة كانت قد انتهت بنصر المسلمين . وروى بعض المؤرخين

١ - التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٢٦

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٤ ، الفتح القسي ص ١٦٢ - ١٦٤ ، النوادر السلطانية

ص ٩٢ - ٩٦

٣ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 228



ان قتلى الفرنجة فيها بلغوا عشرة آلاف^١ ! يقول الدكتور نظير سعداوي :
« وانتهزت الحامية الاسلامية خلو خيام الصليبيين من الجند الحرسية ،
فخرجت اليها ونهبت الكثير من الاقمشة والقصور والاسلحة ، والنساء
ايضاً . ولو عكف المسلمون على القتال ثاني يوم لتلك الواقعة لثم لهم
النصر النهائي ، ولكنهم فرحوا بما أصابوا من المنائم ، ورضوا بما عرضه
عليهم الصليبيون من هدنة ، وأشاروا على صلاح الدين الانسحاب ،
بسبب وصول نجدة اوربية جديدة بقيادة صليبي كبير اسمه هنري
دي تروا ومعه عشرة آلاف مقاتل ، ورضي صلاح الدين بهذا القرار
كارها^٢ ،

وفي يوم الاثنين ١١ شوال ٥٨٦ هـ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)
١١٩٠ م ، غادرت جيوش الفرنجة معسكرها لمهاجمة المسلمين عند شفرعم ،
وقضت الليل في تل العياضية قرب آبار حفرها المسلمون هناك ، فاستعد
صلاح الدين لمقابلتها في اليوم التالي بعد أن وزع جيوشه الى ميمنة
وميسرة وقلب ، وسار بها حتى وقف على تل الخروبة « فبلغت آخر
ميمنته آخر التل ، وبلغت آخر ميسرته مصب نهر انا من بقرب البحر ،
ولما دنت جيوش الفرنجة وأمر صلاح الدين الميسرة ان تستدير بهم
حيث يقع آخرها على البحر ، وأن تستدير الميمنة بالنهر من الجانب
الشرقي ، وان يمضي الجاليس في الرمي بالنشاب ، وهدف صلاح الدين
من ذلك أن يقطع صلة الصليبيين بخيامهم المضروبة حول عكا . والواقع
ان الافرنج قضوا ليلتهم تلك وهم معزولون عن خيامهم ، ونهضوا في

١ - كتاب الروضتين ج ٥ ص ١٥٧ ، الفتح القسي ص ٢١١ ، السلوك ج ١ ص ١٠٤ ،
النوادر السلطانية ص ١١٤
٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٤١

الغداة ولا هم لهم الا النجاة من الشرك الذي اوقعوا انفسهم فيه ، وما زالوا يتقهقرون وهم يقاتلون ، حتى بلغوا ليلة الخميس جسر داعوق فهدموه لمنع المسلمين من العبور عليه ، وانتهت المعركة بذلك بعد ان ذهبت بالكثير من الضحايا ، وعاد صلاح الدين الى معسكره وقد اشتد المرض عليه ، الا انه عاد بعد ايام فأمكن نخبة من جنده في سفح قل كيسان ، ثم سار جماعة منهم الى معسكر الافرنج ، فتصدى لهم اربعمائة فارس منهم ، وحينئذ اخذ المسلمون بالتقهقر والفرنجة يتبعونهم حتى بلغوا الكين ، فانقضت بقية الجند عليهم فأسروهم جميعاً وجيء بهم الى صلاح الدين فاطعمهم وكساهم ونقلهم الى دمشق^١ .

ومن اروع ما يدل على ان الصلات الانسانية والمشاعر اشتركة بين الشعوب ، أقوى وأعمق من عوامل الفرقة والبغضاء ، اتفاق المؤرخين على ان المسلمين والصليبيين قد أسس بعضهم ببعض ، لطول المدة وكثرة المعاشرة ، بحيث كانوا يتركون القتال ، ويتجادبون الأحاديث ، ويتبادلون الطرائف والنوادر ، وربما غنى فريق ورقص فريق اخر ، ثم يعاودون القتال بعد ساعة^٢ ..

وفي إحدى المارك اسر عدد من الافرنج ، وجيء بهم الى صلاح الدين ، وكان بينهم شيخ هرم فقد أسنانه وضعف جسمه ، فقال للترجمان : « قل له ما الذي حملك على الهجره وانت في هذه السن ، وكم بين هذه البلاد وبلادك ؟ » فأجاب : « بلادي بيني وبينها عدة اشهر ، وأما مجيئي فانما كنت للحج الى كنيسة القيامة » فرق له وأمر بإيصاله

١ - المرجع السابق ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٩
النوادر السلطانية ص ١٢٢

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩٤ ،
Michand. II. p. 123

الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة^١

يقول ابن شداد : « وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سُموا من القتال ، فقالوا الى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم . فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب احد الصبيين المسلمين الى احد الصبيين الفرنجيين فاخطفه وضرب به الأرض « وقبضه أسيراً ، فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هو اسيرك حقاً » فأخذ الدينارين وأطلقه^٢ »

غير ان الأغرب والأعجب ، ان المجاعة اشتدت في معسكر الصليبيين في شتاء ١١٩٠ - ١١٩١ إذ انقطعت عنهم مراكبهم لهياج البحر ، فكان امراء صلاح الدين ومنهم عز الدين أسامة صاحب بيروت وسيف الدين المشطوب صاحب صيدا ، يأتون بالغلل من بلدانهم ويبيعونهم اياها باعلى الامنان ، ويقول ابن الأثير انه لولا مملك اولئك الامراء هلك الصليبيون جميعاً^٣ .

وقد روينا في الفصل الرابع وقائع معبرة من هذا القبيل ، سجلها أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » تلقي بعض الاضواء على العلاقات الاجتماعية التي سادت بين الصليبيين والمسلمين ، وننقل هنا بعض ما سجله الرحالة ابن جبير عن مشاهداته في البلدان التي كانت مسرحاً للحروب الصليبية ، وهي تؤلف دليلاً حياً على اصالة المشاعر المشتركة

١ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam. p. 258

٢ - النوادر السلطانية ص ٩٢

٣ - الكامل ج ١٢ ص ٣٥ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١١ ، الفتح القسني ص ٢٤٧

بين البشر اياً كانت مذاهبهم وأعرافهم والأقوام التي اليها ينتسبون ، وعلى ان تلك الحروب التي سميت حروباً دينية انما كانت نزاعاً مجنوناً على مكاسب الدنيا ومتاع الحياة .

يقول ابن جبير : « ومن العجب ان النصارى المهاجرين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء بمن انقطع الى الله عزّ وجل فتجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه انواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، ولما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضعف ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض .

« ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادي الأولى^١ من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق^٢ قليلاً ، وهو سرارة^٣ ارض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، يُذكر انه ينتهي الى اربعمائة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال

١ - يريد الافرنج

٢ - سنة ٥٨٠ هـ (آب - اغسطس - ١١٨٤)

٣ - أكثر

٤ - سرارة الشيء اطيبه

حصاره ، واختلاب القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يُمنع أحد منهم ولا يُعترض . وللنصارى على المسلمين صريفة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمانة^١ على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب .

« هذه سيرة أهل البلاد في حربهم ، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك . ولا تُعترض الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه^٢ . »

وكانت الأمداد ما تفتأ ترد الى سهل عكا من دمشق وحلب والموصل يلي بعضها بعضاً ، كما ترد الى عكا المحاصرة نفسها من بيروت والاسكندرية رغم ما يعترض ذلك من صعوبات كثيرة . ومن مواقف البطولة الفذة التي رواها ابن واصل ان صلاح الدين امر بتجهيز سفينة كبيرة من نوع البطسة في بيروت ، تملأ بالرجال والعتاد والمؤن وترسل الى عكا ، فما كادت تدنو منها حتى أحاطت بها أربعون من سفن الاعداء ، ولم ينفع رجالها تنكرهم بزي الافرنج فقد عرف امرهم ، وكانت تحمل ستائة وخمسين رجلاً ، فقاتلوا قتال الأبطال ، واحرقوا احدى السفن الافرنجية ، ولما يئسوا من النجاة قال مة مهم يعقوب الحلبي : « والله لا نُقتل الا

١ - الامن والاطمئنان

٢ - رحلة ابن جبیر ص ٢٥٩ - ٢٦١

عن عز ، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئاً ، ثم اغرقوا سفينتهم
فاستشهد كل من فيها^١

وكان السلطان يتصل بحامية عكا بواسطة الحمام الزاجل والسباحين ،
ومن هؤلاء السباحين فتى يدعى عيسى العوام نزل الى البحر ذات ليلة
وقد شد على وسطه ثلاثة اكياس فيها الف دينار ورمائل هامة ، ففرق
وقذف به البحر بعد ايام الى عكا فأخذ أهلها ما كان معه من رسائل
ومال . قال ابن شداد : « فما رأي من أدى الأمانة في حال حياته
وقد ردها في مماته الا هذا الرجل »^٢ ، ويقول الدكتور عبد اللطيف
حمزة ان هذا الفتى كان عن المسيحيين الشرقيين وكان تعبيراً عن كراهية
هؤلاء المسيحيين للافرنج المعتدين^٣ .

وكان صلاح الدين حريصاً ، كلما وافته فرصة أو حيلة ، على ان
يعد حامية عكا براً وبحراً بالمؤن والرجال ، ومن المحاولات الناجحة
التي قام بها في هذا الصدد ، انه أدخل الى المدينة المحاصرة ، عن طريق
البحر ، عدداً من القادة والامراء على رأسهم سيف الدين المشطوب ،
وأخرج عدداً آخر ممن أجهدتهم معاناة التعب والسهر وملازمة القتال
في الليل والنهار ، إلا أن الظروف الدقيقة التي جرت فيها هذه العملية
الناجحة أدت الى عكس النتيجة المطلوبة ، ويقول أبو شامة في ذلك:
« ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها ..
ودخل عشرون مقدماً وأميراً شبه المكرهين عوض ستين ، واستخدمت

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١ ، الكامل ج ١٢ ص ٤٢ ، النوادر السلطانية
ص ١٤٩

٢ - النوادر السلطانية ص ١٢٠

٣ - صلاح الدين بطل حطين ص ١٢٨

الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر^١

ولكن الامداد التي كانت تصل الى الفرنجة من اوربة كلها ، كانت من الوفرة والاستعداد والحماسة ، بحيث لا تستطيع الصمود امامها أية قوة او تتغلب عليها اية بطولة^٢

وقد جاء الى الشرق أول الأمر امبراطور المانية فردريك الأول الملقب ببربروس ، على الرغم من كبر سنه ، على رأس مائة الف محارب^٣ وكان فردريك قد اشترك في الصليبية الثانية مع عمه الامبراطور كونراد الثالث فاستعد لهذه الحملة استعداداً كبيراً ، واستكمل نواحي النقص في الحملة السابقة ، وجعلها بكل ما تحتاج اليه ، وأرسل الى صلاح الدين كتاباً ينذره فيه بأنه اذا لم يتخلّ عن جميع المناطق التي احتلها خلال اثني عشر شهراً فإنه سينشهر الحرب عليه مع جميع الشعوب الاوربية التابعة له وعددها سبعة وعشرون شعباً . وقد أجابه صلاح الدين بأنه اذا اصرّ على تهديد السلام والأمن في الشرق الادنى فسيغزو اوربة نفسها^٤

-
- ١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨١
 - ٢ - الفتح القسي ص ١٨٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩
 - ٣ - خطط الشام ج ٢ ص ٦٦ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٤٥ نقلاً عن ، Cambridge Med. Hist. v. p. 411 وروي بعض المؤرخين المسلمين انهم كانوا الف الف مقاتل (الفتح القسي ٣٠٣ - ٣٠٤) أما ابن شداد فيقول انهم مائتا الف وقيل مائتان وستون الفاً (النوادر السلطانية ص ٩٨) .
 - ٤ - الناصر صلاح الدين الايوبي ص ١٣٥
 - ٥ - Saladin Le Plus pur Héros de l'Islam. pp, 206 - 207 . Michaud. Iv P.146

يقول البير شلمبدر : « وهكذا غادر المانية في ١١ ايار (مايو)
١١٨٩ مائة الف جرمانى مأخوذىن بسعر الشرق ، ليعيشوا اسوأ مغامرة
في تاريخ بلادهم^١ . » فقد سلك فردريك بحملته طريق البر ففرق وهو
يعبر نهراً في كيليكية ، وتضعض افراد جيشه بموته ، وانتشر بينهم
المرض والطاعون ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من عاد الى وطنه ،
ومنهم من التحق بجموع الفرنجة أمام عكا بقيادة فردريك السوابى ابن
الامبراطور الفریق ، فما لبث الامير الشاب ان توفي أمام أسوار عكا في
٢٠ كانون الثانى (يناير) ١١٩١ (٥٥٨٧)

وقد وقف العاهل البيزنطى اسحق الثانى انجيلوس (ايساكىوس)
موقفاً عدائياً صريحاً من الامبراطور الالماني ، وبادر الى التحالف مع
السلطان ، متمهداً بأن يكون لصالح الدين نوع من الوصاية على مسلمى
القسطنطينية ، كما تعهد له صلاح الدين بوضع الأماكن المسيحية المقدسة
تحت رعاية رجال المذهب الارثوذكسى^٢ . وبينما حاول العاهل البيزنطى
منع الامبراطور الالماني من الوصول الى سورية - وكان ينبىء صلاح الدين
بتحركاته ، كما كان يكتب اليه بشأنها بركري كور بن باسيل مقدم
الأرمن بقلمة الروم على طرف القرات ، كما ذكر ابن شداد^٣ - تطوع
الامير المسلم قلعج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ، بإرشاد الامبراطور في
طريقه الى الشام ، عبر آسية الوسطى ، نظراً لتخوفه من محور دمشق
القسطنطينية^٤ .

١ - Saladin, p. 213

٢ - السلوك ج ١ ص ١٠٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، الروم

وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٢ ، Chrmpdor : Saladin. p. 212

٣ - انظر النوادر السلطانية ص ١٠٧ - ١٠٩

٤ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٥٤ - ١٥٦

وبعد امبراطور المانية أقبل الكونت هنري دي شيمانيا (الكندهري)
فقوى من عزيمة الفرنجة بما كان معه من مال ورجال ، وما حمل اليهم
من بشائر حافزة عن النجيدات العظيمة المقبلة اليهم ، وما أدخل على
أساليب القتال والحصار من طرق فنية ومكاند حربية جديدة .

ثم وصل فيليب اوغست ملك فرنسا الفرنسي (في جيش لجب ،
فاستقبل بالمشاعل والتراتيل كأنه ملاك من السماء جاء لانقاذهم ، وكان
ذا قرابة بكونراد فرحب به وولاه القيادة . الا ان فيليب اوغست ما
كان لينظر الى الحرب الصليبية الا نظرة ملك عظيم يجب عليه ألا
يتخلف عن مهمة تحرك لها غيره من النظماء^١ ، وسرى انه لن يلبث
حتى يعود الى بلاده التي كانت في نظره محل اداء واجبه وليس بلاد
الشام .

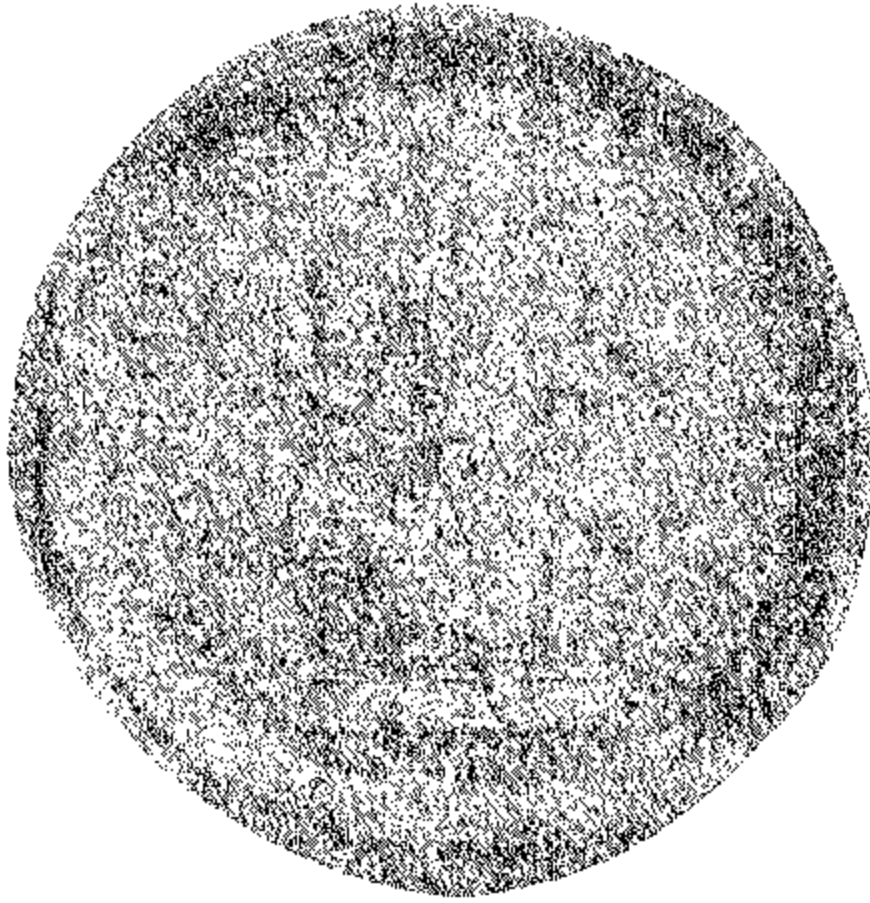
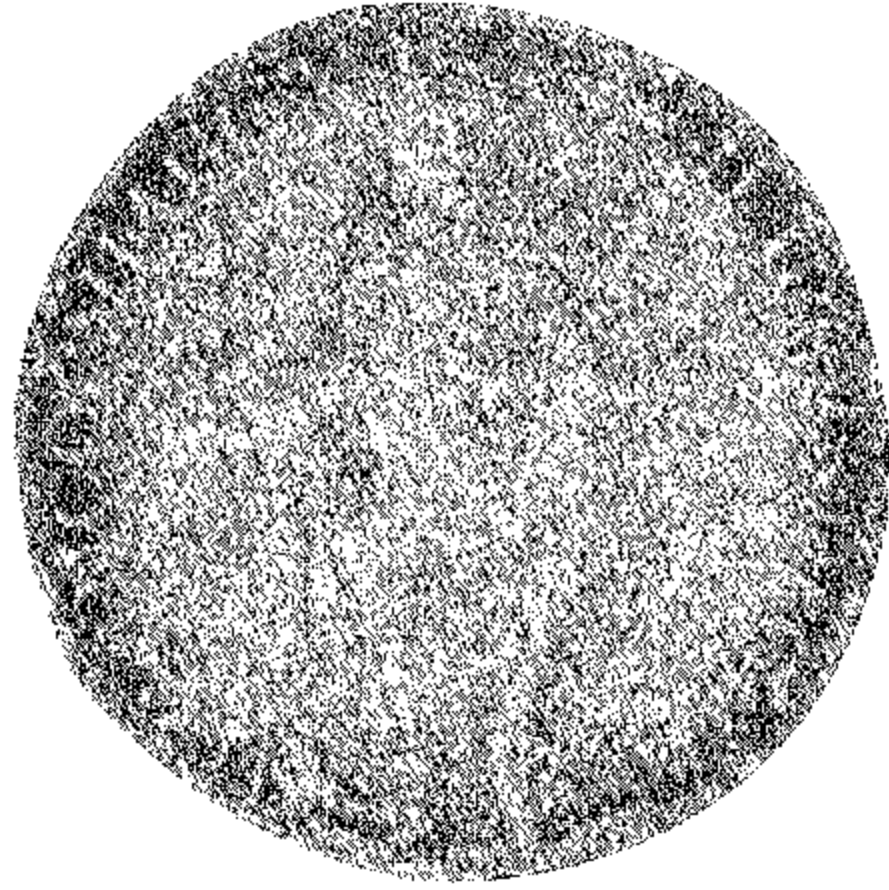
وتبعه ريشارد ملك الانكليز (الانكتار) الملقب بقلب الاسد ، والذي
أحرز في هذه الحرب شهرة لا تقل عن شهرة صلاح الدين . وكان ريشارد
يقود اسطولاً كبيراً ، وقد حارب صقلية وهو في الطريق الى سورية واحتل^٢
قبرص بعد ان اعتقل صاحبها الكيبوس كومينيوس الذي كان يطلق على
نفسه لقب امبراطور قبرص ، وكان على صلوات ودية مع صلاح الدين^٣ ،
وارسله الى فلسطين مكملاً بالقيود لأنه كان يحالف صلاح الدين وقد
حاول منع ملك الانكليز من النزول في الجزيرة^٤

وقد كان لاسطول ريشارد اثر فعال في تشديد الحصار على عكا ،
الا ان اسطول قلب الأسد لم يكن الاسطول الوحيد الذي حاصر عكا

١ - صلاح الدين الايوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص ١٧٠

٢ - تاريخ العالم لهاموتن ج ٥ ص ١١٠

٣ - تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١١٨



أختام فيليب اوغست وريشارد قلب الاسد

{٢٥}

٤٨٥

واشترك في الحملة الصليبية الثالثة ، وأثما أسهمت في ذلك أساطيل
صقلية وبيزة وجنوة والبندقية جميعاً

ويسجل التاريخ لصالح الدين مآثرة عظيمة تدل على تجرده وتضحيته
وانكاره لذاته في سبيل تحقيق رسالته وتحرير بلاده ، وهي انه لما رأى
ذلك الطوفان المتدفق من جنود الفرنجة الذين توافدوا من جميع أنحاء
أوربة وحملوا معهم كل آلات الموت ووسائل الدمار ، طلب من الخليفة
العباسي الناصر لدين الله ، أن يحضر بشخصه الى أرض المعركة ليشير
بذلك حماسة المسلمين وعزيمة المقاتلين ، معلناً انه يتنازل له مقابل ذلك
عن ملكته الشاسعة كلها ، ولكن امراء الجزيرة الزنكيين رفضوا رؤية
الخليفة بينهم ، كما أن الخليفة نفسه لم يكن مستعداً للانتقال من الحياة
المترفة في قصره الى حياة الشظف والمخاطرة في ساحة القتال ، فلم يجب
على صلاح الدين واكتفى بأن ارسل اليه عدة أحمال من النفط ، ورقة
تضمن الأذن له بأن يقترض بعض المال من التجار^١ .

يقول ابن شداد : « ووصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ،
ووصل منه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزرايين ، ووصل معه
من الديوان العزيز النبوي مجده الله رقعة تضمن للسلطان ان يقترض
عشرين الف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان
العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة
والتثقل بها !... »^٢ ،

والواقع ان الخليفة لم يكن لينظر بارتياح الى توسع صلاح الدين ،

١ - الفتح القسي ص ١٦٢ ، ١٧٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٧

٢ - النوادر السلطانية ص ١٠٢

وكان قد أرسل اليه وهو قائم على حصار صور رسالة يعاتبه فيها لأنه يبعث البشارة بفتح بيت المقدس مع جندي بغدادى يدعى الرشيد ابن البوشجى ، إذ عدّ الخليفة ذلك اهانة له ، كما لامه على الاستمرار في اتخاذ لقب الملك الناصر مع انه لقب الخليفة ، واعتبر البشارة نوعاً من الفخر والاعتداد فقال عنها « يفتخر علينا بالقدس ، وهل فتحها الا بعساكر الديوان وتحت رعايته » . وقد تركت هذه الرسالة أثراً عميقاً في نفس صلاح الدين ، إذ آلمه ان يقابل جهاده وتضحيته بالجحود والنكران ، ولعل هذا الموقف المؤسف الذي وقفه الخليفة العباسي هو الذي حمل صلاح الدين على دعوته الى الاشتراك في موقعة عكا مقابل التنازل له عن كل ما يملك ، وهو ضرب من التحدي قابله الخليفة برسالة احمال النفط التي يستهلك صلاح الدين اضعافها كل يوم ، وبالرقعة التي اعتذر السلطان عن قبولها « والتثقيب بها » . . وكادت رسالة الخليفة تشمل نيران ثورة لاهية في معسكر صلاح الدين حين اطلع امرائه وقادته عليها ، فغضبوا غضباً شديداً ، ودعاه بعضهم الى اعلان العصيان ، لولا ان قدارك العماد الموقف ، ونسب ما جاء في الرسالة من لوم وتقريع الى كاتب الديوان الذي لم يحسن التعبير فيها او حرفها عامداً بقصد الوقيعة بين الرجلين الكبيرين .

ولما كثر القتلى من الفريقين ، انتشرت الأمراض والأوبئة ، واصيب صلاح الدين باعتلال في صحته ، وهو يجالد المرض ، ويرتب الجنود بنفسه ، ولا يهتم بوصية اطباء ونصح الناصحين ، ويركب من بكرة النهار الى المغيب ، يطوف على الأجناد صابراً ، قائلاً لمن يلومونه على ما يفعل : « اذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل . . . »

١ - انظر الفتح القسي ص ٨٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٧

الا ان امرائه ما رالوا يلحون عليه حتى استطاعوا اقناعه بنقل معسكره من تل كيسان الى الخروبة^١ فانقطع بذلك الاتصال بين قوات المسلمين في داخل عكا وخارجها حتى تعذر التراسل بينها الا بالهام الزاجل، وشرع الفرنجة في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر الى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكزهم من آلات الحصر .. فكان من قضاء الله اننا اغفلناهم وأمهلناهم بل املمام .. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا^٢،

وكما اعتلت صحة صلاح الدين ساءت صحة ريشارد حتى اشرف على الموت، وجرح فيليب اوغست بجرحاً بالغاً، وغادر كونراد عكا الى صور غاضباً حين استفحل الخلاف بينه وبين غي دي لوسينيان، وقد كانا يتنازعا على عرش مملكة لا وجود لها^٣، فخشي الصليبيون ان ينتهز المسلمون تلك الفرصة فيحملوا عليهم حملة قاضية، فلبجأوا الى الحيلة، وأنشأ ريشارد يرأسل السلطان ويشاغله ويطلب مقابله، وتأثر صلاح

١ - كان صلاح الدين يؤثر البقاء قريباً من المدينة ومتابعة القتال لصد قوى الفرنجة قبل ان يفتح البحر وتتكاثر الامداد التي تندفق من اوربة وشواطئ سورية، ولكن امرائه اضطروه للرحيل الى الخروبة لبيتهدوا عن جو المعركة الذي تلوث برائحة القتلى - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦، الفتح القسي ص ١٦٩

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٧

٣ - توفيت الملكة سيبيل وبناتها بالطاعون اثناء حصار عكا وأمام اسوارها، ففقد زوجها غي دي لوسينيان حقه في عرش بيت المقدس، وآل الملك الى اختها الاميرة ايزابييل الابنة الثانية لأموري الأول، ولم يكن زوجها اونفروا الرابع دي تورون محبوباً من امرائه الصليبيين فبادر هؤلاء الى اقناعها بأن تطلقه وتزوج مسن كونراد دي مونتفرات، لاعتقادهم بقدرته على بعث مملكة بيت المقدس (Champdor : Saladin, p. 263) وقد عاد كونراد الى المشاركة في حصار عكا مع خمسين سفينة مسلحة ومثل دوراً حاسماً في استسلام حاميتها.

الدين لمرض قلب الاسد فهادنه وأرسل اليه الفاكهة والثلج حتى شفي^١. ولما جاء رسول ريشارد طالباً تحديد موعد للاجتماع بين العاهلين أجابه السلطان : « ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة » ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، واذا اراد ذلك لا بد من تقرير قاعدة^٢ ، الا ان بعض المؤرخين الغربيين يؤكدون ان صلاح الدين قد عين موعداً للمقابلة ، ونصب خيمة خاصة لهذا الاجتماع ، ولكن ريشارد ارسل يعتذر في الوقت المحدد بأن المرض قد حال دون تحقيق امنيته في الاجتماع بصلاح الدين^٣

وقد تعددت الآلات الحربية التي استخدمها الفرنجة في هذا الحصار الطويل والقتال الضاري ، ومنها الزنبورك وهو سهم في سمك الابهام وفي طول الذراع ذو اربعة اوجه وحده من الحديد ، وطلقته مريعة تخترق رجلين جالسين احدهما خلف الآخر بزيتها المسكري ودرورها ، وكان هذا السلاح قد حرم استعماله ، ثم استخدمه الصليبيون في حصار صور وعكا ، وانتشر بعد ذلك في اوربة وقتل ريشارد نفسه بطلقة منه ، ومنها دبابة هائلة مصنوعة من الخشب والرصاص والحديد والنحاس مقامة على عجل تسير من داخلها ، تنقر الاسوار وتلقي بالنار ، وقد تمكن اسلمون من تدميرها بالقاء النار عليها لما فتح بابها فقتل من فيها^٤. وصنع الفرنجة ابراجاً كبيرة من الأخشاب والحديد ذات خمس طبقات ،

١ - الفتح القسي ص ٢٧٥ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥٥

٢ - النوادر السلطانية ص ١٥١

٣ - Saladin Le plus pur Héros de L'islam p, 281

٤ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ١٩٦

٥ - الفتح القسي ص ١٠١

يسع سطحها منجنيقاً ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمائة رجل ، وقد علت هذه الأبراج على أسوار المدينة ومنازلها ، وكانت مكسوة بجلد المقر ، ومبللة بالخل والطين كي لا تتأثر بالنار اذا اطلقت عليها^١ ، وكان الافرنج يقذفون منها النار والأحجار والسهام ، وقد جمع السلطان الصباء والنفاطين المحنكين ، وحشهم على الاجتهاد في احراقها ، ووعدهم بمكافآت ثمينة ، ولكنهم اخفقوا وصاقت بهم الحيل ، ثم تقدم شاب من دمشق يشتغل في صناعة النحاس يدعي علي بن عريف النحاسين ، وأعلن انه يستطيع احراقها ، فهزىء به القوم وقالوا : « اين تذهب انت ايها الشاب الصغير امم هؤلاء الشيوخ المحربين ؟! » ولكن صلاح الدين أفسح له المجال ، فتمكن الشات من احراقها ، إذ رمى بالمنجنيق قدور النفط البارد لتبيل الأبراج من كل ناحية ، ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها^٢ وقد أراد السلطان مكافأة هذا الشاب النابغة فرفض المكافأة قائلاً : « انما فعلته لله ، ولا اريد المكافأة الا منه »^٣

وقد نوه صلاح الدين في رسالة وجهها الى الخليفة العباسي بذلك كله ، فقال : « انهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، واخرى بالمنجنيقات ، وراذفة بالدبابات ، وقابعة بالكباش ، واوثة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلام ، ودفعةً بالزحوف في الليل والنهار ، وحالةً في البحر بالمراكب . ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفموها بالأخشاب وعلوها بالحجارة »^٤

١ - ذيل النوادر ص ٢٩٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٢٨

٢ - الناصر صلاح الدين الايوبي ص ١٣٠ - ١٣١

٣ - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٣٢١

٤ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٤

وكذلك تطورت فنون القتال لدى المسلمين ، فكانوا يزرعون الطرق بالحديد لتعوق تقدم العدو ولا سيما فرسانه ، واستعملوا في قذائفهم النفط الاسود الذي يؤتى به من ساحل البحر الأحمر والنفط الأبيض الذي يؤتى به من العراق ، وأنشأوا أقواساً تطلق عدة سهام في آن واحد .

وجملة القول ان كلا من الفريقين قد استنفد ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار ، في البر والبحر ، مما لم يشهد مثيله في جميع أدوار الحروب الصليبية^١

وفي اوائل جمادى الثانية سنة ٥٨٧ هـ تموز (يولييه) ١١٩١ م ، اشتد الضيق على أهالي عكا وحاميتها ، ووهنت منهم القوى ، وتهدمت اسوارهم ، ولم يعد بهم طاقة على مواصلة الصمود ، وفقدت معظم قطع الأسطول الأيوبي التي كانت تقوم بمحاولات بطولية يائسة لانقاذ المدينة المحاصرة ، إذ حطم بعضها الأعداء ، وأغرق بعضها هياج البحر .

وبينما كانت أعداد الفرنجة تتكاثر ، وتفوقهم البحري يتعاضم ، بدأ امرء الاجناد من المسلمين يتعلمون^٢ وضجرت المساكن من كثرة القتال ، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل^٣ ، وتتابع رحيل الأمراء واجنادهم حتى بلغ عدد الراحلين منهم عشرين أميراً^٤ .

ويبدو انه لم يكن من اليسير على صلاح الدين ابقاء هذه الجيوش

١ - العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ص ٢٠٢

٢ - السلوك ج ١ ص ١٠٥

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٣ ، الفتح القسي ص ١٠٦

المختلفة الاجسام والاعداد في حالة حرب أمام القلاع والحصون اعواماً متصلة ، على غير مألوفها من الحرب والغنيمة السريعة ثم العودة السريعة الى أهلها ، ولم يكن هناك من نظم بريدية ما هوّن على الأمراء طول البقاء ، لأن نصيب الاجتاد من نظام البريد يكاد يكون معدوماً في تلك العصور ، لاقتصاره على لاغراض الحكومية ^١ ،

وقد روى السلطان ذلك كله للخليفة العباسي في رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا ، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن « المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت في استطاعتهم لا في طاعتهم ، وفي احوالهم لا في شجاعتهم ، فالبرك (الثياب) قد أفضوه ، والسلاح قد احفوه ، والدرهم قد أفنوه ، في حين ان البحر يد الافرنج « بمراكب اكثر عدة ، من أمواجه .. فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث عوضه الفأ ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً ^٢ ،

الا ان السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن اخيه تقي الدين عمر الذي ذهب الى امارته في الجزيرة على أن يعود في اقرب وقت ، فشغلته أحداث الامارة عن العودة السريعة ، وقد رأى صلاح الدين في غياب تقي الدين أحد الاسباب الرئيسية التي أدت الى سقوط عكا ^٣ .

وحينئذ راسل أمير عكا سيف الدين المشطوب الفرنجة في الصلح ،

-
- ١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ٢٤٨
 - ٢ - صبح الاعشى ج ٧ ص ١٢٨ وبلاحظ ان صلاح الدين يجد الاعذار للامراء الذين غادروه وهو في أخرج الظروف وتخلوا عنه وهو في اوج المعركة
 - ٣ - الفتح القسي ص ٢٨٢



وقال لهم : ولما استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل ما يشاؤون ، فوهبناهم حرية الذهاب الى حيث يريدون ، يحملون معهم اسلحتهم وأمتعتهم وبضاعتهم وأهليهم ، وما نحن اليوم نعطيكم المدينة على أن تعاملونا بمثل ما قد عاملنا به قومكم من قبل ، ولكنهم أبوا عليه ما طلب ، فعاد الى القتال وقد عزم على المضي فيه حتى ينتصر او او يموت تحت انقاض المدينة .

وتدخل صلاح الدين في المفاوضات ، ومثل الفرنجة مقدم الاستتارية ومثل المسلمين الملك العادل شقيق السلطان ، فطالب الفرنجة باستعادة مملكة بيت المقدس كما كانت عليه قبل استيلاء صلاح الدين عليها ، فرفض الملك العادل ذلك وأخذ السلطان يعيد تنظيم جيشه استعداداً للاشتباك مع العدو في معركة فاصلة ، فلم يكن من كونراد الا ان عقد مع حاميه عكا اتفاقاً منفرداً تعهدت الحامية فيه بدفع مائتي الف دينار وتسليم الفين وخسمائة من أسرى الفرنجة ، مقابل السماح لافرادها بمغادرة المدينة^٢ ، فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الفرنجة على أسوار عكا ، فعظمت المصيبة واشتد الحزن وغشيت الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة^٣ ، لاسيما وان عكا كانت تحوي جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب^٤ . وزاد من عظم المصيبة ان الفرنجة نقضوا شروط الصلح ، فأسروا من فيها وكانوا الوفا^٥ ، وكانت هذه المعركة أول معركة

١ - المرجع السابق ص ٢٧٧

٢ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧ ، الفتح القسي ص ٢٨١

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٨

٤ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٥٧

٥ - السلوك ج ١ ص ١٠٥

يخسرهما صلاح الدين الأيوبي منذ أربعة عشر عاماً .

ودخل الفرنجة عكا في ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٨٧ هـ ١٢ تموز (يولييه) ١١٨٠ م . يقول ستانلي لينبول : « وقتل ملك الانكليز ريشارد بعدئذ ٢٧٠٠ أسير من أهالي عكا دون ان يضطرب له ضمير ^١ » وهو أمر يتنافى مع الأعراف السائدة في تلك العصور ، بالتمييز بين الأسرى الذين يؤخذون في ساحة الحرب ، والأسرى الذين يسلمون انفسهم رهائن مقابل شروط معينة

وقد تناول المؤرخون الغربيون هذه المذبحة البشرية ، بلاذع النقد واللوم ، على حين أنتوا على صلاح الدين ومسا انطوت عليه نفسه من روح التسامح رسة الصدر والحلم والوفاء بالوعد ^٢ . ويقول الدكتور فيليب حقي : « وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس ^٣ »

وكان صلاح الدين قد جمع المال المطلوب لفداء الأسرى وعددهم يزيد على عشرة آلاف وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش ^٤ ، وطلب من الفرنجة اعطاء الضمانات على الوفاء بوعدهم قبل استلام المال ، لئلا يأخذوا المال ويرفضوا تسليم الأسرى ، فأبوا عطاء أي نوع من الضمانات ، ورفض فرسان الداوية ان يكفلوا تنفيذ ريشارد.

١ - حياة صلاح الدين الأيوبي للبيبي ص ١٩٣

٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٦٠

٣ - العرب ...

٤ - افتدى صلاح الدين سيف الدين المشطوب فيها بعد بمشرة آلاف دينار ، أما بهاء

الدين قراقوش فقد تمكن من الهرب

لوعده حين قبل السلطان بكفالتهم ، بما جعله يتردد في دفع الفداء ، فغضب ملك الانكليز وعمد الى قتل اولئك الأسرى بدافع الانتقام . ويرى بعض المؤرخين في هذا الخلاف ، أو سوء التفاهم ، ما يخفف من حن جريرة ريشارد ، لا سبها وان الجدل في امر الفداء والضمانات التي طلبها صلاح الدين قد طال شهراً كاملاً .

ولما علم صلاح الدين بما فعله ريشارد لطم رأسه وبتف لحيته وبكى بكاء شديداً^١ ولكنه على الرغم من شدة غصبه فقد استطاع الاحتفاظ بسماحته ورباطة جأشه ، وكان قد جيء بمن في دمشق من اسرى الفرنجة لتجري مبادلتهم بأسرى المسلمين ، فأمر باعادتهم الى دمشق سالمين ولم يأخذهم بجريرة اخوانهم^٢ .

ويعلل الدكتور نظير سعداوي سقوط عكا من وجهة النظر العسكرية ، فيقول ان المدينة قد قاومت حصار الصليبيين سنتين كاملتين ، شهدت خلالها أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي . وامتاز الصليبيون خلال هذا الحصار بأسطول قوي ، وآلات حربية ضخمة ، على حين امتاز المسلمون بوحدة القيادة الكفيلة بالانصار ، لولا ما تسرب الى صفوف المسلمين من ضجر في المعسكر الصلاحي ، وملل من طول الحصار في جند الحامية المحصورة بعكا .

« والواضح ان المسلمين فقدوا عكا لأسباب سياسية وعسكرية ، أولها ضعف قوتهم البحرية ، ثم فقدان الروح المعنوية عند امراء صلاح الدين ، واختلافهم معه في الرأي اكثر المناسبات الحربية ، ثم عدم إنجاز الخليفة

١ - مرآة الزمان ص ٢٦٢

٢ - صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب ص ١٨٨



اسوار عكا عن فرنسا قديما

العباسي لصلاح الدين بنجدة معنوية او مادية كبيرة .

« وما تجب الاشارة اليه ما شهدت عكا من قيام مدينتين عسكريتين خارج اسوارها أثناء مقاومة ذلك الحصار الطويل المدى ، احدهما اسلامية شرقية بها خصائص وتقاليد الحياة الدينية والاجتماعية والعسكرية الموروثة .. والثانية صليبية غربية بها خصائص المدينة الاوربية .. وكانت العلاقات الاجتماعية السلمية بين الأيوبيين والصليبيين ودية عموماً ، رغم ما بين الفريقين من حرب .. »^١

ووقف صلاح الدين على رابية عالية يطيل منها النظر الى عكا الأسيرة بعد صراعها الجبار ، وقد بدا في جلاله ونبله وحزنه العميق ، كأنه قد أرسل روحه في صلاة صامتة خاشعة .

ولبت وقتاً طويلاً وهو في موقفه ذلك ما يريم ، ولا يتحول بوجهه عن المدينة الجريحة ، كأن تنظر الى قبر ابنها القتيل ، وفي نفسها عوامل شق من الفجيعة والثورة الصامتة والألم العميق ، ثم لوى عنق جواده وأطلق عنانه ، فانطلق يشق به الرمال السواني ، وكأن له جناحي نسر كما أن لصاحبه إباء النور .

وكانت جوارح الطير تنقض على جثث القتلى ، فتنهشها ثم تحلق في الفضاء وهي تطلق صرخات حادة ظافرة ، فيتصل صوتها الخفيف بقلبه ، ويشتبك في صراع ألم مع نوازع الخير المتأصلة فيه .

في تلك البقعة التي كانت مهد السلام والحب ، وقف صلاح الدين

١ - التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ص ٢٦٠ - ٢٦٢

الأيوبي مستنداً الى عنق جواده ، وقد خيل اليه ان الأرض تشتعل في كل مكان ، والسحب تغطي السماء كأعمدة من دخان ، وتمثلت له الجيوش الجرارة والملوك العظام والشعوب المختلفة اللغات التي تتقاتل وتتطاحن ، وكأنها ستظل تتقاتل وتتطاحن حتى تبيد جميعاً ، ولا يبقى في أرض الحب والسلام سوى تلك الطيور الجوارح ، تنهش لحوم الموتى وترسل صيحتها الساخرة في السماء !..

ولفّ السلطان ذراعه حول عنق الجواد ، ذلك الصديق الصامت الطيب ، ومسح بشعره الناعم الطويل دمعات خرساء تحدرت على خديه !..

الفصل العشرون ريشارد قلب الأسد

وصف الكاتب الفرنسي البير شامبدور الوضع الجديد الذي انتقلت اليه عكا بعد استيلاء الفرنجة عليها فقال :

« لقد تقاسم الصليبيون الغنائم الكبرى التي عثروا عليها في المدينة ، بل توزعوا ايضاً أرزاق التجار المسيحيين الذين عاشوا في عكا منذ سنين عديدة ، مطمئنين الى الادارة الاسلامية التي لم يشكوا منها قط ، ولم يصبهم منها اي أذى . ولما رأى هؤلاء التجار ان اولئك الفاتحين الذين اعتمهم ولا ريب نشوة الانتصار ، سيسلبونهم كل ما يملكون ، جاءوا الى ملك فرنسة محتجون لديه على اعمال النهب التي يتعرضون لها ، وقالوا له بشيء غير قليل من القسوة ان المسيحيين انما جاءوا في اعتقادهم لانقاذ بيت انقدس وليس لسلب الأرزاق التي تركهم الكفار يتمتعون بها .

وقد دافع فيليب اوغست عن قضيتهم ، واتخذ التدابير اللازمة كي لا تساء معاملة مسيحيي عكا القدماء من قبل المنتصرين . ولكن ما هو الا قليل حتى كان الانكليز والفرنسيون والهيكليون وفرسان المستشفى والسكنديناقيون والفلمنديون وأبناء بيزة والبندقية والألمان ، يتنازعون السيادة في المدينة التي اشتركوا جميعاً في الاستيلاء عليها . وكانت غي

دى لوسينيان الباحث عن المملكة التي فقدها بي حطين ، يتفجع بمفرده وهو يرى تمزق المسيحية المجاهدة .

والحق ان التحالف الودي بين الصليبيين كان قصير المدى ، فمذ اليوم التالي لدخولهم الى عكا ، بدأوا يتقاتلون فيما بينهم . وقد اجتل ايوبولد دوق النمسا ورجاله أحد الحصون ، ورفع علمه عليه ، فاستاء قلب الأسد الغضوب لمراى هذا العلم وهو يخفق مزهواً في السماء دون استشارته وموافقته . فانتزع العلم والقى به في الوحل ونصب علمه مكانه .

« وشعر الالمان بالاهانة فقرروا ذبح الانكليز الذين يلتقون بهم في الاسواق ، وكان الأمر في حاجة الى دبلوماسية الدوق ليوبولد كي لا يؤدي الى نتائج مؤسفة . الا ان الدوق ما لبث ان انتقم لنفسه فيما بعد . وكان ملك اسكترة مستمراً في التصرف وكأنه السيد الوحيد الذي ينبغي أن يقدم له الجميع فروض الطاعة ، من أصغر الناس شأناً الى أوفرهم قوة . ولعله كان على حق في ذلك ، لو لم يعامل فيليب اوغست كتابع له . والواقع ان ملك فرنسا ، بصاديقه الفارغة وثيابه البالية ، كان يبدو بمظهر الغريب الفقير الى جانب الثري الانكليزي الذي كان يستطيع ان يشتري بالذهب القبرصي جنوداً وضباطاً ونبلاء كما يشتري امراء خانوا صلاح الدين .

« وبدافع القرف ، وارص الذي عاوده من جديد ، وانباء الاضطرابات التي عمت فرنسا ، قرر فيليب اوغست معادرة عكا ، حيث كان كونراد دى مونتفرات ما يزال مخلصاً لصديقه الفقير الذي اكتشف الخدعة التي تورط فيها . وفي هذه المدينة استقبل ملك فرنسا وفداً رسمياً أرسله صلاح الدين للاطمئنان على صحته ، ولتهنئته بالانتصار الذي احرزه

عليه ، وليقدم له هدايا ثمينة جديدة بملك عظيم .

وما لبث فيليب اوغست أن قرر السفر الى فرنسا ، فأبقى الفأ وخمسة من جنوده في الأرض المقدسة بقيادة هوغ الثالث دوق دي بورغونية ، وتخلي لمركز صور المعجوز عن حصته في عكا بوصفه شريكاً في فتحها ، وأوصى بأن تعود المكاسب المقبلة التي يجب ان تقسم بين فرنسا وانكلترا بمقتضى معاهدتي فيزيلاي وعكا ، الى كونراد دي مونتفرات ، على أن يتولى أمرها لحساب ملك فرنسا . وبعد ان أنهى فضاياه السياسية على هذا النحو ، أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١ الى ايطالية على اسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة ، حيث تلقى شعار حجته من يد البابا سيلستان الثالث ، وما كاد يصل الى مملكته حتى أعاد تنظيم شؤونه المالية وأخذ يبحث عن طريقة للاستيلاء على الأراضي التي يملكها البلانتاجانيون^١ في فرنسا ، متناسياً اليمين التي أقسمها على احترام تلك الأراضي ، وصيانتها من كل عدوان ، حتى عودة ملك الانكليز^٢ .

وقد ترك سفير فيليب اوغست الساحة خالية أمام ريشارد قلب الاسد ، ففدا الزعيم الذي لا يُنازع للحملة الصليبية الثالثة ، وقرر الزحف الى عسقلان والاستيلاء على جميع المدن الساحلية التي تقع بينها وبين عكا ، حتى اذا تمت له السيطرة عليها اتجه داخلياً شطر المدينة

١ - لقب الاسرة الثانية من كورنتات انجو التي توارثت العرش البريطاني من عهد هنري الثاني الى عهد هنري السابع (١١٥٤ - ١٤٨٥) ، وقد أدى خلاف ريشارد وفيليب اوغست الذي بدأ في الاراضي المقدسة الى اشغال حرب المائة عام بين الملكتين ،

٢ - ١ - 284 - 285 - q. Héros de L'isiam, Le plus pur Saladin ، انظر ايضاً :

Marin : Hist. de Saladin. II, p. 303

المقدسة ، فسار جنوده - وقد بلغ عددهم مائة الف جندي وقيل ثلاثمائة الف^١ - على مقربة من الشاطئ وسفنهم تواكبهم في البحر ، كي يتجنبوا الاصطدام مع الجيش الصلاحي في معركة مكشوفة^٢ ، ولحق بهم صلاح الدين بعد أن تبنى خطة الارض الجرداء ، فأمر باخلاء المدن الساحلية وتدميرها واحراق مزارعها وردم آبارها ، حتى لا يجد الفرنجة فيها زاداً أو مالاً أو ملجأ يلجأون اليه .

وأدرك صلاح الدين ان جنوده بسلاحهم الخفيف ، اضعف من أن يلاقوا الفرنجة المدججين بالحديد في ملحمة او معركة كبرى ، فانتقل الى ما تسميه اليوم حرب العصابات ، وأخذ جيشه ينقض على اعدائه في مناوشات خفيفة يرغمهم على منازلته فيها ارغاماً ، ويتغلب عليهم فيها بمهارته وشجاعته وبراعة خططه ، حتى أصبح شغل الافرنج الشاغل حماية أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئة على طلائعهم أو رسلهم أو كتائبهم الصغيرة أو أطراف معسكرهم . نفسه ، تارة من الأمام وتارة من الخلف وتارة اخرى من اليسار ، فكانوا اذا ما نعموا بفترة قصيرة من السلام ، اشتغلوا بتأمين المعسكر الذي باتت تشغله جماعات قليلة من المسلمين ، واحاطته بوسائل التعصين .

وقد سجل صاحب الروضتين باعجاب منظراً رائعاً لتحرك الجيش الصليبي ذا اهمية تاريخية كبرى نظراً لدقته ووضوحه ، فقال : « وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألّبوا وهم يسرون في الساحل

١ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٢٦ نقل عن :

Morgate : Richard The Lion Heart, p. 176

٢ - دلت معركة عكا على تفوق المسلمين في المعارك المكشوفة ، وحسن تعاون رماثهم مع فرسانهم ، كما دلت على تفوق الافرنج في البحر والمعارك البحرية .

بالفارس والراجل ، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل . وكانت
الرجالة حولهم كالسور ، وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابقة
المحكمة ، بحيث يقع فيهم الشباب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزنبورك
فتجرح خيول المسلمين وغيرهم . ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم
النشابة والعشيرة مفروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، ثم قسم
اخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا
تعبد هؤلاء انقائلة أو اتخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح
القسم العمال ، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في
وقت الحملة لا غير . وقد انقسموا ايضاً ثلاثة اقسام : الأول الملك العتيق
جفري وحماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكبار والفرنسية معه
في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة ،
وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم على ما وصفت من قبل يسير
ايضاً و وسطهم على عجلة كالنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال ،
وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم
بالشباب ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون في نفوسهم
حفظاً عظيماً ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسرون سيراً
رفيقاً ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر الى ان أتوا المنزل فنزلوا .
وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فان المستريحين كانوا يحملون اثقالهم
وخيمهم لقلة النظر عليهم . فأنظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال
الشاقة . ١

ومع ذلك فما لبث الفريقان ان التحما امام أرصوف ، في الرابع
عشر من شعبان ٥٨٧ هـ ٧ أيلول سبتمبر ١١٩١ م ، بعد أن خلو

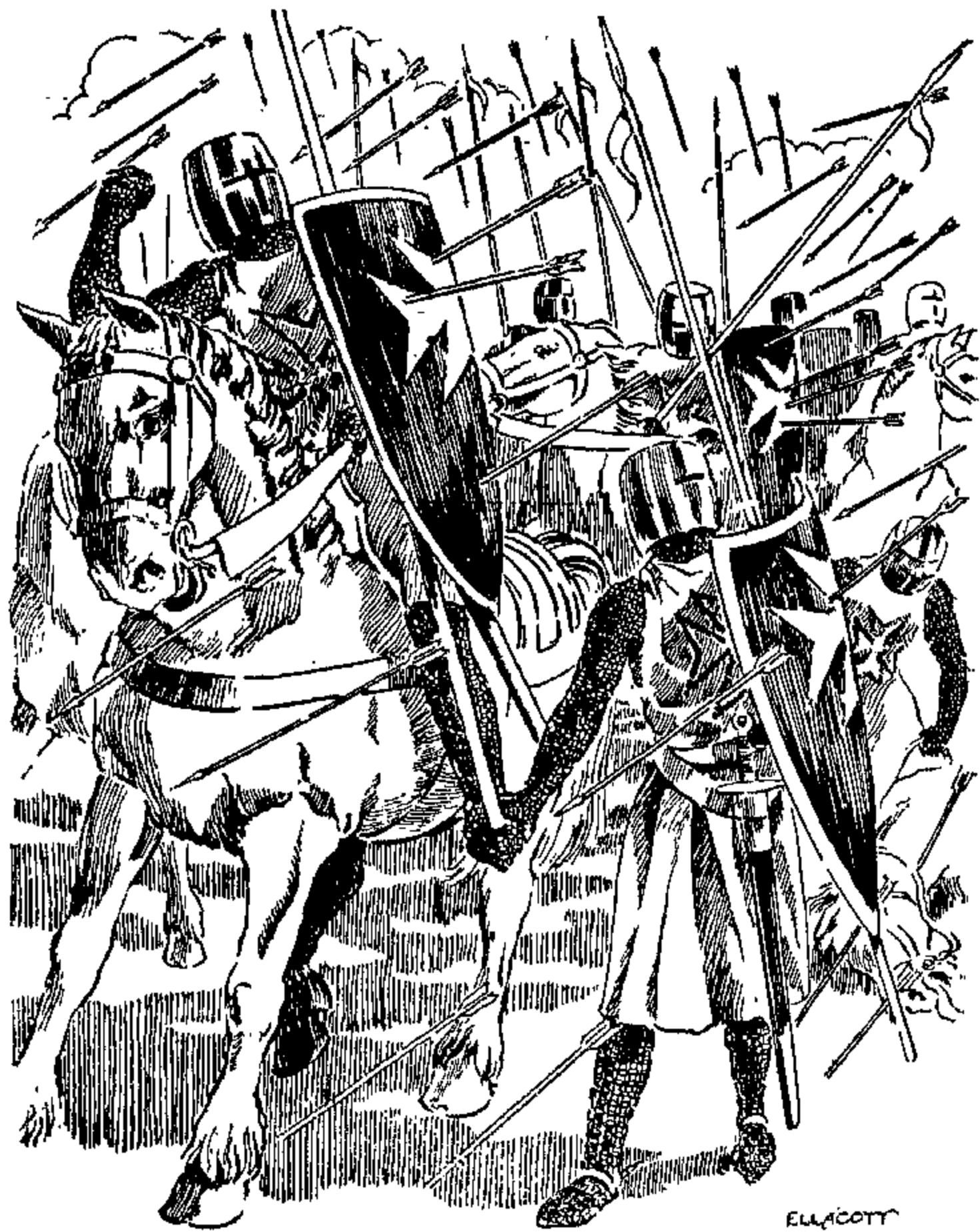
المسلمون حيفا وخربوا قيسارية فاحتلها الصليبيون دون أن ينتفعوا منها بشيء . وكانت المعركة التي دارت في أرصوف شديدة على جيش المسلمين ، فزقته وبددت شمله ، مع انه كان البادىء بالهجوم .

وكانت المعركة في البدء غارة خاطفة على الساقة الصليبية ، ثم تطورت الى هجوم تطويقي على الجيش الصليبي كله . وكانت خطة الفرنجة في الغارات السابقة الدفاع المنتظم دون خروج الجنود أو الفرسان عن الصفوف ، بعد أن جعل ريشارد على طول الجناح البري من هذا الجيش عجلاً يحمل رماة الزنبورك ومهمتهم حماية جيشه من سهام المسلمين ولكن خطة الجيش اختلفت هذه المرة ، عندما اشتد ضغط المسلمين على كتائبه ، وقذف صلاح الدين بنفسه بين صفوف الطلائع في جماعة من خياله الفدائيين ، فلم يعد فرسان الفرنجة يطيقون الحفاظ على الخطة السابقة ، وخشي ريشارد ان يخرجوا عن طاعته ، فأمر بالهجوم ، فحمل الفرسان جملة واحدة من الجوانب كلها ، ففوجيء المسلمون وتراجعوا أمامهم^١

وقد تفرق جند المسلمين خلال هذه الموقعة وتشتت فرسانهم ، وقتل منهم اثنان وثلاثون اميراً وأكثر من سبعة آلاف جندي ، وكاد يقضى عليهم جميعاً لولا توغلهم في غابة كثيفة الشجر ملتفة الأغصان ، وتوقف الصليبين عن ملاحقتهم ، حين لم يتمكنوا من معرفة عددهم ولا تديان خطتهم ، هل هي هزيمة أم كمين أم هجوم جديد^٢ ، ولولا الشجاعة الفريدة التي ابدتها صلاح الدين الذي ثبت الى أن اجتمع عليه

١ - التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٧١ - ٢٧٤

٢ - الكامل ج ١٢ ص ٤٥



ELLACOTT

المسلمون^١ ، وكانت كما يقول ابن شداد « يطوف من الميمنة الى اليسرة بحث الناس على الجهاد ، ولقيته مراراً ليس معه الا صبيان يجنبه لاغير ، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال ، والنشاب يتجاوزهما^٢ ،

وكان انتصار الصليبيين في أرصوف بعد انتصارهم في عكا ، مبعث أمل جديد لهم قوى معنوياتهم وثبت أقدامهم ، في حين كان مدعاة ألم شديد للمسلمين^٣ ، وقال ابن شداد ان صلاح الدين « كان في قلبه من تلك الوقعة ما لا يعلمه الا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب^٤ ،

على أن كارثة اخرى كانت تنتظر المسلمين عند عسقلان ، فقد أراد صلاح الدين أن يحشد قواته فيها وحولها كما فعل في عكا ، ليتخذ منها قاعدة لمعركة فاصلة يستعيد فيها هيئته ويعيد للمسلمين ما فقدوه من أراضيهم ومعنوياتهم ، ولكن امرأه خالفوا رأيه ، وصارحوه بقولهم : « ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا أحد ، لئلا يصيبنا ما أصاب عكا^٥ ، ودعوه الى ترك الساحل واتخاذ خط دفاعي داخل البلاد^٦ .

وقد تألم السلطان من ذلك ، وقرر الاخلي عن المدينة ، ولكن راعه

١ - السلوك ج ١ ص ١٠٥

٢ - النوادر السلطانية ص ١٧٥ ، انظر أيضاً *Saladin Le plus pur Héros de l'Islam*, p. 294

٣ - Grousset ; Hist. des Croisades, III, p. 71

٤ - النوادر السلطانية ص ١٧٧

٥ - الكامل ج ١٢ ص ٤٦

٦ - الناصر صلاح الدين ص ١٤٥

أن تقع في أيدي الفرنجة « فبقتلوا من بها من المسلمين ، وبأخذوا بها
القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر^١ ، فعمد الى هدمها واحراقها
بعد أن أخرج الناس منها^٢ ، وكانت « بلداً نضراً خفيفاً على القلب ،
محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوباً في سكناه ، فلهحق الناس عليه
حزن عظيم ، وعظم عويل أهلها على مفارقة أوطانهم^٣ ، ثم هدم اللد
والرملة للعرض نفسه^٤ . وكان يقول وهو يرى تلك الحصون تتداعى
تحت معاول جنوده : « والله لأن أفقد أولادي بأسرم ، أحب الي^٥
من أن أهدم حجراً واحداً^٥ . . . » ثم مضى الى القدس لعله انها مقصد
الافرنج الأول .

غير ان زحف ريشارد الى القدس كان بطيئاً ، فبعد ان احتل
عسقلان^٦ سار الى يافا وشرع في تعمير الخراب الذي احدثه صلاح الدين
فيها ، بعد ان حطم مقاومة سكان يافا ومن بقي في عكا . ولما وصل
قلب الاسد الى مشارف القدس ، رأى ان السلطان قد أحكم تحصينها
وأعدت عدته للدفاع عنها وأفسد الآبار القريبة منها ، فعاد الى اللد
لمتابعة مفاوضات الصلح . وكانت هذه المفاوضات قد بدأت حوالي آخر

١ - النوادر السلطانية ص ١٧٨

٢ - السلوك ج ١ ص ١٠٦ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢

٣ - النوادر السلطانية ص ١٨٠

٤ - مفرج الكروبي ج ٢ ص ٣٧٠ - ٣٧١

٥ - النوادر السلطانية ص ١٧٩

٦ - أرسل كونراد الى الملك ريشارد يلومه على تأخره في احتلال عسقلان قبل ان
يهدمها صلاح الدين قائلاً ان السلطان لم يخربها الا لأنه عاجز عن حمايتها « ولو كنت
مكاثك لأريتك كيف أسرع الى المدينة فأحتلها عنوة » قبل أن ادع للسلطان فرصة
ليفعل بها ما فعل : Grousset : Hist. des Croisades, III, 73

شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ (منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩١ م)
وقد مثل صلاح الدين فيها أخوه الملك العادل ، وكان ريشارد يصر على
أن يكون من شروط الصلح إعادة مملكة بيت المقدس الى الافرنج كما
كانت عليه سنة ١١٨٥ ، وكان السلطان يرفض ذلك الشرط اطلاقاً ،
مؤكداً لملك الانكليز ان المسلمين يقدسون القدس مثلما يقدسها المسيحيون ،
وانهم حريصون على تأمين الحرية الدينية فيها لجميع المواطنين ١ .

وكان ريشارد يرغب في العودة الى بلاده ، وقد رأى صعوبة احتلال
بيت المقدس ، وما عاناه من المتاعب في مسيره من عكا الى يافا ،
وانقسام الافرنج الذين معه ، وطول الوقت الذي قضاه قومه لاحتلال
عكا ، فتقدم بعرض جديد للصلح من شأنه أن يصون كرامة الفريقين ،
ومن شروطه ان يتزوج الملك العادل الأميرة جوانا اخت ريشارد وأرملة
ملك صقلية ، وأن يتنازل السلطان لأخيه عن البلاد الساحلية التي
احتلها ، كما يتنازل ملك الانكليز عن المدن التي افتتحها كصداق لأخته ،
وأن تكون القدس ملكاً للزوج والزوجة بوصفها محايدتين ، فيفتحها
ابوابها للمسيحيين والمسلمين على السواء ، ويرضي العادل مقدمي الفرنج
والداوية والاسبتارية ببعض القرى ولا يكتسبهم من الحصون ٢ .

قد عرضت هذه الشروط على صلاح الدين الأيوبي فوافق عليها رغبة
في حقن الدماء واقرار السلام ، غير ان رجال الدين من الفرنجة قاوموا
ذلك ، وما زالوا بالأميرة جوانا حتى رفضت هذا الزواج ، وان كان
من رأي أخيها قلب الاسد ان الملوك اذا لم تجمعهم رابطه الدين جمعهم

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٣ ٢٩٢ ، Saladin Le plus pur Héros de l'Islam, p. 292

٢ - الفتح القسي ص ٣٠٩ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٨٤



ريشارد غلب الامد

علائق المجد ٢ .

ويؤكد العماد وابن شداد ان صلاح الدين قد وافق على ذلك الزواج ورضي بتلك الشروط ، كما رحب به الملك العادل ٢ ، ويعلق سيد أمير علي على هذا المشروع بقوله « لو سمح الكهنة ورجال الدين بهذا الزواج ، لكان بلا نزاع القطرة التي سار عليها السلام بين المسلمين والمسيحيين الى اليوم ٣ »

والمؤرخون من شرقيين وغربيين متفقون على ان كلا من ريشارد وصلاح الدين كان معجباً بالآخر ٤ وكثيراً ما كانا يتبادلان الهدايا ، وعلى ان السلطان لما علم يمرض خصمه إشتد قلقه عليه وأرسل اليه طبيبه الخاص فعالجه وشفاه ، وكان ما يفتأ يسأل عنه ليطمئن على صحته ، ولا صحة لما روته الأساطير عن مقابلاتها ومبارزاتها الفردية ، وانقاذ رجال صلاح الدين الملك الانكليز من مؤامرة أعدتها جماعة من الصليبيين لاغتاله ، وتكسر صلاح الدين في زي طبيب لزيارة رشارد ومعالجته

-
- ١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ ، *Saladin Le plus pur Héros de L'Islam, pp. 300 - 301*
 - ٢ - الفتح القسي ص ٣٠٩ ، النوادر السلطانية ص ١٨٩
 - ٣ - مختصر تاريخ العرب ص ٣٢١
 - ٤ - يذهب بعض المؤرخين الغربيين الى ان المودة التي كانت تسود علاقات صلاح الدين وريشارد « انما ترجع الى علاقة غرامية كانت قد نشأت بين ايليانور زوجة لويس السابع وصلاح الدين في عهد الحملة الصليبية الثانية ، وكانت هذه العلاقة الباعث على طلاق ايليانور بعد عودتها الى فرنسا وزواجها من هنري الثامن ملك انكلترا ، وكان ريشارد ثمرة هذا الزواج ، وقد شعر صلاح الدين بالعطب عليه استمراراً لعلاقته الغرامية بوالدته ، ومن الواضح ان هذه الاسطورة انما هي من نسج خيال مؤلفيها ، لأن صلاح الدين كان في عهد الحملة الصليبية الثانية فق في الثالثة عشرة من عمره ، وكانت العلاقة الغرامية التي اشتهرت بها ايليانور وكانت سبباً في طلاقها من لويس السابع ، هي علاقتها بريموند الثالث صاحب انطاكية كما ذكرنا في الفصل الخامس ٢٢ (انظر التاريخ العربي المصري ص ٢٩٧ - ٢٩٨)

لأنه أسف عليه ان يموت على فراشه بغير موت الأبطال فقال له وهو يسقيه الدواء : « أنت تشفيني من دائي وأنت طبيب عدوي الألد ، هل فعل هذا القمل سلطان » وهل بلغت المروءة هذا الحد ! »

والواقع ان ريشارد قد رغب في الاجتماع بصلاح الدين ، فأبى هذا تحقيق رغبته على كره منه ، لأن الملوك في رأيه اذا اجتمعوا لم يصح ان يتقاتلوا بعد ذلك ، وطلب الاتفاق على قساعة سلية أولاً ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة ^١ ، ولكن قلب الأسد اجتمع مع العادل مرات ، وكانا يجتمعان على تواد ومحبة فتمكنت الصداقة بينهما وأعجب كل منهما بالآخر ، وكانا يتجادبان الحديث في سمر ودعابة وقد نسيا انها في حرب ضروس

وقد دعا ريشارد الملك العادل الى مأدبة فخمة أقامها على شرفه في المعسكر الصليبي ، وقابله العادل بدعوة بمائة ، وطلب قلب الأسد من مضيفه ان يسمعه شيئاً من الغناء الشرقي فدعا الى المأدبة مغنية تضرب بالعود ففنتها بارع الألحان ^٢ ، كما أقام ريشارد حفلة رسمية أنعم فيها على الملك الكامل ابن العادل برتبة الفروسية ^٣ .

١ - النوادر السلطانية ص ١٩٥

٢ - الكامل ج ٢ ص ٤٧ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٤ ، النوادر السلطانية ص ١٩٥

٣ - تاريخ العرب لحي ورميلية ج ٢ ص ٧٧١

الفصل الحادي والعشرون

السيف.. والكلمة الطيبة

بينما كانت ملك الانكليز مة ما في عسقلان منصرفاً الى بناء أسوارها من جديد ، كانت الانبياء تنقل اليه ان الثورات قد نشبت في بلاده ، وأن أخاه يطمع في الاستيلاء على عرشه ، وان ملك القسطنطينية قد أوفد رسله الى صلاح الدين ليبرم معه معاهدة سلام وصدقة ، وعلم ان الفرنسيين والانكليز في عكا يتقاتلون فيما بينهم ، وان كونراد دي مونتفرات يفاوض السلطان ليعقد معه صلحاً منفرداً يكون من شروطه أن يعطيه المسلمون صيدا ، وان يحارب الى جانبهم جيوش الصليبيين^١ ، ويلقي القبض على ريشارد ويسلمه الى صلاح الدين^٢ ، ولكن السلطان لم يكن واثقاً من صدق نيته ، فاشترط عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل ان يصالحه ، وكان صلاح الدين في الواقع اميل الى مصالحة كونراد لأنه اذا بقى في الساحل كان اقل خطراً من ريشارد^٣

١ - النوادر السلطانية ص ١٩٧ ، Saladin Le Plus pur Héros de L'islam, p. 302

٢ - Jorga ; Hist. des Croisades, p. 134

٣ - Grousset ; Hist. des Croisades, III, P. 59

وعلى اثر ذلك جمع ريشارد أمراء الفرنجة وطلب منهم أن يختاروا ملكاً غيره لأنه لن يستطيع البقاء في الشرق طويلاً ، فاختاروا كونراد (المركيس) ملكاً عليهم ، وهو خصمه ومناقضه ، وأذعن ريشارد لما قرروا .

ولكن لم ترض اسايغ معدودة حتى قُتل كونراد غيلة بيد أحد الحشاشين ، في فراشه بمدينة صور يوم ١٧ ربيع الثاني ٥٨٨ هـ ٢٧ نيسان (ابريل) ١١٩٢ م ، وقيل ان ريشارد هو الذي اغرى رئيس الطائفة الاسماعيلية في مصياف بقتل حليفه الخارج عليه ، فارسل اليه اثنين من اتباعه فنزلا عليه ليلاً وقتلاه^١ كما قيل ان اللذين قتلاه هما من رجاله وقد دسها عليه ريشارد قدخلا عليه في زي الرهبان واغتلاه^٢ .

وعلى اثر مقتل كونراد بسط قلب الاسد نفوذه على صور ، واختار لعرش المملكة الصليبية هنري دي شمبانيا (الكندهرى) الذي يمت بصلة القرابة اليه والى ملك فرنسا معاً ، وبادر بعقد قران هنري على الاميرة ايزابيل وريثة العرش بعد مصرع زوجها بيومين^٣ أما غي دي لوسينيان حليف ريشارد فقد عوض قلب الأسد عليه ، بأن وهبه جزيرة قبرص ، وكان قد باعها من قبل الى فرسان المعبد بمائة الف بيزانت ثم عدل هؤلاء عن هذه الصفقة حين ثار القبرصيون بهم ، وطالبوا

-
- ١ - الفتح القسي ص ٣٣٠ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٦ ، مفرج الكروبي ج ٢ ص ٣٨٤ ، مختصر تاريخ العرب ص ٣٢٢ ، Lorga : Hist. des Croisades, p. 135
 - ٢ - ذيل النوادر ص ٣٠٣
 - ٣ - تذهب المراجع العربية الى ان هذا الزواج قد تم في نفس اليوم الذي قتل فيه كونراد وأن ارملة كانت حاملاً (انظر الفتح القسي، ص. ٣٣٠ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٦) .
 - ٤ - استمر حكم اسرة لوسينيان لجزيرة قبرص منذ تلك السنة حتى سنة ١٤٧٢ م .

ريشارد باعادة مسا أخذه مقدماً من قيعة الجزيرة ، وهو ستون الف
بيزانت ، فتعهد لوسينيان بدفع هذا المبلغ .

ويبدو ان ريشارد قرر أن يقوم بمحاولة اخيره لاستعادة بيت المقدس ،
وقد قوى مقتل كونراد مركزه وشجعه على وقف مفاوضات الصلح ،
فاتفق مع هنري دي شمبانيا على المسير اليها ، وبدأت جيوشهم تدنو
منها والمسلحون يتعرضون لهم في كل منعطف وبكنون لهم تحت كل
رابية ١ .

ولكن محاولته هذه كانت تنقصها العزيمة والاقدام والرغبة الصادقة
والاستعداد لخوض معركة كبرى قد تستمر سنتين او ثلاث سنوات ،
وكان قد فقد هذه الدوافع جميعاً ، فأخذ يؤخر الزحف الى القدس ،
ويتباطأ فيه ، ويهول أمره على أصحابه يريد أن يصرفهم عنه ، لأنه
لا يريد أن يغادرهم وهم يخوضون هذه المعركة الفاصلة من دونه ، ويخشى
ان هم خاضوها وهو الى جانبهم أن تستغرق من الوقت مثل ما استغرقته
معركة عكا وأن يُحشد لها ما حشد تلك من رجال وأموال ومعدات ،
حتى استطاع ان يثنىهم عن هذه المحاولة ، فارتدوا عن القدس وقد
اصبحوا على مرمى السهم منها دون أن يحوضوا مع حاميتها أية معركة ٢ .

الا ان شعور ريشارد بعجزه عن احتلال القدس قد حمله على القيام
بأعمال انتقاميه ، بقطع الطريق بين مصر والشام ، نظراً لسيطرته على
عسقلان والداروم ، فاعتدى على عدد من القوافل وأحرز كثيراً من

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٢

٢ - saladin Le plus pur héros de L'islam, p. 304

المغانم^١ ، ومن هذه المغانم عدا الأسرى والأوال أربعة آلاف وسبعمائة
جمل والف وخمسمائة حصان ومثلها من البغال والحير ، وبذلك تضاعفت
قوة الصليبيين مادياً ومعنوياً ، وصح عزم امراءهم مجدداً على احتلال
القدس^٢ .

الا ان ريشارد عارضهم في ذلك ووصفهم بلجنون ، وقال : « هذه
مديذ . لا يمكن حصرها وصلاح الدين حي وكلمة المسلمين مجتمعة^٣ ، وكي
لا يتوهم اولئك الامراء بأنه قد جن عن خوض المعركة ، أكد لهم بأنه
مستعد لمشاركتهم فيها ولكن كأحد افراد الجند لا كقائد لهم ! ولما
أقنع امراء الصليبيين بالامتناع مؤقتاً عن مهاجمة القدس ، وعدهم بالعودة
الى هذه المحاولة في العام المقبل ، الا انه اخذ يفكر بدلاً من ذلك في
الاستيلاء على مصر ، ولا سيما حين رأى الثروة الضخمة التي كانت تحملها
القافلة المصرية التي اعتدى عليها . وذهب قلب الأسد بعد ذلك الى عكا
ليجهز حملة لفتح بيروت ، وليعود من ثم لغزو مصر .

وبما يدعو الى الدهشة ان رسل ملك الانكليز لم تنقطع خلال ذلك
في طلب الصلح ، وان لهفته كانت تعتدل مع الايام وشروطه تزداد
لينا وتهاوناً ، مظهرأ رغبة شديدة في حقن الدماء ونشر السلام . وقد
أرسل الى صديقه الملك العادل كي يتوسط بينه وبين أخيه ، ويقنعه
بإقرار الصلح .

وقد دهش ابن شداد ابراعة ملك الانكليز في المفاوضات فقال : « فانظر

١ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٨ ، السارك ج ١ ص ١٠٩ ، النوادر السلطانية ص ٢٠٨
٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٨٨
٣ - الكامل ج ١٢ ص ٣٨



مشهد عام لمدينة القدس من لوحة قصبية

الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى ، الى ان يقول عنه : « فما بلونا أعظم حيلة ولا أشد اقداماً منه »^١ ، وقد سبق لابن شداد أن قال عنه معجباً : « انه عظيم الشجاعة قوي الهمة وله جسارة على الحروب »^٢ ،

وكان العرض الجديد الذي تقدم به ريشارد أن يحكم هنري دى شامبانيا ابن أخت قلب الأسد ، بمملكة بيت المقدس ، ولكن تحت حماية المسلمين ، فيكون هو وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وطاعته « ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا » وأجاب به صلاح الدين : « اذا دخلت معنا هذا المدخل لما جزاء الأحسان الا الاحسان ان ابن اختك يكون عندي كبعض اولادي »^٣ ،

ثم تنازل ريشارد عن المطالبة بالسيطر السياسية على بيت المقدس ، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة ، ولم يفت ملك الانكليز أن يخاطب مشاعر صلاح الدين الانسانية ، فقال ما معناه : « ان جماعة من الرهبان والمنقطعين ، قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وانا اطلب منك كنيسة القيامة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو خربة رضيت بها » . فوافق صلاح الدين على ذلك « وأما بقية الالاد فنقسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بين العمليين

١ - النوادر السلطانية ص ٢١٨

٢ - المرجع السابق ص ١٤٤

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٠

٤ - النوادر السلطانية ص ٢١٦

يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لانا ولا لكم ١ ،

إلا أن المفاوضات تعثرت حول عسقلان التي رفض قلب الأسد التنازل عنها لتعبت بها أيدي الخراب ، فانتهر صلاح الدين مسيرة ريشارد الى بيروت وسار هو الى يافا ، فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج الى أن اخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً ٢ ، بعد معارك عنيفة أبدى فرنجية فيها بطولة رائعة ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ٣ ،

ولكن سفن الفرنجة كانت تتوافد الى يافا لنجدة من فيها ، حتى بلغ عددها نيفاً وخمسين سفينة ، فقويت ، كما يقول ابن شداد - نفوس الباقين في الحصن وظمت عليهم امارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم ، وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا على الأسوار ، وكانت الفلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل الى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعمز الدين جرديك وهو مع عسكره في الاسفل مع جمع من الأجناد : خذوا حذرکم فقد تغيرت عزائم القوم ! فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر ، الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلاد من الأجناد ٤ ،

١ - المرجع السابق ص ٢١٧

٢ - السلوك ج ١ ص ١١٠

٣ - النوادر السلطانية ص ٢٢١

٤ - المرجع السابق ص ٢٢٥

وهكذا تجدد القتال مرة اخرى ، وانتصر المسلمون من جديد ،
فدخلوا البلد وحاصروا جنود الفرنجة في القلعة ، واستتبأ هؤلاء الجنود
نجدة المراكب ، فجددوا المفاوضات في الصلح . وكان رجال المراكب
الفرنجية ، وعلى رأسهم ريشاد قلب الاسد ، قد امتنعوا عن الاشتراك
في المعركة لظنهم ان البلد قد أخذ والقلعة قد سلمت ، فوثب احد
فدائسي الفرنجة من فوق أسوار القلعة الى الميناء « وكانت رملاً فلم
يصبه شيء ، واشتد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شاني وأخذه الى
شاني الملك فحدثه بالحديث ، فلما شعر الانكثار أن القلعة مع أصحابه
اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه وكان
أحمر ورقبته حمراء وبيرقه أحمر ، فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من
في الشواني الى الميناء »

ويتابع ابن شداد وصف هذه المعركة فيقول : « ثم حملوا على المسلمين
فاندفعوا بين ايديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحتي فرس فسقته
الى السلطان ، واخبرته الخبر ، وبين يديه الرسولان (الاذان جاء
يطلبان الصلح والأمان) وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الامان ،
فعرفته في أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما
كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فأمرهم بالانكفاء .

وكاد ريشارد يؤخذ أسيراً في إحدى ضواحي يافا لولا ان افتداه
احد فرسانه المخلصين ، حين هرع الى الساحة وهو يصيح « انا الملك ! »
فأمر بدلاً منه . وقتل حواد قلب الأسد في إحدى هذه المعارك ،
فحارب راجلاً ، واخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال بفأسه الداعركية

التي اشتهر بها والتي يقال انه ضرب بها أحد المقاتلين فشطرت جسمه شطرين من رأسه الى خصره ولم تنفذ القنيل درعه الفولاذية من تلك الضربة الرائعة . وبينما ملك الانكليز يقاتل راجلاً ، اذا بصرخة ترتفع من معسكر المسلمين ، ونادى المتنادون : « تفرقوا عن ملك الافرنج يا رجال ! ، وشق الصفوف فارس يعدو نحوه على جواد أصيل وهو يجر معه جواداً آخر ، وقدم الجوادين لريشارد ، معلناً ان صلاح الدين قد رأى الملك راجلاً فيعث اليه بهذين الجوادين الأصيلين ، لكي يواصل القتال وهو راكب إذ لا يلبق في رأيه ان يحارب بطل شجاع مثله وهو واقف على قدميه !..

وفي يافا عاود المرض ريشارد قلب الامد ، واشتدت رغبته في العودة الى بلاده ، وقد أدهشه وبعثه على القنوط أن يستطيع المسلمون اقتحام يافا في أيام معدودة بعد أن حشد فيها القوى اللجبة وقضى شهوراً عدة وهو يحدد أسوارها ويعزز دفاعها ، ورأى ان الانتصارات التي أحرزتها الحملة الصليبية الثالثة على صلاح الدين خلال ثلاث سنوات اشترك فيها خمسمائة أو ستائة الف صليبي^١ وقضى من أجلها ما لا يقل عن مائة وعشرين الف ضحية منهم^٢ انما كانت انتصارات جزئية محلية لم تنل من مملكة صلاح الدين الشائخة الصرح الراسية الأساس المترامية الاطراف التي تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان ، ولولا ان المجاعة قد اجتاحت سكان عكا لاستمرت مقاومتها سنين أخرى وربما تحولت هزيمتها الى انتصار ، وقد فتاح لريشارد أن يسجل انتصارات جزئية أخرى ولكن

١ - خطط الشام ج ٢ ص ٧٢

٢ - Saladin Le plus pur héros de L'islam, p. 284

من الصعب أن ينتصر على صلاح الدين انتصاراً حاسماً وهو في وسط بلاده تتجدد قواه ولا تنقطع موارده ، ولا بد قبل لرحيل من الاتفاق معه وانتزاع وعد منه بوقف القتال ، لئلا يفقد الفرنجة بعد سفره البقية الباقية من ممتلكاتهم ، ويتبين للقارة الأوروبية ان المجد الذي بناه لها في المشرق انما بني على رمال !.

يقول جون لامونت : « ولا ريب ان احزان ريشارد لفشله في احتلال القدس ، كانت منبعثة من شعوره بالخزي لعدم تمكنه من الوصول الى هدفه ، ولم تكن صادرة عن عدم تمكنه من انقاذ قبر المسيح ، والواقع ان ريشارد قلب الاسد وفيليب ارغست لم يكونا « مدفوعين بالدين مثل اندفاعها برغباتها لكسب المجد عن طريق الحرب في الشرق ».

وكان جواب صلاح الدين لقلب الاسد إذ عاد الى طلب الصلح : « انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا عسقلان ، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور الى قيسارية » فعاد الرسول يقول للسلطان : « يقول الملك ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد واحد بلداً صار تبعه وغلामه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكرن عساكرهما في خدمتك دائماً ، واذا احتجت اليّ وصلت اليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي » فأجاب السلطان : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا اجيبك بأن تجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها ٢ ».

١ - دراسات اسلامية ص ١٢٣

٢ - النوادر السلطانية ص ٢٢٧

وعادت رسل قلب الأسد بهذا الجواب ، وانتقل السلطان بعسكره الى الرملة ، فوافاه رسول ريشارد اليها شاكراً له اعطائه يافا ويلحّ في طلب عسقلان ، مؤكداً رغبته في السفر الى بلاده ، وأنه اذا اقرت مبادئ الصلح لم يعد في حاجة الى قضاء الشتاء في الشرق ، واجاب صلاح الدين جواباً بارعاً طريفاً يصور أبعاد الوضع السائد بين الفريقين ، فقال : « أما النزول عن عسقلان فلا سييل اليه ، وأما تشتيته هنا فلا بد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه ان يشق ما هنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه^١ ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل عليّ أن أشق وأصيف وأنا في وسط بلادتي ، وعندتي أولادي وأهلي ، ويأتي اليّ ما أريد ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني ، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف ، وأنا اعتقد اني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء !... »^٢

وتوقفت بذلك مفاوضات الصلح ، ووصلت صلاح الدين أمداد جديدة من مصر والشام والجزيرة ، فجمع مجلس شورا وقال لهم : « ان الانكثار قد مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير الى يافا ، فان وجدنا فيها مطعماً بلغناه والا

١ - كان ريشارد في الخامسة والثلاثين من عمره وصلاح الدين في الخامسة والخمسين (السادسة والخمسين بالسنين الهجرية)
٢ - النوادر السلطانية ص ٢٢٨

عدنا تحت الليل الى عسقلان ، فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها
غرضاً^١ ،

وخلال هذا الوقت كانت « رسل الانكثار لا تنقطع في طلب الفاكهة
والثلج ، ووقع عليه في مرضه شهوة الكثرى والخوخ ، فكان السلطان
يمده بذلك ، ثم جاء رسول يشكر للسلطان انعامه بالفواكه والثلج ،
وذكر الحاجب ابو بكر العادلي ان الرسول اتفرد به وأبلغه أن قلب
الاسد قال له : « قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوسل الى السلطان
في معنى الصلح ، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ
البلاد منهم ، فليس لي غرض الا اقامة جاهي بين الافرنج ، وان لم
يتزل السلطان عن طلب عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على
عمارة سورها^٢ »

وهكذا عاد ريشارد الى الحديث عن الصلح ، وتراجع عن تمسكه
بعسقلان ، ورضي بأن يعوّض عنها إذا أصر السلطان على أمرها ،
ولكن صلاح الدين رفض قبول التعويض أيضاً ، وتنازل قلب الأسد
عن طلبه هذا .

يقول البير شامبدور : « وهكذا املى صلاح الدين بالرغم من خسارته
في عكا وعسقلان ويافا ، المعاهدة التي كان يستطيع فرضها لو كان هو
الغالب المنتصر^٣ »

١ - المرجع السابق ص ٢٣٢

٢ - المرجع السابق ص ٢٣٣

٣ - Saladin Le plus pur Héros de l'Islam , p. 330

وتم عقد الصلح في ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ ٢ ايلول (سبتمبر)
١١٩٢ م ، ومثل صلاح الدين فيه ولداه الملك الافضل والملك الظاهر
واخوه الملك العادل ، وثاب عن ريشارد قلب الاسد في التوقيع على
الاتفاقية هنري دي شامبانيا (الكنديهري) وبالبيان الثاني دي ايبالين
(باليان بن بارزان) واوتفروا الرابع دي تورون

وقضت اتفاقية الصلح بأن يسود السلام بين الفريقين ثلاث سنوات
وثلاثة اشهر ، وبأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا
بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وتبقى صيدا وبيروت وجبيل للمسلمين ،
وتكون عسقلان مدينة غير مسلحة في ايدي المسلمين ، في حين تكون
الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين ، وان يكون
للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة ،
واشترط صلاح الدين أن تشمل المعاهدة بلاد الاسماعيلية ، كما اشترط
ريشارد ان تشمل انطاكية وطرابلس ، ورضي الاستتارية والداوية وسائر
مقدسي الفرنجة بذلك ، وأعلن صلاح الدين « ان الصلح قد انتظم ، فمن
شاء من بلادهم ان يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا ان يدخل
بلادهم فليفعل ، فابتهج الجميع « وكان يوماً مشهوداً عم فيه الطائفتين
الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب »

يقول سيد امير علي : « وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي
هلك فيها عدد هائل من الناس ، وخربت الوم البيوت في المشرق والمغرب
على حد سواء ، وفقدت انانية فيها واحداً من أعظم اباطرتها ، كما

١ - انظر : النوادر السلطانية ص ٢٣٦ ، الفتح القسي ص ٣٤٣ ، مفرج الكروب
ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ ، السلوك ج ١ ص ١١٠

خسرت فرنسا وانكلترا فيها زهرة قرمانها ، وكان كسبها الوحيد هو الاستيلاء على عكا^١ ، الا ان روم لاندو يرى انه كان « من مجالي الحملة الصليبية الثالثة المميزة نشوء صلات أوثق بين النصارى والمسلمين^٢ ، واما البير شامبدور فيقول : « هكذا انتهى تجمع الشعوب الرهيب الذي تألفت منه الحملة الصليبية الثالثة ، هذه الحملة التي كرست مجد صلاح الدين وعبقريته ، وأظهرت مع الأسف ، عجز الفرنجة الذين كانت تفرقهم مصالحتهم الجشعة ، أمام الاسلام الذي سيلقي ظله المتعظيم على قارات أخرى^٣ »

وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائماً بروح الشهامة والمروءة والتسامح التي ميزت معاملاته مع الصليبيين ، فاستقبل هوبرت أسقف سالسبورني بالنجلة والتكريم ، ووافق على طلبه بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة ، وذلك الى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الارثوذكس^٤ .

وسرعان ما نسي الجميع أحقاد الحرب وكوارثها « واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من الصدو الى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردم الى يافا^٥ »
ويضيف العماد وابن شداد ان قلب الاسد لما علم بكثرة زوار القدس

١ - مختصر تاريخ العرب ص ٣٢٣

٢ - الاسلام والعرب ص ١٢٧

٣ - Saladin Le plus pur Héros de L'islam. p. 231

٤ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٩٩ ، تاريخ سورية للمطران الدبس ج ٦ ص ١٣٢

٥ - النوادر السلطانية ص ٢٣٨

من الفرنجة خشي ان يُغضب صلاح الدين ذلك ، وسيّر الى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يؤذن لهم الا بعد موافقته ، وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة : مقدمون وسوقة وامراء ، وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام ومباستطهم ومخادثتهم ، واعتذر للملك عن منعهم بأن هؤلاء الحجاج قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان اشريف فلا أستعمل منهم" ،

وهكذا كان السيف والكلمة الطيبة يتسابقان في حسم النزاع بين الشرق والغرب ، أو بين صلاح الدين وقلب الأسد ، وقد رأينا ان الكلمة الطيبة كانت أفضل في قلبي الرجلين الكبيرين ، وأبعد أثراً في تسوية العلاقات بينها ، فما ان يعمد أحدهما الى امتشاق السيف حتى يقابله الآخر بسلاح أقوى وعزيمة امضى ، وما ان يتقدم ريشارد الى صلاح الدين بطلب مشفوع بكلمة طيبة حتى يجيب سؤاله ويحقق طلبه ، ويقابل المبادرة الحسنة بأحسن منها . وقد كانت فرحة الفريقين بالصلح ومبادرة كل منهما الى الاحتلاط بالفريق الثاني ، في مودة ومحبة وتسامح ، دليلاً على ان المشاعر الانسانية التي تأصلت جنورها في تربة السلام ، أقوى وأبقى من للمشاعر المقتعلة التي ارتجلتها عاصفة الحرب .

وقد استن صلاح الدين وقلب الأسد بذلك ، سنة اللجوء الى المفاوضات السلمية لحل محضلات الحرب ، وكان هذه السنة أثمرها الحفيد في مقبل الأيام .

الفصل الثاني والعشرون

ريشارد

ابحر ريشارد من عكا عائداً الى بلاده عن طريق اوربة البري في ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ، وفي عداد حاشيته مائة وعشرون شخصاً من ممالك صلاح الدين رغبوا في خدمة قلب الاسد ١

وأراد الملك العادل أن يرافق صديقه ملك الانكليز ، ليشاطره مخاطر السفر ، ولكن ريشارد رفض ذلك شاكراً ، واكتفى بأن يرافقه مصلي طبيب العادل الخاص .

إلا أن زعيم الحملة الصليبية الثالثة ما لبث ان غرقت سفينته ، واستطاع ان يصل الى الشاطئ سالماً ، ثم توغل في أرض النمسا متكرراً ، حتى اكتشف أمره في إحدى الحوادث بالقرب من مدينة فيينا في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١١٩٢ ، فاقيد الى ليوبولد دوق النمسا الذي لتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات .

Grouset : His. des Croisades, II'. p 103 - ١

وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشراؤه^١ ، إلا أنه ما لبث أن سلمه إلى هنري السادس امبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفع فدية كبيرة . وقد حزن صلاح الدين لأسر ريشارد وأبدي استعداداه لمؤازرته^٢

وقد أطلق سراح ريشارد قلب الأسد في آذار (مارس) ١١٩٤ ، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بهم قاتل ، ففضى نجه في ٢٦ آذار عام ١١٩٩ .

أما صلاح الدين الأيوبي فإنه ما كاد يعقد معاهدة الصلح حتى أخذ يفكر في أداء فريضة الحج ويستعد للرحيل إلى الديار المقدسة ، إلا أنه ما لبث أن أرجأ ذلك إلى فرصة أخرى حين وافته كتب القاضي الفاضل من مصر ، تنصحه بالانصراف إلى أعمال الدولة ، ومعالجة المشكلات الداخلية التي تكاثرت بسبب الانصراف إلى الجهاد ، فدخل الدولة الأيوبية وخرجها في حاجة إلى تقدير وتعديل جديدين ، وحصونها في حاجة إلى التحصين والدخيرة والجند ، والثورات المحلية قد تعددت احتجاجاً على ظلم الأمراء الاقطاعيين وتسلطهم على الأهالي ، والانقطاع لكشف مظالم الخلق أم ما يتقرب به حاكم إلى الله^٣ .

وعمل السلطان بنصيحة وزيره ومستشاره ، فانصرف إلى إنجاز تحصين القدس وأمر واليها عز الدين جرديك بإدارة الخنادق على المدينة كلها ، وبإصلاح المسجد الأقصى وتعميره ، وولى قضاءها وأوقافها للقاضي

-
- ١ - تاريخ سورية للطران الدبس ج ٦ ص ١٣٠
 - ٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٩٩
 - ٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥

بهاء الدين ، وولى علم الدين قيصر بلاد الخليل وغزة والداروم وعسقلان ، وأمره بنقل الغلال من مصر الى عسقلان والعمل على تنمية العمران والزراعة فيها .

ثم أنشأ يتجول في بلاد الشام ، فنزل الى نابلس فأزال عن أهلها ظلم الامير سيف الدين المشطوب . ورحل الى بيسان وأمر بتعمير قلعتها وتخريب قلعة كوكب ، ومضى الى طبرية فنزل في ظاهرها ولقي هناك الامير بهاء الدين قراقوش . وبعد أن زار صفد ، سار الى جبل عامل وزار مرج تبين وأوصى واليها بعمارتها ، ومرّ بقلعة هونين وبمرجعيون . ثم وصل الى بيروت في ٢٠ شوال ٥٨٨ هـ ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩٢ م ، فاستقبله واليها عز الدين أسامة استقبالا حافلا ، وزاره فيها بوهيمند صاحب انطاكية .

وانتقل السلطان بعد ذلك الى دمشق وكان يحبها ويؤثر الإقامة فيها ، فبلغها يوم الاربعاء في ٢٦ شوال ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد أن غاب عنها أربع سنوات ، فاستقبلته استقبالا عظيما . وقضى فيها اربعة أشهر كانت سلسلة من الأعياد والأفراح ، وكان يجلس في اكثر أوقات فراغه بين أولاده الصغار وأصدقائه المقربين ، وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباسطة ، فكانه كان يودع أهله وأصحابه ومرابع شبابه وانسه

وفي فجر اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ ٤ آذار (مارس) ١١٩٣ م ، توقف ذلك القلب الكبير عن الحفقان ، بعد ستة أشهر فقط من ابرام معاهدة السلام ، وهو في السابعة والخمسين من عمره ، بعد ان ملك مصر نحو اربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة ، غير خلالها الجغرافية السياسية والتوزيع السياسي في فلسطين

وقضى على آمال رجال الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة في استرداد بيت المقدس ، وحصر الصليبيين في شريط ساحلي ضيق يقع بين يافا وانطاكية ، باستثناء صيدا وبيروت .

وقد وصف ابن شداد الساعات الأخيرة في حياته فروى ان في ليلة السبت السادس عشر من صفر ، إثر عودته من استقبال الحجيج العائد من الديار المقدسة ، شعر بتعب شديد وغشيته الحمى ، فلما كان اليوم التالي حضر بهاء الدين ابن شداد والقاضي الفاضل وولده الملك الأفضل ، وطال جلوسهم عنده ، واخذ يشكو من قلقه ليلاً ، وطاب له الحديث الى الظهر ، ثم انصرفوا والقلوب عنده ، ولما مدت الطعام في الأيوان جلس الملك الأفضل مكان أبيه ، فتشام كثيرون وغادروا الأيوان وبكى جماعة منهم .

ثم أخذ المرض يتعاضم « وكان مرضه في رأسه ، وكان من امارات انتهاء العمر إذ كان قد الف مزاجه سفراً وحضراً ، فرأى الأطباء قصده ففصدوه في اليوم الرابع ، فاشتد مرضه ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى الى غاية الضعف « ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء فان فشكا من برده ، ولم يفضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله ألا يمكن أحداً تعديل الماء ؟ فخرجت انا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفاضل يقول لي : ابصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو ان هذا بعض

- التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٣٠٣



صورة خيالية لصلاح الدين في العقد السادس

الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره ! »

يقول ابن شداد : « واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه . ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وامتنع من تناول المشروب ، فاشتد الخوف في البلد ، وغشي الناس من الكتابة والحزن ما لا يمكن حكايته . ولقد كنت انا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار فان وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا عرفونا احواله . وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الى ان يلاقونا حتى يعرفوا احواله من صفحات وجوهنا »

وقد توفي في اليوم الثاني عشر لمرضه ، وكان قد فقد وعيه منذ اليوم التاسع ، فكان يوماً مشهوداً لم يصب الاسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين ، حتى خيل ان الدنيا كلها تبكيه بصوت واحد . وتجهز الناس لدفنه ، ووقفوا يبكونه بكاء مرأ ، وانهم لفي بكائهم ونحيبهم ، اذا بالقاضي يحمل في يده سيفاً وينزل به الى قبر السلطان ويضعه الى جانبه ، ولا يزيد على أن يقول : « هذا تتوكأ عليه الى الجنة !... »

وقد عبر الشعراء في رثائهم لصلاح الدين عن مشاعر العرب والمسلمين في هذا المصاب الفادح أصدق تعبير ، ومن هذه المراثي قصيدة كبرى للعماد الاصفهاني في مائتين واثنتين وثلاثين بيتاً جاء فيها :

شميل الهدى والملك عم شتاته ، والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي منذ لم يزل مخشية
أين الذي كانت له طاعاتنا
بالله ابن الناصر الملك الذي
ابن الذي ما زال سلطانا لنا
ابن الذي شرف الزمان بفضله
ابن الذي عنيت الفرنج لبأسه
أغلال أعناق العدا أسيافه ،
لم يُجِدْ تدبيرُ الطبيب ، وكم وكم
من في الجهاد صفاحه ما أعمدت
لذو المتاعب في الجهاد ولم تكن
مسمودة غدواته ، محمودة
في نصرة الإسلام يسهر دائما
لا تحسبوه مات شخص واحد ،
ملك عن الإسلام كان محاميا
- أظلمت منذ غاب عنها دوره
'دفن السباح فليس ينبش بعد ما
الدين بعد أبي المظفر يوسف
جبل تضعض من يضعض ركنه
ما كنت أعلم أن طودا شامخا
ما كنت أعلم أن بجرا طاميا
بحر خلا من وارديه ولم تزل
من الليتامى والأراميل راحم
لو كان في عصر النبي لأنزلت
فعلى صلاح الدين يوسف دائما

مرجوة رهباته وهباته
مبدولة ، ولربه طاعاته
لله خالصة صفت نيته ؟
يرجى نداءه وتُنقى سطواته ؟
وسمت على الفضلاء تشريفاته ؟
ذلا ، ومنها أدركت آثاره ؟
أطواق أجياد الورى مناته
أجدت لطلب الدهر تدبيراته
بالنصر حتى أعمدت صفحاته
منذ عاش قط لذاته لذاته
روحاته ، ميمونة ضحواته
ليطول في روض الجنان سباته
فمات كل العالمين بماته
أبدا إذا ما أسلمته حماه
لما خلت من بدره داراته
أودى إلى يوم النشور رفاته
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
أركاننا ، وتهدينا هدايته
يهوي ولا تهوي بنا مهوانه
فيما يطم وتفتحي زخراته
محفوفة بوفوره حفاته
متعطف مفضوضة صدقاته
في ذكره من ذكره آياته !
رضوان رب العرش ، بل صلواته

لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
وكعادة البيت المقدس ، يحزن الـ
من للثغور وقد عداها حفظه ؟
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
وبسيفه صداً لحزن مصابه
يا وحشتا للبيض في اغمادها
يا وحشة الاسلام يوم تمكنت
يا حسرتاً من يأس راحته الذي
ملأت مهابته البلاد فإنه
ما كان اسرع عصره لما انقضى ،
لم أنس يوم السبت وهو لما به ،
والبشر منه تبلجت أنواره
ويقول لله المهيمن حكمة
يا راعيا للدين حين تمكنت
ما كان ضرك لو اقيمت مراعيها
أضجرت منا ام أنفت ، فلم تكن
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل
فارقت ملكا غير باق متعبا ،
أعزز على عيني برؤية بهجة الد
أبني صلاح الدين إن اباكم
لا تقتدوا الا بسنة فضله

تحضر لرحمة ربه سقيات
بيت الحرام عليه ، بل عرفاته
من للجهاد ولم تعد عاداته ؟
من سبلها وركوبها غزواته
إذ ليس يشفى بعمده صدياته
لا تنتضيها للوغى عزماته
في كل قلب مؤمن روعاته
يقضى الزمان وما انقضت حسراته
أسد وإن بلاد غاباته
فكأننا سنواته ساعاته ا
بيدي السبات وقد بدت غشياته
والوجه منه تلالا سبحاته
في مرضة حصلت بها مرضاته
منه الذئاب وأسلته رعاته
ديماً تولى مذ رحلت ولاته
بمن تصاب لشدة ضجراته
فوق السماء عليه درجاته
ووصلت ملكا «قيا راحاته
نيا ، ووجهك لا ترى بهجاته
ما زال يأبى ما الكرام أبانه
لتطيب في مهد النعم سناته

وشاع نبأ وفاته في اوربة ، فبهت الناس هناك لهذا النبأ ، وطفقوا
يؤلفون الكتب حول موته من خلال ما عرفوا عنه من أخلاق وشمائل ،
ومنها قصة صورت صلاح الدين وقد حضره الموت ، فدعا اليه حامل



العلم وأوصاه قائلاً :

« أنت الذي حملت رايتي في الحرب ، وانت تحمل رايتي كذلك بعد الموت ، فدعها تكون خرقة باليه ، واحملها على رأس رمح طويل ، وطف بها ربوع دمشق ، وادع جميع الناس لينظروا اليها ، وقل لهم : ها هوذا ملك الملوك ، مات ولم يأخذ معه سوى خرقة واحدة ، هي الخرقة التي كفنوه بها ، وانها لبالية كهذه الخرقة التي بيدي ، ومن جميع الممالك المترامية التي ملكها صلاح الدين ، والكنوز الهائلة التي كانت في يده ورهن ارادته . لم يستطع ان يأخذ لنفسه أكثر من هذه الأذرع الثلاثة من نسيج الكتان لكفنه الذي لفوه به ١١ . »

ولا بدع ان يبكي العرب والمسلمون صلاح الدين الأيوبي ، وهو الذي احتل بإخلاقه وشمائله وجهاده وتضحيته ، المكان الاسمى في قلوبهم ، فكان موضع حبهم وتقديسهم ورمز عزتهم وفخارهم . وقيل بين حكام المسلمين من احتل مثل هذه المكانة ، ومن حظي مثله باجماع المواطنين على الولاء له والتعلق به والثناء عليه . وقد رأينا ابن جبير في مواضع عدة من هذا الكتاب ينقل اليها هذه العاطفة التي لمسها في كل بلد حل به خلال رحلته الشهيرة من المغرب الى مصر فالبحر والعمارة فالجزيرة وبلاد الشام . ولعل ابلغ من ذلك كله ما سمعه في الحرم الشريف بمكة المكرمة إذ قام الامام فصولي على الرسول ، ورضى عن آله واصحابه ، ثم دعا للخليفة العباسي وأمير مكة وصلاح الدين الأيوبي . قال ابن جبير : « وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان :

وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس

وَحَقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ لَمَا يَبْذُلُهُ مِنْ جَمِيلِ الْإِعْتِنَاءِ بِهِمْ ، وَحَسَنِ النَّظَرِ لَهُمْ ، وَلَا رَفْعِهِ مِنْ وَظَائِفِ الْمَكُوسِ عَنْهُمْ ^١ ،

ويقول ابن جبير في مكان آخر : « وفي إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في وسط قبة زمزم ، ولها مطلع على ادراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا ، رافعاً صوته بالدعاء للامام العباسي أحمد الناصر لدين الله ثم للامير مكثر امير مكة ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة ، فإذا انتهى الى ذكره بالدعاء ارتفعت اصوات الطائفين بالتأمين باللسنة تمدّها القلوب الخالصة والنيات الصادقة . وتحقق الألسنة بذلك خفياً يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ، وعباد الله شهداؤه في أرضه ^٢ . »

ويصف ابن جبير زيارة شقيق صلاح الدين لمكة ودخوله الى الحرم الشريف فيقول : « والمسجد قد ارتجّ وُغص بالنظارة الواندين ، والاصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان ^٣ ،

كل ذلك وصلاح الدين لم يكن قد خاض معركة حطين وحرر بيت المقدس ، وسجل انتصاراته الباهرة على الصليبيين ، ولكنه كان على كل

١ - رحلة ابن جبير ص ٧٣
٢ - المرجع السابق ص ٨٠
٣ - المرجع السابق ص ١٢٤

حال قد بسط نفوذه على رقعة كبرى من العالم العربي ، وأخضع لنفوذه جميع القادة والأمراء الحاكمين في هذه الرقعة .

وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سر عظمة صلاح الدين ، وسر محبة الناس له ، وسر ذلك الاجماع المنقطع النظير على النظر اليه نظرة مفردة معجبة فيها كثير من التقدير والتقدير ؟

ولا ريب في ان القارىء قد لاحظ اننا لم نحاول في هذا الكتاب اظهار المزايا العسكرية التي يتمتع بها صلاح الدين ، بقدر ما عطينا بابراز الملامح الانسانية في شخصيته ، لاعتقادنا بأن هذه الملامح هي التي كان لها الأثر الاول في حياته ، وهي بالتالي سر عظمتها واجماع الناس على محبتها وتقديره .

صحيح ان صلاح الدين خلال حكمه الذي استمر أربعاً وعشرين سنة ، قد امضى ست عشرة سنة في الجهاد ، الا انه حتى في ذلك المظهر من مظاهر حياته ، لم يكن حاكماً يحشد الجيوش ويبعث بالقادة الى غمرات القتال من أجل مزيد من المجد والسلطان والمتارف ، وانما جعل من نفسه رمزاً ومثلاً ، وهجر في سبيل الهدف الذي جعل منه التاريخ واجبه الأول « أهله ووطنه وسكنه وسائر بلاده » ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، وبذلك أعاد سيرة الابطال العظام الذين يعايشون جنودهم ويشاركونهم مصيرهم .

لقد وثق الناس بصلاح الدين فأحبوه ، وآمنوا بصدقه وتجرده وتضحيته فاجتمعوا حوله وهرعوا لنجدته ، من حلب الى عسقلان ومن

الموصل الى القاهرة والاسكندرية ، ورأوا فيه أميراً من طراز جديد ،
بسط الاحسان لعدوه فأحبه عدوه ، وفك قيده أسيره فقيده بالعفو ،
والرحمة ، وعطف على شعبه فأشاع روح المحبة والمودة في قلوب الرعية ،
وارتفع بمستوى القادة والأمراء من وحدة التناوب والتنازع والتدابيح الى
صعيد التكاتف والتعاقد في سبيل هدف عظيم

ولا ريب في انه كانت لصلاح الدين قدوة حسنة في نور الدين محمود
الذي نشأ في ظله وتأثر بمدرسته ، وقبس من رسالته ، واعتبر نفسه
وريثاً له ، فقد كان نور الدين اول من وضع دعائم الوحدة الاسلامية
في وجه العدوان الغربي ، « ولم يلجأ نور الدين في تكوين هذه الوحدة
الى غدر أو خديعة ، ولم يهبط بخلقه ودينه الى ما كان يهبط اليه
انداده ومعاصروه من سلاطين زمانه ، انما ظل طوال ايامه مسلماً فاضلاً
شريفاً لا يكاد الانسان يستدرك عليه شيئاً مما الخلق والدين »

وقد ازداد احساس صلاح الدين بمسؤوليته التاريخية بعد وفاة نور
الدين ، وشعوره بالفراغ الذي تركه رحيله في بلاد الشام أمام الجيوش
الفرنجية الغازية ، فانتقل من طور الى طور ، وجعل نصب عينه أن يملأ
ذلك الفراغ ، ويكمل رسالة نور الدين ، ويحقق ما عجز عنه .

ويرى هاملتون جب انه كان على صلاح الدين بعد وفاة نور الدين
الأخذ بأحد اسلوبين ، الاول هو دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية
قوية من الخارج ، والثاني هو البناء على اسس الوحدة الاخلاقية التي
وضعها نور الدين ، وتقوية تلك الأسس الى حد بالغ ، بحيث يضطر

الكيان الذي أقامه نور الدين الى ان يخدم أهداف تلك الوحدة . وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على ان صلاح الدين أخذ بالاسلوب الأول ، والواقع ان سر نجاحه يرجع الى اخذه بالاسلوب الثاني وتنفيذه ^١ .

وقد نفذ جب الى اعماق الحقيقة عندما نسب الفضل في اتساع دوله صلاح الدين في آسية بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ الى مواقفه الخلقية اكثر من الاعمال العسكرية ^٢ . ويمكننا أن نعيد انتصاراته على الفرنجة الى الاسباب نفسها التي اشار اليها جب . فان اعمال صلاح الدين الحربية أمام الموصل وحلب كانت اقرب الى المظاهرات منها الى الحصار ، وكذلك كانت أعماله أمام عشرات الحصون التي استسلمت له بعد موقعة حطين . فان ثقة امراء المسلمين ، وامراء الصليبيين فيما بعد ، بخلق الرجل ، جعلت الاولين يقدمون له الولاء طوعاً ، ودفعتم الآخريين الى أن يطلبوا منه الأمان .

والواقع ان سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده ، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الاخلاق وانهارت القيم . وقد استعاض بقوة هذه الاخلاق الكريمة عن العبقرية العسكرية والدهاء السياسي . وكانت هذه الاخلاق تظهره احياناً بمظهر البساطة والنداجة ، فيحاول الكثيرون استغلالها ، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر ، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبيل الغاية والوسيلة معاً .

بالحب والصدق والتجرد ، فرض صلاح الدين نفوذه العظيم ، وأوجد

١ - دراسات اسلامية ص ١٣٠

٢ - المرجع السابق ص ١٣٧

بين المواطنين والأجناء والقادة ذلك الجو المؤاتي من اللولاء الشخصي له ، واستطاع ان يجند الجميع للنضال تحت لوائه دون ان يفرض عليهم اوامر ونواهي سلطان حقيقي . وفي ذلك العصر الذي كان اغتصاب السلطة الهدف الاول لكل ذي قوة ، لم يفكر احد من امرائه او اقربائه او قواده في منافسته او الخروج عليه او انتزاع السلطة منه . وكان يكفي ان يراه الجبان حتى يتشجع ، والمتردد حتى يقدم ، والمعاصي حتى يعود الى الطاعة ، لأنه كان يعطي المثل بنفسه سلوكاً وعملاً .

لم يكن يعاملهم على انه سيد الدولة ، بل كان يقف أمامهم بوصفه رجلاً امام رجال ، لا فرق بين واحد وآخر الا بمقدار حظه من الرجولة والنبيل والطيبة التي استعاض بها عن ابهة الملك وهيبة السلطان .

وكان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه الا الخير ، وطاهر اللسان لا يشتم ولا يعنف قط ، وطاهر القلب لا يفكر الا في مصلحة قومه وبلاده ، حليماً لا يثور وسمحاً لا يقضب . روى تلج الدين شاهنشاه ابن ايوب ان احد الخدم رمى آخر بجذاء فتجاوز حتى وصل اليه ، فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يجرح ذلك الخادم . وكان اذا عرضت عليه القصص ازدحم الناس من حوله حتى يطأوا طراحته وهو لا يتأثر . وقد عرف بالعطف على كل ضعيف ولا سيما الشيوخ والنساء والاطفال ، يقف في الفتوح على مفارق الطرق باحثاً عن فقير يؤويه ، او محتاج يقضي حاجته ، او عاجز يعفيه من غدية يعجزه الحصول عليها .

وفي عصر الترف والبذخ والأسراف ، تميز صلاح الدين من بين ملوك عصره ، بالبساطة والبعد عن ابهة الملك ، فلم يكن يحب السكنى في

القصور ، وكان يرتدي الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والصوف^١ .
وكان يعتبر نفسه واسرته خزنة المسلمين وحراساً لأموالهم لا سياداً
عليهم ، وقد ولي ابنه الظاهر حلب ، ففعل وتلهم ، وشغف بالملك
وأحبه ، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه أبواب
الذكاء والفطنة وحسن الخدمة ، فعزله عن ولاية حلب وأرسل مكانه
أخاه العادل^٢ ، وطلب منه الملك العادل أن يكتب له في اقطاع حلب
كتاباً ككتاب البيع والشراء ، فامتنع وقال له : « أظننت ان البلاد
تباع ، أو ما علمت ان البلاد لأهلها المر بطين بها ، ونحن خزنة المسلمين
ورعاة للدين وحراس لأموالهم^٣ ، ورفض اعفاء أخيه من مال يحمله الى
خزينة الدولة ، وجند يرسله الى ميدان القتال .

وكان بعض اولاد الصغاره يرافقونه في احدى المعارك ، فأرادوا أن
يأذن لهم بقتل أحد الأسرى ، ففضب وزجرهم عن ذلك ، لئلا يعتادوا
على سفك الدماء ويهون ذلك عليهم^٤ .

وقد أوصى الملك الافضل كبير اولاده قبيل وفاته بالوصية التالية :
« اوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به
فانه سبب نجاتك ، واحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان
الدم لا ينسام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم فانت
امين وامين الله عليهم ، واوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة
والاكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداواة الناس ، ولا تحقد على أحد فان

١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٦

٢ - النوادر السلطانية ص ١٠

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٢

٤ - النوادر السلطانية ص ١٤٢



صلاح الدين في مجلسه

الموت لا يبقى على احد ، واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يُغفر
الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك فانه كريم ^١ ،

وقد اجمل بروكلمان عدداً من صفاته ومزاياه بقوله : « وليس من
شك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده
عن ايما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة
دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع اعداؤه انفسهم الا الاقرار له
بالشجاعة والنبيل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان
صلاح الدين بالاضافة الى ذلك كله نصيراً للعلم ^٢ ،

لقد كان يجمع اهل العلم والرأي لكلل أمر ، ثم يلتزم مشورتهم
ويتقيد بها . وكان العلماء يشاركون في الجهاد اما بقيامهم بتذكير الجند
بقصص البطولة عند ابطال الاسلام السابقين ، واما بالاشتراك الفعلي في
القتال وقد ملأ مملكته بالكليات والمستشفيات والمدارس المجانية ، لم
يؤثر فيها اقليماً على اقليم ، ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها
المعاهد والمرافق ويبني الجسور ويتعهد الترع . وكانت اخته ست الشام
بنت ايوب تصنع الأشربة والأدوية والعقاقير كل سنة بالوف الدنانير
وتفرقها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين . وكان عدد
العلماء والادباء في مجلسه اكثر من عدد القواد ورؤساء الأجناد ، وقيل ان
رواتب العلماء في سورية كانت تتجاوز في عهده مائتي الف دينار ، وقد
مرَّ به رجل منهم وانصرف بعد لقائه ، ومضى على ذلك ليل وسأل
سلطان عنه فقيل انه سافر ، فظهرت على وجهه امارات العتاب وقال :

١ - المرجع السابق ص ٢٤١

٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٢

« كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمه منا ! »

وجعل نصب عينيه القضاء على المظالم ، فرد الحقوق الى ذويها ، وازال الضرائب الجائرة ، ومنع الرشوة وعاقب من يرتكبها أشد عقاب ، وضرب على أيدي اللصوص ، وتفقد أحوال الناس ، وفتح ابوابه لطلاب الحاجات ، وجلس بنفسه للنظر في المظالم في حربه وسلمه وسفره وحضره ، فلا يعترض بجلسه حاجب أو وزير ولا يستغيث به أحد الا اغاثه ، ولا يحابي في الحق وان كان على أهله او على نفسه .

ويحكى ان مواطناً من أهل دمشق يدعى ابن زهير ، حضر ليشكو ابن اخيه تقي الدين ، فأمر بحضوره في مجلس المحاكمة ، وأخذ لابن زهير من ابن اخيه وكان هذا من احب الناس اليه وأعزم عنده .

وروي ابن شداد انه كان يوماً بمجلس الحكم في بيت المقدس ، فدخل عليه شيخ حسن الهيئة يسمى عمر الخلاطي ، وهو من التجار المعروفين ، وكان بيده كتاب 'حكيم' ، فسأل ابن شداد أن يفتحه ، فقال له ابن شداد : من خصمك ؟ فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا انك لا تحابي .

فقال ابن شداد : وفي أي قضية هو خصمك ؟ فقال : ان سنقر الخلاطي كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي الى ان مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها ، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها ، فقال ابن شداد : يا شيخ ، وما أقعدك الى هذه الغاية ؟ فقال : ان الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل

في ملكي الى أن مات .

فأخذ ابن شداد الكتاب منه ، وتصفح فوجده يتضمن حلية سنقر الخلاطي ، وأنه قد اشتراه فلان التاجر بأرجيش في يوم كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه الى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما .

فتمعجب ابن شداد من هذه القضية ، وذكر للتاجر انه لا يصح سماعها من غير وجود الخصم ، وأنه سيرفها بها ويعرفه بما يقوله فيها ، فرضي بذلك وانصرف .

ثم اتفق ابن مثل ابن شداد بين يدي صلاح الدين في ذلك اليوم ، فذكر له قصة ذلك التاجر ، فاستبمدها استبماداً شديداً ، وسأله : هل نظرت في الكتاب ؟ فقال له : نظرت فيه ورأيت متصل الورد والقبول الى دمشق ، وقد كتب عليه « كتاب حكيم من دمشق » وشهد به علي يد قاضي دمشق شهود معروفون . فقال : نحن نحضر الرجل ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع .

ومضى على هذا أيام كان التاجر يتردد فيها على ابن شداد ، ويطلبه بالنظر في دعواه ، ثم اتفق أن جلس ابن شداد مع صلاح الدين في خلوة ، فقال له : هذا الخصم يتردد عليّ ولا بُدّ ان تُسمع دعواه ! فقال : أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأختر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل ما هنا .

فذهب ابن شداد ففعل ما أشار به صلاح الدين ، ثم عاد اليه ، فأمر بإحضار الرجل الى مجلسه ، فلما حضر استدناه حتى جلس بسين يديه ، وكان ابن شداد الى جانبه ، فنزل صلاح الدين من طراحته حتى

ساوى الرجل ، ثم قال له : ان كان لك دعوى فاذكرها :

فقام الرجل فذكر دعواه على نحو ما ذكره ابن شداد ، فقال له صلاح الدين : ان سنقر هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى اعتقته ، وتوفي وخلف ما خلفه لورثته . قال الرجل : لي بيّنة تشهد بما ادعيتة . ثم سأل ابن شداد أن يفتح كتابه ، ففتحه فوجده كما ذكر .

فلما سمع صلاح الدين التاريخ قال : عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وإني اشتريته مع ثمانية انفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وانه لم يزل في يدي وملكى الى ان اعتقته

ثم استحضر جماعة من الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذكروا القصة كما ذكرها وحددوا التاريخ كما حدده ، فأبلس الرجل حين ظهر كذب دعواه .

فقال ابن شداد : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلباً لمراحم السلطان ، وقد جاء من خلاط في طمع ، ونفدت نفقته ، وما يحسن ان يرجع خائب القصد . فقال صلاح الدين : يا قاضي ، هذا انما يكون على غير هذا الوجه . ثم امر له بنفقة وخلعة .

وكان صلاح الدين كريماً ينفق كل ما في يده في وجوه الخير والاحسان ، وقد بلغ من فرط كرمه وزهده انه لم يكن لديه مال يتزكى به ، ولما

١ - النوادر السلطانية ص ١٠ - ١٣ ، القضايا الكبرى في الاسلام ص ٣٠٦ - ٣٠٩

توفي لم يترك وراءه - وهو الذي وضع يده على كنوز الدولة الفاطمية وكانت مملكته من اغنى ممالك الشرق - داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة ، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهماً ودينار ذهبي واحد .

وكان يحترم عقائد الناس ، ويوسع لهم في الحرية ما استطاع ، ويولي المسيحيين واليهود العرب المناصب التي يستحقونها . ولعل اكبر صفاته وأنبى مزايه ، انه لم يكن مغرماً بقتل اعدائه أو اذلالهم ، فكان يسرع الى العفو والتسامح اذا مدوا له يد الود أو طلبوا منه الأمان ، سواء أكانوا من المسلمين ام من الصليبيين ، وقد رأينا انه لم يقتل أحداً من أمراء الفاطميين ، وهو أمر نادر في ذلك الزمان حين كانت تنهض دولة على انقاض دولة .

ولم يبطره الظفر يوماً بل كان يزيد مرءة وتسامحاً ورحمة بالانسان ، وان لم يكن من دينه وجنسه ، وقد يضع جنده كرامة الانتصار وعظمته ، فيعيشون فساداً وخراباً ، وهو يشتد في ردعهم وضبطهم .

وقد اعطى صلاح الدين الغرب ، بعدله ورحمته وتسامحه ، صورة جديدة للاسلام ، فزال تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين الى الشرق سنة ١٠٩٦ ، حتى غدا ملك الانكليز يقترح كما رأينا زف شقيقته الى أحد أمراء المسلمين .

ويلاحظ الاستاذ نقولا زيادة ان الصليبيين كانوا في السنين الاولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد الدين زنكي بأن جعلوه ابن

١ - السلوك ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ٩١ ، النوادر السلطانية ص ١٣ ، ذيل النوادر ص ٣١٠

الكونتيس ايـا السـي اشـركت في الـملة الـولى ، وفي زمن الـملة الـانية
اعتقدوا ان قـلج ارسلان من نسل جرمانـي شريف ، ولكن بعد ان
ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت اسطورة تـملل عظمة توماس بكت أحد
مشاهيرهم يـمله ابناً لأم عربية ١ .

وهكذا تثبت سيرة صلاح الدين الـيوي ان القوة لا تصنع البطولة
اذا لم تقترن بالـروءة ومكارم الـلاق .
فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الـبطال !

الجزء الثالث

خلفاء صلاح الدين

● كان القرن الثاني عشر أعظم عصور الحملات الصليبية ، أما تاريخ الدول اللاتينية في سورية في القرن الثالث عشر فيعتبر عادة خاتمة . ومنذ عام ١١٠٨ أصبحت الحروب ضد الكفار والمراطقة تعتبر في نظر معظم البابوات أم من الحروب ضد المسلمين

جون لامونت

● ولم يكن حصول احد الامراء المسيحيين المتخاصمين على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر ، بأغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى ضد مسلمين آخرين .

فيليب حقي

● فالصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والنصارى قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية ، لم يكن يستطاع قطعها ، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد .

جون هامرتن

● وعندئذ ظهرت بوادر مميزات العصر الجديد التي لا تؤيد روح الحروب الصليبية الجامحة ، ولا روح الالتجاء الى الجهاد الديني عند المسلمين ، وتمد كلاهما من بقايا عهد غير ا

جورج كيرك

الفصل الثالث والعشرون

حملة صليبية على دول مسيحية

يرى الدكتور فيليب حتي ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية الى عدد معين من الحملات ، لا يخلو من تكلف وافتعال ، لان سبل الامدادات كاد يكون متواصلاً ، فالخط الواصل بينها لا يبدو بجلاء . وفي هذا الرأي كثير من الصحة ، إذ ما كانت لتنقضي سنة واحدة من القرن الثاني عشر ، دون أن ترد الى الشام وفود من الحجاج المتحمسين ، غير ان تلك الوفود ما كانت تأتي للحرب قصداً ، ولكنها كانت اذا وجدت الحرب قائمة اشترك فيها القادرون من رجالها وشبانها . وكذلك كانت الامدادات العسكرية تتوالى من جميع انحاء اوروبا لنصرة الامارات اللاتينية في الشرق ، ولكن التاريخ لا يعتبر هذه الامدادات الجسائية حملات جماعية منظمة اشتركت فيها دول اوروبية متعددة ، ولهذا فهو لا يسلكها في عداد الحملات الصليبية الكبرى .

وفي ذلك التقسيم التقليدي للحركة الصليبية ، تأتي بعد حملة الملوك التي انتهت زعامتها الى ريشارد قلب الأسد ، الحملة الرابعة التي تكشف اكثر من

الاعمال العدوانية التي تعرضت لها المدن المسيحية في البلقان التي مورت الحملات الصليبية السابقة - عن الأسباب الحقيقية والدوافع الخفية لتلك العاصفة الهوجاء من الصراع الدامي بين الغرب والشرق خلال قرنين كاملين .

فقد تولى سدة البابوية سنة ١١٩٨ م ٥٩٥ هـ انوسنت الثالث ، وهو احدى الشخصيات البارزة في القرون الوسطى ، وكان من المشاريع التي أعدها وسعى اليها ، استعادة ما انتزعه صلاح الدين الأيوبي من أملاك الدولة اللاتينية في فلسطين ولا سيما بيت المقدس . وقد بعث برسله الى دول اوربية لدعوة ملوكها الى المشاركة في حملة صليبية جديدة ، وأرسل الدعاء لاثارة الحماسة لهذه الحملة في الأوساط الشعبية .

وقد حالت المشكلات الخاصة التي كانت تستغرق اهتمام كل من ملوك اوربية ، دون مشاركته في هذه الحملة ، الا ان أجمادها اجتذبت معظم الامراء والفرسان البارزين في فرنسا وانكلترا والمانيا وهولندة وصقلية ، وفي مقدمتهم بلدوين التاسع أمير فلاندر وأخوه هنري ، وبونيفيس دي مونتفرات ونيبوت الثالث أمير شمبانيا ولويس أمير بلوا .

ورأى قادة الحملة ان تكون وجهتهم مصر ، حتى اذا ما استولوا عليها ولوا وجوههم شطر فلسطين واحتلوا بيت المقدس ، واتفقوا مع قادة البندقية على أن تقوم بنقل اربعة آلاف وخمسةائة فارس وعشرين الف جندي على مراكبها الى شواطئ مصر ، وان تطعم هؤلاء الجنود والفرسان ، على ان يدفع الصليبيون لها مبلغاً معيناً من المال ، وان تقسم الغنائم في المستقبل بينها وبينهم .

وتجمعت الحملة في البندقية خلال شهري تموز (يوليه) وآب (اغسطس)

من سنة ١٢٠٢ م ٥٩٩ هـ ، ولكن الصليبيين عجزوا عن دفع المبلغ المتفق عليه ، ولم يتمكنوا الا من دفع نصفه . وكانت مدينة زارة الهنغارية تنافس البندقية منافسة تجارية شديدة ، فانتهمز قادة البندقية هذه الفرصة واقترحوا توجيه الحملة الى مدينة زارة على الشاطئ المقابل للبحر الادرياتي ، وانتزاعها من ملك هنغاريا وتسليمها للبندقيين ثمناً لنقل الحملة فيما بعد الى مصر^١ .

واستجاب الصليبيون للطلب ، ومضوا الى زارة وحاصروها ، وعبثاً حاول أهلها اظهار شعائر المسيحية على الاسوار لردع الصليبيين عن محاربة أبناء دينهم^٢ . فقد هاجم الصليبيون المدينة ونهبوها^٣ . ثم قدموها للبندقية لقمة سائغة .

وحدث في ذلك الوقت نفسه أن افلت اليكسي ابن الامبراطور اسحق انجيلوس من السجن الذر كان قد زجه فيه عمه اليكسي الثالث الذي اغتصب الحكم من أخيه اسحق بعد أن سمل عينيه واعتقله مع ابنه ، ورفض كنية عائلته وتسمى اليكسي الثالث كومنينوس . فتبنى الصليبيون والبنادقة قضية اليكسي انجيلوس المطالب بعرش ابيه ، مع ان اسحق انجيلوس كان خصماً صريحاً للحملة الصليبية الثالثة ، ووجهوا الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية . وكان البندقيون ينتظرون مثل هذه المناسبة للثأر من القسطنطينية التي حرمتهم من امتيازاتهم التجارية

١ - لم تكن البندقية مستعدة اصلاً لمعاداة المسلمين في مصر لما صار لها من مصالح اقتصادية وجاليات واسعة في الاسكندرية ودمياط (انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣١ - ٩٣٢)

٢ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٦

٣ - L'Eglise et l'Orient, P, 156 - 157

يقول الدكتور اسد رستم : « وقد اختلف رجال الاختصاص في اسباب تحول الصليبيين عن مصر وفلسطين الى القسطنطينية . فقام في السنة ١٨٦١ ماس لاترى الافرنسي يتهم البندقية وشيخها بالوصول الى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن اراضيه وأيد قوله كارل هوبف الألماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة السرية ، وجعله في الثالث عشر من ايار سنة ١٢٠٢^٢ »

وكان اليكسي انجيلوس قد جاء الى روما يستنجد البابا على قضيته . ثم اتجه شطر الماية يستعين بشقيقته ايرينة زوجة الامبراطور فيليب سوابيه ، فرجت ايرينة زوجها في ذلك وألحت عليه ، فأرسل وفداً الى زارة يرجو البندقيين والصليبيين بمساعدة الأمير الطريد : ورحل اليكسي بنفسه الى زارة طالباً المعونة ، مقابل وعده بدفع مبلغ كبير من المال ، واستعداده لادخال البيزنطيين الارثوذكس في طاعة البابا والحاق الكنيسة الشرقية بالكنيسة الغربية .

الا ان الأمر كان في واقعه ، كما يقول جون هامرتن ، مجرد صفقة كفلت لرجال الحرب من جهة وأصحاب السفن من جهة اخرى ، ان يشتركوا سوياً فيما يمكن ان تجلبه من اموال وأرباح^٣ .

والواقع ان الرخاء العظيم الذي كانت تتمتع به الدولة البيزنطية كان

١ - Vie et Mort de Byzence, p. 366

٢ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٧ ، انظر ايضاً : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠١ Heyd ; hist. du Commerce, I. P

٣ - تاريخ العالم ج ٥ ص ١١٧

وبالآ عليها ، لأنه أثار مطامع الآخرين فيها ، وانتهت تلك المطامع بضياعها . ويقول نورمسا بينز : « إذا نظر الانسان الى الحروب الصليبية من وجهة نظر الامبراطورية الاغريقية ، لا يسهه الا ان يتبين ان هذا المجهود العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح ، إنما كان شره على الدولة اكثر من خير . » فهذه الحروب قاربت بين عاين عاجزين عن التفاهم بيزنطية والغرب) ، فكانت النتيجة ان زادت في حدة الضغائن واسباب الكراهية بينها ، وأطلعت كذلك أهل الغرب ، والبندقيين منهم خاصة ، على غنى الدولة والبيادين التجارية المسيحية التي تضمها ، فأثارت بذلك نيران الطمع ،

وفي آخر حزيران سنة ١٢٠٣ م ٦٠٠ هـ ظهر اسطول الصليبيين أمام أسوار القسطنطينية ، ونزلوا بالقرب من غلطة ، وقطعوا السلاسل الحديدية التي تحمي مدخل القرن الذهبي ، فدخلت مراكب البندقيين وأحرقت المراكب البيزنطية . ثم اقتحم الفرسان الصليبيون أسوار العاصمة . واستولوا على المدينة ، وفر اليكسي الثالث بخزينة الدولة وجواهرها ، وأطلق سراح اسحق الثاني واعلن ابنه شريكاً له في الحكم باسم اليكسي الرابع .

وطالب الصليبيون وددنولوش شيخ البندقية ، الحاكمين الجديدين بدفع المال المتفق عليه ، فاستمهلهم اليكسي الرابع ورجاهم ان يقيموا خارج اسوار العاصمة . واسخط البيزنطيون على اللاتين الفاتحين ، واتهموا اسحق وابنه بالخيانة . ونهض اليكسي دوقاس صهر اليكسي الثالث في اوائل سنة ١٢٠٤ م ٦٠١ هـ يدعو الى الثورة ، فتبعه الشعب ، وقضى على

اسحق وابنه . ونودي بقائد الثورة امبراطوراً باسم اليكسي الخامس .

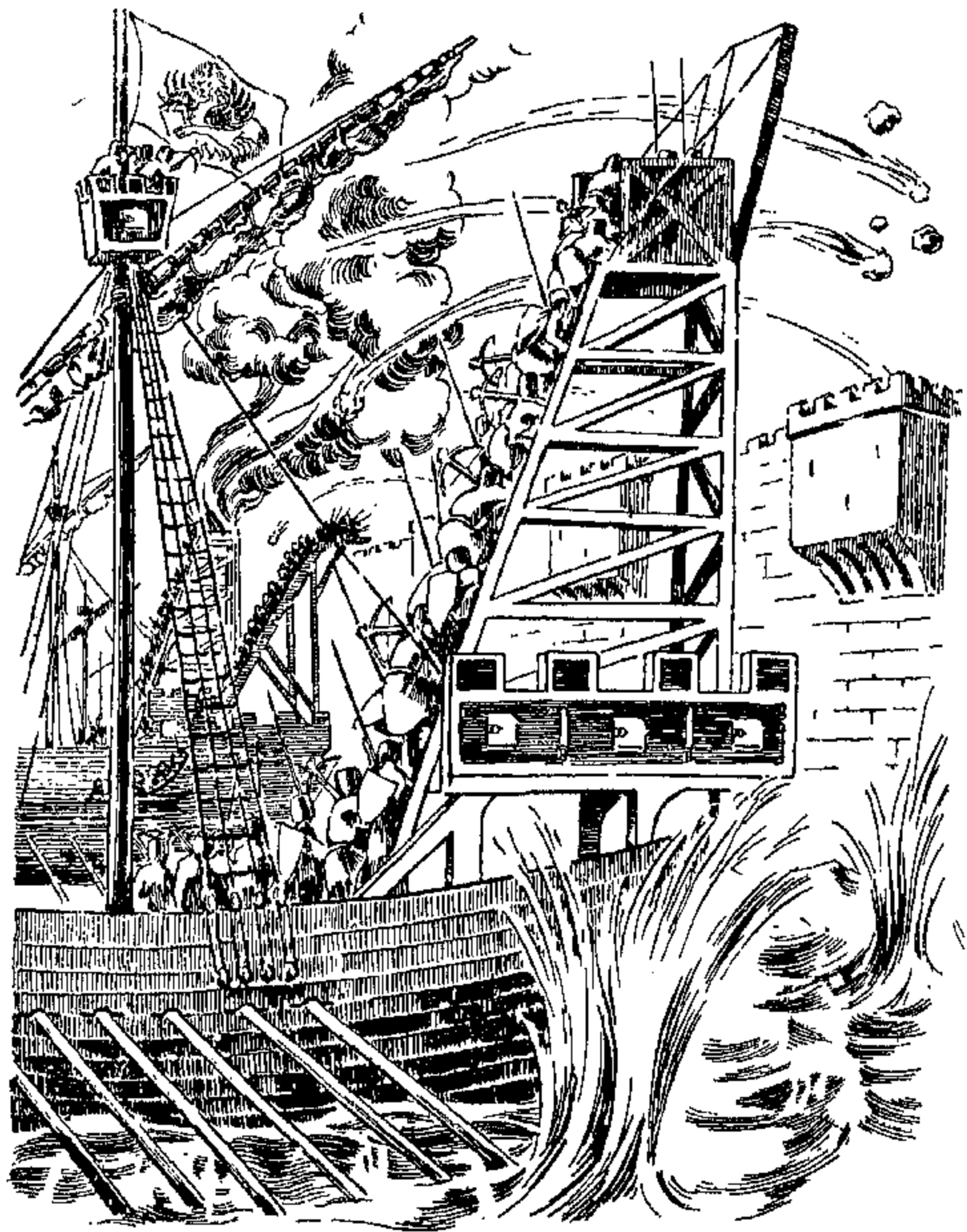
وكان واضحاً ان الثورة لم تكن موجهة الى اسحق انجيلوس وابنه اليكسي الرابع ، بقدر ما كانت موجهة الى التدخل اللاتيني في شؤون الدولة البيزنطية ، ووجود الصليبيين والبندقيين في اراضيها . فما لبث هؤلاء ان اتفقوا في اذار سنة ١٢٠٤ م ٦٠١ هـ ، على احتلال العاصمة من جديد ، واقامة حكومة لاتينية فيها ، واقتسام الغنائم فيما بين الطرفين ، وتأليف لجنة من ستة بندقين وستة فرنسيين تتولى انتخاب امبراطور « يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية » ، على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها ، ويوضع تحت تصرفه قصران من قصور العاصمة ، ويُقسم ما بقي من العاصمة وارضى الدولة مناصفة بين البندقية وسائر الصليبيين.

وحاصر الصليبيون القسطنطينية ، فما هي إلا أيام قليلة حتى فر اليكسي الخامس « فتدفقوا اليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ ناهبين . واشترك في اعمال النهب الفظيع الجنود الصليبيون وفرسانهم والرهبان اللاتينيون ورؤساؤهم . وشمل هذا النهب كنيسة الحكمة الالهية ، وغيرها من كنائس العاصمة وأديارها ، كما قضى على عدد كبير من ائمن المخطوطات »^٢

لقد « نسي الفرنجة انهم فتحوا بلداً مسيحياً ، وانهم اقتحموا اكبر مركز ظل يحمل لواء المسيحية في الشرق طوال تسعة قرون ، فانساحوا

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٧٨

٢ - المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٩



في طرقات المدينة وشوارعها كالجراد المنتشر ، يقتلون من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ، فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها ، ولم يتركوا أثراً فنياً أو أدبياً إلا افسدوه ودمروه ، فشبغ منهم من كان جائعاً ، واغتنى من كان فقيراً . حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من عبث الصليبيين ولم تنج من ايديهم ، وهم الذين حملوا اشارة الصليب لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين . وقد تمنى شاهد عيان اسمه نفتاس حونيائس أن لو كانت العاصمة البيزنطية سقطت في يد المسلمين بدلاً من سقوطها في ايدي الصليبيين ، وذكر ان المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت المسيحية مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها^١ .

ويقول ابو شامة : « وفي شهور هذه السنة تغلبت طائفة من الفرنج البحرية بالبنادقة على قسطنطينية ، وأخرجوا الروم منها بعد حصار وقتال ، وحازوا مملكتها وانتهبوا ذخائرهما وما حوته كنائسها من آلات ورخام ، وحملوا الى الديار المصرية والشامية ، فبيع ووصل منه الى دمشق رخام كثير ، وكان أسامة يعمر داره فحصل منه شيئاً لم يكن قبله مثلها^٢ » .

وقد انتخب بلدين التاسع كونت فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية ، ثم قسمت الدولة البيزنطية ، فتولى الامبراطور على خمسة اثمان العاصمة وعلى الأراضي التي تاخمت المضيقين وبحر مرمرة وعلى بعض جزر الارخبيل

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٥ نقل عن :

Runciman ; Hist. of the Crusades. II. 123

Hist. of the Byzantine Empire. II. 461

٢ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٠

الكبرى . واستولى مركز مونتفرات على تيسالونيكية وما جاورها من ارض مقدونية وعلى تيسالية . وثال دندولو شيخ البندقية حصة الاسد ، فاستولى على حي كبير من القسطنطينية ليأرس فيه البندقيون نشاطهم التجاري ، كما استولى على ديراتزو وغيرها من النقاط الهامة في ساحل الأدرياتيك الشرقي ، واحتل كورفو وغيرها من جزر مداخل هذا البحر وبعض الأساكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة اقريطش ، وبعض المرافئ على شاطئ تراقية وغاليبولي ، وثلاثة اثمان القسطنطينية . واتخذ دندولو لنفسه هذه المناسبة لقب دسبوتس ولقب « سيد الربيع » ونصف جميع امبراطورية رومانية ، وظل خلفاؤه في البندقية يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر ، وتسلم اكيروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية ، وأقاموا توما موروسيني بموافقة البابا بطريركا على الكنيسة الكاثوليكية في الامبراطورية الجديدة ، فكان اول كاهن كاثوليكي يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية . واتخذ مركز مونتفرات لنفسه لقب ملك ، وزحف الى آثينة فاحتلها ، وجعل منها ومن ثيبة دوقية ، وحول كنيستها الكاتدرائية في قلب البارتيون الى كنيسة لاتينية ^١ .

وهكذا قامت في بيزنطة امبراطورية لاتينية على اساس اقطاعي ، شبيهة بالملكة التي أسسها الصليبيون في القدس اثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقسمت اراضيها الى عدد من الاقطاعات ، واقسم امراء هذه الاقطاعات بين الولاء والطاعة للامبراطور . وكتب الامبراطور بلدوين التاسع الى البابا ينبئ بفتح القسطنطينية وبارتقائه عرشها « بنعمة الله »

١ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ١٨٠

مؤكداً خضوعه للسدة البابوية . فأجابه البابا « متهللاً بالرب لتمجيد اسمه بالاعجوبة التي تمت فشرفت العرش الرسولي وشعب المسيح » وطلب الى جميع الكليروس وجميع الملوك والشعوب ان يؤيدوا الامبراطور الجديد . الا انه كتب في الوقت نفسه الى بعض قادة الصليبيين يلومهم على ما اقترفوه في القسطنطينية ، ويظهر اسفه لانهم آثروا كنوز الدنيا على كنوز الآخرة « ولم يوقروا الدين ولم يحترموا العمر او الجنس »^١

وليس هنا مجال الحديث عن الامبراطورية اللاتينية التي انشأها الصليبيون في القسطنطينية ، والامارات التي اقاموها في تيسالونيكية ، وآخنة ، وآثينة وثيبة ، وما الحقوه من الجزر والمواقع الاستراتيجية بامبراطورية البندقية . ونكتفي بالقول ان تلك الامبراطورية قد استمرت من سنة ١٢٠٤ الى ١٢٦١ م (٦٠١ - ٦٦٠ هـ) ، وعبثاً حاول اللاتينيون خلال ذلك اخضاع الشعب البيزنطي والحاق الكنيسة الشرقية بكنيسة الغرب .

وقد تجمعت المقاومة في بقاع بيزنطية متعددة أهمها نيقية حيث تأسست امرة مالكة جديدة بدأت بتيودور الأول الذي عرف بنضاله ضد الصليبيين في عهد اليكسي الثالث الذي كان السبب في دخولهم الى القسطنطينية وتمكنهم فيها ، وانتهت بيوحنا الرابع الذي ورث الملك وهو في العاشرة من عمره ، فاستطاع ميخائيل باليولوجوس ان يدس للوصي عليه من يفتاله ، ثم يعلن نفسه وصياً عليه ، ثم يتوج نفسه بدلاً منه .

ثم نهض ميخائيل لمحاربة الفرنجة في غير موقع من المواقع البيزنطية

١ - المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١



احتلال الصليبيين لمدينة القسطنطينية - لوحة شهيرة لاجوستو ديلاكروا

التي اسقوا عليها ، وبينما كان قائد جيشه اليكسي استراتيفولوس يمرّ بفاليبولي في طريقه الى الحدود البلغارية على رأس ثمانمائة جندي ، انضم اليه كثير من المتطوعين البيزنطيين ودعوه للمسير الى ضواحي القسطنطينية مؤكداً له ان حاميتها الافرنجية خرجت لتحارب بعيداً عنها ، فخشي القائد سوء العاقبة ، ولكن أحد أبناء العاصمة خرج في مساء ذلك اليوم من سرداب في بيته الى خارج الاسوار ، وأدخل معه خمسين جندياً ، فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على أحد أبواب المدينة ، فدخل الجند جميعهم في الخامس والعشرين من تموز (يولييه) سنة ١٢٦١ (١٠٦٠ هـ) ، وأعلنوا عودة الدولة البيزنطية ، ونادوا بميخائيل باليولوغوس امبراطوراً عليها ، فانضم اليهم افراد الشعب ، ولاذ الفرنجية بالفرار . وانتقل الامبراطور الى قسطنطينية ، وأعاد اليها شعائر الارثوذكسية وأحبار المذهب الارثوذكسي

وهكذا اندثرت الامبراطورية الرومانية اللاتينية وكان فناؤها جزءاً وفقاً^١ . ويرى رينه غروسه ان قيام هذه الدولة على الشكل الذي رأينا ، هو من أشأم احداث تاريخ اوربة ، ولم تكن عواقبها بأقل سوءاً على « سورية الفرنجية » من العواقب الوخيمة التي جرت على العالم اليوناني ، فبينما كانت هذه في أشد الحاجة الى المساعدة كي يستقيم أمرها ، حرمتها « الصليبية الرابعة » ايها ، وقطعت عنها سبيل الامداد الى حين من الزمن . فالجهد الفرنسي وقد تبدد بين عكا والقسطنطينية ، أكمل اضعاف مستعمرات الأرض المقدسة . ويمكننا القول ان الامبراطورية اللاتينية الموقنة في القسطنطينية ، جاءت في الساعة الحاسمة لتسد منافذ

١ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١١٧

الحياة على « سورية الفرنجية »^١ .

يقول فيليب فان نس مير ان من نتائج هذه المغامرة « ان الصليبيين قد اضعفوا القوة الحربية في العاصمة التي ظلت الف سنة الحصن العظيم للتمدن الغربي ، يدفع عنه البربرية الآسيوية . واما الآن فقد انحطت قوتها في الدفاع ، فجاء ذلك بأسوأ النتائج للعالم المسيحي »^٢ .

ويرى المؤرخون عامة انها كانت نذيراً باخفصاق الحركة الصليبية بأكملها^٣ فقد جذبت امبراطورية القدس اللاتينية ودول اليونان اللاتينية ، الفرسان الغربيين اكثر مما اجتذبتهم سورية ، حتى ان بعض الافرنج القاطنين في سورية تركوا بيوتهم ليشاركوا في معامرات الشمال . أما عامة الناس الذين كانوا عماد الحملات الصليبية فقد فقدوا كل اهتمام بها^٤ .

الا ان نورمان بيتز يذهب الى ابعد من ذلك فيقول : « بينما كانت الاحزاب المدنية والعسكرية تتنازع السيادة داخل الامبراطورية ، كانت جيوش الغرب التي قامت بالحملات الصليبية تجذبها أهبة الأباطرة البيزنطيين ، وتستفزها سياستهم . وقد كان من الممكن ان يحاول البلاط الشرقي شراء المساعدة المسلحة من الغرب ببذله وعوداً خلاصة عن الاتحاد الديني مع البابوية ، لولا ان الشعب حميت في نفسه العداية للمهاجرين الايطاليين وللسيادة الغربية . وربما كان أمر شيء على امبراطورية قوية ان تجد نفسها في حاجة الى الحماية ، وان تجد ان القوى الوحيدة التي تستطيع

١ - رصيد التاريخ ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤

٢ - التاريخ العام ص ٢٤٩

٣ - Grousset ; Hist. des Croisades. III, p. 175

٤ - دراسات اسلامية ص ١٢٥

حمايتها أبغض شيء اليها اما رجال الغرب الذين لم يجدوا في أرض
الميعاد سوى القليل من اللبن والعسل ، ولقي الكثيرون منهم الموت
في رمال الصحراء ورأوا روما الشرقية تفوز لنفسها بالاسلاب والغنائم
التي كسبتها ايديهم ، فقد أذكى كل هذا في نفوسهم الشعور بخيبة
الرجاء ، وأججت الخيبة في قلوبهم نيران الكراهية ، ومن الكراهية
المريرة نشأت مأساة سقوط الامبراطورية . وكل حضارة رفيعة تجتذب
نحو نفسها الحضارات التي هي أدنى منها في المرتبة بطبيعة الحال . ومن
هنا يقول عالم محدث : إن الحروب الصليبية كانت في واقع الأمر
صراعاً في سبيل القسطنطينية^١ .

١ - الامبراطورية البيزنطية ص ٧٠ - ٧١

الفصل الرابع والعشرون

العادل سيف الدين

بينما كان الصليبيون يستولون على القسطنطينية ويقيمون امبراطورية لاتينية فيها ، كان امراء المسلمين في الشرق يقتسمون مملكة صلاح الدين ويتنازعون عليها .

وكان صلاح الدين الأيوبي قد خلف سبعة عشر ولداً أكبرهم نورالدين علي الذي لقب الملك الأفضل ، وكان ملازماً لأبيه عند وفاته فاستولى على دمشق والقدس وسورية الغربية ، وعماد الدين عثمان الذي لقب بالملك العزيز وكان يتولى مصر فاحتفظ بها ، وأبا الفتح الغاري الذي لقب بالملك الظاهر وقد حكم حلب وسورية الشرقية ، كما كانت له ابنة واحدة تدعى مؤنسة وقد تزوجت محمد ناصر الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل وهو ابن عمها الملك العادل . واما الملك العادل فكان حينئذ في الكرك والأردن فظل مسيطراً عليها إلى جانب اقطاعاته في الجزيرة . وتوزع بقية الأخوة والابناء عدداً من الامارات ، فأخذ سيف الاسلام طفنين شقيق صلاح الدين اليمن وجزيرة العرب ، وشيركوه الصغير حفيد أسد الدين شيركوه حمص ، والظافر خضر بن صلاح الدين بصرى وهوران ، والأجد بهرام شا ابن أخي صلاح الدين بعلبك . والى

جانب هؤلاء من أفراد الاسرة الأيوبية احتفظ عز الدين مسمود بالموصل ،
وعماد الدين زنكي بسنجار ، وقطب الدين سقمان بكيفا وآمد ، وعماد
الدين أبو بكر بن قرا ارسلان بخرتيرات^١ .

وكان كثير من نشأوا في ظل الدولة الصلاحية والعدل الصلاحي
يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى الشقاق والنزاع ،
ومن أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وقد كتب الى الملك
الظاهر إثر وفاة السلطان : « ان وقع اتفاق فما عدتم الا شخصه
الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول
العظيم^٢ » .

ولم تنفع وصية القاضي الفاضل وامنية الأصدقاء المخلصين ، فسرعان
ما نشبت الحروب بين تلك الممالك والامارات ، ولم تنفع الملك الأفضل
الذي يسميه أبو الحسن « الملك النوام^٣ » تلك المبايعة التي دعا اليها
القادة والامراء في دمشق ، بينما كان ابوه يعساني سكرات الموت ،
معتذراً « بأن المرء قد اشتد وما يعلم ما يكون ، وما يفعل هذا إلا
احتياطاً على جاري عادة الملوك^٤ » .

وكان من الواضح ان نصيب الملك العادل من ذلك الارث العظيم ،
لم يكن يعدل مكانته ومقدرته وسابقته في الجهاد ومشاركته في بناء

١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٦
الفتح القسي ص ٣٦٤

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٧٣

٣ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١

٤ - النوادر السلطانية ص ٢٤٨ - ٢٤٩

المملكة الأيوبية ، وهو الذي كان صلاح الدين يستشير به في بعضلات الأمور فيبين عن رأي ودهاء وحنكة ، فلا بدع اذن في ان يطمع بتغيير تلك القسمة غير العادلة بينه وبين أبناء اخوته وليس فيهم من يدانيه في حسن السياسة وكثرة التجربة وبعد النظر .

وقد خالف الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء من مستشاريه وامراء دولته الدافعين عن حوزتها الفيورين على بقائها ، وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم ، فنقموا عليه ولجأوا الى العزيز في مصر ، فاستغل العزيز تلك الفرصة وسار بجنده الى دمشق ، فاستنجد الأفضل بالملك العادل ، والتقى هذا بالملك العزيز في صحراء المزة غربي دمشق ، ونصحه بالعودة من حيث أتى قائلاً له : « لا تحرب البيت وتدخل الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب .. ارجع الى مصر واحفظ عهد أبيك .. »

فساد العزيز أدراجه الى مصر ، بعد أن أيقن بان امراء الشام قد اجتمعوا لمقاومته ، وبعد أن تم الاتفاق على تعديل في ممتلكات الاخوة الثلاثة ، بحيث يأخذ العزيز فلسطين بالإضافة الى مصر ، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية بالإضافة الى حلب .

الا ان سيره « الملك النور » الفارقة في النهو والترف ، هي التي كانت تقري بالحملة عليه ، فما لبث العزيز ان زحف على دمشق مرة اخرى في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م ، واستنجد الأفضل بالملك العادل من جديد « فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرأ ،

واستألمهم ، وكان الامراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الامراء الأسيديّة تنافس لتقديم العزيز الصلاحية على الأسيديّة ، فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين ، واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز والانضمام الى العادل والأفضل^١ .

والواقع ان العزيز لم يكن أحسن مسلماً من أخيه الأفضل ، وقد قال ابن اياس عنه : « فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك ، لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس في مصر أقبح سيرة ، فأعاد المكوس التي كان أبطلها أبوه صلاح الدين ، وزاد في شناعتها ، وتجاهر بالمعاصي والمنكرات^٢ . »

وقد تم الاتفاق بين اولئك الامراء الذين فارقوا العزيز مع الأفضل والعادل على ان يأخذ الأول مصر والثاني دمشق ، فجمع الاثنان جيوشها وزحفا على بيت المقدس فاستوليا عليها ، ثم سارا الى مصر . الا ان العادل خشي أن يخلف الأفضل وعده بالتخلي له عن دمشق ، فأخذ يكتب العزيز ، واستطاع ان يجعل نفسه حكماً بينها . فعاد الأفضل الى دمشق ليستسلم نهائياً الى لهوه وعبثه ، ويطلق يد وزيره ضياء الدين ابن الاثير في شؤون الدولة^٣ ، فنقم عليه الناس ، ورأى العادل ان الفرصة قد سنحت له أخيراً لتحقيق أهدافه ، فرحل الى مصر وعاد مع العزيز الى دمشق سنة ٥٩٣ هـ ١١٩٦ م فاحتلها دون مقاومة ،

١ - السلوك ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٥

٢ - بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٥٩

٣ - خطط الشام ج ٢ ص ٧٥



وأبعدا الملك الأفضل الى حوران ، وحل العادل محله في حكم دمشق وأوسط الشام ، بينما استعاد العزيز بيت المقدس .

وخلال هذا الوقت كان هنري دي شبنانيا الذي أطلق عليه لقب ملك بيت المقدس ، في حين ان مملكته كانت تقتصر على عكا وصور ، يوطد علاقاته بامراتي طرابلس وانطاكية الصليبيتين وامارة ارمينيا المسيحية ، كما استطاع ازالة الجفاء الذي كان قائماً بينه وبين غي دي لوسينيان ملك قبرص ، حين خلف غي أخوه اموري فتوطدت الصداقة بينهما وتزوج ابناه اموري الثلاثة بنات هنري الثالث .

وكان هنري السادس ملك المانيا الذي ما زالت تثيره ذكرى وفاة ابيه فردريك بربروس وهو في طريقه الى بيت المقدس وخلال عشرات الالوف من أفراد الجيش الالماني في الحملة الصليبية الثالثة ، يعدّ العدة للقيام بحملة صليبية جديدة لا تهدف الى استعادة بيت المقدس و-سبب ، بل لتحقيق احلامه الواسعة في الشرق باخضاع الشرقيين اللاتيني والبيزنطي للإمبراطورية المقدسة العالمية . وقد وضع لملته برنامجاً ضخماً يستهدف فتح القسطنطينية ولأ نـم بيت المقدس بعد ذلك ، ثم اخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتيني بأجمعه لسلطة الامبراطورية ، ولما بدأت جموع الصليبيين الألمان تتوافد على بلاد الشام سنة ٥٥٩٤ هـ ١١٩٧ م ، أثار مسلّكهم العدائي هنري دي شبنانيا ، وأدرك ان الحملة الألمانية انما تهدف الى استعباد الصليبيين في الشرق لا الى تحريرهم ، فأمر باستخدام القوة ضد اولئك الصليبيين الألمان ، ولا سيما بعد أن أخذوا يغيرون على الأراضي الاسلامية دون استئذانه ، ويعكفون صفو السلام السائد في الشرق .

وما لبث هنري دي شيبانيا أن وجد نفسه مضطراً إلى الخروج على خطته في متابعة الهدنة القائمة بينه وبين المسلمين ، حين رد الملك العادل على غارات الصليبيين الألمان ، وانتصر عليهم في معركة كبرى قرب غزة . فكتب هنري دي شيبانيا إلى الامبراطور مستنجداً ، في حين أسرع الملك العادل إلى احتلال يافا ، وبينما كان دي شيبانيا يستعد لنجدتها فاجأه الموت في ١٠ ايلول ١١٩٧ م ٥٩٤ هـ .

ومرة اخرى أخذ أمراء الفرنجة يبحثون عن زوج رابع للملكة ايزابيل كي يتولى العرش ، وتم الرأي على أن تزف إلى اموري دي لوسينيان ملك قبرص لتوحيد تاجي الجزيرة وملكة بيت المقدس ، فعقد له عليها في سنة ١١٩٨ م ٥٩٥ هـ . وكان اموري قد حاول نجدة يافا ، فلما وصل إلى شواطئ الشام رأى أنها قد سقطت في يد الملك العادل ، فعمد إلى محاصرة بيروت ، وما كاد يضرب الحصار عليها حتى هرب أميرها عز الدين أسامة واستسلمت المدينة بدون قتال .

ومكذا اتسعت مملكة بيت المقدس فقدت تضم عكا وصور وبيروت وجزيرة قبرص . وكانت البقية الباقية من الألمان قد غادرت البلاد بعد هزيمة اخرى منيت بها عند حصن تبين ووفاة مليكهم هنري السادس ، فوجد اموري نفسه وجهاً لوجه مع المسلمين ، في حرب تورط فيها ولم يكن له يد في اشغال نيرانها ، فأثر المصادفة والمصالحة ، وعقدت بين الفريقين هدنة لمدة ثلاث سنوات على أن يحتفظ كل من الفريقين بفتوحاته الجديدة وتقسّم صيدا مناصفة .

ولعل الملك العادل كان احوج إلى هذه الهدنة من اموري ، فقد توفي الملك العزيز في ٢٠ محرم سنة ٥٩٥ هـ (واخر تشرين الثاني نوفمبر) ١١٩٨ م ، وكان ابنه ناصر الدين محمد الذي لقب بالملك المنصور

ما يزال في العاشرة من عمرد ، فأراد بعض أمرائه ان يعهدوا بالوصاية عليه الى عمه الملك العادل ، وأراد آخرون ان يعهدوا بها الى الملك الافضل ، وسبق هؤلاء مخالفينهم فاستدعوا الافضل من حوران وسلموه مصر : وتولى الفرور الملك الافضل فاتفق مع اخيه الملك الظاهر على انتزاع دمشق من يد عمها العادل ^١ .

وكان الملك العادل يحاصر ماردن في ديار بكر لخلاف نشب بينه وبين صاحبها النظام ، فلما علم بالمؤامرة سارع الى دمشق وأعدّها للدفاع ، وما لبث الافضل أن وصل على رأس جيش مصر ، كما وصل الظاهر على رأس جيش حلب ، فحاصرا المدينة ستة اشهر ، وكان الملك العادل يعمل سراً على استمالة امراء الأفضل والظاهر حتى استطاع اجتذاب معظمهم اليه ، ثم اخذ يبذل مساعيه لايقاع الشقاق بين الافضل والظاهر ففعلت مساعيه فعلها ، وما لبث كل منهما ان تخلى عن الحصار وعاد الى بلده ، الا ان العادل لحق بالأفضل فالتقى بجيشه عند بلبيس فأنزل به هزيمة منكرة ، ثم تبعه الى القاهرة واضطره الى الاستسلام وأعادته الى حوران واستولى على مصر ^٢ .

ولم تنقض سنة واحدة حتى عاد الافضل والظاهر الى الاتحاق مرة اخرى على انتزاع دمشق من يد العادل ، فما لبث هذا ان عاد الى دمشق واستطاع بذكائه ودهائه أن يستميل الظاهر اليه ، وأن يعاقب

١ - السلوك ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٧
٢ - مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٠ ، السلوك ج ١ ص ٦٤٩ ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

الأفضل بأخذ حوران منه واعطائه سميحاً وحدها . أما الملك المنصور ابن العزيز فقد أقطعه حماة ، على أن يكون الثلاثة تابعين له يدينون له بالولاء والطاعة . ومكثنا أعاد الملك العادل وحدة المملكة الأيوبية تحت سلطانه واقاب عنه ابنه الكامل محمد في مصر ، وابنه المعظم عيسى في دمشق ، وابنه الأشرف موسى في حوران ، وابنه الأوحدي في ميفارقين « وصار يتنقل في ممالك اولاده والعمدة في كل الممالك عليه ^١ . ويصف المؤرخون العادل سيف الدين بأنه كان ملكاً كثير المعرفة ، بعيد النظر ، عظيم الفطنة ، مستقيم السيرة ، حسن النوايا والمقاصد ، وكان ، شأن أخيه ، محباً للعلم والعلماء ، وقد أصبح ملكاً على الشام واهالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع ، كما أصبحت امبراطوريته تعاد في اتساع رقعتها امبراطورية أخيه ، وأضحت الخطبة تقرأ له من على المنابر وتضرب السكة باسمه ^٢ .

وكان الفرنجة في الشام يتابعون ذلك النزاع العائلي في المملكة الأيوبية دون أن يندخلوا فيه ، وظل السلام مستتباً بين الفريقين باستثناء بعض المعارك المحلية أو المناوشات الجانبية . وكان الجميع ينتظرون الحملة الصليبية الرابعة ، فالفرنجة يعتقدون بأنها القوة المنقذة التي ستعيد لهم مستعمراتهم القديمة ، والمسلمون يستعدون قلقين ويوفرون قوام للمعركة الحاسمة . وما كاد اموري يعلم بما انتهت اليه تلك الحملة من انحراف الى القسطنطينية واحتلالها والاستقرار فيها ، ونزوح عدد من فرسان الفرنجة وامرائهم في الشام الى بلاط بلدوين دي فلاندر امبراطور الدولة اللاتينية الجديدة ليستقروا من ثم في الاقطاعات التي كان يوزعها عليهم في بلاط

١ - السلوك ج ١ ص ١٥٩ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧

٢ - مختصر تاريخ العرب ٣٢٦ - ٣٢٧

اليونان والبلقان ، حتى رأى ألا بد له من تجديد الصلح مع المسلمين ، ولم يكن العادل بأقل منه رغبة في هذا الصلح ، فعقد الفريقان سنة ٦٠١ هـ ١٢٠٤ م هدنة جديدة لمدة ست سنوات^١ . ويبدو ان العادل كان من العرص على تحقيق تلك الرغبة بحيث تنازل للصليبيين في اتفاقية الصلح عن يافا التي كان قد احتلها منذ أعوام وعن النصف الخاص بالمسلمين في صيدا واللد والرملة^٢ .

وتوفي أموري دي لوسينيان في أوائل ابريل سنة ١٢٠٥ م ٦٠٢ هـ ، قال عرش مملكة بيت المقدس الى ماري كبرى بنات ايزابيل من هنري دي شمبانيا بوصاية حنا الأول ديبلان حاكم بيروت ، وآل عرش قبرص الى هيو الأول ابن أموري ، فووقت إثر ذلك عدة معارك بين المسلمين والفرنجة ، واشترك العادل في بعض هذه المعارك ، ولكنه لم يخض غمراتها الا مضطراً ، وبعد عوان المرنجة المتكرر ، وسرعان ما كان يعود الى المهادنة والموادعة لحرصه الشديد على سياسة الاعتدال والتسوية.

ولما بلغت ماري سن الرشد ، أنشأ الأمراء يبحثون لها عن عريس يتولى العرش مكان المليك الراحل ، ثم رأوا أن يكلوا هذا الأمر الى فيليب اوغست ملك فرنسا ليتولى اختيار الزوج المناسب ، فاختار حنا دي برين الذي كان في الستين من عمره ، وكان التفاوت في السن واضحاً بينه وبين عروسه التي لم تبلغ بعد سن العشرين ، ولكنه كان يجمع في

١ - Grousset : Hist. des Croisades, III. p. 184

٢ - مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ ، السلوك ج ١ ص ١٦٤ ، وقد كانت سياسة العادل السلمية وتنازله تتناقض مع جو الحماسة الذي ساد البلاد الاسلامية في تلك الفترة .

شخصه الصفات اللازمة للصليبيين في الشام ، ووصل العريس المعجوز
المقدس الى عكا في ايلول (سبتمبر) سنة ١٢١٠ م ٦٠٧ هـ ، بعد أن
زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال ، فتزوج من عروسه
الشابة وتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية في كندراية صور^١ .

وكانت الهدنة بين المسلمين والفرنجية قد انتهت ، فرغب الملك العادل
في تجديدها ، عملاً بسياسته التي كانت ترمي الى تحقيق السلام وتنمية
العلاقات التجارية مع الايطاليين^٢ ، الا ان فرسان الداوية قاوموا ذلك
وقاموا ببعض الاعمال الاستفزازية لافتنال جو الحرب بين الفريقين^٣ ،
فغسرت موجة من الحماسة في البلاد الاسلامية ، وبنى المعظم ابن الملك العادل
فوق جبل الطور المطل على عكا قلعة حصينة حشد فيها الصناع من كل
بلد ، وشحنها بالرجال والذخائر والسلاح^٤ ، مما أثار مخاوف حنا دى
برين فبادر الى طلب الصلح ، ولم يتردد العادل في الموافقة على ذلك
الطلب فعقدت بين الجانبين هدنة تمتد الى سنة ٦١٤ هـ ١٢١٧ م .

وتوفيت ماري ملكة بيت المقدس سنة ١٢١٢ م ٦٠٩ هـ حزينة على
شبابها الضائع^٥ ، ولكنها كانت قد انجبت من زوجها الكهل طفلة دعته

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٠

٢ - تاريخ سورية وامنان وفلسطين لحتي ج ٢ ص ٢٤٢

٣ - كان فرسان الداوية والاسبتارية قد تولوا الضجر خلال الهدنة السابقة ، فشل
الأولون انفسهم بمساعدة بوهيمند امير طرابلس في الحرب التي نشبت بينه وبين ليو الثاني ملك
ارمينية حول وراثة الحكم في انطاكية وحالفه فيها الملك الظاهر صاحب حلب ، وعالج الآخرون
ضجرهم بمساعدة ملك ارمينية في حربه مع سلاجقة الروم (انظر الحركة الصليبية ج ٢
ص ٩٥٣ و ٩٨٧ - ٩٨٩)

٤ - السلوك ج ١ ص ١٧٦

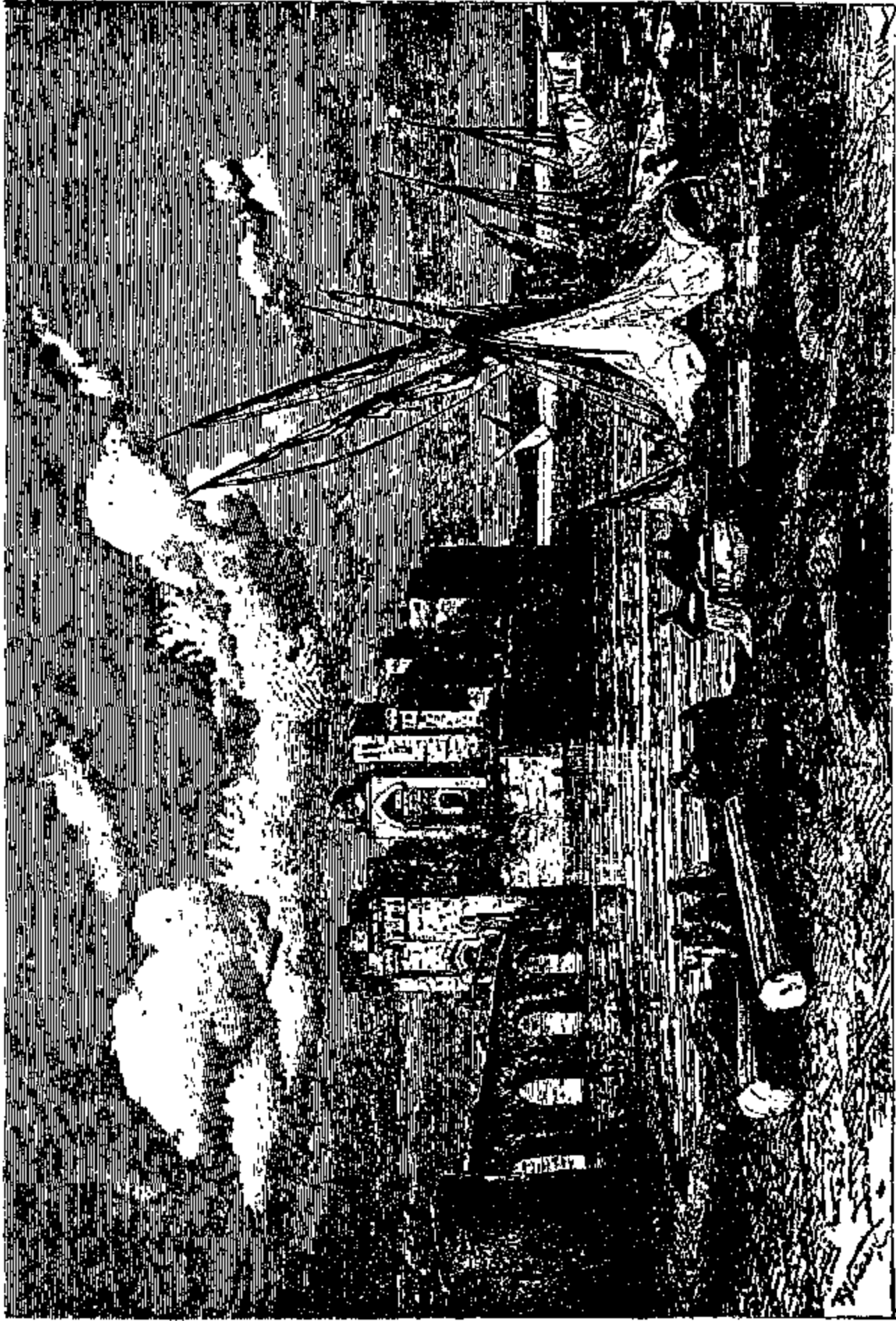
٥ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٢

يولاند ، فورثت الطفلة عرش امها ، وغدا حنا دى برين وصياً عليها .

وكان حنا دى برين قد استغاث بالدول الأوربية إثر توقيع الهدنة ، وطلب منها إعداد حملة جديدة على الشرق ، فما كاد أجل الهدنة ينتهي حتى بدأت جموع صليبية جديدة تتحرك في الغرب لنجدة الفرنجة في الشام ، وكان أغربها وأطرفها ما سماه المؤرخون « حملة الأولاد » ، وكان زعيم هذه الحملة متى فرنسي يدعى اسطفان في الثانية عشرة من عمره ، اقتنع بأن المسيح قد أمره بقيادة حملة صليبية من الأولاد لانقاذ القبر المقدس ، فدعا أتباعه الى التطوع معه في حملته مؤكداً لهم انهم لن يصلوا الى شاطئ المتوسط حتى ينشق البحر أمامهم فيصلوا الى هدفهم سالمين . وتداعى الاولاد والبنات من كل مكان متحمسين للانضمام اليه والزحف معه . وعبثاً حاول الآباء منع ابنائهم من الاشتراك في هذه المغامرة التي اختلفت آراء الناس فيها ، فمنهم من اعتقد بانها وحي من الروح القدس ، ومنهم من رآها نزوة طائشة من عمل الشيطان .

وفي احصاء الصبيان الجرمان خلاف ، فهو من عشرين الفاً الى أربعين الفاً ، وقد عبر هؤلاء جمال الألب ونزلوا الى الشواطئ الايطالية متوقعين ان يجدوا في البحر طريقاً عجائبية تقودهم الى فلسطين ، وكابدوا في الطريق من الأهوال ما قضى على قسم كبير منهم ، واستقبل البابا فلوهم الباقية فلاتظفهم وأقنعمهم بالعدول عن رأيهم والعودة الى بيوتهم .

أما الأولاد الفرنسيون الذين بلغوا على ما قيل ثلاثين الفاً ، فلما وصلوا الى مرسيليا كانت خيبتهم شديدة لأن البحر لم ينفلق عن طريق تفضي بهم الى فلسطين . وقد أدرك القنوط وخيبة الأمل قسماً كبيراً منهم ، فقفلوا راجعين الى بيوتهم . وعرض تاجران فرنسيان على خمسة أو ستة آلاف منهم ان ينقلهم الى الأرض المقدسة دون مقابل ، فقبلوا ذلك



صيدا قبل تدمير قلعتها في عهد الأشرف خليل

متوهمين ان الاخلاق المسيحية الكريمة هي التي دفعت ذينك التاجرين الى تضحيتها ، فبزلوا في سبع سفن ، وأقلعت بهم تلك السفن الى الشرق ولكن لا لتقلهم الى الأرض المقدسة بل ليبيعهم ذانك التاجران عبيداً في أسواق النخاسة^١ . ويقول المطران يوسف الدبس ان بعض هؤلاء الاولاد استطاعوا الوصول الى عكا ، فزادوا الفرنج قنوطاً ووجلاً ليأسهم من انجاء الرجال^٢ ..

وبعد «حملة الاولاد» وصلت الى عكا الحملة الهنغارية ، وكان يقودها ملك هنغاريا ومعظم افرادها من الهنغارين والألمان ، فقامت بغارات متعددة في سورية ولبنان ، وأراد الملك العادل منازلتها قرب بيسان ، ولكنه ما لبث ان تخلى عنها فاستولوا على هذه المدينة وعلى المنطقة المحيطة بها ، وغنموا كثيراً من الفلال والمواشي ، ثم حاصروا حصن الطور وقتاً طويلاً دون ان يستطيعوا الاستيلاء عليه . ولكنهم ما كادوا يغادرونه حتى استدعى الملك العادل ولده المعظم وقال له : « قد بنيت هذا الطور وقد يكون سبباً لخراب الشام ! » ورأى العادل ان من الصعب حفظ هذا الحصن لقربه من عكا ، وان من الافضل خرابه للاستعانة بما حشد فيه من الرجال والسلاح لحفظ مدينة دمياط التي كانت هدف الحملة الصليبية الخامسة^٣ .

١ - التاريخ العام لفيليب فان نس مير ص ٢٥٠

٢ - تاريخ سورية ج ٦ ص ٢٢٤

٣ - مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ذيل الروضتين ص ١٠٢ - ١٠٣ ،

السلوك ج ١ ص ١٨٦

الفصل الخامس والعشرون معركة دمياط

انتهت تجمعات الصليبيين في الغرب وتحركات الفرنجة في الشرق ، الى تنظيم حملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الصليبية الخامسة ، وكان هدفها احتلال مصر ، لأن جمهوريات ايطالية البحرية كانت قد ادركت ان مركز الثقل في السياسة الاسلامية قد انتقل بعد وفاة صلاح الدين من سورية الى مصر ، وان سفنها لا يتسنى لها الاتصال بالبحر الاحمر والمساهمة في تجارة المحيط الهندي الرابعة ما لم يتم لها السيطرة على وادي النيل^١.

وقد ترأس حنادى برين تلك الحملة ووصلت سفنها الى دمياط في أواخر ايار (مايو) سنة ١٢١٨ م ، ربيع الاول ٦١٥ هـ ، فأقام الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط ، وقد وجدوا المدينة محصنة تحصيناً قوياً ، إذ كانت المآصر تمتد بعرض مجرى النيل ، وهي سلاسل من حديد عظام القدر والقلظ ، تمتد في

١ - تاريخ العرب لحتي ولاميليه ج ٢ ص ٧٦٤

النهر لتمنع المراكب الواصلة من البحر من عبور أرض مصر ، يضاف الى ذلك برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بنىه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها ^١ .

وبادر الملك الكامل الذي كان ينوب عن ابيه العادل في حكم مصر ، بالمسير مع جيشه الى دمياط ، وعسكر في العادلية على الضفة النيل الشرقية ، بينما أمر العادل نوابه وقواته في الشام بالفارة على أطراف المستعمرات الصليبية ليشغل الفرنجة هناك . الا ان ذلك لم يحل دون احتلال القوات الصليبية لبرج السلسلة وتحطيم المآصر التي تحمي مجرى النهر ، بعد نضال استمر ثلاثة أشهر . وكان ذلك البرج يعتبر « قفل الديار المصرية »^٢ ، فلما استولى عليه الصليبيون - ولم يعد هناك ما يحول دون دخول سفنهم الى النيل - انتشر الذعر في صفوف المسلمين ، وتآلم الملك العادل ألماً شديداً ، فاعتراه المرض وفارق الحياة .

وقد حوّل الكامل ان يسد مجرى النهر ، باغراق عدد من السفن ، ولكن الصليبيين قابلوا ذلك بالالتجاء الى خليج يُعرف بالأزرق كان النيل يجري فيه قديماً ، فحفروه حفراً عميقاً ، واجروا فيه الماء الى البحر المتوسط ، وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت الى موضع يقال له بورة بقابل العادلية حيث عسكر الكامل ^٣ .

الا ان احتلال برج السلسلة لم يوفر للصليبيين مكاسب سريعة ، لأن

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٦ ، السلوك ج ١ ص ١٨٨

٢ - السلوك ج ١ ص ١٩٠

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٦٨ ، السلوك ج ١ ص ١٩٥

قسم من هؤلاء اعتبروا ان مهمتهم قد انتهت فعادوا أدراجهم الى اوربه
وكان على حنا دي برين أن ينتظر وصول امدادات اوربية جديدة كي
يتابع الزحف على مصر . وقد وصلت هذه الامدادات في ايلول سنة
١٢١٨ م ٦١٥ هـ ، وكان يرافقها الكاردينال بلاجيوس مدوباً عن البابا
وقائداً أعلى للحملة .

والغريب ان الكامن لم ينتقل الى موجه الصليبيين على الضفة المقابلة
من النيل ، الا بعد أن وصلتهم الامدادات المنتظرة ، فكان من جراء
ذلك أن أخفق هجومه وتكبّد خسائر فادحة ، الا انه استطاع مع
ذلك صد الف حجة عن العبور الى الضفة الشرقية في محاولة جريئة قاموا
بها لاقتطاف ثمار المعركة .

ولكن احداثاً داخلية خطيرة كانت تجري حينذاك في مصر ، فقد
تآمر على الكامل عدد من قواده برئاسة عماد الدين أحمد المعروف بان
المشطوب ، لعزله واحلال أخيه الفائز محله في حكم مصر . وعرف
الكامل بالمؤامرة الا انه أخذ يداري المتآمرين « لكونه في قبالة العدو
ولا يمكنه انقاهرة » ، ثم ما لبث ان اختفى من المعسكر ، إذ تسلل
منه الى أشموم طنّاح . ولما شعر قادة الجيش باخفاء الكامل ، غادروا
المعسكر تاركين فيه كل ما معهم من مؤنّات وسلاح ، ووجد الصليبيون
الساحة خالية فانتقلوا الى الضفة الشرقية من النيل ، واستولوا على ما
في المعسكر ، وضربوا الحصار على دمياط^٢ .

ومرت مصر بفترة من الهلع والخيرة والقلق تنذر بأسوأ مصير ،

١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣٠

٢ - السلوك ج ١ ص ١٩٦

لولا أن أسرع الملك المعظم الى مصر لنجدة اخيه ، واستدرج ابن المشطوب الى حيث اعتقله وأرسله الى الشام ، ثم جمع شتات الجيش وسار به مع أخيه الى فارسكور (فارس كور) لمهاجمة الصليبيين من الخلف اذا هاجموا دمياط ، وبعثنا بالرسول الى العواصم الاسلامية لموافاتها بالأمداد . وهكذا استعادت البلاد رباطة جأشها ، واستطاعت دمياط أن تصمد في وجه الحصار الصليبي شهوراً عديدة عانى أهلها ألواناً رهيبة من الجوع والمرض واليأس والعياء ، وأنزل الله عليهم الصبر ، فثبتوا مع قلة الأوقات عندهم وشدة غلاء الاسعار^١ ،

وقد اشتهر في حصار دمياط شاب يدعى شمائل كان يخاطر بنفسه ويسبح في النيل ومراكب الفرنج محيطة به ، حتى يصل الى المدينة فيأخذ رسائل أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى ، ورماة الفرنج تتبعه بالسهم ، ومحاربوم يرمونه بالحرايب ، وهو يتهارب كسمكة في الماء حتى يخلص من منطقتهم ، ويفضي الى حيث اسطول المسلمين عند أشموم^٢ .

. ولكن البلاد العربية والاسلامية كان يتهددها حينذاك غزو جديد هو بلا ريب اكثر خطراً وأشد هولاً وأسوأ نتيجة من الخطر الصليبي القادم من الغرب ، وهو الغزو المغولي الزاحف من الشرق ، وكان لا بد لهذه البلاد أن تواجه هذا الغزو بالاتحاد والاستعداد ، مما جعل الملك الكامل يتقدم الى الصليبيين بعرض سخى مقابل الجلاء عن مصر ، وهو

١ - المرجع السابق ج ١ ص ١٩٨

٢ - صور من البطولة ص ١٨٢

التنازل لهم عن مملكة بيت المقدس كما كانت عليه سنة ١١٨٧ باستثناء الأردن منها .

وقبل حنا دي برين هذا العرض السخي ، في حين رفضه الكاردينال بيلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية ، وأصر هؤلاء جميعاً على احتلال مصر ، ورأى أبناء البندقية وجنوة وبيزة الذين عارضوا الهجوم على مصر بادية الأمر ، ان احتلال الدلتا سيؤمن لهم مكاسب تجارية هامة ، وغدت استعادة بيت المقدس بالنسبة للجميع أمراً ثانوياً ^١ .

واشتدت حماسة الصليبيين فقاموا في ٢٩ آب (أغسطس) ١٢١٩ م ١٦١٦ هـ بهجوم واسع على جيش الكامر ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا عنه خاسرين وقد فقدوا كثيراً من القتلى والأسرى . وانتهز الكامل هذه الفرصة ووجد طلبه بمقد الصلح ، معلناً استعداده لاعطائهم القدس وعقلاان وطبرية وجبلة واللاذقية ، وكل ما حرره صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك . وكان يدفع الكامل الى ذلك شعوره بأن البلاد الاسلامية لن تستطيع نجاته لانشغالها بالخطر المغولي الذي يتهددها بينما وافقت الفرنجة نجدات جديدة من الانكليز والفرنسيين والقبارصة ، والمجاعة التي كانت تهدد الشعب المصري لانخفاض فيضانات النيل في تلك السنة مما جعلها من أشق السنين وأشدّها على مصر ^٢ .

ومرة اخرى وافق حنا دي برين على عرض الملك الكامل ، ورفضه الكاردينال بيلاجيوس وأصر كما يقول لامونت على ان يهزم المصريين

١ - Grouset : Hist. des Croisades, III. p. 223

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٠٦

هزيمة تامة ساحقة بالاستيلاء على القاهرة ، وأيده الايطاليون والهيكليون وفرسان المستشفى .

وكانت مقاومة دمياط قد أوشكت على الانهيار تماماً ، فحاول الكامل ان يدها بخمسمائة من جنوده ، ولكن هؤلاء الجنود وقعوا في أيدي الفرنجة ، فقتلوهم وصدفوا رؤوسهم على الخنادق^٢ فراع ذلك أهل دمياط وزاد في قنوطهم بعد أن « أهلكتهم الأمراض » ، وغلت عندهم الاسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بمدة دنانير ، وامتلات الطرق من الأموات ، وهدمت الأقوات ، وصار السكر في عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم ، فلم يُقدّر عليها بوجه ، وآلت الحال بالناس أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط ، فتسور الفرنج السور وملكوا منه البلد ، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً ، وعندما اخذوا دمياط وضعوا السيف في الناس ، فلم يُعرف عدد من قتل لكثرتهم^٣ .

استسلمت دمياط في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢١٩ م ، ووضع الفرنجة في أهلها السيف قتلاً ومرأاً^٤ ، بينما كانت جيوش المغول تجتاح بقيادة جنكيزخان خوارزم وما وراء النهر ، وتقتحم بخسارى والري وقزوين وهمدان ، وتدنق أبواب العراق مهددة العاصمة بغداد .

-
- ١ - دراسات اسلامية ص ١٢٧
 - ٢ - ذيل الرضتين ص ١١٦
 - ٣ - السلوك ج ١ ص ٢٠٦
 - ٤ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٨



وقد تولى الذعر الخليفة العباسي الناصر ، وأرسل يستنجد بأمراء الأقاليم ومنهم الملك الأشرف حاكم خلاط والجزيرة ، فأجابه معتذراً لأنه في شغل بنجدة أخيه الكامل وانقاذ مصر من غزو الافرنج . والواقع ان الأشرف ما لبث أن قدم الى مصر على رأس جيشه ، كما سار إليها المعظم وجيشه بعد أن عزز دفاع دمشق ودمر حصون تبنين وانياس وصفد وشرع في هدم برج القدس وسورها حتى اذا قبل الصليبيون ماستعادتها مقابل جلائهم عن مصر أخذوها مهدمة البناء^١ وفوق البلد في ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات والبسات والشيوخ والمعجائز والشبان والصبيان الى الصخرة والأقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم ، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور ، وخرجوا هاربين ، وتركوا اموالهم واثقالهم ، وامتلات بهم الطرق فبعضهم الى مصر وبعضهم الى الكرك وبعضهم الى دمشق^٢ .

وبينما كان المسلمون في مصر يستعيدون معنوياتهم ويعززون قواتهم ، كان الخلاف يشتد بين الصليبيين بعد اختلال دمياط لرغبة كل فريق في الاستئثار بحكمها وتولي زعامة الحملة ، فرحل حنا دي برين الى عكا في ربيع سنة ١٢٢٠ م ٦١٧ هـ تاركاً مهمة القيادة للكرديشال بيلاجيوس وحده ، وانصرف هذا الى تعمير دمياط وتوطين الجاليات الفرنجية فيها ، ونشاطاً في الزحف الى القاهرة في انتظار امدادات جديدة ، وتراخت يده عن الحصار البحري الذي كان المرجة قد ضربه بين دمياط وعكا ، فنشطت السفن الاسلامية هناك واحرقت عشر سفن للمدو^٣ .

١ - Grousset ; Hist. des Croisades, III, P. 214

٢ - ذيل الروضتين ص ١١٥

٣ - السلوك ج ١ ص ٦٠٧

Grousset ; Hist. des Croisades, III, pp. 232 234

وقد جدد الكامل عرضه السلمي فرفضه الافرنج للمرة الثالثة ،
واشترطوا مقابل الموافقة عليه أن تكون لهم الكرك ،بالاضافة الى مدن
فلسطين ، وان يُدفع لهم ثلاثمائة الف دينار . ولا شك في أن انباء
النجيدات التي 'تحشد في الغرب والحملة الصليبية الكبرى التي كان يقال ان
الامبراطور فردريك الثاني 'يعتدها في الغرب ، هي التي كانت تقوي
موقف الكردينال وتحمله على التشدد في مطالبه ورفض أي عرض سلمي ،
قائلاً انه من العار على الافرنج ألا يتموا ما بدأوا به بعد ان استبشروا
بتأمه !

ولما وصلت الى دمياط حملة لويس دوق بافاريا ، اشتد ساعد الكردينال
وقرر الزحف الى القاهرة ، وارسن الى حنا دي برين يطلب منه العودة
الى دمياط ، فوجد « ملك بيت المقدس » نفسه مضطراً الى المشاركة
في العودة لئلا يتهم بعرقلة أعمال الصليبيين . وهكذا توافدت كما يقول
المقريري «امم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط ،فوافي دمياط
منهم طوائف لا يحصى لهم عدد ، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا
منها في حدم وحديد ، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض
مصر »

وللمرة الاخيرة جدد الكامل عرض الصلح ، فاشتط الفرنجة في
الطلب وأصروا على أن يعطيهم الكرك والشوبك الى جانب ما عرضه من
البلاد ، بالاضافة الى خمسمائة الف دينار !

وتقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات ،

هي بحيرة المنزلة شرقاً ، وفرع دمياط غرباً ، والبحر الصغير جنوباً^١ .

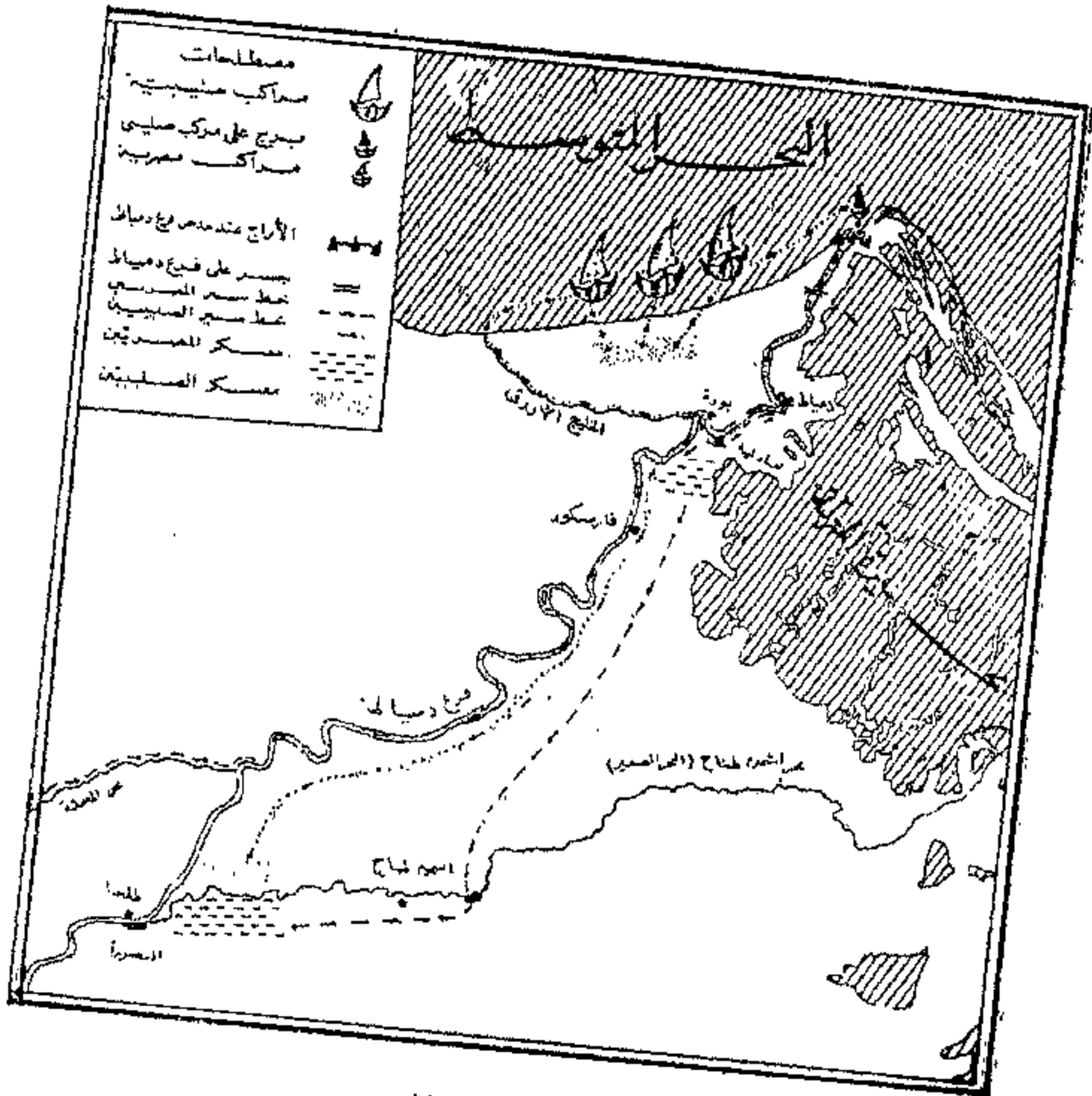
واحتال الكامل فأرسل سفناً من اسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون في بحر المحلة ، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية ثم يعود فيتصل به شمال طلحا - فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالمؤونة وبين الوصول الى عسكرهم عند المنصورة . وكان قد استجاب لاستنفار الكامل عدد كبير من الأهليين المتطوعين ، فمهر جماعة منهم في بحر المحلة الى الأرض التي يعسكر عليها الفرنج ، وحفروا مكاناً عظيماً في النيل ، وكان في وقت فيضانه ، فعمر الماء أكثر تلك الأرض ، وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط ، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة . فأمر السلطان في الحال بنصب الجسور عند أشموم طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملك الطريق التي يسلكها الفرنج الى دمياط اذا أرادوا الوصول اليها . فأيقن هؤلاء بأنهم باتوا محاصرين من كل الجهات ، وأدركوا ان الهزيمة تنتظرهم ، فهدموا خيامهم ومجانيقهم . وأشعلوا النار فيها ، ثم هموا بالزحف نحو جيش المسلمين ليشقوا لأنفسهم طريقاً الى دمياط ، فجال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياد ، وبسالة المقاتلين المسلمين ، ويقول المقرئ ان العامة منهم كانت تكثر على الفرنج أكثر مما يكتر عليهم العسكر ، فما لبثوا أن أصابهم الذعر ، وشاع الاضطراب في صفوفهم ، ولم يجدوا مفرأ من طلب الأمان على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط^٢ !

واختلف قادة المسلمين حول قبول الصلح أو رفضه ، الا ان الملك

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٨٢

٢ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٠ - ٥١ ، السلوك ج ١ ص ٢٠٣ وما

بعدها ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤١



معركة دمياط

الكامل قرر الموافقة عليه ، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منها رهائن للآخر حتى يتم تسليم دمياط ، فأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعدداً من قواده ، وأرسل الفرنج عشرين من كبارهم على رأسهم الملك حنا دي برين والكردينال بيلاجيوس ، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم^١

وتسلم المصريون دمياط في ٢٩ رجب سنة ٦١٨ هـ ٧ أيلول (سبتمبر) ١٢٢١ م ، محققين بذلك نصراً لم يكن في حسابهم ، فأطلق الفرنج الصالح نجم الدين أيوب ومن معه ، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك والامراء . وجلا الافرنج عن مصر ، فعاد حنادي برين الى عكا ، بعد أن عقد مع الكامل هدنة لمدة ثمانية أعوام كان الشرط الوحيد فيها ان يطلق كل منها من عنده من الأسرى . وعاد أفراد الحملة الصليبية الخامسة الى بلادهم ، بعد أن قضوا في دمياط وعلى شاطئها الغربي والشرقي ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً ، رفضوا خلالها أربعة عروض باستعادة فلسطين مقابل الجلاء عن مصر !

ومن قصائد الشعراء في تجييد هذا النصر والاشادة به ، قول ابن عنيّن من قصيدة أشار فيها الى موقف الكامل المتسامح وعفوه عند المقدرة :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى اذا جهلت أيامنا ، والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفاً من الروم ، لا يحصى يقيناً ولا ظنا

١ - السلوك ج ١ ص ٢٠٨ ، ذيل الروضتين ص ١٢٩ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٣٥ - ١٣٧ ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٤٩ - ٣٥٠

وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا
فما برحت سمر الرماح قنوشهم
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرأ
وقد عرفت أسياقنا ورقابهم
منحنامنا حياة جديدة
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
الينا سراعاً بالجهاد ، وأرقلنا
بأطرافها حق استجاروا بنا منا
فألقوا بأيديهم الينا ، فأحسننا
مواقفها منا ، فان عاودوا عدنا
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولوغنا ، واكننا ملكنا فأسبحنا

الفصل السادس والعشرون

الامبراطور فردريك الثاني وأحملة النصارح

اشتد في اوائل القرن الثالث عشر التنافس الذي وصفنا نشأته في الفصل الأول من هذا الكتاب ، بين البابوية والامبراطورية المقدسة . فبينما كان الصراع على أشده بين الاسبانيين والعرب في اسبانية والمغرب ، وبين الصليبيين والمسلمين في الشرق الادنى ، كان ثمة صراع آخر يدور في غرب اوروبا بين السلطة الكنسية والسلطة الزمنية ، للفصل في أمر طالما أثار النزاع والجدل ، أمر يلخصه هذا السؤال : من هو السلطان الأكبر : البابا أم الامبراطور ؟

وكان يظل هذا الدور الجديد من ادوار ذلك الصراع ، الامبراطور فردريك الثاني (الأنبرور) الذي ساعدته البابوية في القضاء على خصومه ، فما كاد يجمع تحت سلطانه صقلية وجنوبي ايطالية بالاضافة الى المانية ، حتى أخذ يهدد النفوذ البابوي بدهائه العظيم ، ومهارته الدبلوماسية ، وقوة شخصيته ، وشدة بطشه ، وعملة على ضم شمال ايطالية الى مملكته المترامية .

وكان الامبراطور قد وعد البابا غريغوري التاسع غير مرة بتنظيم

حملة صليبية جديدة تعيد للفرنجة في المشرق معنوياتهم التي انهارت بعد هزائمهم المتكررة ، ولكنه اخلف هذا الوعد ، ولعله لم يكن جاداً به قط .

وأراد البابا أن يوجد للأمبراطور مصلحة مباشرة في الحرب الصليبية ، فأيد فكرة زواجه من يولاند ابنة حنا دي برين ووريثة عرش بيت المقدس من امها ماري ، على أن يعقد الزواج في بلاد الشام ، فاستدعى فردريك خطيبته الى صقلية وعقد زواجه عليها ، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها ، الا انه وعد البابا مرة اخرى بالقيام بالحملة الصليبية المنتظرة في آب سنة ١٢٢٧ ، وتعده بايداع كفالة قدرها مائة الف اوقية من الذهب في خزانة البابوية بروما ، ولا ترد الى الأمبراطور الا اذا وفى بوعدده^١ . ولكن مرت الأيام دون أن ينفذ الامبراطور عهده أو يحقق وعده ، فكتب البابا الى ملوك اوربة يشكوه لحنثه بيمينه ، فاستاء العامل من ذلك وأعلن خصومته للحبر الروماني ، واتمال أشرف روما فثاروا على البابا وأكروهه على الفرار من رومة ، فانتضى البابا حينئذ سيفه الروحي وأعلن الحرم على الامبراطور^٢

وكان فردريك من ب الماني وأم نصف ايطالية ، وقد نشأ في صقلية في جو الثقافة الاسلامية التي خلفها العرب ، والثقافة الغربية التي أدخلها النورمان^٣ ، فأجاد ست لغات منها اللغة العربية ، وشفق بالعلوم والآداب ، وجعلت منه هذه المؤثرات المختلفة شخصية فذة بين

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٤

٢ - تاريخ سورية للطران الدبس ج ٦ ص ٢٣٢

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٥

معاصربه ، اكثر تحرراً ، وأعظم تسامحاً ، وأقوى مقدرة على التجرد العلمي ، واكثر اتصافاً بالروح العالمية ، حتى سماه المؤرخون «عجوبة الدنيا» ويقول لامونت انه «كان لا أدرياً متسامحاً مع جميع الاديان» ، وفي وسعنا القول ان عصر النهضة الايطالية ، انما بدأ في عصر فردريك الثاني وفي بلاطه بالذات

وقد سار فردريك في صقلية على غرار روجر الثاني الذي امتدحكه فيها ما يقارب نصف قرن ، الذي كانت تغلب عليه في مظاهر حياته العادات العربية ، ويقرب اليه العلماء العرب واشهرهم العالم الجغرافي الأدريسي الذي كان صديقاً حميماً له ، وكانت اللغة العربية في عهده احدى اللغات الرسمية المعترف بها ، وعاش المسلمون والمسيحيون في الجزيرة خلال حكمه في اخاء وتفاهم وثيقين ، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على الشرق أو في الهجوم على القيروان .

وكانت تربط فردريك بالكامل ملك مصر ، علاقات ودية ، مبعثها محبة كل منها للعلم ، واهتمامها بقضاياها ، ورعايتها لرجالها ، واشتراكها في المناظرات الأدبية والعلمية التي تعقد في بلاطيهما بين النخبة من اهل الفكر . وقد بعث فردريك الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فمرضها على الشيخ علم الدين العنفي وأرسل جوابها اليه ٢ . وكما كان فردريك معروفاً بالتسامح مع المسلمين ، فقد بلغ من عطف الكامل على رعاياه المسيحيين درجة جعلت الكنيسة القبطية تعدّه اكثر الملوك احساناً الى أبنائها ، وقد عرف القديس

١ - دراسات اسلامية ص ١٢٨

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣٢

فهرنسوا الأستيزي ذلك عنه فزاره وباحثه في بعض أمور لدين^١ .

وهذا ما جعل الملك الكامل يستنجد بالامبراطور فردريك الثاني ، حين تحول أخوه الملك المعظم من مخالفته الى مخلصته ، واستنجد المعظم بجلال الدين الخوارزمي عليه وعلى أخيه الملك الأشرف ، فأرسل الكامل الى فردريك رسالة مع الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، يدعوه فيها للقدوم الى الشام ، ويعدده بأن يعيد اليه بيت المقدس^٢ .

وأمام هذه الدعوة أو هذا الاغراء ، لم يتردد الامبراطور - وهو الذي أخلف وعوده المتعددة للبابوية بالزحف على بلاد الشام ، ولم يابه لقرار الحرمان الالهي أصدره بحقه البابا غريغوري التاسع لهذا السبب - في الاستجابة لطلب الملك الكامل ، لاسيما وان الفرصة غدت مؤاتية له ليظهر نفسه بغيره الصورة الجاحدة التي أرادت البابوية أن تصوره بها .

وهكذا تألفت الحملة الصليبية السادسة برئاسة فردريك الثاني ، الا انها كانت حملة فريدة من نوعها ، لأنها لم تنعم ببركة البابا ، كما ان زعيمها محروم منه ، وهي فوق ذلك حملة صغيرة لم يزد عدد المشتركين فيها على خمسمائة فارس ، لأن معظم الامراء والقادة قد انفضوا عن الامبراطور المحروم من الكنيسة ، وهذا العدد لا يكفي للانتصار على المسلمين في معركة جانبية صغيرة ، فضلاً عن ان اولئك الفرسان لم يأتوا بدافع الحماسة الدينية أو اية رغبة في العدوان أو الانتقام ، وكانت الحملة أشبه ما

١ - تاريخ العرب لحتي وزميلييه ج ٢ ص ٧٧٤

٢ - السلوك ج ١ ص ٢١٦ - ٢٢٣ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٤٨ ،

الكامل ج ١٢ ص ٣١٥

تكون بزيارة ودية يقوم بها الامبراطور مع أفراد حاشيته لصديقه ملك مصر^١.

الا ان فردريك الثاني لم يصل الى عكا الا في اواخر سنة ١٢٢٨ هـ ٦٢٦ هـ بعد ان مر بجزيرة قبرص لتوطيد نفوذه وتثبيت حقوقه فيها . وكان الملك المعظم صاحب دمشق قد قارق الحياة في السنة الماضية ، وزال بوفاته الخطر الذي كان تهدد الكامل والذي دعا الامبراطور من أجله ، بل ان الكامل ما لبث ان اتفق مع أخيه الأشرف على اقصاء الملك داود ابن المعظم عن عرش ابيه واقتسام مملكته ، وبادر الكامل الى احتلال القدس ونابلس ، واحتل الأشرف دمشق ، وعوض الناصر داود بالكرك والبلقاء وبعض النواحي التابعة لهما .

وقد حار الكامل في الموقف الذي يجب ان يتخذه من الامبراطور ، لأنه هو الذي دعا الى الشام وألح عليه في المجيء اليها ليناصره على خصمه ، واعدأ اياه بقسم من أملاك هذا الخصم وهو اخوه نفسه ، فلما وصل اليها لم يعد في حاجة الى مساعدته لأن هذا الخصم كانت قد غاب ، وغدت الاملاك الموعودة جزءاً من مملكته ، وأضحى من واجبه ان يدافع عنها ، إن لم يكن بمعامل الرغبة الصادقة في المحافظة عليها ، فبمامل الحفاظ على سمته امام جماهير المسلمين .

ولم يكن موقف فردريك الثاني أقل دقة وحرصاً ، لأنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة ، مفضوباً عليه من البابوية ، معتمداً على وعد الكامل له باعطائه بيت المقدس لاستعادة نفوذه في الغرب ، ولو جاء

١ - Grousset ; Hist. des Croisades, III. p. 281

غازياً محارباً لاستقدم معه جيشاً قادراً على الغزو والحرب ، أما الآن فان جماع قوته خمسمائة فارس ، وهو لا يعتمد على أية مناصرة من القوى الافرنجية في الشام ، لان قادة هذه القوى تأبى النضال تحت لواء رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها . أما اذا عاد الى اوربة دون أن يحقق أي انتصار ، فانه سيعطي خصومه ، والبابوية في مقدمتهم ، سلاحاً قوياً للسخرية منه والتشهير به ، فالمسألة بالنسبة اليه اذن كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ، ومصير المعركة بينه وبين البابوية^٢ ، وهو لم يتردد في التصريح لاصدقائه من المسلمين في الشرق بأنه « ماله غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج^٢ »

ومكذا كشف ملكان ، مسيحي ومسلم ، عن حقيقة الاهداف الدنيوية التي تسيرهما ، في صراع وصف بأنه ديني ، ولم يستطع اي منهما الا أن يتستر بهذه الصفة وهو أبعد ما يكون عنها . ولكن الأغرب والأعجب من هذا ، موقف البابا غريغوري التاسع الذي أخذ يسعى لدى الكامل ، ويرسل اليه الكتب ، محرضاً اياه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور ، لأن « كان يعلم انه لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته ، فان ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم ، وفي هذا فصل الخطاب بين فردريك وغريغوري أو بين الامبراطورية والبابوية^٣ »

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٨

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣٠

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٨ نقلاً عن :

Kantorowicz , Frederick the Second, p. 185

وانتقل فردريك الى يافا ، واخذ يلهي من معه من الرجال بترميم الاسوار ، بينما كانت المفاوضات تجري بين العاهلين ، فقد بعث الكامل رسوله الامير فخر الدين يوسف الذي سبق ان حمل اليه دعوة ملك مصر للقدوم الى الشام ، مرحباً به ومقدماً اليه هدايا ثمينة ، ومصارحاً اياه في الوقت نفسه بأنه انما وعده ببيت المقدس ثمناً لمناصرته اياه على اخيه المعظم ، وبما انه لم يعد في حاجة الى هذه المناصرة ، وان بيت المقدس غدت من املاكه ، فانه لا يستطيع التنازل عنها ، لان ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين

وشرح الامبراطور حرج موقفه ، وانشأ يرجو ويستعطف ، حتى قيل انه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات^١ . وقد جاء في احدي رسائله الى السلطان : « انا اخوك واحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح ، وانا وريث مملكة القدس ، وقد جئت لاضع يدي عليها ، ولا اروم أن انازعك ملكك ، فلنتجنب اراقة الدماء^٢ ، وجاء في رسالة اخرى : « انا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره خروج . وأنت تعلم اني اكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتامي وطلوعي ، فان رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم .. وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد اخرجوها فليس لها دخل طائل ، فان رأى السلطان ان ينعم عليّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر^٣ .. »

١ - المرجع السابق ج ٢ ص ١٠١٠

٢ - تاريخ سورية للطران الديس ج ٦ ص ٢٣٤

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠١٠ نقلاً عن : المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ ، ذيل باب الثاني والسبعين من كتاب الروافي بالوفيات .

ومرة اخرى كانت الكلمة الطيبة أفعال من السيف ، وكانت العلاقة الودية بين عاهلين اجدى من الحقد المقتعل بين قارتين ومذهبين ، فبعد مفاوضات استمرت شهرين كاملين ، عقدت بين الفريقين في ١٨ شباط (فبراير) ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ اتفاقية تقضي باقرار السلام بينها لمدة عشر سنوات ، وان تمنح للصليبيين اقدس وبيت لحم والذصرة وتبنين وصيدا ، على أن تبقى القدس على ما هي عليه « ولا يجدد سورها ، وان تكون سائر قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج ، وان الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى - يكون بأيدي المسلمين ، لا يدخله الفرنج الا للزيارة ، ويتولاد قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة » .^١

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ « فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه الى الفرنج »^٢ ، كما أعلن فردريك الثاني في جنوده : « اشكروا الله واحمدوه إذ أتمّ عليكم نعمته ، فان اتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة او الحروب . وما أتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الارض اتمامه لا بكثرة العدد ولا بالقسوة ولا بأية وسيلة اخرى »^٣ .

يقول برييه : « وهكذا حقق فردريك الثاني ما عجزت عن تحقيقه الحملة الصليبية الثالثة ، وما أعيا ريشارد قلب الأسد وجيوشه اللجبة ،

١ - السلوك ج ١ ص ٢٣٠ ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٤٧ ، الكامل ج ١٢ ص ٣١٥
٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣١
٣ - شمس العرب ص ٢٧ :



فرديناند الثاني - اعجابية الدنيا

دون ان يخوض معركة او يخسر رجلاً واحداً^١ ،

الا ان الرأي العام الاسلامي لم يجد لاتفاقية الكامل مبرراً ولم يستطع لها تفسيراً « فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء ، واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الاقطار ، أما في القدس « فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعيويل ، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس الى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان ، وقد بلغ من ذلك ان فردريك نفسه شعر بحرج موقف السلطان « فاعتذر للامير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك^٢ ،

واذا كان المسلمون قد شعروا بالغبن من جراء تنازل الملك الكامل عن قسم كبير من فلسطين دون قتال ، لامبراطور لايسير في ركابه سوى خمسمائة فارس غير قادرين على الانتصار في معركة جانبية صغيرة ، فان العالم المسيحي لم يهلع في الوقت نفسه لاستعادة بيت المقدس على يد امبراطور محروم ، ولم يرحب أحد باقرار السلام وحقق الدماء في الأراضي المقدسة ، وبلغ من توتر الموقف أن « وقع جيرولد بطريرك ملكة بيت المقدس ، قرار الحرمان على المدينة نفسها ، وعلى من فيها من المسيحيين اذا هم استقبلوا الامبراطور المحروم من الكنيسة^٣ ، وقد توقفت على اثر ذلك الصلوات في الكنائس ، وامتنع الكهنة عن أداء

١ - L'Eglise et l'Orient, p. 203

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣١

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠١٣ نقلاً عن :

Cambridge , Meed . Hist. p. 314

المراحم الكنيسية ، وحرض الجيش على العصيان ، وقذف الامبراطور
وفرسانه بالقاذورات^١ .

وهكذا اضطر فردريك الثاني حين دخل بيت المقدس في ١٧ آذار
(مارس) سنة ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ ، وتسلم مفاتيحها من القاضي شمس
الدين قاضي نابلس الذي أرسله السلطان لمرافقة الامبراطور ، الى ان
يتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة .

وقد زار الامبراطور المسجد الأقصى ، وعلم وهو يقوم بهذه الزيارة ،
ان السلطان اصدر أوامره بالتوقف عن الأذان خلال أقامة فردريك
الثاني في القدس ، احتراماً لشعوره ، فأخذ فردريك ذلك على القاضي
شمس الدين قائلًا : « أخطأت فيما فعلت ، والله انه كان اكبر غرضي
في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبحهم في الليل^٢ » .

ويروي المقرئ ان العامل شامد قيساً يحمل الانجيل ويريد دخول
المسجد الأقصى فنهاه عن ذلك ومنع دخول أي شخص من الفرنجة اليه .
الا بعد استئذان ، وقال : « انما نحن بمالك هذا السلطان الملك الكامل
وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه ،
فلا يتعدى احد منكم طوره^٣ » .

وتقول زيفريد هونكه : « وعلى الرغم من ان الذي حققه فردريك
الثاني الخارج على الكنيسة باتفاقه مع السلطان الكامل كان انجح

١ - شمس العرب ص ٤٢٩

٢ - السلوك ج ١ ص ٢٣١

٣ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٢

بما حققته الحروب الصليبية كلها ، فان اعداءه لم يتركوا فرصة العمل
ضده الا واستغلوها فقد أرسل رئيس فرسان المعبد سراً برسالة يبدو
انها بايحاء البابا غريغوريوس التاسع ، يخبره فيها بانهم - اي الفرسان -
قد علموا ان الامبراطور سيخرج بصحبة نفر من أتباعه في ساعة معينة ،
من بيت المقدس الى مكان معين من ضفة نهر الأردن الشمالية للصلاة ..
وهم يدعون السلطان لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالامبراطور وقتله ..
واشأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان ، فأرسل الى الامبراطور
نفسه هذا الخطاب المختوم بختم رئيس فرسان المعبد ١ ،

وبعد يومين من دخول الامبراطور الى بيت المقدس ، وصل اليها
اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة وفقاً لقرار البطريرك
جيرولد ، فتألم فردريك الثاني من ذلك ألماً شديداً ، وعاد الى القدس الى
يافا ثم انتقل منها الى عكا حيث جمع رجال الدين وبعض النافذين وبرز
أمامهم ما تذرعووا به في محاربتهم له من مأخذ على اتفاقية يافا تتعلق
بمنح المسلمين في بيت المقدس بعض الحقوق والسماح لهم بالاحتفاظ بالمسجد
الاقصى ، فلم يصنع اليه أحد منهم .

وكانت المدينة منقسمة الى ابصار للسابوية ومؤيديه للامبراطورية ،
فأراد ان يستعين هؤلاء لاتخاذ تدابير مشددة بحق الفريق الآخر، ولكن
شؤونه في الغرب كانت أهم من مشكلاته في الشرق ، وقد وافته الانباء
بان الجيش السابوي قد صادر ممتلكاته في ايطالية ، وبان حنادى برين
والد زوجته يولاند ، قد انضم الى خصومه ، فبادر بالرحيل في ١٠
حزيران سنة ١٢٢٩ م ٦٢٧ هـ الى قبرص فانطاكية ، حيث عقد الصلح

مع البابا بسان جرمانوس سنة ١٢٣٠ م ٦٢٨ هـ فرجع عنه قرار الحرمان، واعترف بأنه حقق للمسيحية مكاسب عظيمة .

ولكن الصلح بين الفريقين كان قصير الأجل ، اذ لم يلبث الخلاف ان اشتد بين البابوية والامبراطورية بعد وفاة البابا غريغوري التاسع سنة ١٢٤٣ م ٦٤١ هـ ، اذ عقد خلفه البابا انوسنت الرابع مجمعا في ليون سنة ١٢٤٥ م ٦٤٣ هـ قرر فيه حرمان فردريك الثاني من جديد ، واشتد بذلك النضال بين البابا والامبراطور وحاول كل منهما ان يضم الرأي العام لى جانبه تعريزا لمركزه ، وتأييدا للسلطة الدينية او السلطة الزمنية ولم تفت المؤرخين المسلمين حدة هذا الصراع ومعرفة بعض تفاصيله ، ويقول العيني في ذلك : « ان البابا غضب على الامبراطور وحرص خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال : « قد خرج الانبرور عن دين النصرانية ومال الى المسلمين فاقتلوه وخذوا بلاده » . وأقطع كل واحد مملكة ، فأعطى واحدا صقلية ، والآخر تصقانة ، والآخر بولية ، وهذه بمالك الأنبرور . وكتب أصحاب الاخبار بذلك الى الأنبرور ، فعمد الى مملوك له فجعله في مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء ، وأرسل الى الثلاثة فجاءوا والمملوك قائم على التخت فظنوه الانبرور . وقد اختفى الانبرور في مجلسه ومعه مائة فارس ، فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه ، فخرج عليهم الانبرور ، فذبهم بيده وسلخهم وحشا جلودهم تبنا وعلقهم على باب القصر . وبلغ الخبر البابا ، فبعث الى قتاله جيشا ، والخلف واقع بينهم ، وهذا الانبرور هو الذي أعطاه الملك الكامل القدس ١ » .

١ - الشرق العربي بين شقي الرحى ص : ٢٤

والواقع ان ما قام به فردريك الثاني في صقلية ، وما أدخله من
انظمة جديدة في الحكم ، كانت له آثار بعيدة المدى ، فهو الحد الذي
انتهت عنده الفكرة القديمة عن مدلول حكومة العصور الوسطى . فبدلاً
من وجود مجتمع واحد يشمل العالم المسيحي ولا يتجزأ الا أجزاء
متعددة داخلة فيه ، ظهر نظام مركزي مطلق غير مسؤول الا أمام
القائمين عليه . وبدلاً من تلك النظرية التي كانت تفترض بناء سلطات
الدولة على التزام أدبي ، ظهرت هذه السلطة المطلقة التي لا حد لها .
وهكذا فقدت الكنيسة في صقلية تلك المكانة التي كانت تتبوأها في
كل دولة من دول العصور الوسطى ، ولم يعد مقبولاً أن يوجد ميدان
لأي نشاط سياسي ليس للسلطة الزمنية حق التدخل فيه ^١ .

- تاريخ العالم لها مرتين ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١

الفصل السابع والعشرون لويس التاسع الملك القديس

انقضت بين الحملة الصليبية السادسة والحملة الصليبية السابعة عشرون سنة تعاقبت خلالها أحداث جسام على مسرح الشرق الأوسط ، كان أبرزها الصراع بين حنا دي ابلين صاحب بيروت وفرديريك الثاني ، فقد احتل حنا دي ابلين قبرص فارس فرديريك جيشاً احتل بيروت ، فبادر دي ابلين الى ازالة جيوشه قرب طرابلس وهاجم بيروت فاستعادها من جديد .

وكانت مملكة بيت المقدس تابعة اسمياً للامبراطورية الغربية ، ولكن الامبراطور وخلفاءه كانوا في شغل عنها بمشكلاتهم المتعاقبة في اوروبا ، فترك ذلك فراغاً على صعيد الحكم والقيادة . وكان النفوذ الاسلامي والنفوذ الغربي يتقاسمان القدس ، فلا يستطيع أي فريق أن يقوي مراكزه ويوطد أعماله لشككه في المستقبل وتخوفه من مفاجأة طارئة .

وظلت عكا مركزاً للحكومة « مملكة بيت المقدس » بإشراف مجلس بلدي يرأسه حنا دي ابلين خصم فرديريك الثاني ، بينما كان يحكم القدس هندوب عن الامبراطور بوصفه الوصي على ابنه كونراد من زوجته يولاندا ،

وعبثاً حاول البابا اقناع امراء الفرنجة بأن من حق فردريك الثاني الاشراف
العام على شؤون الصليبيين في الشام ، وذلك قبل ان تقع الواقعة بينها
من جديد .

وكانت المعارك لا تنقطع بين الاسبتارية والداوية في امارتي انطاكية
وطرابلس وسكان المناطق المجاورة لهما ، الا انها معارك جانبية حرص الفريقان
على ألا تتحول الى حرب عامة ، كما تجددت المعارك في عهد بوهيمند
الخامس أمير انطاكية وطرابلس بينه وبين ملك أرمنية ، ولم يستطع
بوهيمند الخامس طوال حكمه أن ينس للأرمن انهم استدعوا أخاه ليتولى
الحكم ثم تخلصوا منه بالقتل^١ .

وعلى الجانب الآخر من خارطة الشرق الأدنى ، كان الأيوبيون في
صراع مع سلاجقة الروم ، ثم صالحوهم واتفقوا معهم على صد هجوم
المغول الذي عاد فتجدد بعد ان توقف فترة من الزمن إثر وفاة
جنكيزخان . الا ان الأيوبيين والسلاجقة ما لبثوا ان اختلفوا من جديد .
ثم اختلف الأيوبيون فيما بينهم فتآمروا على الكامل ، فسارع هذا الى
احتلال دمشق واقصاء صاحبها أخيه الملك الصالح ، ثم ما لبث الكامل
ان توفي سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م خلفاً لابنه الملك العادل الثاني السلطة
العليا في مملكة الأيوبيين . يقول محمد كرد علي : « وأشبه حال الكامل
حال معاوية بن أبي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة
وملكاً نحو عشرين . وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن
التدبير ، أمنت الطرق في أيامه ، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه^٢ .

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٢٠٢٥

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ٩٨

واضطربت المملكة الأيوبية اضطراباً شديداً في عهد العادل الثاني ، وغصبت بأصحاب المطامع ، وبدأت تتمزق وتسير نحو الانهيار . ونشبت الحروب بين اسد الدين شيركوه صاحب حص حفيد أسد الدين القائد المعروف ، والمظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة ، كما استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق واشتبك في صراع عنيف مع أخيه العادل الثاني ، واستعان كل منهما بفرقة من الأمراء الأيوبيين وبفريق من الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي ، حاملين معهم الويل والخراب ، مقدمين خدماتهم لهذا أو ذاك من الأمراء والسلاطين

وبلغ هذا النزاع الداخلي أوجه عندما عاد الصالح اسماعيل الى المسرح السياسي ، فاحتل دمشق ، ووقع الصالح أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك ، فاقتاده أسيراً الى قلعة الكرك ، واقتيدت معه شجرة الدر وقليل من صحابته ، فبقي في أسر الناصر شهوراً طويلة وهذا يفاوض بشأنه العادل في مصر ، حتى يش الناصر من بلوغ امنيته في اعتلاء عرش دمشق عن طريق العادل ، فأطلق سراح الصالح أيوب وسار معه لانتزاع مصر من العادل ، وكان قادة الجند قد ثاروا بالعادل فأعلنوا الصالح أيوب سلطاناً على مصر .

ووصلت الى الشام خلال تلك الفترة حملتان صليبيتان لا يسلكهما التاريخ في عداد الحملات الكبرى ، عرفت الأولى بالحملة الفرنسية والثانية بالحملة الانكليزية .

وقد وصلت الحملة الفرنسية الى عكا في اول ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٣٩ م ٦٣٧ هـ وعلى رأسها تيبوت الرابع امير شيبانيا وملك النافار ، وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بتزول الصليبيين في عكا خرج

على رأس جيش صغير قاصداً القدس . وكان الصليبيون قد عمروا القدس وحصنوها ، وبذلك نقضوا الشروط المتفق عليها مع المسلمين ، فتحجج الناصر داود بما فعله الصليبيون واستولى على القدس^١ .

ولكن ما كاد الناصر داود يتحالف مع الصالح أيوب ويتولى هذا ملك مصر بدلاً من العادل الثاني ، حتى غضب الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيا وان الملك الجديد في مصر قد وعد الناصر داود بمساعدته في الاستيلاء على دمشق ، فد الصالح اسماعيل يده الى الصليبيين ، وطلب مخالفتهم ضد الصالح ايوب في مصر والناصر داود في الأردن ، وفي مقابل ذلك تعهد باعطاء الصليبيين مدينة القدس واعادة ملكة الصليبيين الى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن . ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، فضلاً عن قلعة شقيب أرنون وأعمالها ، وقلعة صفد وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل^٢ .

وأمام هذا السخاء العجيب اشترك الصليبيون مع الصالح اسماعيل في الزحف على مصر مقابل وعد جديد منه باعطائهم جزءاً منها . وكانت الرأي العام الاسلامي قد نقم على الصالح اسماعيل نقمة شديدة ، فما كاد جيشه يلتقي بجيش الملك الصالح قرب غزة حتى تخلى عنه من معه من القادة ، وساقت عساكر الشام الى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم ، وأسروا منهم خلقاً لا يحصون^٣ .

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤

٢ - المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٣٧ ، انظر أيضاً : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢

٣ - السلوك ج ١ ص ٣٠٥



وانسحبت فلول الافرنج الى عسقلان حيث عقدت صلحاً مع الملك الصالح ايوب ، ولم تلبث الحملة الفرنسية أن عادت الى بلادها في ايلول (سبتمبر) سنة ١٢٤٠ م ٦٣٨ هـ بعد أن استعادت للفرنجية القدس التي كان يجيشها الى الشرق السبب في فقدانها ، بالإضافة الى صفد وعسقلان وبعض الحصون .

ويقول لامونت في وصف هذه الفترة العجيبة من الحروب الصليبية ذات الأحداث السريعة المتلاحقة : « وكان المسلمون منهكين انهاكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأي عمل موحد ضد اللاتين . حتى ان أفراد الطوائف العسكرية الكبيرة ، وهم ألد أعداء الاسلام ، نسوا المواثيق التي قطعوها على أنفسهم ، وحالفوا ، دون خجل ، المسلمين ضد النصارى ، وخاصة ضد الطوائف العسكرية الأخرى . فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتالية ومصر . وكانت المعارك التي وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من أضرى المعارك التي حدثت في هذه الفترة ١ » .

وما كادت الحملة الفرنسية تغادر الشرق حتى قدمت الحملة الانكليزية الى عكا في ١١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٢٤٠ م ٦٣٨ هـ يقودها ريشارد كورنول شقيق ملك انكلترا ، وقد اكتفى ريشارد بتقوية حصون عسقلان ، وبمقعد اتفاقية جديدة مع الملك الصالح توطن دعائم السلام وتزيد من مكاسب الصليبيين بعض الشيء .

والواقع ان مكاسب الصليبيين كانت تزداد بفعل النزاع المستمر بين

امراء الاسره الأيوبية ، وقد بلغ من حدة هذا النزاع ونتائجه أن حاول كل من الملوك الأيوبيين الثلاثة : الصالح ايوب ملك مصر ، وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق ، والناصر داود ملك الأردن ، محالفة الصليبيين ضد خصومه مقابل تعهده بأن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة ، بمعنى أن يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة ^١ .

وقد آثر الصليبيون محالفة الصالح اسماعيل والناصر داود ، لأن توطيد أواصر الصداقة مع ملكي دمشق والأردن كان أجدى عليها من محالفة ملك مصر ، لاسيما وان غزو مصر بالتعاون مع هذين الملكين يحدد أمامهم الأمل في احتلالها والاستيلاء على كنوزها وخيراتها ، مما دفع الملك الصالح أيوب الى الاستعانة بالخوارزمية ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي ، فزحف عشرة آلاف منهم على بلاد الشام وهم ينهبون ويقتلون ويسبون ^٢ ، وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار ^٣ ، واستولوا على طبرية وقابلس واحلوا القدس في ١١ تموز ، يولييه سنة ١٢٤٤ م ٦٤٢ هـ

وقد استنجد فرنجة القدس بأمر انطاكية وطرابلس ، وبملك قبرص ، وبالصليبيين في عكا ، وبخلفائهم المسلمين في دمشق والأردن ، فلم ينجدهم أحد . وكان مسلك الخوارزمية في القدس وفي مطاردة الفرنجة الذين غادروها الى يافا ، يتناقض مع مسلك صلاح الدين وخلفائه الذين ورثوا

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٢ ، خطط الشام ج ٢ ص ١٠٣

٢ - السلوك ج ١ ص ٣١٦

٣ - خطط الشام ج ٢ ص ١٠٢

عنه شمائل النبل والمروءة والتسامح . ثم سار الخوارزمية الى عكا حيث التقى بجيش الملك الصالح أيوب في غزوة ، واشتركوا معه في صد الجيش الشامي والجيش الصليبي اللذين كانا يقاتلان جنبا الى جنب وتحت أعلام واحدة ، الا ان الصالح أيوب وحلفاءه استطاعوا أن ينزلوا بخصومهم هزيمة ساحقة ، وأسر من الفرنج خلق من ملوكهم وكبرائهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخسروا عدداً كبيراً من فرسانهم وشجعانهم .

وكان من نتائج هذه المعركة ان انتزع الملك الصالح أيوب من الناصر داود القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص . ولما ضاق صاحب دمشق بالحصار ذرعاً ، ستر وزيره أمين الدولة الى العراق متشفعاً بالخليفة المماليك ليصلح بينه وبين أخيه ، فلم يجبه الخليفة الى ذلك . وما لبثت دمشق أن سقطت في يد الملك الصالح أيوب ، ولم ينفع الملوك والأمراء الموقورين منه نعمة الخوارزمية عليه ، وما قاموا به من أعمال تارية رهيبة حين منعهم من دخول الشام وأقطعهم بلاد الساحل ، في حين كانوا يعتقدون بأنه سيقاسمهم الغنائم ويشاطرهم الملك . فقد استطاع بحزمه وثباته وبما لجأ اليه من أعمال الحيلة والتدبير ، أن يصد عن دمشق بعد حصار رهيب أكل الناس فيه لحوم الموتى ، وان يقهرهم بعد ذلك في معركة فاصلة وقعت بين بعلبك وحمص سنة ١٢٢٦ م ٦٤٤ هـ ، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة، تشتت شملهم بعدما ، ومضت طائفة منهم الى التتار وصاروا معهم ، وانقطع منهم

١ - ذيل الروضتين ص ١٧٤ ، السلوك ج ١ ص ٣١٧ ، خطط الشام ج ٢

جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به ١ .

وبينما كان الصالح أيوب يتابع انتصاراته في الشام والجزيرة ، كان جيشه المصري يتابع بقيادة الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ معاركه مع الفرنجة ، وقد أسفرت هذه المعارك عن استيلائه على قلعة طبرية في ١٧ حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٧ م ٦٤٥ هـ وعن محاصرته عسقلان براً وبحراً واحتلالها في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ، وقد بادر الى تدميرها كي لا تتخذ من جديد قاعدة لمهاجمة مصر .

وهكذا استعادت المملكة الأيوبية بزعمه الملك الصالح أيوب وحدتها بكاملها تقريباً حتى حلب والجزيرة العليا ٢ ، فلما زار القدس سنة ١٢٤٨ - ١٢٤٩ م ٦٤٦ - ٦٤٧ هـ ، أعاد تجديد حصونها وتقوية دفاعها ، وتوافد الملوك والأمراء اليها لاعلان ولائهم له ، بينما تقلصت حدود الصليبيين الى يافا ، فكان لا بد من أن تقوم اوربة بمحاولة جديدة لانقاذ مستعمراتها في الشرق .

★

كانت اوربة التي استغاث بها الفرنجة في المستعمرات اللاتينية باشرق في منتصف القرن الثالث عشر ، تختلف عن اوربة التي أعدت الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر . فالتعصب الديني كان في طريق الزوال ، وحرية الفكر كانت قد بدأت تنير مشاعلها في معاقل

١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ - ٣٢٥ ، السلوك ج ١ ص ٣٢٢ - ٣٢٤ ،
ذيل الروضتين ص ١٧٨ ، خطط الشام ج ٢ ص ١٠٦
٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٩

الظلام ، وكان العلم ينصب أعلامه المظفرة واحداً بعد آخر على حصون
الخرافة والطغيان

يقول بروكلمان : « وكانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة
قد انكشفت في تلك الفترة ، وعفى عليها الفسيان أو كاد^١ . »

وهكذا أعرض ملوك اوربة عن تلك الاستغاثة ، ولم يستجيب لها
سوى ملك واحد ، وفي ظروف وبواعث خاصة ، هو لويس ملك
فرنسة (ريد افرنس^٢) الذي اشتهر بورعه وتقواه حتى لقب « الملك
القديس » . وكان البابا انوسنت الرابع يقول عنه : « هذا أعز اولادي »
ويسميه الناس « ابن البابا في الرب » ، وقد قيل فيه : « ان كل حياته
كانت عبارة عن صلاة^٣ » ، فقد أنشأته أمه الملكة بلانش ابنة الفونس
التاسع ملك قشتالة وزوجة لويس الثامن نشأة دينية محضة حتى انها كانت
تقول انه أهون على نفسها أن تشاهد مصرعه بعيني رأسها من أن يرتكب
خطيئة تغضب الرب . فملكك عليه التعاليم الدينية نفسه وسيطرت على
جوانحه ، وانعكس أثرها في حياته غلاماً وياقماً وشاباً وملكاً^٤ .

وقد أصيب لويس التاسع بعد أن تولى الملك ، بمرض شديد الوطأة
أشرف فيه على الموت ، وانتابته غيبوبة فارق وعيه فيها ، فخيّل لمن
حوله انه قضى نحبه ، فأرادت إحدى السيدات ان تسجيه قائلة انه

١ - المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦

٢ - كانت كلمة ملك (Roi) تلفظ بالفرنسية القديمة (روي Roy) ومن هنا كانت
تسمية العرب لملك فرنسة : ري افرنس أو ريد افرنس .

٣ - تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧٦

٤ - الشرق العربي بين شقي الرحي ص ١٤

مات ، واعترضتها سيدة أخرى قائلة ان انقائه مما ترآل تتردد في صدره ، واذا به يستفيق من غيبوبته ، ويتأثل الى الشفاء . وفي احدى فومات هذا المرض ، نذر الملك القديس على نفسه ، ان هو شفوا من دائه ، القيام بصليبية جديدة قرباناً لربه وشكراً لنعته .

وهكذا كانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية محضة ، وكان على رأسها لويس التاسع وزوجته الشابة مرغريت دي بروفانس وأخواه روبر دي أرتوا وشارل دي أنجو وعدد من الامراء والفرسان ، واشتركت انكلترا فيها بفرقة رمزية صغيرة بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالبوري .

والواقع ان بقايا الصليبيين في المشرق كان معظمهم من الفرنسيين أو المتحدرين من أصل فرنسي ، حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحركة الصليبية بأنها حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى^١ ، وقد جاءت الحملة الصليبية السابعة تؤكد ذلك ، وتحمل بالرغم من صفتها الدينية الظاهرة ، طابعاً استعمارياً محضاً . وعلى الرغم من تظاهر فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية في الغرب ، بتأييد الحملة ، فقد أرسل الى الملك الصالح أيوب وهو ابن صديقه القديم الملك الكامل ، ينبئه بتحركاتها وأهدافها^٢ ، كما ان البندقيين عارضوا الحملة ولم يشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم التجارية في مصر واسبيا في الاسكندرية^٣ .

وقد أبحر لويس التاسع من فرسة في ٢٥ آب (اغسطس) سنة

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٠

٢ - المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٩ الشرق العربي بين شقي الرحي حس ..

٣ - Hist. du Commerce, I. p. 409 - 412

١٢٤٨ م ٤ جمادى الأولى ٦٤٦ هـ ، وبعد أن قضى في قبرص فصل الشتاء ، واجتمع هناك بقيادة الصليبيين في الشام ، متشاوراً معهم ، داعياً إياهم إلى الاتحاد ونبذ الأحقاد ، اتجه بأسطوله إلى دمياط فوصلها في أوائل حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٩ م ربيع الأول ٦٤٧ هـ ، وكان عدد وحداته البحرية نحو ألف وثمانمائة قطعة^١ ، تحمل نحو خمسين ألف مقاتل^٢ من مشاة وفسان ، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخبولهم ، وبلغ من كثرة السفن أنها كست البحر حتى لم يعد يرى سوى الساريات وهي تعلق وتهبط فوق سطح الماء^٣ .

وكان أول ما فعله الملك القديس حين بلغت سفنه مياه دمياط أنه كتب إلى الملك الصالح مهدياً متوعداً ، داعياً إياه إلى الاستسلام ، وقد جاء في رسالته كما رواها المقرئزي :^٤ « أما بعد فإنه لم يخف عنك أنني أمين الأمة العيسوية ، كما أنني أقول أنك أمين الأمة الحمدية ، واني غير خاف عنك ان اهل جزائر الاندلس يحملون الينا الأموال والهـدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصيح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الايمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قداسي الشمع طاعة للصلبان ، ما ردني ذلك عن الوصول اليك ، وقتالك في أعز البقاع عليك ، فان كانت البلاد لي ،

١ - اضطرت الرياح بعض هذه السفن للالتجاء إلى شواطئ الشام فلم تصل إلى الشاطئ المصري ثم لحق بعضها ببقية قطع الاسطول .

٢ - يقدر بعض المؤرخين عدد افراد حملة لويس التاسع بثمانين ألفاً (انظر قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٢٥) .

٣ - هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ص

فيا هدية حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليك ، فيدك للعبا ممتدة اليّ ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسيايف القضاء ١ .

وكان الملك الصالح كبير الهمة عالي الاطماع تحدته نفسه بالاستيلاء على الدنيا كلها ، ويرى أبو المحاسن انه اعظم ملوك بني أيوب وأجلهم ، وأحسنهم رأياً وتديبياً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين ، فساوره الغضب حين تلقى رسالة لويس التاسع وأجابها عليها ساخراً : « وصل كتابك ، وانت تهدد به بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا يغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأيت عيناك أيها المغرور حدت سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، واخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أظفارك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهناك تسبيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة التحل : « أتى امر الله فلا تستعجلوه » وكن فيه على آخر سورة صاد . « ولتعلمن نبأه بعد حين » ونعود الى قوله تبارك تعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين » . والى قول الحكماء : « ان الباغى له مصرع » وبغيتك مصرعك والى البلاء يقبلتك ، والسلام ٢ .

وكان الملك الصالح لما علم بانجاد الفرنجة شطر دمشق ، ما يزال يعالج ثورات الأمراء في الشام ، وتزاع بعضهم مع بعض ، فأسرع بالعودة الى مصر بالرغم من اعتلال صحته ، وعسكر بجيشه عند اشعوم طناح في شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ ايار ١٢٤٩ م ، وهي احدى المدن المصرية القديمة وتقع على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى وقتذاك بحر اشعوم نسبة الى هذه المدينة ، ليكون في مقابلة الفرنج ، وقد افساد من تحذير فردريك الثاني له ، فاحتاط لمواجهة الخطر ، وعزز دفاع دمياط التي كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر .

ولكن الصدام الأول اسفر عن هزيمة مروعة للمسلمين . فقد عهد الصالح ايوب الى قسم من جيشه برئاسة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، بحماية الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط ، وهي المنطقة التي اختارها لويس التاسع لانزال جيوشه ، فلم يستطع جيش الأمير فخر الدين منع الفرنجة من النزول ، ونشبت معركة عنيفة بين الفريقين ، تفوق الفرنجة فيها لكثرة عددهم ، وهرب فخر الدين بمن بقي سالمًا من افراد الجيش الى الضفة الشرقية التي تقوم عليها دمياط ، ولكنه خشي الاحتماء بالمدينة وتابع هربه الى اشعوم طباح .

وربع سكان دمياط وحاميتها حين شاهدوا هذه الهزيمة ، وتراءت لهم صور المجازر الوحشية التي عاناها اهل المدينة ايام حملة جان دي برين فغادروا البلدة هاربين ، بعد ان اشعلوا النار في الاسواق حتى لا تقع بما فيها من الخيرات غنيمة في ايدي الافرنج ، وقاتهم كما فات افراد الجيش من قبل ان يحطموا الجسر المؤدي الى الضفة الغربية ، فعدت دمياط لقمة سائغة في ايدي الافرنج ، حتى ان هؤلاء لم يصدقوا الامر ، وظنوا ان اخلاء المدينة وترك ابوابها مفتوحة على هذا الشكل مكيدة فتمهلوا حتى ظهر ان الناس قد فروا وتركوها ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا



مؤنة حصار ، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد لكثيرة ، والأقوات والذخائر والأموال والامتعة وغير ذلك ، صفواً عفواً^١ ، وكان سقوط دمياط بهذه السرعة وهذه الصورة ، مصيبة لم يجر مثلها^٢ .

يقول المقرئزي . « وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل لما فازها الفرنج أقل ذخائر وُعدداً منها في هذه التوبة ، ومع ذلك لم يقدر الفرج على اخذها الا بعد سنة ، وعندما فني أهلها بالوباء والجوع . وكان فيها هذه المرة ايضاً جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغن ذلك شيئاً^٣ . والواقع ان الملك الصالح لم ينس إن هزيمة دمياط السابقة إنما كان سببها إنعدام الأقوات بعد طول الحصار ، فشحنها بالجنود والأقوات والآلات العظيمة والذخائر الوافرة^٤ .

ويوجه المؤرخون اللوم الى الأمير فخر الدين لأنه لم يثبت في المعركة ، ولم ينتقل الى دمياط ليقاوم فيها ، ويقال انه كان يطمع في الملك وقد خشي ان يموت الملك الصالح وهو في المعركة ، فتخلي عنها وانتقل الى معسكر السلطان^٥ ، ولكن تصرف فخر الدين بعد وفاة الملك الصالح ينفي ذلك . ويقول الأستاذ حسن حبشي : « لم يكن فخر الدين بالقائد الذي يستهان به ، وما كان فراره من دمياط الا عجيبة في تاريخه ، وهو الفارس القائد باعتراف الامبراطور فردريك الثاني صديقه الحميم^٦ . »

١ - السلوك ج ١ ص ٣٣٦

٢ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٨

٣ - السلوك ج ١ ص ٣٣٥

٤ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٥٦

٥ - انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٦١

٦ - الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٦٥

والواقع ان صحة الملك الصالح كانت تسوء يوماً بعد يوم ، حتى انه لما وبخ بماليكه على تخاذلهم وقال لهم : « ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج » وأعدم نفرأ من قادة المعركة ، تخوف المماليك من نوابه وارادوا الفتك به ، فقال لهم فخر الدين : « اصبروا عليه فهو على شفا... فان مات فقد استرحتم وإلا فهو بين ايديكم .. »

ولما اشتد المرض بالملك الصالح حمل الى قلعة المنصورة التي بناها والده الملك الكامل على الجانب الايمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين الى دمياط واشموم طنح ، وقد اطلق عليها هذا الاسم لما احرزه الكامل فيها من انتصار على الصليبيين كما رأينا في الفصل الخامس والعشرين . وكان الصالح على الرغم من مرضه يطلب الامداد ، ويعيد تنظيم الجيش ، ويعزز وسائل الدفاع ، بينما كان لويس التاسع ينتظر وصول اخيه الفونس دي بواتيه بالامداد التي طلبها كي يواصل زحفه في مصر ، وقد قضى في الانتظار خمسة أشهر انصرف خلالها الى العناية بدمياط وتحصينها ، وتحويلها الى مدينة فرنجية ، وإقامة شعائر المذهب الكاثوليكي فيها .

وفات الملك القديس ان الفترة اتي قضاها في الانتظار ، قد اعطت خصومه وقتاً كافياً لتعزيز قوام وتنظيم دفاعهم ، بحيث بدأ مركز الثقل يتحول الى جانبهم ، مما جعل نابوليون يقول بعد نيف وخمسة قرون : « ان جمود الجيش الفرنسي في دمياط كان غلطة من ابعد الاغلاط عاقبة في تاريخ الحروب » .

ولكن ثمة كارثة وقعت فجأة في معسكر المسلمين ، هي وفاة الملك الصالح ، أدت الى ظهور امرأة على المسرح السيامي هي شجرة الدر .

الفصل الثامن والعشرون شجرة الدر ومعركة المنصورة

يمتزج في سيرة شجرة الدر^١ الحب والبغض والنعم والشقاء ، وتتلاقى أطراف العظمة والبطولة مع أشباح الحقد والفدر ..

وشجرة الدر جارية اشتراها الملك الصالح أيوب ، وكانت ترافقه في معتقله بالكرك يوم أسره الناصر داود وقد شاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر ، فما لبثت هذه الجارية أن برزت وغدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن .

لقد كانت جارية مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً ، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية .. فهي واحدة من الوف الجواري والسميرات والحظيات ، وكلهن أعجيبات كان يؤتى بهن الى بلاد العرب أسراً أو شراء ، فيكنن أشبه بالمتاع يتهاداه الناس ، ويمشن

١ - اختلف المؤرخون في اسم شجرة الدر فقد ورد لدى ابن واصل وابي الفدا وابن خلدون وغيرهم : شجر الدر ، وأورده الصفدي والمقريزي والسيوطي وغيرهم : شجرة الدر ، والراجع ان اسمها الصحيح هو «شجر الدر» وان «شجرة الدر» هي التسمية الشائعة.

في الظل حتى ينجبن الأطفال ، فيظفرون حينئذ بشيء من الاحترام ،
وتسمى الواحدة منهم « أم ولد » .

هكذا يبدأ التاريخ القصة العجيبة التي تؤلفها سيرة شجرة الدر !
ويضيف التاريخ انها كانت ما تزال يوم دخلت مصر جارية للملك الصالح
رغم انها ولدت ابنه خليل ، وان الملك الصالح لم يكذب يتولى العرش
حتى تألق نجم جاريته ، فتبوأ في البلاط المكان الأسمى ، وغدت
مصدر النهي والأمر ، ولاسيما بعد ان اقنعت زوجها الملك بأن يستكثر
من المماليك ليستظهر بهم على خصومه من الأيوبيين

ونستطيع ان نتبين من خلال هذه الرواية شيئاً من ملامح شجرة
الدر ، فنعرف انها كانت الى جانب ما تتمتع به من فتنة وعذوبة وجمال
خلاق ، ذات شخصية قوية وثقافة واسعة وذكاء حاد ، وقد أثرت
شخصيتها في سبدها فقدر مواهبها وسداد رأيها ، وأشركها في امور
دولته منذ حظي بها في حلب ، واتخذها رفيقة له تشاطره نعيم الحياة
وبؤسها ، وتتسائم معه أعباء الملك .

وفي وسعنا ان نتمتع في الخيال ، فنعود الى ماضي شجرة الدر لنرى
انها على الرغم من اصلها الاجنبي قد نشأت نشأة عربية خالصة ، وحرص
التاجر الذي سبأها او اشتراها على تخريجها في الفنون والآداب وتهذيبها
بأخلاق البلاط ، حتى غدت واحدة من اولئك الجوارى المبررات اللامعات
اللواتي سيطرن على قصور الملوك والأمراء في أواخر العصر العباسي ،
وكنّ وقد اکتملن عقلاً وخلقاً وجمالاً ، كتلك التي أقبلت على علي بن الجهم في
مجلس أحد اصدقائه فهمس صديقه في اذنه مداعباً : « يا أبا الحسن ..
هذه الجنة التي كنتم توعدون ! .. »

وكان الملك الصالح حين جلس على عرش مصر في الرابعة والثلاثين من



شجرة الدر كما تخيلها أحد الرسامين الغربيين

عمره ، وكانت شجرة الدر على ما توحى به سيرتها في حدود الخامسة والعشرين ، وكان يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة ، انها خليفة بأن تكون زوجة له ، فاعتقها وتزوجها ، فاكسب نفوذها بذلك صفة شرعية ، وأنشأت تسهم بنصيب أوفر في شؤون الدولة واعمال البر .

وانقضت عشر سنوات من حكم الملك الصالح وهي تنعم معه برخاء عم ، وسعادة وارفة الظلال ، وتشاطره مجده وقوته ورفعة شأنه ، وتوطد معه أركان مملكته المترامية .

ولما بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية ، وارسل لويس التاسع الى الملك الصالح يبلغه انه جاء بعسكر بعدد الحصى ، ويحذره من اقاومة العقيدة ، وينصحه بالخضوع والتسليم ، كان الملك يعاني وطأة المرض ، فتوانه الحيرة والاضطراب ، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع ، إلا ان شجرة الدر وقفت الى جانبه تبث فيه روح العزيمة والأباء ، وتحضه على المقاومة المستميتة ، فتذرع بالشجاعة ، واجاب على كتاب لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضي القضاة الشاعر بهاء الدين زهير ، فرد كما رأينا في الفصل السابق على التهديد بمثله ، وحذر ملك الفرنجة من عافية البني والعدوان .

وكذلك وقفت شجرة الدر الى جانب الملك الصالح خلال مرضه المقعد بعد سقوط دمياط وانتقاله الى المنصورة ، تسهر عليه ، وتقوي من عزيمته ، وتسهم معه في تحصين المدينة ، وحشد القوى ، حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ٢٢ تشرين

الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩ ، وأوصى بالعرش لولده الملك العظيم تورانشاه^١ نائبه في البلاد الشرقية ، وكانت يومئذ في حصن كيفا بديار بكر^٢ ، فأرسلت شجرة الدر فارس الدين أقطاي كبير المهالك البحرية ليأتي به .

وكانت وفاة الملك الصالح في غمرة تلك المعمة الهائلة ، خنجراً ماصياً يسدُّ إلى قلب مصر . فقد كان من المؤلف في تلك الأيام ان يشير موت الملك اطماع القادة والأمرء ، فيتنافسوا على السلطان ، ويقتتلوا في سبيل الوصول إليه والاستئثار به . وكان نشوب مثل هذا الخلاف في ذلك الموقف المصيب ، خليقاً بأن يمزق وحدة الأمة والجيش ، ويطوح بالبلاد ، ويفتح ابوابها للغزاة المعتدين .

ويجمع المؤرخون على ان القدر قد رحم مصر إذ وضع مقدراتها في تلك الفترة الدقيقة من فترات الحرج في يد شجرة الدر ..

لقد كانت هذه المرأة القوية الحازمة تنظر إلى مرض زوجها الملك بعين دامة ونفس والهة جازعة ، إذ كان يشجبها موته ويمزق فؤادها المألولوعة ، كما كانت تحشى عواقب هذه الكارثة التي تقفاجأ بها البلاد وهي في ظلمة محنتها واحتدام حربيها مع العدو !

وما كاد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حتى كفكفت دمعها وحبست فواحها ، ونهضت من تحت نير الألم لتستدعي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وجمال الدين محسن رئيس الحصيان ، وهما كبيراً رجال الحاشية ،

١ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤

٢ - كان المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الصالح أيوب من زوجته بلت العاللة ، أما خليل ابن شجرة الدر فقد توفي في حدائق السن .

وتوصيها بكتان وفاة الملك حتى يصل تورانشاه من حصن كيفا^١ ، اتقاء
للفتنة . فعمل الرجال بإشارتها ، واخذ فخر الدين الموائقي على كل من وقف
على وفاة الملك من رجال الحاشية والأطباء والعلماء بأن يكتموا الأمر

وغسل الجثمان سراً ، وأودع في تابوت ، ونقل من المنصورة ليلاً
فـر سفينة صغيرة عبر النيل الى القلعة القائمة في جزيرة الروضة حيث
كانت ثكنات المماليك ، بينما ظل الاطباء ملازمين لقصر السلطان كي يظن
الناس انه مريض^٢ ، وظلت الخدمة السلطانية على حالتها في القصر
المتواضع بالمنصورة ، وشجرة الدر تستقبل الأمراء ، وتبلغهم أوامر
السلطان ، ويقال ان شجرة الدر هي التي كانت تقلد توقيعه^٣ .

وجمعت شجرة الدر امراء الجيش ورجال الدولة ، في اليوم التالي
لوفاة السلطان ، وأبلغتهم مشيئته بأن يخلفوا له ولأبنه الملك المعظم
تورانشاه من بعده وللأمير فخر الدين بقيادة الجيش وتدير امور المملكة ،
ففعلوا ما أمر به السلطان ..

ثم أرسلت الى الامير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة أمراً
مهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكبر الدولة ومقدمي الجند على ما تقدم ،
فأطاع الامير حسام الدين أمر الملك ، وبدأ خطباء الجوامع يدعون
لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه

ويبدو ان بعض الجند قد تهامس بموت السلطان ، وان قادة الحملة

١ - السلوك ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣

٢ - هزيمة لويس التاسع ص ٣٠ ، المنصورة للدكتور هدارة ص ١٧٨

٣ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٧

الصليبية قد عرفوا بهذا النبأ ، وأرادوا انتهاز الفرصة التي يتيحها لهم للقضاء على الجيش المصري قبل وصول تورانشاه^١ .

واختلف قادة الحملة في الاتجاه الى الاسكندرية لسهولة احتلالها ولجعل مرفئها ملجأ لاسطولهم يدمم بالمؤونة المستمرة ، أو الزحف الى القاهرة للاستيلاء عليها أولاً باعتبارها عاصمة المملكة ومتى سقطت استسلمت البلاد جميعاً . وكان القادة العسكريون وفي مقدمتهم بيير موكلير كونت بريتانى من أنصار الرأي الأول ، بينما كان الكونت دارتوا شقيق الملك من أنصار الرأي الثاني وقد أيدته لويس التاسع فسار افراد الحملة « بفارسهم ورجالهم وشوانيهم في بحر النيل وتزلوا على فارسكور^٢ » .

وكان موقف الأمير فخر الدين هذه المرة على نقيض موقفه السابق في دمياط ، ولعله أراد ان يكفر عنه ، فأخذ يستعد لمواجهة الفرنج ، ثم فاجأهم في معركة ضارية نشبت بين فارسكوز وشرمساح وقتل فيها الكثير من المصريين والفرنجة ومن أبرز هؤلاء رينو فيشييه رئيس فرسان الهيكل .

وعلى اثر هذه المعركة انتقل لويس التاسع يحيشه الى البرمونت في مواجهة المنصورة ، فلم يبق بينه وبين معسكر المصريين سوى بحر أشموم طناح ، وبدأ كل فريق يستعد للمعركة المنتظرة ، بينما كان المتطوعون من العربان والفلاحين يتقاطرون الى ميدان المعركة من كل ناحية ، وقد عسكر على الشاطئ الغربي للنيل اولاد الناصر أمير الكرك ومعهم عدد من الجنود العرب هرعوا لمؤازرة المصريين .

١ - Michaud, IV, p. 154 - 155

٢ - الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٦٤

وكان المسلمون مطمئنين الى متاعة المنصورة ، وصعوبة اجتياز النهر ، فكانوا يقومون بهجمات جانبية ومناوشات صغيرة تعتمد أكثر ما تعتمد على الجماعات غير النظامية ، فيختطفون الغزاة أحياء ويتصيدونهم بالنبال ، كما كانوا يمتطرون الفرنسيين من معسكرهم بقذائف من النار الاغريقية^١ ، أنزلت الرعب في أفئدتهم ، فقد « كانت تلك النار تندفع نحو الأعداء على هيئة كرة كبيرة ، وذبولها من خلفها كحراب طويلة هائلة ، لها دوي مزعج كدوي الصاعقة المنقضة من السماء ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف وهي أشبه ما تكون بتنين هائل طائر في الجو . وكانت النار المنبعثة من هذه الكتلة الهائلة من اللهب تلاقى في معسكر الفرنسيين ضوءاً متوهجاً يجعل الرؤية واضحة تماماً كما لو كان الوقت نهراً^٢ . »

واستمر ذلك شهرين كاملين ، فحال الأمر لويس التاسع ، وخشي ان يقوض القلق والانتظار من عزيمته الجند وحماستهم للقتال ، وأيقن بأنه لن يستطيع التغلب على المسلمين الا اذا التحم معهم في معركة فاصلة ، وكان قد بذل جهده لبناء جسر على النهر لاجتيازه اليهم ، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يمدون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المصريين ردم على اعقابهم ، فرأى الملك ان يبني برجين متحركين يزودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون في النهر ، ثم عاد الفرنج الى عملهم فكانوا كلما أتموا من جسرهم متراً هدم المصريون أمتاراً

١ - كانت النار اليونانية من أسلحة المسلمين الفعالة في الحروب الصليبية ، وهي تركيب من النفط والكبريت والقار ، وتطلق على المدرفتححدث انفجاراً عظيماً وتنتشر دخاناً كثيفاً وتنبثق منها نار شديدة هائلة ، وقد ظفر المسلمون بسرهما من البيزنطيين ، ولبثت وقتاً طويلاً من الاسلحة السرية الفتاكة (انظر بحثاً مفصلاً عن « النار اليونانية » في كتاب « عواقب حاسمة في تاريخ الاسلام » لعنان) .

٢ - هزيمة لويس التاسع ص ٤٤

أمامه في شاطئهم المقابل ، فيتسع المجرى من جديد^١ . كما كانوا يحرقون الأبراج الخشبية بقذائفه النارية كلما أعاد الأفرنج بناءها .

ثم اكتشف الفرنجة مخاضة قرب قرية سلون يستطيعون العبور منها إلى الضفة المقابلة ، فوضع لويس التاسع خطة جديدة للمعركة تلتخص في أن يعبر الكونت دارتوا بفرقة الفرسان مخاضة سلون ، فإذا وصل إلى الشاطئ الذي يعسكر فيه المصريون اشتبك معهم في قتال موقت ليشفهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر إلى أن يتموه ، فإذا تم بناؤه عبر عليه الملك ببقية جيشه وانضم إلى فرسان دارتوا وانقضوا جميعاً على جيش المسلمين^٢ .

فلما بدأت طلائع الفرنجة تعبر المخاضة في فجر الخامس من ذي القعدة سنة ٦١٧ هـ ٨ شباط (فبراير) ١٢٥٠ ، وتفاجيء جيش المسلمين وهم نيام أو بين اليقظة والنوم^٣ ، من حيث لم يدر في خلدكم أو يكن في حسابهم ، كان الأمير فخر الدين قائد الجيش في الحمام ، فهرع للاقاتهم دمهشاً مضطرباً ، واعتلى صهوة جواده دون أن يلبس درعه ، وانطلق خلفه باقي الجند والمهاليك ، فما لبث حتى أخذته السيوف من كل جانب ، فقتل متخناً بالجراح^٤ وهو يستमित في الدفاع والمقاومة ، وتفرق رجاله وتشتت شملهم ، ولجا أكثرهم إلى داخل المنصورة يحمون بأسوارها من سيوف الأعداء .

١ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦١

٢ - المرجع السابق ص ٦٣

٣ - الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٧٢

٤ - السلوك ج ١ ص ٣٤٥ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٨

وملأت صدر الكونت دارتوا نشوة النصر وأحلام المجد ونوازع
الغرور ، حين شاهد الجنود المصريين يلوذون بالمنصورة كالقطيع الشارد ،
فرأى أن يتعقبهم ويقضي عليهم ، وخيل إليه ان المعركة لا تعدو حولة
او جولتين ثم تستسلم المنصورة كما استسلمت دمياط من قبل . فاندفع
بفرسان الفرنجة الى قلب المنصورة ، ووصلت طلائع جنوده الى أبواب
القصر السلطاني ، بالرغم من وصية الملك له بالاهتمام بحماية الجسر وعدم
التوغل في المدينة قيل أن يلحق به مع جنوده ، ونصيحة مقدم الداوية
الأخ جيل الذي اتهمه دارتوا بالجبن فاضطر الى الاندفاع معه في المعركة
وهو على يقين بأن العودة منها مستحيلة وانه انما يسير معه في طريق
الهلاك^١

وكانت شجرة الدر تتابع المعركة خطوة فخطوة ، فلما قتل قائد
جيشها ، وأحاط العدو بقصرها ، لم تفقد ثباتها ورباطة جأشها ، بل
وقفت تستحث الحرس السلطاني المؤلف من المماليك البحرية على الدفاع عن
القصر ، وتهيب بهم الى رد الأعداء على اعقابهم .

وكان لغضبها أثرها العظيم في نفوس الحرس ، فدارت على أبواب
القصر رحي معركة طاحنة سرعان ما أصبحت ملحمة بشرية كان مقدراً
لها أن تقرر مصير مصر أو مصير الحملة الصليبية السابعة ، وقد استمات
كل من الفريدين للتغلب على الفرنق الآخر ، وتصادمت الأمواج البشرية
وكأنها أمواج المحيط صخباً وهديراً ، وتلاحمت الجياد ، وتناثرت الاشلاء ،
واشتجرت السيوف والرماح ، وتشابكت العصي والسواطير .

Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 461 - ١

وكان الأهالي يشاركون في هذه المعركة الرهيبة بأقامة المتاريس في الشوارع ، والقاء القذائف والحجارة على الفرنسيين من الأسطحة والنوافذ ، والدفاع عن مدينتهم منزلاً فمتزلاً وشبراً فشبراً . يقول الدكتور جوزيف نسي يوسف : « وكان مظهراً جميلاً حقاً ذلك التضامن المتين بين أبناء مصر العظيمة ، من مسلمين وأقباط ، والواقع ان تضامن القبط مع اخوتهم في الكفاح انما يرجع الى شعورهم الدائم المتوارث بالوطنية ، وایمانهم ، واخلاصهم لبلادهم ، وولائهم لأولي الأمر فيها . ثم هم لم يذنبوا الاضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من وقت لآخر ، ويعيشون فيها فساداً ، دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساحد وكنائس . وهم لم يذنبوا أيضاً ان الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها ، فلم يدخلوها حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبي . وهم لم يذنبوا كذلك انهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي ، مما جعلهم مكروهين في الاوساط اللاتينية لأنهم على غير مذهبهم . كل هذا وذاك خلق بينهم وبين الفزاة هوة سحيقة وسداً منيعاً »

واشتدت حماسة المهالك أمام غضبة الشعب ، ومشاركته الضارية في القتال ، فانقضوا على الفرنج بقيادة بيبرس البندقداري ، وحلوا عليهم حتى مزقوهم . وتحولت تلك الموقعة التاريخية الى نصر باهر للقوى المصرية وكارثة مروعة للصليبيين كان من ضحاياها روبرت كونت دارتوا وعدد كبير من القادة والفرسان ، مما جعل غروسه يقول في المنصورة انها

كانت مقبرة الصليبيين^١ .

وقد عبر لويس التاسع الجسر الذي بناه في محاولة بإسلة لانقاذ الموقف واستعادة المبادرة ، ولكن المماليك والعربان قابلوه بشجاعة عظيمة ، وقد أبدى الملك القديس ضروبا رائعة من البطولة والاقدام ، فاضطر المسلمون للانكفاء الى المنصورة تاركين خلفهم كثيرا من الفنائم^٢ . ورجع الفرنجة الى معسكرهم ، وعاد الفريقان الى الوضع الذي كانا عليه قبلا ، كل منها على شاطئه والبحر الصغير يفصل بينهما^٣ . وكان لبطولة لويس التاسع الفضل في انقاذ الموقف وتحويل المعركة من نصر كامل للمصريين الى نصر متكافئ بينهم وبين الصليبيين^٤ .

وكان لموت دارتوا وفقدان ما يقرب من الف وخمسة مائة من فرسان الصليبيين وشجعانهم دفعة واحدة ، اثر عميق في نفوس الفرنجة فأصيبوا بما يشبه الذهول واليأس ، لولا النجيدات التي تتلاحق أفواجها عليهم ، وظهور الملك لويس ومن معه بمظهر الواثقين من النصر ، المصريين على مواصلة الكفاح ، لأن الفرصة لم تزل باقية ، فهزيمتهم في احدى المعارك ليس معناها انتهاء الحرب واليأس المقيم^٥ . وسرعان ما أعاد كل من الفريقين تنظيم جيشه وتعزيز دفاعه ، وقسم الملك لويس التاسع جيوشه الى احدى عشرة فرقة انتظمت عشر منها على الضفة الجنوبية لبحر اشموم في مواجهة المنكر المصري ، بينما ضربت الفرقة الحادية عشرة

١ - Hist. des Croisades, III, p. 465

٢ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٤

٣ - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٦٥

٤ - Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 468

٥ - اليوم الموعود ص ١٩٩

مضارها على الضفة المقابلة . وكانت معركة المنصورة قد وقعت يوم الثلاثاء ، فتجدد القتال يوم الجمعة ، وانتهت المعركة الجديدة بهزيمة أخرى للفرنج وكان يقود جيش المسلمين بيبرس البندقداري . ويقول الدكتور جوزيف نسيم بوسف ان احدي فرق الفرنجة كانت بقيادة وليم طويل السيف الذي فقد احدي عينيه في معركة الثلاثاء ، ففقد في هذه المعركة عينه الثانية ، ثم سقط قتيلاً متأثراً بجراحه ولم تقم لفرقة بعد ذلك قائمة ١ .

ولم تشأ شجرة الدر ان تعين بعد مقتل فخر الدين قائداً جديداً للجيش ، بل تولت القيادة بنفسها ، وطفقت تدير شؤون الجيش الى جانب ادارتها شؤون الملك ، منتظرة وصول تورانشاه لتعهد اليه بالمهام التي اضطلمت بها زهاء ثلاثة اشهر على أحسن وجه .

ووصل تورانشاه بعد موقعة المنصورة بعشرة ايام ، فأعلنت وفاة الملك الصالح للهرة الأولى ، وتسلم ولي العهد مقاليد الملك ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره ، وفيه صلابة وصلف وكبرياء .

وكان عهد تورانشاه في الحكم قصيراً جداً ، لم يزد على خمسة أسابيع ، ولكنه شهد انتصاراً عظيماً احرزته المسلمون على الفرنجة ، ولم يسبق لهم أن احرزوا مثيلاً له منذ انتصار حطين .

وكان أول ما فعله انه أمر بأن ينقل فوراً جانب من الاسطول الى بحر الحلة ليلج في النيل خلف معسكر الأعداء ، لمحاصرتهم وصد مراكبهم التي تحمل لهم المؤن من دمياط . وسرعان ما وضعت خطته موضع

التنفيذ ، ففصلت أجزاء السفن الحربية ، ونقلت على ظهور الجمال الى بحر الهلة حيث أعيد بناؤها من جديد ، وأرست في النيل شمالي المنصورة ^١ ، وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية ، وحبل دون اتصال الفرنجة بقاعدتهم دمياط حيث المدد والزااد ^٢ . ثم أقبل الاسطول المصري من ناحية المنصورة ، فأحاطت سفن المسلمين بالمراكب الصليبية ، وأخذتها أخذاً وبيلاً ، وقُتل منها وأسر نحو الف جندي ، وُغم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ^٣ . ويقدر جوائزهم عدد السفن التي استولى عليها المسلمون بثمانين سفينة ^٤ .

وهكذا انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ، ولا يقدرّون على الذهاب ، واستصرى المسلمون وطعموا فيهم ^٥ . فأرسل الملك لويس الى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل اعطائه بيت انقدس ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب ، فمرض الملك القديس حينئذ اعطاه بعض المدن الساحلية ، وكان جواب تورانشاه : « ان بيت المقدس وكل شبر من أرض العرب هي أرضنا لا نفرط فيها قط ، وأنتم في مكانكم الآن لا ينبغي ان تنساقوا وراء خيالاتكم واوهامكم ، بل يجب أن تفتحوا أعينكم جيداً على حقيقة الموقف الذي تعانونه الآن ، انكم مقضي عليكم ولا شك ، ولكني مع ذلك - رعاية للسلام وحقناً للدماء - أعرض عليكم الجلاء فوراً عن بلادنا بحيث تحملكم سفنكم الى بلادكم دون غيرها

١ - لؤلؤة المنصورة ص ٨٠

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٧١ ، الشرق العربي بين شقي الرحى ص ٩١

٣ - السلوك ج ١ ص ٣٥٣

٤ - Hist , de Saint Louis, p. 160

٥ - المنصورة ص ٢٢٧

فاذا قبلتم فحسناً فعلتم ، واذا أبيتم فالسيف حكم بيننا وبينكم ١ »

وانقطعت بذلك المفاوضات ، وتابعت القوى المصرية ملاحقة الصليبيين ، وما برحت تنازلهم وتفنتك بهم ، حتى تولاهم اليأس من مواصلة الحملة للاستيلاء على القاهرة كما كانوا يملحون ، واجتاحت مسكرهم الجماعة ، وتقشى فيه الوباء ، وانتشرت البغضاء بين طوائف الجند ، وبات كل ما يطمعون فيه الانكفاء الى دمياط والامتناع فيها . وقد احرقوا خيامهم وعتادهم ، وبدأوا بالانسحاب في يأس غامر وذعر قاتل ، مساء الثاني من محرم سنة ٦٤٨ هـ ٥ نيسان (ابريل) ١٢٥٠ م ، والمسلمون يطاردونهم ويضيقون الخنادق على قلوبهم الهاربة ، ويهاجمونهم من كل ناحية بسهامهم تارة وبالسيوف والرماح تارة أخرى ، حتى قبعثت الحملة الصليبية السابعة ربما وأشلاء ممزقة ، وكان الناجون من سهام المسلمين وسيوفهم ، يتساقطون على حنايا الطريق عناء ومرضاً وجوعاً .

ولكن ذلك كله لم يفقد لويس التاسع شجاعته ورباطة جأشه ، فتابع الانسحاب الكبير بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط ، في غمرة المتاعب والأهوال ، حتى وصل الى فارسكور (فارس كور) فادا بفلول جيشه المتبعة اليائسة المتخنة بالجراح ، تتعرض الى هجوم عام من قبل المسلمين . وكان المرض قد اشتد بالملك القديس ، فتولى القيادة أحد رجاله ولجأ هو الى قرية المنيا (منية عبدالله) ليستريح فيها وقد ران عليه الشعور بالخيبة والانكسار ، وأخذ يردد ان دماء اولئك الضحايا في عنقه ويسأل الله الرحمة والفران !

وكان الفرنجة أضعف من ان يقاوموا ويصمدوا في وجه القوى المحيطة بهم ، فوقع الجيش الصليبي بأسره بين قتلى واسرى ، وقدر المؤرخون عدد القتلى منهم بثلاثين ألفاً ، وأما الأسرى فحدث ولا حرج^١ ،

وكان لويس التاسع نفسه في عداد الأسرى ، فحمل الى المنصورة حيث اعتقل مع شقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار كاتب الانشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بمراسلتهم الى الطواشي صبيح المعظمي^٢ .

وقد سرّ تورانشاه بهذا النصر العظيم ، وكتب الى قائمه بدمشق الامير جمال الدين بن يغمور كتاباً يحمل اليه هذه البشري ، وقيل ان تورانشاه كتب هذا الكتاب بخطه وقد جاء فيه : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامي الجمالي ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعمد الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويشس العباد من البلاد والأولاد ، فنودوا : لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة - عمّ الله على الاسلام بركتها - فتعنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم الا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان محيقي . فلما كانت ليلة الاربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دباط هاربين ، وما زال السيف يعمل في ادبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم

١ - شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٠

٢ - السلوك ج ١ ص ٣٥٦

ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيين الى المنية ، وطلب الأمان فأمناه ، وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دميماط بموت الله وقوته ، وجلاله وعظمته ١ .

وحاول تورانشاه الضغط على لويس التاسع للتخلي عن جميع الممتلكات الصليبية في الشام ، ولكنه كان يجيب دائماً ان لا سلطان له على هذه الممتلكات وانها تابعة للامبراطور فردريك الثاني ٢ .



هذا ما كان في عهد تورانشاه ، أما ما كان منه فالبطش والبغي ، واللهو والسرف ، والتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد ، وحفظت الملك ، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش .

وأرسل السلطان الى شجرة الدر يطالبها بتركة أبيه ويسألها أن ترد اليه ما تحت يدها من حواهر ومال ، ويهددها بالقتل ان هي تأخرت في اداء الحساب . فكتبت الى رعاء المماليك تشكو أمرها اليهم وتطلب حمايتهم .

وقيل ان المماليك كانوا يشعرون بأن السلطان يضرهم لهم الكيد والغدر ٣ ، وانه كان اذا سكر يصف الشموع أمامه ويأخذ السيف بيده

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧

٢ - Hist, de Saint Louis: p, 184 186

٣ - شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٤٠



لويس التاسع في الاسر

ويضرب به تلك الشموع وهو يقول : « هكذا أفعال المماليك البحرية .. هكذا أفعال بفلان وفلان ! .. » ، فلما بلغ ممالك أبيه ذلك اضمروا له السوء ، واتفقوا على قتله قبل أن يفتك بهم . وليس هناك ما يدل على ان شجرة الدر هي التي حرضتهم على ارتكاب هذه الجريمة ، وانها اشتركت معهم في تدبيرها ، على ان مجرد شكايتها اليهم واستنجاها بهم قد يُعدّ تحريضاً لهم ٢ .

ومهما يكن من أمر فان المؤامرة قد دبرت ونفذت بسرعة في المعسكر السلطاني ، والظاهر ان الذي دبرها بصورة خاصة اثنان من زعماء المماليك البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين اقطاي ٣ . وفي مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م ، أي بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة اسابيع ، بينما كان السلطان يجلس الى السباط في خيمته وقد أحاط به الخلان والندماء ، انقض بيبرس البندقداري عليه ، وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقتها الى الذراع ، ثم لحق به مع رجاله الى برج خشبي أراد أن يحمي به ، وأحرقوا البرج فنزل منه وهو يستنجد دون أن ينجده أحد ، ويصرخ في المماليك : « ما أريد ملكاً . دعوني أرجع الى الحصن (كيفاً) يا مسلمين ! ما فيكم من بصطنعني ويحيرني ٤ ، وتلقاه المماليك بالسيف من كل ناحية وهو مستمر في ركضه ، حتى القى بنفسه في النيل وهم في أثره ، وأجهز عليه فارس الدين اقطاي بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته الى الجسر وبقيت

١ - بدائع الزهور ج ١ ص ٧٢

٢ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١٩٠ ، الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٣٦-٢٣٧

٣ - تراجم اسلامية لعنان ص ٧٧

٤ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١

هناك ثلاثة أيام في العراق لا يجرؤ أحد على دفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة ١ .

وعلى اثر ذلك اجتمع زعماء المماليك وامراء الجيش ورجال الدولة ، واتفقوا على ان تكون شجرة الدر ملكة لمصر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأخذت البيعة لها في اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ ، ونقش اسمها على النقود : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ٢ » ، وكان يخاطب لها على منابر مصر بهذا الدعاء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ٣ » .

وكانت أول امرأة تتبوأ العرش في مملكة اسلامية ، وقد انتهت بتوران شاه دولة الأيوبيين في مصر ، وبدأت بشجرة الدر دولة المماليك .

ويقول محمد كرد علي : « لا جرم ان مقتل الملك المعظم تورانشاه بيد بيبرس البندقداري والمماليك البحرية بمصر ، كان مبدأ زوال الدولة الأيوبية من مصر والشام ، فان الاحتلاف بين آل هذا البيت الذي تسربت الى أبنائه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد أن يستأثر بالأمر دون أخيه أو عمه أو ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصليبيين لينجدوهم على آلهم فيصنفو لهم الملك ، دعا الى تفسخ أوصال المملكة ، وان كان

١ - ذيل الروضتين ص ١٨٥

٢ - المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٠ والمستعصمية نسبة الى الخليفة المستعصم ، والصالحية نسبة الى الصالح أيوب .

٣ - بدائع الزهور ج ١ ص ٧٣

أكثر أسرة صلاح الدين بن أيوب . أخيه أبي بكر (سيف الدين) على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف إذا سرت شرارته التهم الأخضر واليابس وهدم الأركان القوية فما بالك بها إذا كانت متضعمة . فصارت المملكة بيد الماليك في الحقيقة ، وكان الذي انشأه الملك الصالح أيوب أشبه بالمعتصم العباسي في اصطباعه بماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح أدخل الوهن باصطناع الماليك حتى قضوا على الدولة الأيوبية ١ .

وكان أول ما عنيت به شجرة الدر بعد أن تولت الملك ، تصفية الموقف مع الفرنج واجلائهم عن الأراضي المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد . نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم اطلاق سراحه ، ويرون في ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام ، ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقي الامراء مقابل فدية قدرها ثمانمائة الف دينار ٢ وترك معدات القتال والاسلحة والذخائر والمؤن غنيمة للمصريين ٣ .

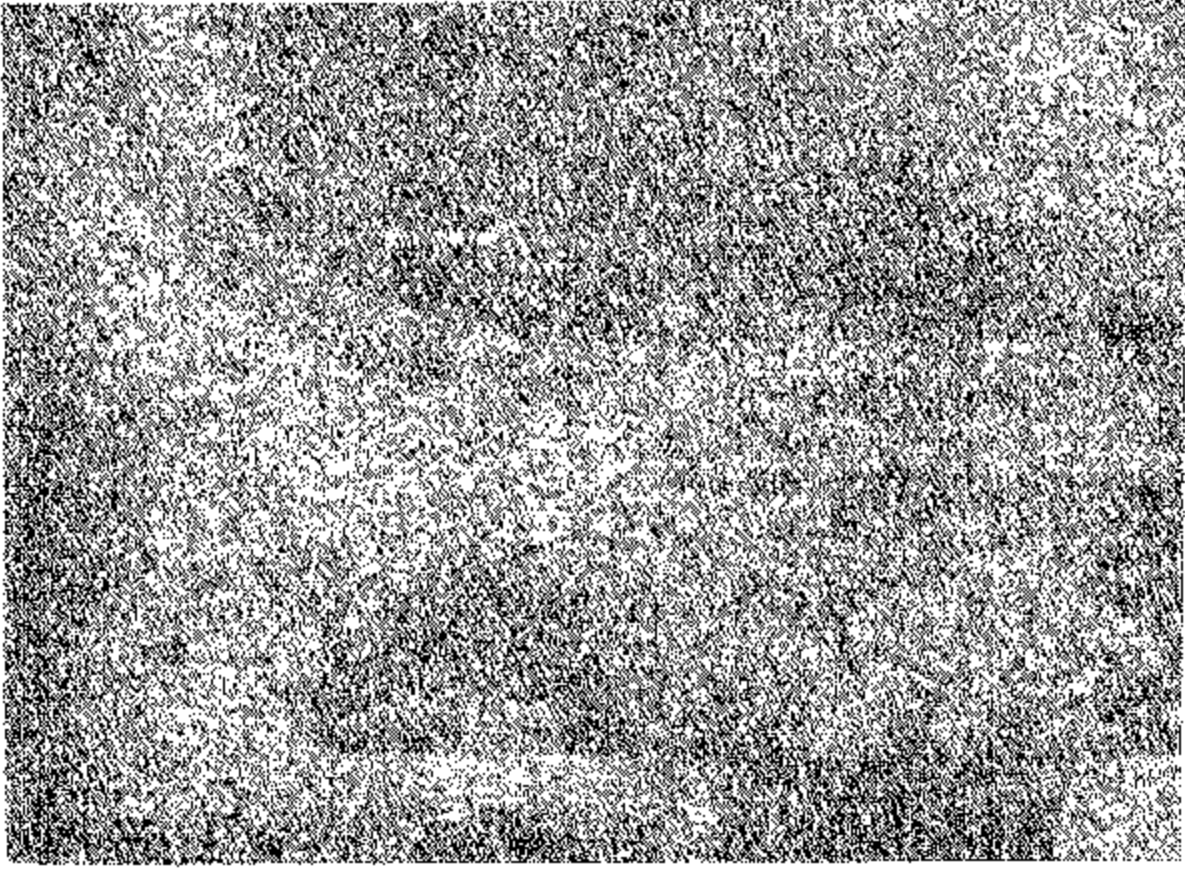
وقد قوبل اعتلاء شجرة الدر عرش المملكة المصرية بكثير من الدهش والاستنكار . فنعى الخليفة العباسي على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل الى بلاط مصر يقول : « ان كانت الرجال قد اعدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً » ، وأبى الأمير جمال الدين بن يغمور

١ — خطط الشام ج ٢ ص ١٠٨

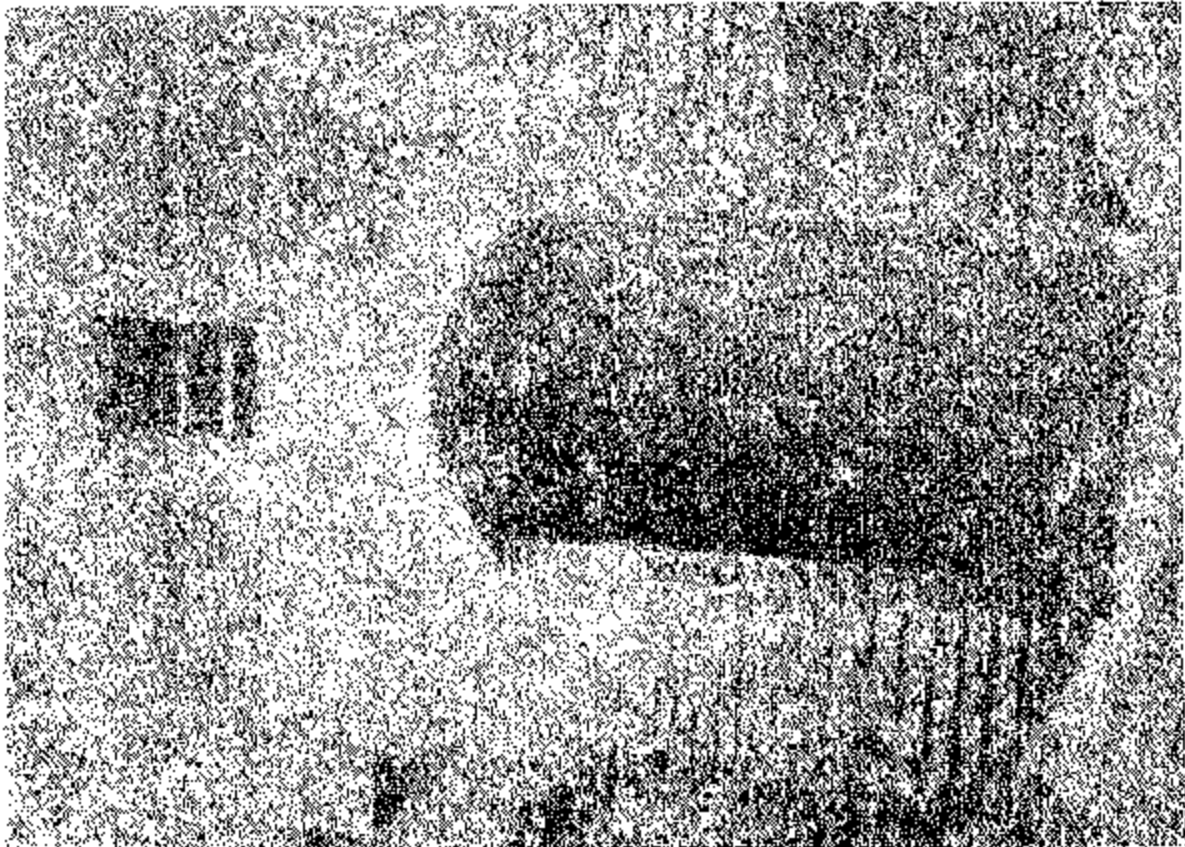
٢ — تراجم اسلامية ص ٨١

٣ — طلب لويس التاسع أن يثبت في الاتفاق حفظاً لكرامته ان المبلغ المتفق عليه هو فدية عن جنده ، وان تسلم دمياط فدية عنه ، لأن قيمة الملوك لا ينبغي ان تقدر بالمال .

٤ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩



داخل دار بن لقمان حيث اقام لوبيس التاسع خلال أسره



واجهة دار ابن لقمان بالنصورة حيث اسر لوبيس التاسع

ثائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء أن يقدموا الطاعة للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها ، وأرسلوا الى صاحب حلب الملك الناصر بن يوسف حفيد صلاح الدين يطلبون اليه القدوم الى دمشق لتسلم المدينة فجاء اليها وتسلمها .

وجزعت شجرة الدر لهذه الأنباء ، وعزت عليها ان تكون سبباً لتمزيق الملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها ، واعتقدت انها ان تزوجت الأمير عز الدين ايبك احد امراء جيشها ، قوت مركزها وصانت سمعتها . ولم تلبث ان حلفت هذه الفكرة ، او هذه الرغبة ، واتخذت الأمير عز الدين زوجاً لها في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . ١٢٥٠ م .

ولكن ذلك لم يغير من نظرة الناس اليها ، ولم يخفف من حملتهم عليها . فعمدت حينئذ الى الحل الوحيد الذي بقي لها ، وتنازلت عن عرشها لزوجها الذي لقب بالعزيز ، في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . ١٢٥٠ م .

وقد دامت سلطنة شجرة الدر ثمانين يوماً ، وكان أبرز الاعمال التي قامت بها اجلاء الفرنج نهائياً عن الأراضي المصرية .

ولقد كانت تضعيتها جسيمة حقاً ، إذ خلعت نفسها عن العرش وأعطت زوجها التاج والصولجان ، لأنها كانت أول الطريق نحو النهاية المؤسفة التي اختتمت بها حياتها العظيمة .

١ - كان ايبك من مماليك الصالح ايوب المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل ، ومن هنا عرف هو وزملاؤه بالمماليك البحرية نسبة الى « بحر » النيل ، تمييزاً لهم من المماليك البرجية الذين كانوا يقيمون في ابراج قلعة القاهرة .

القد استيقظت في شجرة الدر ، وهي في تلك السن التي جاوزت الاربعين ، عاطفة الكبرياء على أقوى ما تعصف في نفس ملكة ، وعاطفة الغيرة على أعنف ما تجيش في صدر امرأة .. فها هي الا سنوات قليلة حتى أخذت تخاصم زوجها الملك المعز لأتفه الأسباب ، ورائت على حبها المطامع وغشيتها أهواء السياسة والمنافسة ، حتى تحولت حياتها الى جحيم لا يطاق .

وكان المعز يهاب شجرة الدر ، ويضيق بما لها من نفوذ وسطوة . وقيل ان منجماً انذره بأنه سيموت قتيلاً على يد امرأة ، فلم يشك حين اضطربت العلاقة بينهما في انها المرأة التي حذره المنجم منها ، فأراد ان يبطش بها قبل أن تبطش به .. وشعرت هي بما يدبر لها في الخفاء ، فأرادت ان تسبقه الى هدفه ..

وخطب المعز بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكانت حبيبة رائعة الحسن ، لما بين لؤلؤ ودار الخلافة في بغداد من صلات ودية وثيقة ، وكرم الأمر عن شجرة الدر . ثم قبض ذات يوم على عدد من المماليك ، وساقهم الى القلعة لاعتقالهم في الجب . فلما وصلوا الى تحت النافذة التي تجلس فيها شجرة الدر ، انحنى كبيرهم احتراماً وقال لها بالتركية انه لا ذنب له ورفاقه سوى انهم عاتبوا السلطان لأنه خطب ابنة صاحب الموصل ، إذ لم يين عليهم وهم خدمها الذين نشأوا في ظل نعمتها ان يتزوج من امرأة اخرى !..

فأشارت اليه شجرة الدر اشارة تعني انها فهمت ما يريد أن يقول .. وقال الرجل لأصحابه : ان كان المعز قد حبسنا فائنا قتلناه !.. ،

والواقع ان هذه الكلمات قد قتلت الملك المعز .. اذ ما لبثت شجرة الدر أن ارسلت اليه تلاففه وتصالحه وتدعوه لزيارتها ، فأمن لها ، ولبى دعوتها ، فاستقبلته مرحبة باسمه ، وقادته الى الحمام ليفتسل ،

ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه غلمانها وخنقوه تنفيذاً لخطتها ..

ويقال ان المعز ، لما أحاط به الخدم وفي أيديهم السيوف ، استغاث بشجرة الدر ، فأدركتها رقة الأنثى حين سمعته يهتف باسمها ، فأشارت لهم ان يتركوه ، فأغلظ لها أحدهم في الجواب ، وقال : « ان تركناه حياً فهو لا يبقى عليك ولا علينا . »

وهكذا قتل الملك المعز يوم الأربعاء في ١٥ ربيع الاول سنة ٦٥٥هـ ١٢٥٧ م ، على تلك الصورة المروعة ، بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين ، وكان قد أشرف على الستين من عمره .

وأرسلت شجرة الدر الى عدد من امراء المماليك تعرض عليهم الملك فرفضوه كلهم بخافة كيدها !.

ولما تنفس الصبح وذاع النبا المروع ، ساد الذعر في القاهرة ، وتولى العرش الملك المنصور علي ابن الملك المعز وهو صبي لم يبلغ الحلم ، وقام على أمره الأمير سيف الدين قطز بموكب أبيه ، مما لبث ان اعتقل شجرة الدر ، وسجنها في برج منيع . ثم أمر بغلمانها فصلبوا على باب القلعة ، وجيء بها الى ضررتها ام الملك المنصور التي كانت تطالب بدم الملك القتل وكان المعز قد طلقها ارضاء لشجرة الدر ، فضرها جوارها بالقباقيب حتى ماتت ، وألقينها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت في الخندق أياماً .. ثم حملت في قفة ودفنت في تربة كانت قد اعدتها لنفسها بجوار بيت الخلفاء^٢ . وقيل انها لما أيقنت بأن ضررتها تطلب الثأر منها ،

١ - بدائع الزهور ج ١ ص ٧٥ ، شعرة الدر للعريان ص ١٤١

٢ - رفيات الأعيان ج ٤ ص ٦٤

وأن ممالكها لن ينعوها ، كان أول ما فكرت فيه ، وخشيته أن تقع
جوهرها وحليها وأسباب زينتها في يد ضررتها حين تموت ، فجمعتها
كلها وسحقها في هاون وذرتها في الريح ، ثم استسلمت لمصيرها
المشؤوم

على هذه الصورة المفجعة الرهيبة قضت تلك المرأة التي حكمت مصر
ثمانية عشر عاماً ، وجمعت في نفسها اشتات المتناقضات ، فامتزج في
سيرتها الحب والبغض والنعيم والشقاء ، وتلاقت أطراف العظمة والبطولة
مع أشباح الحقد والفدر !..

الفصل التاسع والعشرون

الاعصار المغولي في الشرق

اطلق سراح الملك القديس في ٦ ايار سنة ١٢٥٠ م ٦٤٨ هـ بعد أن دفع الفرنجة نصف الفدية المتفق عليها ، فانتقل الى دمياط حيث كانت تنتظره زوجته الملكة مرغريت . وكانت الملكة الشابة قد أظهرت إثر اعتقاله كثيراً من الجرأة والحكمة ورباطة الجأش^١ ، وصبرت على ضروب الحرمان التي فرضتها الأحداث ، وحافظت على دمياط حين أراد أبناء جنوة وبيزة التخلي عنها ، لاعتقادها بأنها ستكون أداة للمساومة على حرية زوجها ، واجتهدت في تحصيل المال لافتداء الملك وشقيقه . وكانت مرغريت حاملاً فولدت طفلها بعد هزيمة المنصورة وأسر زوجها بعدة أيام ، وقد سمي الطفل يوحنا واشتهر باسم « يوحنا الحزين » لولادته في ذلك الظرف العصيب^٢ .

١ — النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٩

٢ — Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 491

ولم يطل مقام لويس التاسع في دمياط ، وانما بادر الى الانتقال منها الى عكا ، فاستقبله الصليبيون استقبالا حافلا ، واستعادوا به بعض معنوياتهم المنهارة بعد الهزيمة التي لحقت بهم في المنصورة وشارك فرنجة الشام فيها بخسارة عدد كبير من قادتهم وفرسانهم .

وكان من العسير على ملك فرنسة ان يعود الى بلاده ، بعد هزيمته وأمره مباشرة ، فاستجاب الى رجاء الصليبيين له في البقاء للاشراف على امورهم فترة من الزمن ، وقد امتدت هذه الفترة الى اربع سنوات كاملة .

وكان الأمراء الأيوبيون الذين يحكمون الأردن والشام ، قد ساءم ما حدث في مصر ، وانتقال الحكم فيها الى أيدي المماليك ، تلك الطبقة العسكرية التي انشأها الملك الصالح أيوب ، فاستقل كل منهم بما تحت يده من البلاد ، واتفقوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق على غزو مصر للقضاء على حكم المماليك .

وأراد هؤلاء أن يسبقوا على حكمهم ستاراً من الشرعية ، بعدما تبين لهم من عطف الرأي العام على البيت الأيوبي ، وترديد العامة في الشوارع : « ما نبغي مملوكاً يتولى علينا بل يريد سلطاناً من آل أيوب » ، فجاءوا بطفل صغير من انشاء هذا البيت يدعى الأشرف موسى ، ونصبوه سلطاناً على مصر ، وجعلوا من أنفسهم وصاة عليه ، وقرنوا اسمه الى اسم المعز ، فكانت المراسم تصدر وعليها اسم الملكين ، وكان خطباء المساجد يدعون على المنابر لكليهما معاً . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى أقصاه المعز عن الناس وضيّق عليه ، ثم أزال اسمه من الخطبة ، وقبض عليه



الملكة مرغريت زوجة لويس التاسع

فسجن في القلعة ، والملك الصغير لا يدري لماذا أجلسوه على العرش ، ثم لماذا أودعوه السجن ، وهو لم يأت عملاً استحق به العرش في الأول ، ولم يقترف جرماً استحق به السجن في الآخر ^١ .

ولم يكن العرب المصريون بعزل عن هذه الحوادث فقد كانوا يؤمنون بانهم احق بعرش البلاد من الكرد والتركمانية جميعاً ، فنار الأمير حصن الدين بن ثعلب شيخ أعراب ديروط ، وثار معه عشرات الالوف من العرب في الجنوب والشمال ، في محاولة جريئة لاستعادة الملك ، فبطش المماليك بهم ، ونصبت المشانق لامرائهم ، وألقي الأمير ابن ثعلب في جب من جباب القلعة ^٢ . ولعل هذه الانتفاضات هي التي جعلت الملك المعز يعلن ان مصر تابعة للمعتصم الخليفة العباسي ، ثم حفزت الظاهر بيبرس الى احياء الخلافة العباسية بعد سقوطها ، كما سنرى في الفصل المقبل .

وسرعان ما انتقل الخلاف بين الأيوبيين والمماليك الى ساحات القتال ، فجرت بين الفريقين معارك دامية أشهرها تلك المعركة التي وقعت على أبواب مصر بين الخشبي والعباسية ، وانتهت بهزيمة الأيوبيين . وقد حاول كل منهما ان يشرك لويس التاسع كحليف له في معاركه مع خصمه ، ورأى هذا ان محالفة المماليك أجدى له ، فاشترط عليهم لاقام ذلك التحالف اعادة جميع أسرى الصليبيين ، واعفاء الملك لويس من متأخر الفدية المستحقة عليه بموجب صلح دمياط . وقد وافق المماليك على جميع هذه المطالب ، فضلاً عن موافقتهم على تسليم بيت المقدس للصليبيين إن هم نصرروهم على الشاميين ^٣ . وخرج جيش المصريين لقتال الناصر الأيوبي ،

١ - المرجع السابق ص ٢٥٢ .

٢ - شجرة الدر للعريان ص ١٢٣ .

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩١ .

وعلى رأسه المعز وسائر امراء المماليك .

ولكن الخليفة العباسي الذي كان يشعر بالخطر المغولي يتهدد عاصمته والبلاد الاسلامية عامة ، ما لبث أن ارسل الشيخ نجم الدين القادري لتسوية النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، فأقنعهم جميعاً بتوفير القوى لمجابهة الأخطار الأجنبية ، سواء منها ما هو قادم من الغرب او زاحف من الشرق ، واتفق الفريقان سنة ٦٥١ هـ ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك الى نهر الأردن وللناصر ما وراء ذلك .

وهكذا أخفق لويس التاسع في استغلال النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، الا انه لم يضع الوقت جزافاً ، وانما عمد الى تجديد الأسوار وتعزيز الحصون في المستعمرات الصليبية ، وقد استطاعت هذه التدابير ان تدعم مراكز الفرنجة في صد هجمات الأيوبيين المتعددة عليها بعد أن هادنوا المماليك .

وكان الخطر المغولي يتعاضم في الشرق ، فعمد لويس التاسع الى تجديد مفاوضات كان قد بدأها وهو في قبرص قبيل حملته على مصر ، مع خاقان المغول لمخالفته ضد المسلمين . فطلب منكو خاقان المغول من ملك فرنسا أن يعلن تبعيته له . ولما عاد رسول لويس التاسع من سفارته كان الملك القديس قد عاد الى بلاده في ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ١٢٥٤ م ٦٥٢ هـ ، وتخلّى عن مشاريعه الخيالية في الشرق .

وقد قام البابا انوسنت الرابع ، والامبراطور البيزنطي ، وهينريش ملك ارمينية ، بمساع بماثلة لدى خاقان المغول ، وأسفرت هذه المساعي

عن تحالفهم الفعلي مع هيثوم ، بينما قام بينهم وبين الصليبيين حلف طبيعي ، بعد أن علم هؤلاء ان المغول يستعدون لاكتساح البلاد العربية والاسلامية .

والواقع ان خطر المغول كان يقترب من البلاد العربية بقيادة هولاء شقيق منكوخان سيد النصف الغربي من امبراطورية المغول « الذي قوي أمره وظهر اسمه وفتح عدة قلاع في الشرق ^١ ، وهو الأمر الذي اضطر الأيوبيين والمماليك الى التهادن « أما الصليبيون فيبدو ان خطر المغول كان لا يهددهم ، بل على العكس فانهم صاروا ينظرون الى تهديد المغول للبلاد الاسلامية بعين الرضى والأمل ، لذلك استمر الصليبيون غارقين في خلافاتهم ببلاد الشام ^٢ ، وهي الخلافات التي تطورت أحيانا الى منازعات وحروب أهلية ، مما أنك قواهم ومهد لسقوط المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى في أيدي المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ^٣ .

وكانت المسيحية قد انتشرت بين مغول فارس ، في حين انتشر الاسلام بين مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية في جنوب روسيا وتركستان . وكانت أم هولاءكو مسيحية لسطورية ، وكذلك كانت زوجته دوقوز خاتون . وكان منكوخان قد أوصى شقيقه هولاءكو حين أمره بالزحف

١ - السلوك ج ٢ ص ٣٩٩ .

٢ - انقسم المسكر الصليبي في الشام الى جبهات متعددة متعادية ، فالبنادقة والبيازنة ضد الجنوية ، والبروفنسيون ضد القطاليون ، والداوية والتيتون ضد الاسبتارية ، وامراء يافا وأرسوف ضد أمير صور ، وأمير انطاكية وطرابلس ضد صاحب جبيل (انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٣ - ١١١١) .

٣ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٠٥ .

على غرب آسية بالمحافظة على تقاليد جنكيزخان وبالتقييد بأراء دوقوز خاتون . فعملت دائماً - كما يقول رشيد الدين الهمذاني - على مؤازرة المسيحيين « وفي عهدهما قوي حال تلك الطائفة ^١ » ويقول رينه غروسه ان هولاكو اراد أن يمثل دور حامي المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ^٢ .

وبعد أن وطد هولاكو دعائم دولته في فارس ؛ اتجه شطر العراق ، وكان على رأس الخلافة العباسية المستعصم بالله . وبدلاً من أن تستعد بغداد لمقاومة الفاتح ، هملت لبطشه بالباطنية في آبلوت ^٣ ، وشغلت نفسها بالصراع المذهبي بين السنة الذين يتمتعون بتأييد الخليفة ، والشيعة الذين بناصرهم وزيره مؤيد الدين الملقمي ، وقد بلغ من حدة هذا الصراع ان الملقمي على ما روى بعض المؤرخين كآث يصانع التتار ويكاتبهم ويطمعهم في ملك بغداد ^٤ .

ولما أرسل هولاكو رسله الى المستعصم يدعوه الى الاعتراف بسيادته ، أهان اهل بغداد اولئك الرسل ، وأجابه الخليفة ان اعتدائه على الخلافة هو اعتدائه على المسلمين جميعاً ، وانه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشعاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم صبيد هذا البلاط وجنود لي ^٥ .

ولكن ما كاد الفاتح يتجه بجنده شطر بغداد ، حتى تولى المستعصم

١ - جامع التواريخ ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ .

٢ - Hist. des Croisades, III, P. 578

٣ - المغول في التاريخ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

٤ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .

٥ - جامع التواريخ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

الذعر ، وكان « قليل المعرفة بتدبير الملك ، نازل المهمة مهملاً للأمور المهمة ^١ ، فأخذ يحارل ارضاء المغول بالأقوال والوعود ، ولما أخفقت محاولته بعث رسله الى زعماء المهاليك والامارات الاسلامية كي يهوا لنجدته ، فلم يستجيب لدعوته أحد منهم . وزحف المغول على بغداد من كل الجهات ، وكان اقتحامهم لها مذهبة من أروع مذابح التاريخ ، استمر الفاتحون يقتلون خلالها وينهبون سبعة ايام كاملة ، وقيل اربعين يوماً ، وعمدوا الى خزائن الكتب في المساجد والمعاهد والقصور والقوفا في دجلة حتى جعلوا منها جسراً مرت عليه خيولهم . وقيل ان ضحايا المغول في بغداد بلغوا ثمانمائة الف نسمة ^٢ ، وكان في طليعة هذه الضحايا الخليفة المستعصم وولداه وجميع العباسيين ^٣ .

يقول سيد أمير علي : « ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة الى براعة مؤرخ مثل غيبون ، فالنساء والاطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على أكفهم ويتضرعون الى الجنود كي يبقوا على حياتهم وطنت أجسادهم بحوافر الخيل ، والنساء المدلات اللواتي لم تألفن رؤية الجماهير أجبرن على السير في الشوارع العامة وتعرضن لأبشع ضروب الأذى والاهانة أما الكنوز الفنية والأدبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، مع بقايا المدينة الفارسية ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات ، وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة ايام بالدماء واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال ، واستمرت اعمال التخريب والتقتيل ستة اسابيع ، فدمرت القصور والمساجد والضرائح إما بالنار

١ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٤ .

٢ - المرجع السابق ج ٧ ص ٥٠ .

٣ - جامع التواريخ ج ١ ص ٢٩٤ .



او بالمعاول بغية الحصول على قباها الذهبية ، وأعمل السيف في رقاب المرضى في المستشفيات والطلاب والاساتذة في الكليات ، وفي الضرائح نبشت قبور الأواباء والائمة الصالحين ، وفي الجامعات العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء ، وألقيت الكتب طعمة للنيران او ميساه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية تلك الكنوز التي تجمعت خلال خمسة قرون ، وفنيت زهرة الأمة فناء تاماً .

وكان لسقوط بغداد ومصرع العباسيين على ذلك الشكل الرهيب ، أثر بعيد في العالم الاسلامي ، فأنشأ الامراء السلجوقيون والأيوبيون الذين عقد الخليفة امه في المقاومة على مناصرتهم رموازرتهم ، يتوافدون الى بلاط هولاءكو لاعلان ولائهم له مخافة ان يتعرضوا لذات المصير .

ولكن ذلك لم يمنع هولاءكو من غزو بلاد الشام ، وقد اشترك في وضع خطة الغزو هيثوم الأول ملك رمينية الصغرى والد زوجة بوهيمند السادس امير انطاكية وطرابلس . وطلب هولاءكو من حليفه الأرمني ان يلتقي به على رأس جيش عند الرها حتى يذهب معه الى بيت المقدس ، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين^٢.

واجتاحت جيوش المغول بلاد الشام حتى بلغت مدينة حلب فاحتلتها وأعملت فيها القتل والنهب ، وخربت قلعتها التي طالها صمدت في وجوه الفاتحين ، وبلغ عدد الأمري فيها على ما قال المقرزي مائة الف من النساء والصبيان^٣ بيع معظمهم في اسواق الرقيق في ارمينية والامارات

١ - مختصر تاريخ العرب ص ٢٢٦ - ٣٤٢ .

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٦٢٣ نقلًا عن Hayton: La Flor des Estoires d'Orient

٣ - السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

الصليبية^١ ، ولم يلم من أهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين ابن عمرون ودار نجم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بأيديهم^٢ .

وسرعان ما تساقطت المدن الأخرى ، بعد هزيمة حاميتها او هرب قادتها او مبادرة اصحابها الى طلب الأمان . وقد فر الملك المنصور ابن المظف صاحب حماة ، الى مصر بحريمه وأولاده ، وهرب الناصر الأيوبي صاحب دمشق الى غزة بغية الوصول الى مصر ، وترك دمشق خالية وبها عامتها قد احاطت بالأسوار .. ولم يثبت الناس عند خروج الناصر ، ووقعت فيهم الجفلات حتى كان القيامة قد قامت^٣ .

واستسلمت دمشق دون قتال ، ولكن حامية القلعة رفضت الاستسلام ، وجاء لاحتلال القلعة القائد المغولي كتبغا وهو اشد اعوان هولاء كراماً ، وصحبه في رحلته هذه بعض زعماء القوى الصليبية في الشرق الأدنى مثل هيثوم الأول ملك ارمينية الصغرى ، وبوهيمند السادس امير انطاكية^٤ . وقد صمدت القلعة اربعين يوماً قبل ان تستسلم للغزاة ، ولكن مقاومتها جرت الوبال على دمشق ، فعانى أهلها من انتقام المغول الوان الهول والعذاب .

وتابع الفاتحون زحفهم الرهيب ، وأسروا البلاد حرباً ، وملاؤها

١ - hist. des Mongols, III. p. 319 , 320

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ١١٢ .

٣ - السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

٤ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٧ .

قتلاً ونهباً^١ ، حتى بلغوا غزة والحليل ، وكان الناصر يوسف قد خشي الذهاب الى مصر فلأذ بالاردن ، فاعتقله المغول وأرسلوه الى هولاءكو فعفا عنه ووعدوه بأن يعيد اليه دمشق ، وبقي معهم الى أن قتل^٢ ، كما سترى بعد قليل .

ويجب أن نشير هنا الى ان الصليبيين في الشام ، وعلى وجه التدقيق امراء المناطق الجنوبية ، رفضوا التعاون مع المغول ، والاشترك معهم في غزو مصر ، بل ان بعضهم تعرض للمغول واعتدى على ممتلكاتهم مما اضطر هؤلاء الى مقابلتهم بالمثل ، وكان من جراء ذلك ان احتل المغول صيدا ونهبوها ودمروها . ويرجع المؤرخون ذلك الى عوامل عدة ، منها ان عطف المغول كان يقتصر على المسيحيين الشرقيين دون المسيحيين الغربيين ولاسيا بعد ان تزوج هولاءكو ابنة العاهل البيزنطي ، وان اشترك بوهيمند السادس في حملتهم لم يكن دافعه سوى مصاهرته لملك ارمينية ، وان كتبنا قائب هولاءكو في الشام ، وهو مسيحي نسطوري ، طلب من بوهيمند السادس امير انطاكية اعادة البطريرك الارثوذكسي الذي كان البطريرك الكاثوليكي قد طرده من المدينة ، وان البندقيين وغيرهم من ابناء المدن الايطالية لم يطمئنوا لغزوات المغول التي عكرت صفو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، يضاف الى ذلك كله ان اوربة التي بدأت تأخذ بأهداب الحضارة ما كان يمكن ان تنظر بارتياح الى الحملة البربرية الزاحفة من أعماق آسية وان ادعت حماية المسيحيين .

وكان المماليك في مصر قد شعروا بالخطر الجسم الذي يتهددهم ،

١ - السلوك ج ١ ص ٢٢٦ .

٢ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

وكان على العرش الملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز ايبك ، وهو
فق طائش لا يستطيع أن يواجه الموقف الرهيب الذي تتعرض له البلاد
في أحلك ظلماته وأخطر نتائجه ، فلما تحقق الامير سيف الدين قطز
نائب السلطنة وأتابك العساكر ذلك الخطر ، دعا الامراء والقضاة والعلماء
الى مجلس عام ، فلما تكامل ذلك المجلس تقدم احد الحاضرين بسؤال في
أمر هولاءكو واستيلائه على بلاد الشام ، وان بيت المال خال من
الأموال ، وقد وصل العدو ، وطمع في أخذ مصر ، والسلطان صغير
السن ، وان الظرف العصيب الذي تمر به البلاد يقضي باقامة سلطان
صغير السن ، وان الظرف العصيب الذي تمر به البلاد يقضي باقامة
سلطان كبير يخشاه الناس ويدفع العدو ، كما ان بيت المال محتاج الى المساعدة
بشيء من أموال الرعية لتجنيد الجند وتجهيزهم للسفر وتأمين ما يعينهم على
ذلك ، فأجاب شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام : « اذا طرق
العدو البلاد وجب على الناس ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال
التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو لكن
بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من المال والسلاح والسروج الذهب
والفضة والكبابيش الزركش وأسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان
كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوي في ذلك بقية
العامة وقت القتال . وأما اخذ أموال التجار والرعية - مع وجود ما
في بيت المال من السلاح والقماش - فلا يجوز ، لأنه من باب أخذ أموال
الرعية بغير حق » ، ثم اتفق الحاضرون على خلع الملك المنصور واسناد
السلطنة الى سيف الدين قطز ، ولقب الملك المظفر ، وقد اعترض بعض
الامراء على ذلك فاعتذر اليهم بقوله : « اني ما قصدت الا ان نجتمع

على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرتنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا في السلطنة من شتم^١ .

وقد بادر الملك المظفر سيف الدين قطز الى استنصار الناس الى الجهاد ثم عرض العساكر ، واستدعى عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى ، وشرع في جمع الأموال ، فأخذ على كل فرد من الناس ذكراً كان او انثى ديناراً واحداً ، وأخذ من اجرة الاملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم ممجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقي اجرة شهر ، فبلغ ما جمعه من الاموال ستائة الف دينار ، فانفق على العسكر والعربان^٢ .

وأرسل هولاء الى الملك المظفر يدعوه الى طاعته في كتاب قال فيه على ما رواه القلقشندي والمقريزي : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد المعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنمامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاعظوا بغيركم ، واسلموا الينا أمكم ، قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما برحم من بكى ، ولا نوق لمن

١ - السلوك ج ١ ص ٤١٧ - ٤١٨ .

٢ - بدائع الزهور ج ١ ص ٧٩ .



شكى . وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأي أرض تؤويكم ، وأي طريق تتجيبكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددها كالرمال . فالحصون لدينا لا تنفع ، والساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُسمع ... أسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحرهم شرارها ، فلا تجدون مناصها ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفنا اذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى ١ .

وأجاب الملك المظفر على تهديد هولاكوبان قتل رسله وعلق رؤوسهم على باب زويلة احد ابواب القاهرة ، وكتب الى امراء الشام انه جاد في العزم على قتال المغول ، وقد أعد لهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الاسلام منهم ويطهرها من رجسهم ، ويحذرهم من أن يستسلم لهم أحد ، او يظاهروهم على المسلمين ، وان مثله ومثلكم ومثلكم المغول ، كمثل من اشتعلت النار في بيت جاره الأدنى ، فعليه ان يسعى لاطفائها ، وليس لجاره أن يقول له : « لا شأن لك بداري ٢ » .

وكان الجيش المغولي الذي يعسكر في غزة بقيادة بيدرا أضعف من

١ - صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣ ، السلوك ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

٢ - وا إسلاماه من ١٨١ .

أن يقابل المالك ويتغلب عليهم ، فأرسل بيدرا الى كتبنا في بعلبك
يطلب منه ان يسرع لنجدته .

وبعض المؤرخين يأخذون على الصليبيين انهم لم يتجهزوا تلك الفرصة
فيتعاونوا مع المغول في القضاء على المسلمين ، لاسيما وان كتبنا نائب
هولاكو في الشام كان مسيحياً ، وقد أظهر من العطف على المسيحيين
والرعاية ما لا سبيل الى نكرانه ، ولو قابلوا موادعته بالمثل وتحالفوا
معه لو طردوا حرازم في الشام ، واتسعت رقعة ممتلكاتهم ، وشاركوا في
فتح مصر ، ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً . ويرى اولئك المؤرخون
ان مسلك الصليبيين هذا انما دلّ على سوء تقدير للموقف ، وعدم تبصر
بنتائجه ^١ .

ومن المؤسف ان يكون رينه غروسه أحد هؤلاء المؤرخين ، وأن
يسمي زحف المغول « الصليبية المغولية » ، وألا يكتم اعجاب بهيشوم
الأول لأنه استطاع اقتناع هولاكو بهذه الحملة ، وان يصف الفرنجة في
عكا وصور بالغباوة لأنهم رفضوا الاشتراك فيها ، ثم يهمل لسقوط بغداد
في قبضة الفاتح المغولي ، ويسمي ذلك ثأراً للمسيحية ، ويرى في هذا
الفاتح منقذاً بعثه الله ^٢ .

والواقع اننا نعتقد بأن موقف امراء المناطق الصليبية الجنوبية من
المغول ، من انبل مواقفهم واكثرها تعقلاً ، وهو دليل على ان معاشتهم
الطويلة للمسلمين جعلتهم يعتقدون بأن هؤلاء أقل خطراً عليهم وعلى

١ - انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٨ - ١١٣٣ .

٢ - انظر رصيد التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٦ .

المدنية من القبائر المغولية وان حل بعض افرادها الهوية المسيحية وادعى
حماية المسيحيين . ولهذا فاننا نجدم لا يترددون في السماح للماليك بعبور
أراضيهم حين استأذنوم بذلك لمحاربة المغول . فمر الملك المظفر مع
جيشه بعكا ، وحصل منها على ما يلزمه من الميرة والمؤونة ، وخرج
وجوه المدينة لاستقباله ، وأرادوا ان يسيروا معه نجدة ، فشكرهم
وخلع عليهم واستحلفهم ان لا يكونوا لاله ولا عليه ، ثم اتجه شطر
الاردن ، ولما علم باقتراب كتبنا أخفى القسم الأكبر من جيشه في الغابة
المحيطة بعين جالوت بين بيسان و نابلس ، وارسل مقدمة الجيش
لملاقاة المغول بقيادة بيبرس .

وسار ركن الدين بيبرس البندقداري حتى لقي طلائع المغول ، فكتب
الى السلطان يعلمه بذلك ، وأخذ يناوشهم ، فتارة يقدم عليهم وتارة
يجم عنهم ، وهو يعني بذلك مشاغلهم وعدم الاشتباك معهم في
معركة فاصلة ، واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت ،
فنزل بمسكره في الغور .

ووصل كتبنا شارب الدماء وحارق القرى وذابح الألوف من الأبرياء ،
الى عين جالوت في ٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٢٦٠ م ٦٥٩ هـ ، وكانه
كما يقول رشيد الدين الهمذاني « بجر من الذهب » ، فاضطرب جيش
الماليك في اول الامر ، واذا بالسلطان يلقي بخوذته على الأرض ، ويصرخ
بأعلى صوته : « وإسلاماه .. وإسلاماه » ثم يحمل بنفسه على العدو ،

١ - السلوك ج ١ ص ٣٠ .

٢ - وإسلاماه ص ١٩٠ .

٣ - جامع التواريخ ج ١ ص ٣١٣ .

٤ - السلوك ج ١ ص ٤٣١ .



ويندفع جنوده من ورائه وقد استثارت حماسته همهم وشعدت عزائمهم
ووقف الملك المظفر في قلب الجيش ، وقام بيبرس البندقداري على
الميسرة ، والأمير بهادر على اليمين ، أما المغول فقد حملوا على القلب
ليفتكوا بالسلطان ، فتراجع الملك المظفر قليلاً ثم اندفع بكتائبه حامراً
الرأس ، وانقضت معه الميسرة بقيادة بيبرس ، فاذا بأعصار يواجهه
اعصاراً ، وموج يزحم موجاً ، وأحس كتبغا شارب الدماء انه يخوض
معركة ضارية لا عهد له بمثلا ، ويواجه مقاومة جبارة لم يتعود أن
يواجهها ، فاشدد في القتال ، وكان يضرب بسيفين وكلما عقر جواده
استبدل به جواذاً آخر .

وأراد الملك المظفر ان يصل الى كتبغا ليقتله بنفسه ، ولكن الأمير
جمال الدين آقوش سبقه اليه فبطش به وسقط في الوقت نفسه صريعاً
بضربة من سيفه^١ ، واختلت صفوف المغول اثر ذلك ، وأخذوا يتقهقرون ،
وهزموا هزيمة ساحقة^٢ .

واندفع المنتصرون بقيادة بيبرس فاسترجعوا من المغول دمشق وحلب ،
واستخلصوا بلاد الشام ، وانقذوا الشرق العربي من براثن الغزاة الذين
كانوا يعتقدون بانهم زلزال الأرض ، لا يقف امامهم حصن منيع او
جبل شامخ .

ومن أطرف ما قيل في انتصار المماليك على المغول قول الشاعر :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكتهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه

١ - وآ إسلاماء ص ١٩٨ .

٢ - المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١٩ ، العبر ج ٥ ص ٥٤٤ .

ولما بلغ هولاءكو وهو في بلاد فارس هزيمة عسكره بعين جالوت ومقتل نائيه كتبغا ومطاردة المغول في بلاد الشام والقضاء عليهم ، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر الايوبي وأخاه الملك الظاهر غازي وكافا في اسره ، وقال للناصر : « انت قلت ان عسكر الشام في طاعتك فقدرت بي وقتلت المغول ، فقال الناصر : « لو كنت في الشام ما ضرب احد في وجه عسكرك بالسيف ، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟ ، فأمر هولاءكو بضرب عنقه ، فقال الناصر : « يا خَوّند ، الصنيعة ، فنهاه اخوه الظاهر عن التوصل اليه . ثم ضربت رقاب الناصر والظاهر والملك الصالح ابن صاحب حصن والجماعة الذين كانوا معهم ، واستبقوا الملك العزيز بن الناصر لأنه كان صغيراً ٢ .

وقد كان لانتصار المماليك على المغول في موقعة عين جالوت والمواقع التي تلتها ، اثر حاسم في تاريخ الشرق الأوسط ، إذ أوقف تلك الموجة البربرية التي كانت تهدد باكتساحه والسيطرة عليه . يقول الهمداني : « وقد اراد هولاءكو خان ان يرسل الجنود مرة ثانية الى الشام ومصر لينتقم لمقتل كتبغا ، ولكن لم تكن الظروف في ذلك الوقت تسمح بذلك ، بسبب وفاة منكوخان ، وبسبب الخلاف الذي ظهر بينه وبين اقاربه ، ولهذا عدل عن الفكرة ٣ .

وكانت هذه الانتصارات سبباً لظهور المماليك على مسرح الشرق الأدنى كقوة فاعلة ما لبثت ان بسطت سيطرتها على الامارات الايوبية في الشام وألحقتها بدولة المماليك في مصر ، ثم بدأت تنتزع المدن والقلاع الصليبية واحدة بعد اخرى حتى تم جلاء الف نجة عن الشرق

١ - السيد

٢ - خطط الشام ج ٢ ص ١١٧

٣ - جامع التواريخ ج ١ ص ٣١٧

الفصل الثلاثون المماليك والفرنج

ما كاد الملك المظفر يحتل دمشق بعد انتصاراته في عين جالوت فيستقبله أهلها مرحبين مهلين ، حتى شجر الخلاف بينه وبين قائد جيشه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي كان السلطان قد وعده بأن يقطعه مدينة حلب مكافأة له على بطولته في مطاردة المغول والقضاء عليهم ، ثم اخلف وعده له لشكه في حسن طويته وأعطاهما لعلاء الدين ابن بدر الدين لؤلؤ ، وقد عاتبه بيبرس بقوله محتدأ : « اذا كنت لا تنوي اعطائي نيابة حلب ، فلماذا وعدتني بها ؟ » فأجابته : « وعدتك بها حين رأيت في ذلك مصلحة المسلمين ، ومنعتك ايها حين خشيت من ذلك على كلمة المسلمين » فاعترضه بيبرس مع رجاله وهو عائد الى مصر بينما كان منشغلاً بالصيد بعيداً عن معسكره ، وقتله وهو في أوج انتصاره واستولى على ملكه ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ ١٢٥٩ م ، ولم يكن قد مضى عام واحد على تبوئه الملك .

١ - السلوك ج ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، وآ إسلاماه ص ٢٠٩ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٦٩

ويقول سوبرنهايم ان الظافر بيبرس كان السبب بتوسيد ملك الشام الى قطز لما أبلى البلاء الحسن في موقعة عين جالوت ، فأقطع قطز الأمراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ، ولكن بيبرس الذي كان يرجو أن توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم ، فقتل السلطان وقادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً^١ .

ومن أعجب ما يرويه أبو الحسن ان القاهرة كانت قد زينت احتفالاً بعودة الملك المظفر قطز ، فاستمرت الزينة ابتهاجاً باعتلاء بيبرس سدة الملك^١ ! وقد تلقب بيبرس بالملك الظاهر ويعتبر المؤسس الحقيقي لسلطة المماليك .

وقد بدأ الملك الظاهر عهده بتوطيد ملكه في مصر وسورية ، واستمالة الرعية بإبطال ما أحدثه قطز من المكوس والضرائب ، والقضاء على حركات التمرد التي قام بها الأيوبيون ، والمحاولات الانتقامية التي قام بها المغول ، ثم اتجه بكليته الى الفرنج^٣ ،

وكان بيبرس سياسياً بارعاً ، فأراد ان يعطي حكم المماليك صفة شرعية ، فعمد الى احياء الخلافة العباسية ، اذ جاء بأحمد ابي القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر وبايعه بالخلافة في ١٣ جمادى الاولى سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦٠ م ، بعد ان اثبت نسيبه أمام قاضي القضاة^٤ ، وتلقب

١ - خطط الشام ج ٢ ص ١٢٢

٢ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٢

٣ - السلوك ج ١ ص ٨٣

٤ - صبح الأعشى ج ٦ ص ٩ ، السلوك ج ١ ص ٤٤٩ - ٥٠٠

الخليفة الجديد بالمستنصر وضرب اسمه على النقود ودعي له على المنابر^١ ، وبعد أن تمت البيعة للمستنصر قلد الخليفة بيبرس منصب السلطان وأعطاه العقد والخلمة ، فعزز بذلك مركز المهاليك في العالم الاسلامي وأظهرهم بظهر الهمة للخلافة العباسية ، وتلافى بذلك اية محاولة قد يقوم بها أمير من الأيوبيين لاسترجاع ملكه^٢

وقد توجه بيبرس بعد شهور قليلة من مبايعة المستنصر بالخلافة ، الى المشرق برفقة الخليفة طمعاً في اعادة بغداد الى أملاك الخلافة ، ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر ، وقبل أن يصل المستنصر بجيشه الصغير الى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد وهو في الصحراء فكان ذلك آخر العهد به ، وبلغ ما أنفقه بيبرس على المستنصر وحاشيته على ما يقول المقرئزي وابو الفدا ما يزيد على مليون دينار^٣

وما لبث الملك الظاهر ان استدعى اميراً عباسياً آخر هو ابو العباس أحد بن علي بن ابي ابكر ابن الخليفة المسترشد فبايعه بالخلافة بحضور القضاة والامراء وارباب الدولة في سنة ٦٦١ هـ ١٢٦٢ م ولقب بالخليفة الحاكم ، وبذلك اعيدت الخلافة العباسية ثانية الى مصر ، ولم يفكر بيبرس او الخليفة الجديد هذه المرة في الاستيلاء على بغداد^٤ . وقد تعاقب بنو الخليفة الحاكم على كرسي الخلافة مدة قرنين ونصف القرن وليس لهم

-
- ١ - العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٥ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢٢٢ ، حسن الحاضرة ج ٢ ص ٤٩ - ٦٢
 - ٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٩
 - ٣ - السلوك ج ١ ص ٤٦٧ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٢١٥
 - ٤ - الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٧١

منها الا الاسم ، وقد قنعوا بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم على منابر مصر وسورية^١ ، وان يطلق عليهم لقب « امير المؤمنين » !

وخشي الظاهر أن يعود هولاء الى مهاجمة الشام ، وان يتم بينه وبين الصليبيين التحالف الذي رفضه هؤلاء في حملته الأولى ، فسد يده الى بركة خان زعيم مغول القفجاق الذين عرفوا باسم القبيلة الذهبية ، وأقام بينه وبين هذه القبيلة أوثق الصلات ثم ان دائرة التحالف بين المماليك ومغول القفجاق لم تقف عند ذلك الحد ، بل سرعان ما انضم الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس الى محور بيبرس - بركة ، فأصبح التحالف ثلاثياً ، مما مكن الظاهر بيبرس من القيام بمشاريعه الكبرى ضد الصليبيين وهو آمن^٢ ،

وقد رغب الصليبيون في عقد الصلح مع بيبرس الا انه عدّد لهم نقضهم للصلح غير مرة ، وقال لهم : « ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا اسرى المسلمين جميعهم » ، فاني لا أقبل غير ذلك^٣ ، ولم يكن التعصب دافع بيبرس على الرغم من تدينه وتقواه ، وفي ذلك يقول لامونت الذي يسميه أحد أبطال الاسلام العظام : « على ان بيبرس يستحق ان يتبوأ مكاناً علياً في التاريخ باعتباره مؤسس عظمة مصر الملوكية . وعلى الرغم من أن بيبرس كان مسلماً تقياً ، فانه لم يكن مدفوعاً بالدين اكثر مما تقدمه من السلاطين ، ولم تكن حروبه ضد اللاتين الا خطوة محتمة فرضتها عليه سياسة التوسع المصرية ، وما يدل

١ - تاريخ العرب لحي وزميليه ج ٢ ص ٨٠٠

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٣

٣ - السلوك ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦

على ان الحروب التي خاضها لم تكن حروباً دينية ، أو جهاداً ، رغبته الملحة في كسب صداقة الملوك النصارى : شارل ملك انجو وصقلية ، وجيمس اوف اراغون ، وافونسو أمير قشتالة ، وميخائيل باليولوغوس . فقد سعى بيبرس أن يعقد مع هؤلاء جميعاً تحالفات سياسية وتجارية ^١ ،

وبدأ الصراع بين الفريقين في اوائل سنة ١٢٦٣ م ٦٦٢ هـ ، بغارات ومناوشات من الجانبين ، وكان النصر فيها سجلاً بينهما ، ثم انتقل بيبرس في اوائل سنة ١٢٦٥ م ٦٦٤ هـ الى الحرب الشاملة ، فزحف على رأس جيش كبير على عدد من الحصون والمدن الصليبية ، فتساقطت في يده قيسارية ويافا وارسوف ، وكان مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثاني ووريثه في صقلية والامبراطور البيزنطي مسخائيل باليولوغوس وبركةخان زعيم القبيلة الذهبية وشيخ جمهورية جنوة الايطالية ، يتابعون انتصاراته بعطف ويتبادلون معه الرسائل الودية ^٢ .

وتابع الظاهر بيبرس حربه الشاملة في سنة ١٢٦٦ م ٦٦٥ هـ ، فاستولى على صفد وهوتين وتبنين والرملة في فلسطين وعلى القليعات وحلباء وعرة في ساحل الشام . ثم أرسل الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني الأيوبي الى ارمينية الصغرى فقاما بغارات انتقامية على عاصمتها ومدنها الكبرى ، بينما كان ملكها ميثوم الثالث يطلب في تبريز معونة المغول ، وقد عادا بأربعين الف من الأسرى وما لا يحصى من الغنائم . والواقع ان مملكة ارمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة ، وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الادنى . أما الملك

١ - دراسات اسلامية ص ١٣٧

٢ - Grouzet : Hist. des Croisades, III. p. 625

هيشوم ، فان الصدمة جعلته يترك العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليو الثالث ^١ ،

وفي ايار (مايو) سنة ١٢٦٨ م ٣ رمضان سنة ٦٦٦ هـ أحرز بيبرس نصراً كبيراً إذ احتل انطاكية بعد حصار لم يطل اكثر من خمسة أيام ^٢ ، مع انها مدينة كبيرة قوية التحصين سبق ان عجز الاماطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين ^٣ ، وقد كان سقوط انطاكية اعظم من مجرد كارثة حربية ، لانها من اولى الامارات التي اسسها الصليبيون في الشرق ، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ بمثابة القلعة الكبرى للفرنجية في بلاد الشام ^٤ . فلا عجب اذا وقع نبأ استيلاء بيبرس عليها وقع الصاعقة على رؤوسهم ، واسرعت بعض القوى الصليبية المجاورة الى الاستسلام والفرار بحياتها ، في حين لجأ البعض الآخر الى استرضاء السلطان بيبرس وكسب عفوهِ وودهِ ^٥ .

وبعد انهيار ارمينية وحليفتها انطاكية ، لم يبق للمدن الصليبية القليلة المتناثرة على سواحل الشام وفلسطين من أمل في العون والموازة الا في مملكة قبرص الصليبية ، بعد أن اعرضت اوربة عن أصوات الاستغاثة وطلبات النجدة ، بينما حالف المعامل البيزنطي ميخائيل باليولوغوس القساجقة في روسية والماليك في مصر ضد شارل دانجوا ^٦

-
- ١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٨
 - ٢ - انظر تفصيل ذلك في السلوك ج ١ ص ٥٦٧ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ٥ - ٤ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٨٦ - ٨٧
 - ٣ - الظاهر بيبرس للدكتور عاشور ص ٧١
 - ٤ - المرجع السابق ص ٧٢
 - ٥ - المرجع السابق ص ٧٣
 - ٦ - الروم وصلاتهم بالعرب ج ٢ ص ٢١٦

الذي اشترى لقب ملك القدس من ماري أميرة انطاكية ١ .

وقد توحدت مملكة قبرص الصليبية ومملكة الصليبيين في الشام مرة أخرى تحت تاج واحد ، حين خلف هو الثالث والده هو الثاني ملك قبرص سنة ١٢٦٧ م ٦٦٥ هـ وورث عرش المملكة الصليبية في الشام سنة ١٢٦٩ م ٦٦٧ هـ فجعل هو النسالت يوثق صلته بأمراء الصليبيين لتقوية الوحدة الداخلية ، في الوقت الذي كان يسعى في سبيل مدد خارجي ، ولم تستطع أوربة ان تحقق امانه ، فالحملة التي ارسلها ملك أرغونة بقيادة ولديه غير الشرعيين كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن . والحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا قد اتجهت الى تونس وهزمت فيها كما هزمت حملته السابقة ، بل كانت هذه الحملة أكثر شؤماً عليه ، إذ شاهدت تونس مصرعه ومصرع سواد جيشه . والحملة الانكليزية التي جاءت لي عسكا بقيادة الامير ادوار (الذي تولى فيما بعد عرش انكلترا باسم ادوار الاول) كان عددها لا يزيد على الف رجل وقد نشب الخلاف بينها وبين التجار المسيحيين ، ولا سيما البندقيين الذين كانوا يمدون الممالك بالمواد الأولية اللازمة لصناعة السفن ، ويبيعونهم الرقيق الأبيض لاستخدامهم في الجيش . والمساعدة المغولية التي وعد بها أبفاخان ابن هولاكو وخليفته الذي شغلته الحرب مع مغول تركستان ، كانت صغيرة جداً ، وقد اقتصر افرادها على النهب والسلب في حوض العاصي ثم عادوا عن حيث أتوا .

١ - كانت ماري أميرة انطاكية أحد المتخاصمين على عرش مملكة بيت المقدس ، ولكنها غلبت على أمرها سنة ١٢٦٨ م ٦٦٧ هـ ، وقد قام شارل دالنجو بالاستيلاء على عكاسنة ١٢٧٧ م ٦٧٦ هـ بالتعاون مع فرسان الدارية ضد هو الثالث ملك قبرص الذي منعه المحكمة العليا عرش القدس .

ومع ذلك فقد كان الأمير ادوار وهيو الثالث يضعان الخطط
الحالة لاسترداد مملكة بيت المقدس ، واحتلال مصر ، والاستيلاء على
القسطنطينية التي تحررت من نير الصليبيين^١ .

وكان الظاهر يتابع خلال ذلك حملته وتوسعه على حساب الفرنجة ،
فانتقل بعد أن وطد اركان حكمه في انطاكية ، الى امارة طرابلس
فاستولى على صاميتا وحصن عكار ، ثم حاصر حصن الاكراد المنيح
وهو أهم معاقل الفرسان الصليبيين ، بل لعله أروع بناء حربي أبقتة لنا
العصور الوسطى^٢ ، وهو يقع على قمة ترتفع سبعمائة وخمسين متراً عن
سطح البحر ، على مسافة أربعين كيلو متراً من الساحل ، في الطرف
الجنوبي لجبال العلويين ، وكان الفرسان الصليبيون يشرفون منه على الطرق
الموصلة بين الموانئ على البحر المتوسط ، ووادي نهر العاصي والمدن القائمة
على ضفافها وأهمها مدينة حمص ، وكانت كتائبهم تنطلق بلا انقطاع من
ذلك الوكر المنيح ، فتجوب السهول والجبال ، وتغزو ضفتي نهر العاصي ،
وتغرض الجزية والضرائب والرسوم ، وتعود الى بلادها محملة بالأسلاب
والأموال . وكان الصليبيون يسمونه « حصن الفرسان » والعرب يسمونه
« حصن السفح » فلما حل فيه جنود صلاح الدين عرف باسم « حصن
الأكراد » نسبة الى اولئك الجنود وقائدهم العظيم^٣

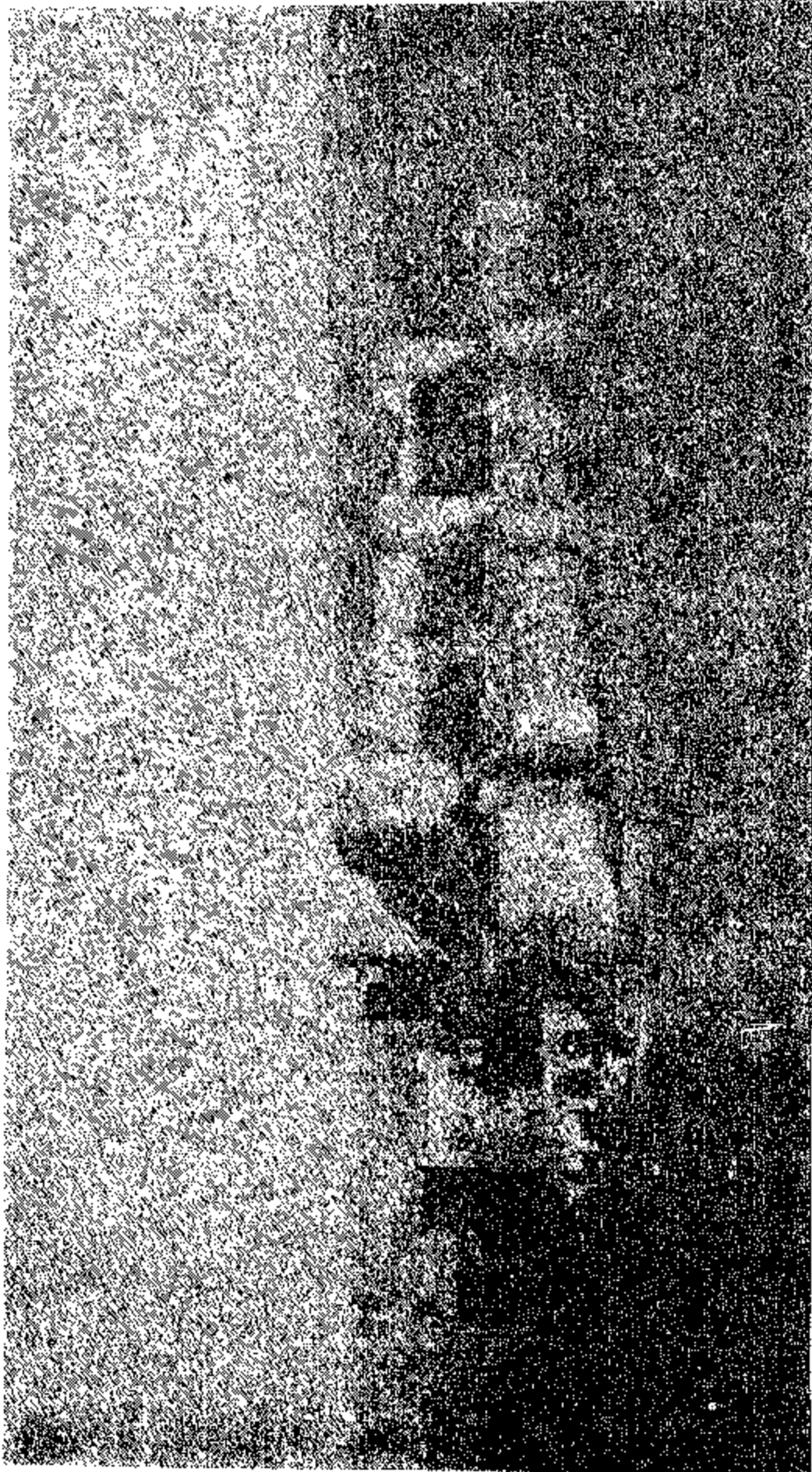
يقول الاستاذ حبيب جاماتي : « وكان دفاع الفرسان عن حصنهم
رائعاً جيداً ، ولم تقل مقاومتهم عن هجوم اعدائهم شدة وعناداً ، فقد

١ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩ ١١ نقل عن :

Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History p. 205 - 206

٢ - تاريخ العرب لحتي وزميليه ج ٢ ص ٧٧٧

٣ - الجنة في طلال السيوف ص ١٠٥

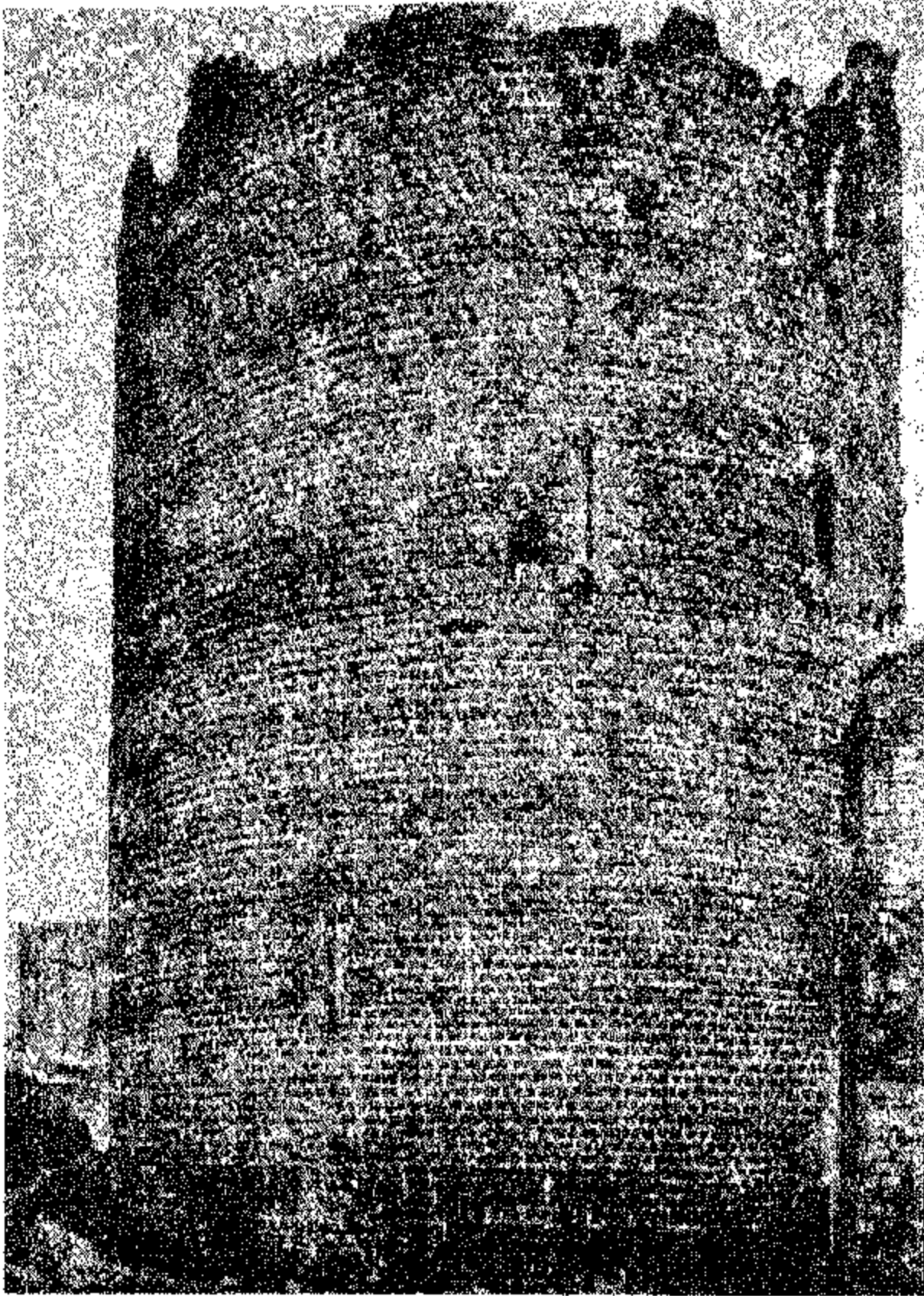


0A9

شهد سفح الجبل الأجرد ، خلال أيام وأسابيع متعاقبة ، أسوداً تنافح
أسوداً ، وردد الصدى من واد الى واد قممعة السلاح وصياح المتحاربين
على نور الشمس وضوء القمر وفي الليالي القائمة سواء بسواء . وتبارى
الفريقان في ميدان القتال وحلة البطولة ومضمار التضحية ، وراح النصر
يبتسم يوماً لهذا ويوماً لذاك ، الى أن أدرك قائد الفرسان في النهاية
ان الدائرة دائرة عليهم ان عاجلاً وان آجلاً ، وان مقاومتهم لن تنقذهم
من الهلاك مهما تطل مدتها . فأراد أن يعلن باسم رجاله رغبته في وضع
حد لذلك النضال المرير ، ويطلب وقف القتال والدخول في مفاوضة
لوضع شروط التسليم ، ولكن معاونيه في القيادة لم يوافقوه على رأيه ،
بل قرروا المضي في المقاومة حتى ينفد منهم الزاد والماء ، او يؤخذ
منهم الحصن عنوة واقتداراً ١

الا ان بيبرس شدد الهجوم ، واقتحم بابين من ابواب المعقل ، واحتل
جزءاً من الاسوار ، فاضطر الفرسان الى الموافقة على اقتراح قائدهم
بالتسليم وطلب الأمان ، وفي ٨ نيسان (ابريل) سنة ١٢٧١ م ٦٦٩ هـ
كف الفريقان عن القتال ، وتم الاتفاق على ان يخرج الفرسان من حصنهم
معززين مكرمين ، وان يحتفظوا بأسلحتهم ودروعهم وخوذاتهم ، وان
يأخذوا معهم ستين جواداً بعدتها الكاملة ، وان يحمل كل منهم الف
قطعة من الذهب لا اكثر ، وان يحملوا عشرين من البغال والحمير ما
يكفيهم من المؤونة والزاد لمدة شهر كامل ، وان تأخذ النساء ما يحلو
هن أخذه من الحلي والمجوهرات . أما الذين كانوا في الحصن من اصدقاء
أو حلفاء أو خدم أو أسرى من ابناء البلاد ، اياً كان مذهبهم ،

- المرجع السابق ص ١٠٦



أحد أبراج حصن الأكراد

فيترك لهم الخيار في مرافقة الفرسان في رحيلهم أو البقاء في الحصن على أن يؤمنهم الفالكون على ارواحهم ، ويتعهدوا لهم بتوفير وسائل السفر لهم فيما بعد اذا رغبوا في ذلك^١ .

والمحدر الظاهر بيبرس بعد ذلك نحو الجنوب فاستولى على حصن القرين ، وأرسل اسطولاً لغزو قبرص ، فحطمت العاصفة سفنه ، فاستولى هو الثالث عليها ، وأرسل الى بيبرس ينبئه ساخراً باستيلائه على تلك السفن ، فأجابه السلطان بسخرية بمائة : « ... وقد كنت عرفتنا ان الهواء كسر عدة من شوانينا .. ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وابن البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب .. وما النصر بالهواء مليح ، انما النصر بالسيف هو المليح .. وان عدمت من بحرية المراكب آحاد ، فعندنا من بحرية المراكب الوف . وانتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول . فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة الخ^٢ . . . »

وخلال سني ٦٦٩ - ٦٧٢ هـ ١٢٧٠ - ١٢٧٣ م استولى بيبرس على حصون الاسماعيلية واحداً بعد آخر بقيادة الأمير عز الدين المديني واشراف صارم الدين مبارك بن الرضى الذي قلده بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف وبلادها خاصة بالسلطان . يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور : « وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس

١ - المرجع السابق ص ١٠٧

٢ - الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ٩٧ - ٩٨

في مقابل ذلك بعض الأراضي المصرية ليستوطنوها . فكان هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه ردها من الزمن . ومن العجيب في اخلاق بيبرس انه بعد إجلائهم عن مواطنهم الى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه ^١ .

ولما يش هيو الثالث والأمير ادوار من تحفيق احلامها ، بادرا في سنة ٦٦٧ هـ ١٢٦٨ م الى عقد الصلح مع الظاهر بيبرس لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة ايام . الا ان ادوار ما لبث أن اصيب بطعنة خنجر سددها اليه احد الاسماعيليين ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فلزم ادوار فراشه بضعة أشهر ثم عاد الى بسلاده في خريف سنة ١٢٧٢ م ٦٧١ هـ . أما هيو الثالث فقد يش من معالجة أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وتقوية مراكزهم فيها ، فعاد سنة ١٢٧٦ م ٦٧٥ هـ الى قبرص دون أن يعين نائباً عنه في عكا ، متخلياً بصورة نهائية عن مملكة بيت المقدس ، وكتب الى غريغوري العاشر يشرح الوضع السائد فيها ويبرر الموقف الذي اتخذته منها ^٢ . وقد ندم هيو الثالث على ذلك فيما بعد ، وحاول مرة ومرة استعادة ملكه في بيت المقدس ، فقبول بمقاومة مسلحة من قبل أنصار شارل دانجو الذي اتخذ لنفسه لقب ملك بيت المقدس وأرسل نائباً عنه الى عكا ، بوصفه وريثاً للأمبراطور فردريك الثاني في صقلية .

وعلى اثر وفاة بوهيمند السادس أمير طرابلس في ايار (مايو) سنة ١٢٧٥ م ٦٧٤ هـ ، خلفه ابنه بوهيمند السابع ، وكان فق قاصراً ، فاشتد النزاع بين مختلف الأمراء وذوي الشأن في طرابلس بسبب الوصاية

١ - المرجع السابق ص ١٠٠ .

٢ - Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 669 670 .

عليه ، وبلغ هذا النزاع حد الحرب الأهلية

ومثلما اضطربت الأوضاع الداخلية في المدن الصليبية ، اضطربت المملكة التي بناها الظاهر بيبرس إثر وفاته في ١٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م وهو في الطريق من حلب الى دمشق ، بعد ان امتدت الى البحر الأسود شمالاً والمحيط الهندي جنوباً ، والفرات شرقاً وتونس غرباً ، وتنازع على الحكم ولداه السعيد بركة والعاذل سلامش والأمير سنقر الأشقر والأمير قلاوون الألفي ، وقد استطاع قلاوون الذي تلقب باسم الملك المنصور أن يستأثر بالملك ، بعد أن هرب سنقر الى قلعة صهيون واستنجد بالمغول ، وبذلك أتاحت الفرصة لأبغاخان - الذي ما فتى، يكتب الأمير ادوار ، ويبعث الرسل الى البابا ، لاقامة حلف مغولي صليبي دون جدوى - كي يهاجم بلاد الشام انتقاماً من المهالك .

الا ان غزوة المغول سنة ٦٧٩ هـ ١٢٨٠ م ، بالرغم من الفظائع التي أقدموا عليها ولا سيما في مدينة حلب التي أحرقوا فيها الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الامراء ، لم تكن على ما يبدو سوى مجرد حملة انتقامية ، لأنهم ما لبثوا ان تخلوا عن المناطق التي احتلوها وعادوا الى الجزيرة .

وأدرك الملك المنصور انه في حاجة الى فترة من السلام يوطد فيها أركان ملكه ويقوي جيشه ويعزز دفاعه ، كما أراد ان يحول دون أية محاولة يقوم بها المغول للتحالف مع الصليبيين ، فعقد مع هؤلاء صلحاً لمدة عشر سنوات .

والواقع ان المغول ما لبثوا ان قاموا سنة ٦٨٠ هـ ١٢٨١ م بحملة

جديدة يؤازرهم فيها ليو الثالث ، وقدر المؤرخون عدد أفرادها بثمانين ألفاً . وقد بلغت هذه الحملة أسوار حمص ، ثم ارتدت مهزومة بمد معركة عنيفة قادها قلاوون بنفسه ، وانطلق المغول هاربين عبر الفرات ، بينما حاول ليو الثالث العودة الى بلاده فاعترضه الامير شجاع الدين السيناني في الطريق فقتله وأسر كل من معه .

وقد توفي ابغا خان في السنة التالية ، وقلب أخوه تكودار سياسته رأساً على عقب ، فأعلن اعتناقه الاسلام وتسمى باسم أحمد ، واتخذ لنفسه لقب سلطان ، وأرسل الى قلاوون يخبره بأنه مسلم وإنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف ، وأمر بتجهيز الحجاج ، وطلب منه التعاون والتهادن ، فرد السلطان عليه مهناً بالاسلام ، وداعياً اياه الى التحالف ضد العدو المشترك وهم الصليبيون . ولكن تكودار ما لبث ان قتل سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م ، وحل محله ابن اخيه ارغون في حكم دولة مغول فارس ، واعلن وضع قواته لخدمة المسيحية ، واتفق مع ملك أرمينية على استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين ، وأرسل اربع سفارات الى البابوية بين سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م وسنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ، يقترح فيها القيام بجملة مشتركة مع البابوية لمحاربة المماليك ، بحيث يفرز الفرنجة مصر ويفرز هو بلاد الشام ، ولكن ارغون خان لم يجد استجابة من الغرب ، سواء من البابا أم من الملوك ٢

ويبدو ان المنصور قلاوون لم يعد ليأبه لملات المغول المتوقعة ، وقرر اقتلاع تلك النفثة الغربية التي لا جذور لها في الأرض العربية ، وقد

١ - المختصر في تاريخ البشر ج ٤ ص ١٥ - ١٦ ، العبرج ٥ ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٨ - ١١٦٩

شاخت وتساقتت أوراقها ، فما لبث ان هاجم في ربيع سنة ٦٨٤ هـ
١٢٨٥ م حصن المرقب ، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة ^١ ،
واستولى عليه .

وفي سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م نشبت الحرب في ايطالية بين جمهوريتي
بيزة وجنوة ، ثم انتقلت الى بلاد الشام ، فأقبل اسطول جنوي لضرب
معسكرات البيازنة ^٢ وانتهر السلطان قلاوون هذه الفرصة فاستولى على
اللاذقية .

وفي تلك السنة نفسها توفي بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن
يخلف وريثاً للعرش ، فتألف مجلس بلدي لإدارة شؤون الإمارة ، إلا ان
اخته الأميرة لوسي ما لبثت ان وصلت الى سكا وطالبت بحقها في ملك
أخيها . واستنجدت الأميرة بالاستتارية ، بينما استنجد المجلس بجنوة .
ويدهول أبو المحاسن ان بارتلميو (سيرتلمية) صاحب جبيل ورئيس المجلس
« سأل من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بلبان
الطباخي السلحدار وأن يساعده على تملك طرابلس ، عم أن تكون
مناصفة ، وبذل بذولاً كثيرة ^٣ » .

وقد أنجد الجنوية مجلس طرابلس باسطولهم ، فوضع المجلس المدينة
تحت حمايتهم ، وانتهزوا تلك الفرصة فعززوا مراكزهم التجارية فيها
وأضحت لهم شوارع وأسواق خاصة ، إلا ان الأميرة لوسي ما لبثت
أن فاوضتهم وانفقت معهم على الاعتراف بحقوقهم في طرابلس مقابل

١ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١

٢ - Hist. du Commerce du Levant, I, p. 354 - 355

٣ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .



مدينة طرابلس عن لوحة فنية

اعترافهم بها أميرة عليها ، وانهارت بذلك مطامع بارتلميو فساد الى تحريض المنصور قلاوون على احتلال المدينة ، واشترك البنادقة والبيازنة ، منافو الجنوبية في هذا التحريض برسال وفد الى مصر ينبه السلطان الى ان وجود الجنويين في طرابلس يهدد تجاره الاسكندرية ويتيح لهم السيطرة على البحر الابيض المتوسط .

ولم يكن قلاوون في حاجة الى كل هذا الاغراء ، كي يحاول الاستيلاء على طرابلس ، إذ كان يتحين الفرصة المؤاتية ليخطو هذه الخطوة ، فما ان شعر بالفوضى السائدة في المدينة ، حتى سار اليها في ربيع سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م ورابط أمام أسوارها ، وقد أسرع الصليبيون الى تناسي أحقادهم والاتحاد في وجه الخطر المحدق بهم ، وأنجذت قبرص وعكا وجنوة المدينة المحاصرة بقوة من جندها وطائفة من سفنها ، وقد أدرك الجميع ان سقوط طرابلس معناه ضياع ما تبقى من ممتلكات الصليبيين على طول الساحل في المستقبل القريب ولكن الوقت كان قد فات ، وضيع الفرصة فرصة الاستعداد والتأهب للمعركة ، ومهما استجمعوا من قواهم في الساعات الأخيرة ، فانها لن تستطيع صد القوة الجبارة التي كان قلاوون قد حشدتها حول طرابلس والتي بلغت أربعين ألفاً من الفرسان ومائة ألف من المشاة^١ ، فضلاً عما نصب حولها من دافعات القذائف ، ومن جاء بهم من الخبراء في بث الألغام وطلب منهم العمل ليلاً ونهاراً في تقويض الأسوار^٢ .

وقد أدرك الفرنجة في طرابلس النهاية المحتومة التي ستصير اليها ، فما

١ - السلوك ج ١ ص ٧٤٧

٢ - اللجنة في ظلال السيوف ص ١٢٥

هي الاثلاثة أسابيع مرت على الحصار حتى أخذ كل فريق منهم يسابق الفريق الآخر في جمع أمواله وتهريب بضائعه ، الا ان جيش قلاوون ما لبث ان احتل المدينة ، فدمر أسوارها ومنشأتها القديمة القائمة على شاطئ البحر ، وبنى طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن سان جيل ، بعيداً عن شاطئ البحر ، اتقاءً لغزو الأساطيل الأوروبية

ولما سقطت طرابلس في ١٤ ربيع الآخر سنة ٦٨٨ ١٢٨٩ م «أقر السلطان بلدة جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه ، وأخذ بيروت وجبلة وما حولها من الحصون» ، وبذلك اقتصرت المستعمرات الصليبية في بلاد الشام على مدن عكا وصيدا وصور وحصن عتليت^٣

*

كانت نهاية البقية الباقية من الإمارات الصليبية ، معروفة ومتوقعة من الجميع . فبعد أن تهاوت إمارة الرها ، وإمارة انطاكية ، وإمارة طرابلس ، لم يبق من ذلك البناء الشامخ الذي بنىه الاستعمار الغربي في الشرق ، سوى أنقاض مملكة بيت المقدس . وكانت هذه المملكة التي تحمل اسم عاصمة فقدتها منذ عهد بعيد ، تقتصر على ثلاث أو أربع مدن !

كانت النهاية معروفة ومتوقعة من الجميع ، ومع ذلك فان أوربة لم تتحرك لانقاذ الموقف ، وعبثاً كان هنري الثاني ملك قبرص يستغيث ، وكان قادة عكا يستنجدون ، وكان ارغو خان زعيم مغول فارس يدعو

١ - السلوك ج ١ ص ٧٤٨ ، المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٠

٢ - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١

٣ - Crousset ; Hist. des Croisades. III, p. 745

البابوية الى مشاركته في حرب صليبية جديدة .. فان كل ذلك ظل
دون جواب !

لقد تحركت اوربة يوم سقطت الرها ، وضجت يوم سقطت حطين ،
وذعرت يوم سقطت القدس ، وتدفقت أمواجهما البشرية خلال قرنين
كاملين لانقاذ الأرض المقدسة ، وهما هي البقية الباقية من الممتلكات
الصليبية في بلاد الشام توشك ان تزول الى الأبد ، دون ان تتحرك
اوربة ، او تضج ، او يتولاها الذعر ، او ترسل نجدة أو تلي استغاثة ،
لأن قيماً جديدة قد أشرقت في اوربة ، وهي تناضل - وقد يستمر
نضالها قرناً عديدة - لاعلاء شأن العلم والحرية ، واقامة علاقات جديدة
بين الناس والشعوب ، ليس الدين والعنصر واللون أساساً ومرتكزها .

ان المدن والحصون الصليبية كانت تتساقط منذ عشرات السنين في
أيدي أبناء البلاد ، كما تتساقط أوراق شجرة زرعت في غير تربتها ، ثم
ما لبثت تلك الشجرة الغريبة أن تداعت على نفسها وسقطت دفعة واحدة !

هكذا سقطت عكا في ربيع سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م ، كجذع شجرة
وحيدة عارية في فلاة من الأرض ، لا أغصان لها تحميها من الرياح
والعواصف ، ولا جذور تغذيها وتجدد مقاومتها .

وكانت الهدنة إذ ذاك قائمة بين السلطان قلاوون وهنري الثاني ،
والأمن يسود العلاقات التجارية المنتظمة بين المدن الصليبية وبقية مدن
الشام ، والفلاحون يعملون مطمئنين في كل مكان ،^١ واذا ببعض الإيطاليين
الأغرار القادمين حديثاً الى عكا ، دون ان يعرفوا حقيقة الأوضاع فيها ،

يعتدون على تجار المسلمين في المدينة ، ويغزون بعض المزارع الاسلامية في جوارها ، ويحورون في ذلك الغزو والعدوان جوراً عظيماً أثار السلطان قلاوون ، ولم يهدىء من ثورته اعتذار حكام عكا وتهديم بمعاينة المعتدين ، ولا سيما عندما طالبهم بتسليم المذنبين ليقتنص منهم فرفضوا ذلك بحجة ان العدوان قام به صليبيون أغراب خارجون عن سلطة حكومة عكا ولذلك فان هذه الحكومة غير مسؤولة عن اعمالهم .^٣

الا ان الموت فاجأ السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٩٠ ، وهو يستعد لمهاجمة عكا ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، فما كاد يقضي على المحاولات الداخلية لانتزاع الحكم منه ، حتى اتجه الى عكا لتنفيذ ما أعدّه أبوه ، بعد ان ارسل الى القوات الاسلامية في بلاد الشام لموافاته الى هناك .

وتجمعت القوات الاسلامية أمام عكا في ربيع سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م وفرضت الحصار عليها ، وأخذت تضرب أسوارها بالمجانيق الكبيرة . وتنادى الفرنجة في الشام الى تناسي خلافاتهم والدفاع عن ملاذم الأخير ، وأقبل هنري الثاني من قبرص مع قليل من الفرسان والمشاة وكثير من المؤن والامدادات ، ولكن سرعان ما ادرك قادة المعركة انهم يخوضون معركة خاسرة ، فأرسلوا الى الأشرف خليل يسألونه عن شروطه لفقد الصلح ، فأجاب انه يطلب منهم الاستسلام دون قيد او شرط ، ويمدح بتأمين خروجهم جميعاً مع أموالهم من عكا دون ان يتعرض لهم احد ، ولكنه

١ - السلوك ج ١ ص ٧٥٣ - ٧٥٤

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٨

٣ - المرجع السابق ج ٢ ص ١١٧٩

يسحب هذا الوعد اذا أبوا الا متابعة القتال

وأبى المفاوضون تسليم المدينة ومفادرتها آمينين ، فعادوا الى متابعة القتال ، الا ان اليأس كان قد دبّ بين صفوفهم ، فأخذ الكثيرون منهم يفرون عن طريق البحر ، وكان هنري الثاني أحد الفارين^٢ . وتعاضم الذعر حين اقتحم المسلمون المدينة في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ ١٨ ايار (مايو) ١٢٩١ م فهرع الناس نحو السفن القليلة الباقية هاربين ، وأسقط في أيدي من لم يستطيعوا النجاة منهم ، بينما كانت الداوية والاسبتارية يقاتلون ببسالة عظيمة ، وقد استمر القتال داخل المدينة عشرة أيام .

وكانت عكا من احسن المدائن في العمارة والبناء الفاخر ، فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها وقلعتها ، هرب أهل المدينة منها وصارت خراباً^٣ .

ومن يوم ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ ١٨ ايار (مايو) سنة ١٢٩١ وهو اليوم الأخير من ملحمة عكا ، حتى ١٩ رمضان - ١٤ آب (اغسطس) ، وهو اليوم الذي استسلم فيه حصن عتليت ، استولى المسلمون على صور دون أية مقاومة ، ودخلوا صيدا بعد أن فر الفرنجة منها فدمروا قلعتها لئلا يحتلها الصليبيون من البحر مرة أخرى ،

١ - Grousset ; Hist. des Croisades, III. p. 755

٢ - المرجع السابق ج ٣ ص ٧٠٨

٣ - بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣



بعض رجال المايك في سلاحهم الكامل



تطور الاسلحة وارديه القتال في القرن الثالث عشر لدى الصليبيين

كما احتلوا حيفا ودمروا حصونها ، ثم احتلوا طرطوس وعنتيت وهما
آخر معقلين من معاقل الفرنجة . وكان علم الدين الشجاعى قائد الجيش
قد وجه الى فرسان الهيكل المسيطرين على مدينة طرطوس انذاراً
بالتسليم حقناً للدماء ، وخيّرهم بين ان يحكّموا السلاح بينهم وبينه ،
أو أن ينسحبوا من المدينة ، ويخلوا أسوارها وحصونها ، ويرحلوا
بطريق البحر الى حيث يشاؤون ، حاملاً كل منهم معه سلاحه وماله
الخاص ، وجاءه الرد على انذاره قبل نهاية الموعد المحدد قائلاً :

« ان جمعية فرسان الهيكل تقبل الشروط التي ذكرها القائد علم الدين
لتسليم مدينة طرطوس » .

وفي الوقت الذي فتحت فيه أبواب الأسوار وبدأت قوات المحاصرين
بجنازها وتنتشر في الحارات والازقة متجهة الى الابراج والقلعة ، كانت
السفن الخفيفة والزوارق الواسعة ، تخرج من المرفأ ناشرة قلاعها ، أو
مدفوعة بقوة المجاذيف ، تحمل اسر الفرسان ورجالها ووجهتها
جزيرة ارواد^١ القريبة من الساحل ، وتسلم الجيش الفاتح الاسوار
والابراج والقلعة ومحتوياتها جميعاً ، ولم يلجأ أحد من الجانبين الى استخدام
السلاح^٢ .

وقد انطوت بذلك الصفحة الأخيرة من ملحمة الحروب الصليبية في

١ - اعتماد السلمون جزيرة ارواد سنة ١٢٠٣ هـ ١٣٠٣ م ، وبذلك سقط المعقل
الأخير من معاقل الفرنجة في الشرق .

٢ - اللجنة في ظلال السيوف ص ١٣٦

بلاد الشام ، لتبدأ صفحة أو صفحات من قصة الصراع بين الشرق والغرب ، ولكن بشكل آخر وفي ظروف أخرى ، وإذا كانت من المؤرخين من يعتبر الحروب التي نشبت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بين البلاد الإسلامية وأوروبا ، استمراراً للحركة الصليبية أو امتداداً لها ، فليس هنا على كل حال مجال الحديث عنها .

الفصل الحادي والثلاثون

العلاقات الإنسانية في الحروب الصليبية

يقدر المؤرخون عدد ضحايا الحروب الصليبية من الفريقين ، خلال ذينك القرنين العاصفين ، بخمسة ملايين من الأنفس^١ . وهو رقم غاية في الضخامة بالنسبة لذلك الزمان ، ولا يعدل بحال من الأحوال النتائج التي أدت إليها تلك المغامرة المجنونة التي لا مبرر لها .

يقول ستفنسن : « لقد رأى القائمون بالحملات الصليبية ان هذه الحروب لم تسفر عن نتائج ذات بال للصليبيين مع ما أفاضوا عليها من موارد لا تحصى من المال والرجال طوال السنوات الكثيرة التي استغرقتها ، وقد آثر الساسة العمليون أن يستخدموا الموارد القومية لبلادهم لتحقيق أغراض أخرى . وقد عاد كثير من الصليبيين من أرض فلسطين وقد تملكهم اليقين بأن الدين نشبت الحرب من أجلهم ، وهم لاتينيو الشام ، لا يستحقون هذه التضحيات . هذا الى ان الحجاج المسيحيين كانت في

١ - خطط الشام ج ٢ ص ١٢٨

استطاعتهم زيارة القبر المقدس وبيت لحم والناصرة ، وأن يتنقلوا بين هذه الأماكن المقدسة في حرية تامة ، مع انها كانت في حماية المسلمين ونساء لولا هل أراد الله تعالى حقاً أن تكون فلسطين من أملاك المسيحيين ، وأن الله قد خصهم بها ؟ وقد صارت الإجابة عن هذا السؤال موضع شك وحيرة وزادت على مدى الأيام غموضاً واستغلاقاً^١ ،

لقد أحس معظمهم ان ما فعلوه لم يأمر به السيد المسيح ، رسول الحب والسلام والتسامح ، وان نشر عقيدتهم يجب ان يعتمد الاقناع لا الاكراه ، وان يركز على الوسائل السلمية وليس على اهراب الدماء وغرس البغضاء . ويمكن القول مع الدكتور فيليب حتي : « ان الروح الصليبي جرى ، بهذا التأثير ، في مجرى جديد ، هو استخدام المسلمين بدلاً من الجنود »^٢ .

الا ان كثرة الصليبيين كانت قد تحرت بفعل التعايش مع المسلمين ، من التعصب والتطرف والاندفاع المحموم ، فظهر أمثال الشاعر ريتوف (١٢٤٥ - ١٢٨٥) الذي كان يقول ان من الحماقة ان يخاطر انسان في حرب تتسم بالطابع الديني خارج بلاده ، ما دام في وسعه ان يتصل بالله في وطنه ويعيش في نعمة وسلام .

ولا ريب في ان الكثيرين من المسيحيين والمسلمين ، قد شعروا بأن تلك الحروب لم تكن في حقيقتها الا حروباً سياسية واقتصادية ، ومعارك تذكى نازها المطامع والأهواء ، والبصالح الذاتية ، وعوامل التوسع والتسلط ،

١ - تاريخ العالم لهامون ج ٥ ص ١٨٥

٢ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٦٣

والدفاع عن الذات ، وقد وصفت بأنها حروب دينية لاستغلال ما في الدافع الديني من إثارة عاطفية وكسب تأييد جماهير الشعب . وقد رأينا ان بعض امراء المسلمين حالفوا الصليبيين وقاتلوا الى جانبهم ، وانت بعض امراء الصليبيين وفرسانهم قد حالفوا المسلمين وقاتلوا تحت راياتهم ، ونضيف هنا انه كان ثمة جنود مرتزقة من مسلمي الاتراك يخدمون في جيوش الصليبيين ، كما كان هناك مرتزقة من رماة الارمن يشتركون مع المسلمين في محاربة الصليبيين . وهكذا نرى ان المسلمين والمسيحيين ، لم ينظروا الى المعركة على انها حرب دينية لا يصح ان يخوضوا غمارها الا في صف معين وتحت راية معينة .

والغريب أن تنتهي الحروب الصليبية الى نقيض ما قصدت اليه او ادعت انها تقصده ، فقد بدأت بدعوى مناصرة الدولة البيزنطية للوقوف في وجه لزحف الاسلامي ، واذا بالصليبيين يحتلون سنة ١٢٠٤ هذه الدولة التي كانت خط الدفاع الأول الذي يحمي اوروبا من كل غزو آسيوي ، ولا يغادرونها سنة ١٢٦١ الا بعد أن تقطعت أوصالها ، وتضعفت قواها ، وتمزقت أجزاء متناثرة ، ولم تعد قادرة على الصمود في وجه الاتراك العثمانيين عندما ظهروا على مسرح الشرق الأوسط ليلعبوا دورهم في التاريخ .

ولم تدرك الفرنجة الا بعد قوات الأوان ، ان اية دولة استعمارية يقيمها السيف على أرض ليست ارضها وفي وطن ليس وطنها وبين شعب غريب عنها ، لا بد ان تتداعى وتتهار ، مها امتدت بها الزمان ، وخيل اليها انها امتلاكك اسباب البقاء والاستمرار . فقد قامت الامارات اللاتينية في المشرق لانقعام اهلها بعضهم على بعض ، ولكنها كانت دولا ينقصها التماسك والانسجام ووحدة الجنس واللغة ، وتفتقر الى الجذور التاريخية والقومية ، وظلت في حاجة دائمة الى التماس المدد المتواصل

والعون المتجدد من اوربة كي تستطيع الثبات والبقاء . وعلى الرغم من تمزق بلاد المشرق فانها لم تستطع فتحها فتحاً كاملاً ، وظلت المدن الكبيرة مثل دمشق وحمص وحماء وحلب محتفظة باستقلالها ، رغم غزوات الفرنجة وهجراتهم المتكررة ، وما كادت هذه المدن تستعيد وحدتها السياسية حتى بدأت تلك الدويلات المصطنعة تسير في طريق الزوال .

وهكذا ساد السلام على الشاطئ الوادع الجميل الذي شهد أروع الحروب ، وتنازعت على رماله عشرات الشعوب ، لتتحقق ولو لفترة من الزمن ، رسالة السيد المسيح الذي لم يأت ليشر سيفاً بل ليزرع حباً وسلاماً .

ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن حالة الحرب هي التي كانت سائدة بين الفريقين ، خلال ذينك القرنين الطويلين ، فان المشاعر الانسانية والصلوات الاجتماعية والعلاقات التجارية كانت تفرض ذاتها ليس في فترات السلم وحدها بل في عهود الحرب ايضاً .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ألا نغفل ذلك الوجه الآخر من وجوه الحروب الصليبية^١ ، فرأينا - كما يقول ستيفنسن - كيف ان الصلات الودية والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين كل من المسلمين والمسيحيين قبل استيطان اللاتين لشقة الشام الساحلية^٢ لم يكن يستطاع قطعها ، ولم تنقطع كلية بعد ان فتح الصليبيون جانباً من هذه البلاد^٣ . وقد تساحت الحكومات اللاتينية مع المسلمين اقيمين في الاراضي التي تحكها،

١ - انظر الفصول الاول والرابع والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين والثاني والعشرين من هذا الكتاب

٢ - تاريخ العالم لجون هارتن ج ٥ ص ١٨٦

كما تساحت الحكومات الاسلامية مع المسيحيين ، فكانوا يؤلفون حلقات اتصال وتواد وتعاطف بين الفريقين .

وكان الله يقان بضمان العلاقات التجارية والاقتصادية فوق كل اعتبار . يقول الدكتور حسن حبشي : « وكان يصرح للتجار بإقامة الخانات في غير بلادهم ، لتنزل فيها قوافلهم . وينقسم الخان في العادة الى قسمين ، الطابق الاسفل ويتزلون به رحالهم ، أما الطابق العلوي فانه لاقامة النجار ذاتهم . ويحسن ارباب البلد معاملة التجار . ولم يكن للدين دخل في هذه المعاملة ، رغم ما قد يكون بين البلدين من الحرب ، الا ان ذلك لا يقف حائلاً دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجاري بينهما . وكان المؤلف في هذا العصر أن يطلب التجار المسلمون حماية جماعة معينة في البلاد التي يدخلونها وتكون في حوزة الصليبيين فلا يمسه أحد بسوء ، وهذا هو الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل الذين كانوا يذهبون الى عكا فيطلبون ان يكونوا تحت حماية فرسان الداوية ، كما أن التجارة قلت من الحدة الدينية التي قد تكون بين الجماعتين ، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين أن يعقدوا أسواقاً تجارية سنوية يفد اليها التجار دون نظر للفارق الجنسي »

وسرعان ما التزم الجانبان بصورة ضمنية قيوداً تمنع ائتلاف اشجار الفواكه وابداء المحصولات الزراعية ، وقيّدوا بها في أغلب الحالات بأمانة واخلاص ، ولم يلبث الصليبيون أن تعلموا مراعاة التقاليد القديمة التي تتحكم في نظم القتال في الشام بين الدويلات المختلفة ، والتقيّد بها ، وهذه القيود

١ - نور الدين والصليبيون ص ١٥٥ نقل عن G. T. p. 718

هي شبه ما تكون بقواعد القانون الدولي^١ ،

وقد تركز النشاط التجاري خلال القرن الثاني عشر في موانئ الشام ، وأسس التجار الاوربيون القادمون من ايطالية ومرسيليه واسبانية مراكز واحياء ثابتة في انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا أما في القرن الثالث عشر فقد أدى الغزو المغولي واغلاق الطريق التجارية المؤدية من الخليج العربي الى بغداد فدمشق ، الى انتقال النشاط التجاري الى مصر^٢ وقد رحب سلاطين المماليك في مصر باولئك التجار الأجانب نظراً لما كانت تعود به تجارة الشرق عليهم من ارباح وافرة ، وكان أن عاش التجار الاوربيون في الاسكندرية ودمياط على هيئة جاليات لكل جالية قنصل يشرف على شؤون افراد الجالية ومصالحهم الاقتصادية^٣ ، وقد سمح للبنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجارية في الاسكندرية كانت تسمى سوق الأييك^٤ . وفي سنة ١١٨٧ كانت توجد ثمان وثلثون سفينة ايطالية تجارية راسية في نهر الاسكندرية ، وفي سنة ١٢١٦ بلغ عدد الاوربيين المقيمين في هذا النهر نفسه واغلبهم من الايطاليين ثلاثة الاف نسمة^٥ .

ومن الحقائق البالغة الاهمية ان مدن الشام الساحلية التي يسيطر عليها الفرنجة ، ظلت تتخذ موانئ للندن الداخلية الاسلامية ، ويمكن ان نقدر مدى التجارة بين هذه المدن والموانئ الخاضعة للاحتلال الصليبي ، من رواية ابن جبير عن اثنين من تجار دمشق كانت لهما تجارة ونفوذ

١ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٦

٢ - الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٦٣

٣ - صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ٧٤

٤ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٧٩

في بلاد الافرنج ، فقد قال : «وقيض الله لهم (اسرى المغاربة)
بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم واغنيائهم المنتهسين في الثراء ،
احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بابي الدر يا قوت مولى العطافي ،
وتجارتها كلها بهذا الساحل الافرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما
الأمناء من انقارصين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في
الغنى كبير ، وقدترهما عند امراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد
نصبها الله عز وجل لافتكاك الاسرى المرابين بأموالها وأموال ذوي
الوصايا ، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من امانتهما وثقتها وبذلها
اموالها في هذا السبيل »

وتتردد القوافل التجارية بين البلدين ، فلا يتعرض لها أحد من
الفريقين الا في حالات استثنائية يستنكرها الجميع . يقول ابن جبير ،
« ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى
بلاد الافرنج وسبيلهم يدخل الى بلاد المسلمين ، شاهدنا من ذلك عند
حروجنا أمراً عجيباً »

والعملة الذهبية التي سكتها الامبراطور اللاتينية في الشام ، تدل
دلالة واضحة على اتساع المعاملات المالية بين المسلمين والصلبيين ، وعلى
ان هذه المعاملات قد فرضت نفسها على الاعتبارات الأخرى . وكانت
هذه العملة تسمى باليونانية واللاتينية بيزنتا وبالعربية ديناراً . وكانت
تدش عليها كلمات عربية مشفوعة بالتاريخ الهجري وفوقها اسم حاكم
البلاد الاسلامية ، وما هو أعجب من هذا وذاك. انه نقشت عليها آيات

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٨١

٢ - المرجع السابق ص ٢٧١

اسلامية ، واحياناً كان ينقش عليها رسم صليب صغير الحجم ، أو الحروف الأولى من اسم الامير اللاتيني ، للدلالة على صفتها الحقيقية ، ويكتفى في مكوكات اخرى بذكر مكان صنعها أو اسم دار الضرب التي سكنها للتدليل على مصدرها . وكان يُقصد بذلك ان يُقبل المسلمون من الامراء والتجار على تداولها ، مثلما كان الصليبيون يقبلون على تداول نظائرها من العملات الاسلامية ^١ .

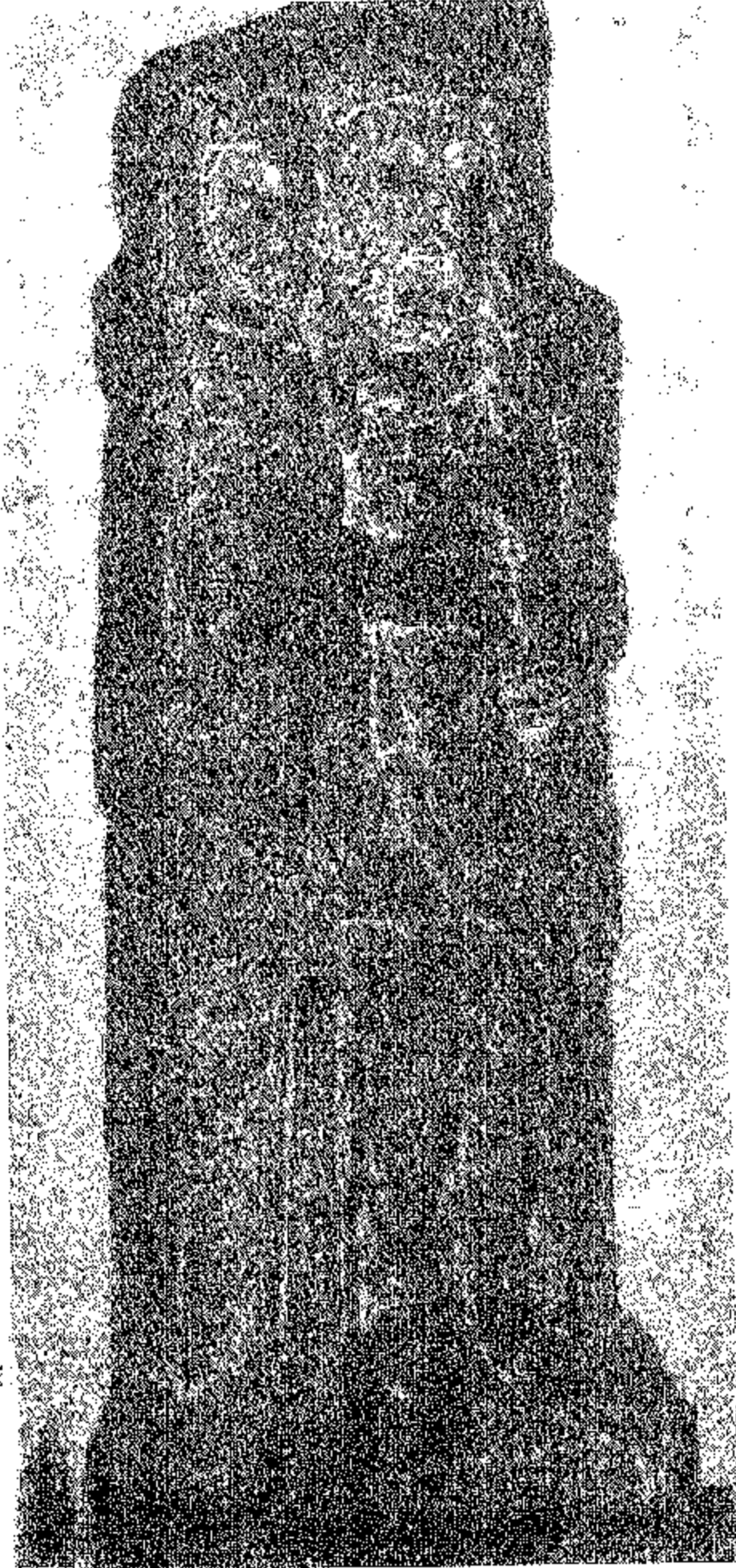
وكان الصليبيون يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين ^٢ . وقد سمحوا بقدر كبير من الحكم الذاتي المحلي للمقاطعات الريفية ، فشيخ القرية الاسلامية ظل مسلماً . وكان المسلمون الخاضعون لحكم الامارات اللاتينية في زمن صلاح الدين ينعمون برفق في المهلة بضاهي ما يحظى به المسيحيون من حكام المسلمين . وكانوا يدفعون لحكام اللاتين ضريبة « الفرضة » ونصف ما تنتجه أراضهم من المحصول ، وضريبة اخرى على اشجار الفاكهة ، بينما كان المسيحيون معفيين من ضريبة الفرضة ولكن كان عليهم ان يدفعوا لرجال الدين ضريبة العشور ^٣ .

وواضح مما تقدم ان المسلمين كانوا يتمتعون في الامارات اللاتينية بحق تملك الأراضي ، في حين حرم ذلك على اليهود ، وفي ذلك يقول ستفنسن : « وكان في بعض المدن جاليات يهودية وفدت على الأخص من جنوبي فرنسا ، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي كان في بلدة صور ما لا يقل عن مائة اسرة يهودية تشتغل غالبيتها في

١ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٩١ ، صلاح الدين الايوبي للرمادي ص ١٧١

٢ - نور الدين والصليبيون ص ١٥٧

٣ - تاريخ العالم لهامرتن ج ٥ ص ١٨٦ - ١٨٧



عمدة المدارب الصليبي
تمثال في كنيسة دير
الكراولة بنانسي

التجارة وفي صناعة الزجاج ، والراجح انه لم يكن في بيت المقدس في نفس هذه الفترة ، من امثال هذه الأسر ، ما يزيد على اربع ، لأن الجالية اليهودية في هذه المدينة كانت قد طردت منها في سنة ١٠٩٩ - أي بعد الاحتلال الصليبي - ولم يكن يسمح لليهود في فلسطين بامتلاك الأرض ، في حين ابيح ذلك للمسلمين^١ ،

وكان المواطنون المسلمون في الامارات اللاتينية يتمتعون بحريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، ويطعمثون الى اموالهم وأرواحهم ، اذا هم اخلدوا الى السكنينة وانصرفوا الى أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية^٢ وقد كان ذلك أحد العوامل التي ساعدت على تقريب الشقة بين الشعبين ، والعمل على زيادة أسباب التفاهم ، والاختلاط بل والامتزاج أيضاً ، وان موقف بعض رجال الدين الافرنج كغليوم اسقف صور ، ليدل على هذا التبدل الجليل^٣

وقد بلغ من اطمئنان المواطنين المسلمين في الامارات الصليبية ، ما جعل ابن جبير يقول ان اولئك المواطنين قد أشربت الفتنة قلوبهم لأن حالهم كانت تفصل حال احوالهم في بلاد المسلمين ، واليك ما قاله بنصه : « ورحلنا من تبنين . وطريقنا كله ضياع منصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قواريط ، ولا يعترضونهم في

١ - المرجع السابق ج ٥ ص ١٨٨

٢ - Rey ; Colonies Franques en Syrie, P. 106 107

٣ - تراث العرب ص ١٠٧

غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السيل ، رساتيقيهم كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أشربت الفئنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه حال اخوانهم من اهل رساتيقي المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد احوالهم من الترفه وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله ^١ .

لقد كان المسلمون والافرنج يختلطون بلا حرج ، ويتعاملون على أوسع نطاق . ولم يكن ذلك مقتصرأ على المدنيين وحدهم ، فان المقاتلين منهم سرعان ما كانوا ينسون احقاد الحرب ، في فترات السلم ، او الهدنة ، ويختلط المسكران ، واذا بمن كانوا بالأمس أعداء يتراشقون بالنبال ويتطاعنون بالرماح والسيوف ، قد غدوا بين ليلة وصباح أصدقاء وأحباء تسود حياتهم المودة والتفاهم ^٢ . وهل أروع من تلك الصورة التي رأيناها عند أسوار عكا ، صورة الجيشين وقد ترك افرادهما القتال ، واخذوا يتجادبون الأحاديث ، ويتبادلون الطرائف والنوادر ، وربما غنى فريق ورقص فريق ^٣ !

وقد تداخلت الحياة الاجتماعية الشرقية والغربية في بلاد الشام ، وأثرت

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ - ٢٧٥

٢ - Grousset : Hist. des Croisades. III. p. 209 . 221

٣ - كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩٤ ، النوادر

السلطانية ص ٩٢ ، Michaud. II. p. 125

كل منهما في الأخرى وتأثرت بها^١ . يقول ابن جبير في وصف زيارته لمدينة بانياس وكانت قد احتلها الافرنج ثم استعادها المسلمون وظل الافرنج المدنيون يعملون فيها جنباً الى جنب مع السكان المسلمين : « ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حدٌ يُعرف بحدّ المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينها فيها^٢ .

وكان المسلمون يشاركون في حفلات الافرنج ، وقد وصف ابن جبير حفلة عرس اقيمت في صور واستغرب مشاركة المسلمين فيها وعدم استنكارهم ما تجلى فيها من مظاهر الترف والاهو ، ولعل من المفيد اثبات هذه الصورة الممتعة هنا نظراً لأهميتها في اعطاء فكرة واضحة عن لون من ألوان الحياة الاجتماعية السائدة يومذاك ، قال : « ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفوا سباطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يسكانها من يمن وشمال ، كأنها من ذوي أرحامها ، وهي في أبي زي^٣ ، وأفضل لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المهدودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفَّت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبنتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الحمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلّة رجالها من النصارى

١ - نور الدين والصليبيون ص ١٤٥

٢ - رحلة ابن جبير ص ٢٧٣

في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفوس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات الهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظائر ، قد عادوا في طريقهم سحاطين ، يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك .^١ ،

وما استغربه ابن جبير من روح اللودة والتسامح السائدة بين المسلمين والمسيحيين ، قد استغربه ايضاً الفرنجة الذين كانوا يصلون حديثاً الى سواحل الشام فيرون ان الفرنجة المقيمين هناك قد نبذوا التمسب وأخذوا يعاملون المسلمين بمودة وأخوة .^٢



لقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن اثر الحروب الصليبية في النهضة الاوربية ، وهم يغالون في ذلك جاعلين من هذه الحروب مدرسة كان الشرق فيها هو المعلم والغرب هو التلميذ ، فقد جاء الغرب في رأيهم الى الشرق يعباً من مناهله العذبة حتى ارتوى ، فعاد وقد تبدل جهلاً بعلم ، وتأخراً بتقدم ، وحياة قلقة بأخرى مشرقة ، فكانت تلك النهضة الاوربية الجبارة في مطلع القرون الحديثة . وقد ساعد على تكوين هذا الرأي ، ان ما ابدعته حركة النهضة الايطالية التي كانت طليعة النهضة للاوربية الحديثة ، لنا ظهر مباشرة في أعقاب العصر الصليبي .

١ - المرجع السابق ص ٢٧٨

٢ - نور الدين والصليبيون ص ١٠٥٦ ، نقلاً عن Lamb : The Crusades, p. 262 .
انظر ايضاً كتاب الاعتبار ص ١٣٤

والواقع ان تلك النهضة كانت تركز على دعائم من الرخاء المادي الذي ساد المدن الايطالية نتيجة لسيطرتها على التجارة بمنتجات فارس والهند والصين ، نارة عن طريق السواحل السورية وقارة عين طريق السواحل المصرية ، وهو رخاء باذخ ازدهر في ظل الانتاج الفني والانتاج العقلي .

ولا ريب في أن الحروب الصليبية ، والهجرات الجماعية التي رافقتها ، واحتكاك القارتين وشعوبها المختلفة طوال قرنين كاملين ، قد أحدثت في الغرب هزة عنيفة حركت الارسطو الجامدة ، وايقظت الطبقات الغافلة ، وأطلقت الافكار من قيودها المتوارثة ، وأعطت الانسان الغربي نظرة الى الكون والحياة اكثر تحرراً وتسامحاً وأقرب الى الروح العملية والنزعة التجريبية والبحث العلمي التي كانت جميعاً من أسس النهضة ومن عوامل ازدهارها .

وقد كان المشرق حرياً بأن تؤثر فيه تلك الحروب تأثيرها في الغرب ، فتوقظه من سباته وتنطلق به في مجالات فكرية أرحب افقاً واغنى تجربة واكثر واقعية ، ولكن هذه الحروب فاجأته وهو يسير في طريق الانحلال ، وقد اوشكت الخلافتان العباسية والفاطمية على الانهيار ، وبدأ يدخل عصور الظلام من سيرته المشرقة وتاريخه العريق ، نتيجة لتمزيق شعوبه ، وتفتت قواه ، والصراع العنيف بين كل قبيلة وكل مدينة وكل أسرة حاكمة فيه ، وما عاناه من غارات السلاجقة والقرامطة والحوارزمية والمغول . وكان الأيوبيون قد خربوا بعض مدنه وحصونه ، فعمد المماليك الى تخريب المرافق الباقية نخشية عودة الافرنج ، فتعطلت الحياة التجارية فيه ، وفرضت عليه العزلة والانكماش . ثم جاء الاحتلال العثماني ففضى على البقية الباقية من روح التوثب والتفتح والابداع .

والذي نعتقده ان ما جرى من تبادل ثقافي بين الاقرنج وبلاد الشام ، كان محدود المدى ، لأن الاقرنج لم يتخلطوا في الغالب الا بالفلاحين وعامة الناس ، ولأن الحركة العلمية في البلاد العربية كانت آخذة بالجهود ، كما ان النزاع المستمر قد حال دون التفاعل الحضاري الطليق . ولم تكن سورية في الواقع الجسر الوحيد بين الشرق والغرب ، بل كان هناك جسران آخران هما صقلية واسبانية اللتان نعتقد بانها كانتا . باستقرارهما وازدهارهما واستتباب السلام فيها ، اكثر فعالية وجدوى في اعطاء الغرب صورة ارضع عن الحضارة العربية السائدة يومذاك .

أما ما أخذه الصليبيون في بلاد الشام من المنتوجات الزراعية والصناعية ، والفنون الهندسية والعربية ، وللوان الحياة الاجتماعية ، فقد أعطوا ولا ريب مثيلا له في تلك الميادين نفسها أو في ميادين أخرى .

ولكن الذي يستوقفنا اكثر من هذا كله ، ان الفرنجة الذين كانت تطول اقامتهم في بلاد الشام ، كانت مشاعرهم نحو المواطنين المسلمين تتطور مع الايلم ، ثم ما يلبثون حتى يرتبطوا معهم بروابط المودة والأخوة والتسامح ويقيموا معهم أوثق الصلات وأمتن العلاقات .^١

ان الذي يستوقفنا اكثر من هذا كله ، ذلك التعايش السلمي بين

١ - انظر : براث الاسلام ص ٢١٧ ، ٢٣١ ، العلاقات بين العرب والاقرنج خلال الحروب الصليبية ١٣١ - ٢١٧ .

Rey ; Colonies Franques en Syrie, p. 189 250 , Heyd; Hist du commerce, P, 130 202

٢ - انظر : العلاقات بين العرب والاقرنج ص ١٣٩ ، كتاب الاختيار ص ١٣٤ .

خبر الدين والصليبيون ص ١٥٦

المواطنين في دول متحاربة ، الذي كان يجعل فرسان الفرنجة وفرسان المسلمين يشعرون بأنهم أكثر نبلاً ومروءة عندما يلتقون في أيام السلم ليتسابقوا على ظهور الخيل ويتباروا في ألعاب الفروسية^١ .

والتسامح الديني الذي شق طريقه وفرض نفسه في غمرة حرب وصفت بأنها دينية ، بحيث نرى في كل مدينة اسلامية كنيسة يتعبد فيها المسيحيون ، وفي كل مدينة مسيحية جامعاً يتعبد فيه المسلمون ، بل نرى في ضواحي عكا مسجداً بقي محرابه على حاله ووضع الافرنج في شرقيه محراباً لهم ، فالمسلم والمسيحي يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه^٢ .

والشعور الانساني الذي كان يدفع بصلاح الدين الايوبي لأن يطلبه من فرسان الاسبتارية الذين شهروا السيف في وجهه وقتلوه بضراوة ، البقاء في بيت المقدس للعناية بالمرضى من الصليبيين^٣ ، ويحصل فرسان الفرنجة على الوقوف باحترام أمام منزل الشيخ أبي الحسن بن قفل بدمياط حين علموا انه من مشايخ المسلمين وان الفقراء يلوذون به ، ثم يأمرهم بعدم التعرض له^٤ .

والصداقة التي نشأت بين المسلمين والفرنجة ، ابتداء من صداقة اسامة ابن منقذ وفرسان الدارية الذين كانوا يدخلون له مكاناً في معبدهم ليصلي فيه ، الى صداقة الملك العادل ورينارد قلب الأسد الذي حاول أن

-
- ١ - انظر تحفة الشرق والغرب لحنفي في الكتاب الذهبي ص ١٤٤
 - ٢ - رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ ، تاريخ العالم لهما مرتن ج ٥ ص ١٨٧
 - ٣ - انظر ص ٣٤٢ من هذا الكتاب .
 - ٤ - ذيل الروضتين ص ١١٧

يزف اليه أخته الأميرة جوانا ليكون زواجها جسراً يصل بين الشرق والغرب ، الى صداقة الملك الكامل وفرديريك الثاني اللذين حولتا الحرب الدامية الى مفاوضة سلمية ، وانتهاءً بصداقة الوف المواطنين المسلمين والافرنج الذين نجهل اسماءهم والذين لا نشك في انهم قد شعروا بعد ان تعارفوا وتآلفوا ، بأن البشر اخوة ايا كانت وطنهم أو لونهم أو مذهبهم .

ان الذي يستوقفنا أكثر من أي شيء آخر في تلك القرون الوسطى ، التي كانت تحكمها أعراف وأمزجة خاصة مفرقة في الرجمية والظلمة ، تلك العاطفة الكريمة الصافية التي كانت تدفع بعض المسلمين والفرنجة الى أن ينادي احدهم الآخر : « يا أخي » ، وتجعل أميراً صليبياً يقول : « ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار أخوي » ،

أجل ، أن الذي يهنا أكثر من أي شيء آخر ، ولا سيما في تلك العصور المتعصبة المتخلفة ، هذه الاخوة الرائعة التي نشأت ، برغم الصراع العنيف والقتال الدامي ، بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي !

مصادر الكتاب

١ - مصادر ومراجع عربية

الكامل في التاريخ	ابن الأثير
أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)	
حياة صلاح الدين الأيوبي	أحمد البيهقي (الدكتور)
كتاب الاعتبار	اسامة بن منقذ
الروم وصلاتهم بالعرب	أسد رستم (الدكتور)
بدائع الزهور في وقائع الدهور	ابن اياس
المختار من تاريخ الجبوتي	الجبوتي
رحلة ابن جبير	ابن جبير
صلاح الدين ومكاند الحشاشين	جرجي زيدان
شجرة الدر	
معارك الاسلام الكبرى	جمال الدين حماد
صلاح الدين الأيوبي	جمال الدين الرمادي (الدكتور)

- جمال الدين الشيال (الدكتور)
ابن الجوزي
- مصر والشام بين دولتين
مرآة الزمان (مجموعة مؤرخي الحروب
الصليبية)
الفروسية العربية
هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل
دول الاسلام
الناصر صلاح الدين
غبار المعارك
الجنة في ظلال السيوف
تاريخ الدولة الفاطمية
الفاطميون في مصر
الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق
والآثار
- جوزيف سمعان
جوزيف نسيم يوسف
الحافظ شمس الدين
حبيب جاماتي
- حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
حسن الباشا
- الحرب الصليبية الاولى
نور الدين والصلبيون
الشرق العربي بين شقي الرحى
صور من البطولة
العبر وديوان المبتدأ والخبر
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان
دمعة صلاح الدين
تاريخ الاسلام
جامع التواريخ
العلاقات بين العرب والافرنج خلال
الحروب الصليبية
- حسن حبشي (الدكتور)
حسين مؤنس (الدكتور)
ابن خلدون
ابن خلكان
خليل هندراوي
الذهبي
رشيد الدين الهمداني
زكي النقاش (الدكتور)

الحركة الصليبية	سعيد عاشور (الدكتور)
الظاهر بيبرس	سلامة موسى
مقالات متنوعة	أبو شامة
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين	ابن شداد
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (وفي	
ذيله منتخبات من كتاب التاريخ لتاج الدين	
شاهنشاه بن ايوب)	
سنان وصلاح الدين	عارف تامر
على أبواب آلموت	
أيام صلاح الدين	عبد العزيز سيد الأهل
القضايا الكبرى في الاسلام	عبد المتعال الصعيدي
الناصر صلاح الدين الايوبي	عبد المنعم ماجد (الدكتور)
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر	
تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى.	
صلاح الدين بطل حطين	عبد اللطيف حمزه
أدب الحروب الصليبية	
مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام	عبد الله عنان
تراجم إسلامية شرقية وأندلسية	
تاريخ مختصر الدول	ابن العبري
الحضارة العربية في حوض البحر الابيض.	عثمان الكماك
المتوسط	
منتخبات من تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي	ابن العديم
الحروب الصليبية)	
سيرة شجاع	علي أحمد باكثير
وآإسلاماه	
قصص من التاريخ	علي الطنطاوي

المتح القسي في الفتح القدسي	العماد الاصفهاني
شذرات الذهب في أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلي
من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ	أبو الفتوح التوانسي
المختصر في تاريخ البشر	أبو الفدا
تاريخ العرب	فيليب حقي وجرجي وجبور (الدكاترة)
المقول في التاريخ	فؤاد عبد المعطي الصياد
صبح الاعشى في صناعة الانشا	القلقشندي
ذيل تاريخ دمشق	ابن القلانسي
الطائفة الاسماعيلية	كامل حسين
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	أبو المحاسن
الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره	محمد جمال الدين سرور (الدكتور)
اسامة بن منقذ	محمد حسين
فرق الشيعة	أبو محمد الحسن النوبختي
مع الابطال	محمد رجب البيومي
شجرة الدر	محمد سعيد العريان
الكفاح بين العرب والاستعمار	محمد سعيد العريان والدكتور الشبال
الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي	محمد سيد كيلاني
في مصر والشام	
صراع العرب خلال العصور	محمد عبد العتي حسن
صلاح الدين الايوبي البطل الذي انتصر	محمد فريد أبو حديد
على الغرب	
أمتنا العربية	
خطط الشام	محمد كرد علي
المنصورة	محمد مصطفى هدارة (الدكتور)
لؤلؤة المنصورة	محمد منير المعصرة

المآصر في بلاد الروم والاسلام	مخائيل عواد
أعلام الاسماعيلية	مصطفى غالب
صلاح الدين	مصطفى الوكيل (الدكتور)
العماد الاصفهاني	مظفر سلطان
السلوك لمعرفة دول الملوك	المقريزي
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	
تاريخ مصر	ابن ميسر
تاريخ قلعة مصيف	ميشال لباد
الاسماعيليون والدعوة بمصيف	
اليوم الموعود	نجيب الكيلاني
التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي	نظير سمدوي (الدكتور)
المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي	
لمحات من تاريخ العرب	نقولا زيادة (الدكتور)
نهاية الارب في فنون الادب	النويري
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب	ابن واصل
معجم الادباء	ياقوت
معجم البلدان	
تاريخ سورية	يوسف الدبس (المطران)

٢ - مراجع اجنبية مترجمة الى اللغة العربية

مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف بعلبكي	أمير علي (سيد)
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني	باركر (ارنست)
تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس وبعلبكي	بروكلمان (كارل)
تقاليد الفروسية عند العرب ، ترجمة توما ونجار	بطرس غالي (واصف)
الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مؤنس وزايد	بينز (نورمان)
دراسات في حضارة الاسلام ، ترجمة الدكاترة عباس ونجم وزايد	جب (هاملتون)
حضارة الاسلام ، ترجمة جاويد وعبادي	جرونيباوم (جوستاف)
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور كمال يازجي	حتي (فيليب)
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، ترجمة زكي شنودة	ديفيز (ادوين)
دراسات إسلامية ، ترجمة الدكتور انيس فريجة وزملاؤه	رينتز ، جورج وزملاؤه
العرب ، ترجمة بقلي ونجا	عطية (ادوار)
رصيد التاريخ ، ترجمة خليل الباشا	غروسه (رينه)
موجز تاريخ لشرق الاوسط ، ترجمة عمر الاسكندري	كيرك (جورج)
حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر	لوبون (هوستاف)

مونروند (مكسيموس) تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، ترجمة
البطريرك - ييموس مفلوم
مير (فيليب فان نس) التاريخ العام
هامرتن (جون) وزملاؤه تاريخ العالم ، ترجمة طائفة من الكتاب
الهمذاني (رشيد الدين) تاريخ المغول ، ترجمة نشأت والصيد
لاندر (روم) الاسلام والعرب ، ترجمة منير يعطبي

٣ - مراجع أجنبية

Alphandery, P.	La Chrétienté et l'Idée de Croisade .
Brehier , L .	Vie et Mort de Byzance .
Brehier , L .	L'Eglise et l'Orient au moyen âge , Les Croisades .
Chalandon , F .	Hist. de la première Croisade.
Champdor , A .	Saladin , Le plus pur Héros de l'Islam .
Delarc	Les Normands en Italie .
D'Ohsson	Hist. des Mongols .
Encyclopédie de l'Islam .	
Grousset , R .	Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem.

Guillard , M . S .	Grand Maître des Assassins au temps de Saladin .
eyd , G .	Hist . du Commerce du Levant au moyen âge .
Iorga , N .	Breve Hist . des Croisades et de leurs Fondation en Terre Sainte
Joinville , J .	Hist . de Saint Louis .
Lammens , H .	La Syrie , précis historique .
Lavisse , E .	Hist . de France .
Lavisse et Rambaud	Hist . General .
Marin	Hist . de Saladin .
Matthieu d'Edesse	Chronique ; Continué par Gregoire le Prêtre .
Michaud , J . F .	Hist . des Croisades .
Michel Le Syrien	Chronique Syriaque .
Paris , G .	La Légende de Saladin (Journal des Savants , mai 1893)
Recueil des Historiens	des Croisades , Publié par l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres :
	— Documents Arméniens
	— Historiens Grecs
	— Historiens Occidentaux
	— Historiens Orientaux
Rey , E .	Les Colonies Françaises de Syrie au XII et XIII siècle .
Rey , E .	Hist . des Princes d'Antioches

- Ribard , A .** **La prodigieuse Histoire de
l' Humanité .**
- Rousset , P .** **Les origines et les caractères
de la premiere Croisade .**
- Schlumberger , G .** **Renaud de Chatillon , Prince
d'Antioche, Seigneur de la terre
d'outre Jourdanie .**
- Vasiliev , A .** **Hist . de l'Empire Byzantin .**

فهرس الاعلام

[استثنينا من هذا الفهرس الأعلام التالية لورودها في كثير من الصفحات : القدس ، دمشق ، حلب ، عكا ، الصليبيون ، المسلمون ، الافرنج ، الاسبتارية (فرسان المستشفى) ، الداوية (فرسان الهيكل) ، صلاح الدين الايوبي ، نور الدين محمود .]

(أ)

ابن جبير : ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،	ابراهيم الكردي : ٢٢٠
٣٥١ ، ٣٧٩ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ،	ابراهيم بن قنابر : ٢٨٢
٦١٦ ، ٦١٧	ابريم : ٢٢٠
ابن جندر : ٣٠٩	ابن أبي طي : ٢٦٧
ابن الخشاب : ٢٢٧	ابن الأثير : ٦٦ ، ١٢١ ، ١٦٩ ،
ابن خلكان : ١٥١	١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٣٦٥ ،
ابن رزيك : ٢٢٣	٣٧٨ ، ٢٦٦
ابن زهير : ٤٤٩	ابن بارزان : ٣٣٢
ابن الساعاتي : ٣٢٥ ، ٣٤٩	

أبو بكر : ١٢٤ ، ٢٣٤ ، ٣٠٣ ، ٤٢٦
 ابغاخان : ٥٨٧ ، ٥٩٤
 الاتراك : ٧ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ٦٠٩
 أتيفيت دي ميلي : ٣٠٣
 أحد أبو القاسم : ٥٨٢
 أحد زكي باشا : ٢٠١
 أحد بن طولون : ٢١٧
 أحد الناصر لدين الله : ٤٤١
 الأخشيدية : ٧
 الأمير ادوارد : ٥٨٨ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤
 أذربيجان : ٤٥١
 إربيل : ٢٨٦
 الاردن : ٣٦٩
 أرغون خان : ٥٩٥ ، ٥٩٩
 أرغونة : ٥٨٧
 أرسطو : ٨٣
 أرسوف : ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٥٨٥
 الأرمن : ٤٣ ، ٦٠٩
 أرمينية : ٢٨ ، ٥٦٨ ، ٥٨٦
 ارنولف مالكورن : ٧٥
 أزمير : ٢٣

ابن سناء : ٣٤٩
 ابن شداد : ١٥٩ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٩٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٨ ، ٤٣٩ ، ٤٣٤ ، ٤٤٩ ، ٤٢٦
 ابن العديم : ٦٦ ، ٦٨
 ابن عنين : ٤٩٦
 ابن القلانسي : ٨٨
 ابن القيسراني : ١٣١
 ابن المشطوب : ٤٨٨
 ابن مصال اللكي : ٢٥٧
 ابن المقدم : ٢٨٤
 ابن واصل : ٣٨ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢
 أبو الحسن قفل : ٦٢٢
 أبو عبد الله الادريسي : ١٦ ، ١٧٧
 أبو شامة : ٣٠٤ ، ٣٨١
 أبو الفتح : ٢٦١
 الشيخ أبو فراس : ٢٦٩
 أبو الفرج بن العبري : ٢٨٣
 أبق : ١٣١
 أبو الحسن : ٧٢ ، ٣٠٨ ، ٥٢٥ ، ٥٩٦
 الشيخ أبو محمد الميثقي : ٢٦٢
 أبو النصر أحمد بن فضل : ٢٦٠

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٨٧
 اسماعيل بن جعفر الصادق : ٢٤٧
 ٢١٨
 اشيلية : ٧
 الأشرف خليل : ١٨٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٢
 الأشرف موسى : ٥٦٠
 اشعوم طنناح : ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٤
 ٥٢٦ ، ٥٢٩
 الاغلبية : ٧
 أفاية : ٩٠
 الأفضل : ٦٩ ، ٧٠ ، ٢٥٧ ، ٣٠٨
 ٣٥١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٧٣
 ٤٧٦
 أفلاطون : ٨٣
 الأفلاق : ٨٤
 الاقحوانة : ٣١٥
 اليكسي انجيلوس : ٤٦٠
 اليكسيوس كورنيلوس : ٢٠
 ١٣٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨١
 اليكسي الثالث : ٤٦١ ، ٤٦٦
 اليكسي الرابع : ٤٦١ ، ٤٦٢
 اليكسي الخامس : ٤٦٢
 ألب أرسلان : ٢٢ ، ٨٦ ، ٢٤٩
 إلباية : ١٩

اسبانية : ١٦ ، ٦١ ، ٦١٢
 ٦٢١
 الاسبانيون : ٤٨ ، ٢١ ، ٨٣
 أسامة بن منقذ : ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٦
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١
 ١٠٦ ، ٣٧٨ ، ٦٢٢
 أسد الدين شيركوه : ١٣٤ ، ١٤٥
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٦٥
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧
 ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٨
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥
 الاسكندرية : ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
 ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
 ٢٥٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦
 ٤٣٣ ، ٥٩٨ ، ٦٢٢
 اسوان : ٢٠٦ ، ٦٢٤
 اسحاق الثاني انجيلوس : ٣٤٧
 ٣٨٣ ، ٤٦١
 اسطفان : ٤٨٢
 الدكتور أسد رستم : ٥٢ ، ٥٥
 ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ٤٦٠
 الاسماعيليون : ٢٤٥ ، ٢٧٣ ، ٥٩٣
 الملك الصالح اسماعيل : ٢٢٤

٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠٤ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ،
 ٦١٢
 أوجايوس : ١١٦
 أوربانوس الثاني : ٣٠ ، ٣١ ، ٥١ ،
 ٣٤٠
 الباب أوربان الثالث : ٣٦١
 أوروبا : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ،
 ١٦ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٧ ،
 ٨٣ ، ٥١٣ ، ٥٢٠ ، ٥٧٠ ،
 ٥٩٦ ، ٦١٠
 أورجيلز : ٣٠٨
 إيطالية : ١٨ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٨ ،
 ٨١ ، ٨٣ ، ٣٢٩ ، ٤٨٢ ،
 ٦٢٢
 ايزابيل : ٤٨٠
 ايلغازي : ٨٩ ، ٩١
 البطريرك ليري : ٣٠٨

الامان : ١١٧ ، ٤٨٤
 المائة : ١٩
 امبراطور الروم : ١٣
 الامبراطورية السلجوقية : ٣٣
 الامبراطورية العربية : ٨
 الامبراطورية الغربية المقدسة : ٤٩٩ ،
 ٥١٣
 آمد : ٢٨٩ ، ٤٧٣
 أنر : ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٢ ،
 ١٢٤
 أنوسنت الرابع : ٥٢٣ ، ٥٦٣
 شيف أرنون : ٣١٠ ، ٣٥٨
 أصفهان : ٣٥٤
 أطفيج : ٢٠٦
 الانكليز : ٤٨
 القديس اندراوس : ٦٥
 لانداس : ١٠ ، ٨٣
 أندره ريبار : ٣٣
 أنجو : ٥٤٧
 انطاكية : ٢٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ،

(ب)

الباروقي : ١٩٨
 بارين : ٣٤١ ، ٣١٠

باب توما : ١٢٨
 جارتلميو : ٦٥

بصطريون : ٢٦٢
 بطرس الناسك : ٣٦ ، ١٣ ، ٤٦
 ٥٢ ، ٦٥
 بعلبك : ١٢٨ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٣٨ ، ٢٧٢
 ٤٧١ ، ٥٢٠ ، ٥٧٥
 بغداد : ٧ ، ٢٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٥٢
 ١٧٠ ، ١٩٤ ، ٤٩٠ ، ٥٥٥
 ٥٦٥ ، ٥٧٥
 بغدوين البرونس : ٩٠
 بغراس : ٣٥٦
 بلبان السلحدار : ٥٩٦
 بلبيس : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩
 ٤٧٨
 بلدوين بن كونت بولونية : ٥٨
 بلدوين دي بورخ : ٤٣ ، ٤٤
 ٥٨ ، ٥٩
 بلدوين الثالث : ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٥
 ١٤٦
 بلدوين الرابع : ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٨١
 ٢٩٩ ، ٣٠٥
 بلدوين الخامس : ٢٩٩
 بلدوين التاسع : ٤٦٤
 البلغار : ٨٤

باسليوس الثاني : ١٢
 بالمير : ١٨٦
 باليان : ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠
 البحر الأبيض المتوسط : ٥٩٨
 البحر الاحمر : ٤٨٥
 بحر مرمرية : ٤٦٤
 بحر المحلة : ٤٩٤ ، ٤٩٤ ، ٥٤٥
 بحر النيل : ٥٣٨
 بحيرة المنزلة : ٤٩٤
 بدران الفارسي : ٣٥٢
 بدر الدين حسون : ٤٩٤
 بدر الدين لؤلؤ : ٥٥٥
 البرابرة : ٣٤
 القديس برقاردوس : ١١٦
 برقار دي فيس : ٣٠
 برج السلسلة : ٤٨٦
 برسق بن برسق : ٩٠
 برشلونة : ٨٣
 بركة خان : ٥٨٥
 بروكلمان : ١١٣ ، ٤٤٨ ، ٥٢٢
 بريتاني : ٥٣٨
 البريون : ٥٣٨
 بزاعة : ٢٤٢
 البساسيري : ٢١ ، ٢٢
 بصرى : ١٢٧ ، ٤٧١

البيزنطيون : ١٨ ، ٢٢ ، ٥٤ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٨ ، ٤٦٠
 بلاد الشام : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٤٧٦ ، ٥٦٤ ،
 ٥٧١
 بسيزة : ١١ ، ٢٤ ، ٨٠ ، ١٧٧ ،
 ٣٤٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠١
 بيت لحم : ٥٠٦
 بيدرا : ٥٧٤ ، ٥٧٥
 بيتارنت : ١٨٦
 بيير موكلير : ٥٣٨
 البيرة : ١٣٢
 بياتريس : ١٣٢
 بيت جبريل : ٣١٠ ، ٣١٤ ،
 ٥٢٠
 البيت الحرام : ٢٨٠
 بيرا : ٥٤
 بيروت : ٧١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٨ ،
 ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٣٣ ، ٤٧٧ ،
 ٤٨٠ ، ٥١٣ ، ٦١٢
 بيروش : ٦٢
 الكردينال بيلاجيوس : ٤٩٢

البندقية : ٣٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٣٨٦ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦٥ ،
 بنو بويه : ٢٢
 بهاء الدين زهير : ٥٣٤
 بهاء الدين قراقوش : ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٥ ، ٣٥٤ ، ٣٩٥ ، ٤٣٣
 الامير بهادر : ٥٧٨
 بهرام شاه : ٤٧١
 بوري تاج الملوك : ٩٤
 البوسفور : ٥٢ ، ٥٥ ، ١١٧ ،
 بوهيمند أوف تورنتو : ٤٠ ، ٥٤ ،
 ٥٥ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١١٠ ،
 ٤١٠ ، ٤٤١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣٦٠ ، ٥١٤ ، ٥٦٩ ،
 ٥٧٠ ، ٥٩٣
 البوذية : ١١
 الدولة البوذية : ٢١
 البوذيون : ٢٢
 بيزنطية : ١٢ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٦ ، ٦٤ ، ٨١ ، ١١٧ ، ١٤١ ،
 ١٤٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٦٠٩

(ت)

تل كيسان : ٢٨٨	تاتكيوس : ٦٧
توران شاه : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤	تاج الدين شاهنشاه : ٤٤٥
٢٧٣ ، ٥٣٥	تائيس : ٢٠٦
توزر : ٢٣١	تبريز : ٥٨٥
توسوكتو : ٨٢	تبنين : ٤٩٢ ، ٥٠٦
توغتكين : ١٥٦	تركستان : ٥٦٤ ، ٥٨٧
تولوز : ٧٠	تركية : ٥٣١
التونتاش : ١١٥	التركان : ٣٧
تونس : ٢٢٠ ، ٥٨٧	تصقانه : ٥١١
تيبون الرابع : ٥١٥	تقي الدين عمر : ٢٠٦ ، ٢١٨
تيسالية : ٤٦٥	٣٢٠ ، ٣٥١ ، ٤٤٩
تيسالونيكية : ٤٦٦	تكريت : ١٥٥
تيودورا كومنينوس : ٣٠٨	تل عشرة : ٣١٠
	تل العياضية : ٣٧٦

(ج)

جبال الالب : ٤٨٢	جامعة نيسابور : ٢٤٨
جبال اللاذقية : ٢٤٥	جان دي برين : ٥٢٦
جبريل : ١٠٠ ، ٢٣٠	الجامع الاموي : ١٥٩
جبل الزيتون : ٣٢٣	جاولي الاسدي : ٢٤٢

الجمهوريات البحرية الايطالية : ٢٣٣
 ٤٨٥ ، ٣٤
 جمهورية سان ماركو : ٢٠
 جنكيزخان : ٤٩٠ ، ٥٦٥
 جنوة : ١١ ، ٤٤ ، ٣٧ ، ٣٨
 ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٣٤٤ ، ٥٩٦
 جنوب ايطالية : ١٤ ، ٤٩٩
 جنوب لبنان : ٣٢٧
 جوانفيل : ٥٤٥
 الاميرة جوانا : ٦٢٣
 جورج كيرك : ٤٥٥
 جود فروا دي بويون : ٤٣
 جون هامرتن : ١٢٤ ، ٤٥٥
 ٤٦٠
 جون لامونت : ٥ ، ٢٢٣ ، ٤٢٤
 ٤٥٥
 ج . و . تومبسون : ٥
 جيرار دي ريدفور : ٣١٥ ، ٣٣٠
 جيران دي بوجي : ٢٧٦
 البطريرك جيرولد : ٥١٠
 الجزيرة : ١٧٣

جبل الطور : ٤٨١
 جبل عامل : ٤٣٣ ، ٥١٦
 جبل عشهد : ٢٦٣
 جبة : ٤٧٣
 جبيل : ٣٢٢ ، ٣٢٨
 القديس جرجس : ٦٧
 الدكتور جرجي : ٣٧
 الجزائر : ٢١
 الجزيرة : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٠
 ٣٨٤ ، ٣٩٢
 جزيرة ابن عمر : ٩٢
 جزيرة اقريطش : ٤٦٥
 جزيرة العرب : ٤٧١ ، ٤٧٩
 جزيرة قبرص : ٤١٦
 جزيرة المورة : ٤٦٥
 الجستا : ٦٢
 جسر يعقوب : ٣٩٠
 جعفر الصادق : ٢٤٧
 جعفري بك داود : ٢١ ، ٣٢٢
 جمال الدين عمن : ٥٣٥
 الامير جمال الدين يغمور : ٥٤٧ ، ٥٥٢

(ح)

- حارم : ٦٢ ، ١٣٢ ، ١٤١ ،
١٦٩
حبيب جاماتي : ٦٠ ، ٢٤٦
الحجاز : ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢
حران : ٢٨٩
الحرم الشريف : ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
٥١٩
حسام الدين بشارة : ٣٠٩
حسام الدين محمد : ٥٣٦ ، ٥٥٢
حسام الدين لؤلؤ : ٣٠٤
حسن اسماعيل : ٢٥٨
حسن الاكرمي : ٢٦٥
الدكتور حسن حبشي : ٤٦ ،
٦٦ ، ١٢٢ ، ١٣٨ ، ٥٢٨ ،
٦١١
الحسن بن الامام نزار : ٢٥٨
حسن القبالي : ٢٥٨
الحسن الهادي : ٢٥٨
الحسن : ٢٤٨
الحسين : ٢٤٨
الحسن بن الصباح : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،
- ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠
حسنون : ٩٩
حصن الاختين : ٦٢
حصن الاكراد : ١٨٧ ، ٢٦٠ ،
٥٨٨ ، ٥٨٩
حصن السفح : ٥٨٨
حصن الشقيف : ٢٥٨
حصن طبرية : ٣٢٧
حصن الطور : ٤٨٤
حصن هتليت : ٥٩٩
حصن عكار : ٥٨٨
حصن العريضة : ١٨٧
حصن الفرسان : ٥٨٨
حصن القرين : ٥٩٢
حصن كيفا : ٥٢٦
حصن المرقب : ٥٩٦
حصن المنيطرة : ١٨٧
حصن هونين : ١٨٧ ، ٢٨٤ ، ٦١٨
الامير حصن الدين بن ثعلب :
٥٦٢
حلوان : ٨٦

حنا الأول : ٤٨٠
حوض العاصي : ٥٨٧
حيفا : ٤٠٦

حصص : ٩٢ ، ٩٤ ، ١٢٠ ،
١٢٨ ، ١٨٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٢٦٣ ، ٤٧١ ، ٥٢٠ ، ٥٩٥ ،
٦١٠

(خ)

الخليفة العباسي المستنجد بالله
٢١١
الخليفة العباسي الناصر : ٤٩٢
الخليفة المستضيء بالله : ٢١٦ ،
٢٤٤
الخليفة العباسي الناصر لدين الله
٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٣٨٦
الخليفة العباسي الظاهر : ٥٨٢
الخليل : ٥٧٠
خليل بن شجرة الدر : ٥٣٢
خوارزم : ٤٩٠
الخوارزمية : ٥٣٢

الخروبة : ٣٧٠ ، ٣٨٨
الخليج العربي : ٦٢٢
خليفة بغداد : ١٧
الخليفة الأمر : ٦٩
الخليفة العباسي : ٨٧ ، ٢١٣ ،
٢١٦
الخليفة الفاطمي المستعلي : ٦٩
الخليفة المستظهر بالله : ٨٦
الخليفة العاضد : ١٦٤ ، ١٦٥ ،
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٣

(د)

دار الضرب : ٢١٦
دار الوزارة : ٢١٦

الكونت دارقوا : ٥٤٠ ، ٥٤١
الداروم : ٤١٧

دندولو شيخ البندقية : ٤٦٥
دوق موتفران : ٣٣٠
حصن دريساك : ٣٥٦
ديار بكر : ٥٣٥
ديروت : ٥٦٢
دير الرهبان الفرنسيسكان : ٣٣٨
الدولة الفاطمية : ٢١٦
دولة المماليك : ٥٥١ .

دييس بن صدقة : ٨٩
دجلة : ٥٦٦
القديس دنيس : ١١٢
دمياط : ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٧٥ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،
٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٢٤ ،
٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ،
٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٥٩ ،
٥٦٢ ، ٦١٢

(ر)

روبرت أوف نورمندي : ٤٠
روبرت كونت درتوا : ٥٤٢
روبرت كونت فلاندرز : ٦١ ،
٦٨
الرملة : ٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٣٣٢ ، ٤٠٩
الرها : ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٦ ،
٨٩ ، ٩١ ، ١١١ ، ١١٣ ،
١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨
رومة : ٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٢ ،
٤٧٠ ، ٥٠٠

راشد الدين منان : ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
راوندان : ٦٨ ، ١٣٢
رشيد الدين الهمذاني : ٥٦٥ ،
٥٧٦
رضوان صاحب حلب : ٦٨ ،
٨٧
ريسان : ٢٩ ، ٣٣٨
روبر الأبرص : ٩٠ ، ٩١
روبرت أوف فلاندرز : ٤٠

ريوند أوف سفت جيلز : ٤٠
ريشارد كورنول : ٥٦٨
رينانيه : ٢٦
رينو فيشييه : ٥٣٨
رينولد صاحب صيدا : ٣١٤
ريشارد قلب الأسد : ٣٩٦
٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ،
٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ،
٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٥٧ ، ٥٠٦ ،
٦٢٢ .

روبير غيسكار : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ،
٢٠
روجير الأول : ١٦
روجير الثاني : ١٦
روسه : ٣٢
ريدريه جارد : ٣٦٨
رينودي شاتيون : ١٤١ ، ١٤٢ ،
٢٣٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ،
٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
ريوند كونت طرابلس : ١٤٢
ريوند دي بواتيه : ١٤٢ ، ١٣٥

(ز)

زمره خاتون : ٩٤
باب زويته : ٥٧٤
زين الدين نجما : ٢٢٣
زيغريد هونكه : ٥٠٩

الزاب : ٢٩٢
زبيد : ٢٢٢
زكريا بن أبي الميخ : ١٨٢

(س)

ست الشام بنت أيوب : ٤٤٨
ستانلي لينبول : ١٩٤

السامانية : ٧
ستفلسن : ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١١

سعد الدين كشتكين : ٢٢٩ ،
 ٢٣٧
 سلمية : ٢٤٨
 سميساط : ٤٧٩
 سنقر الاشقر : ٥٩٤
 سوق الأيك : ٦١٢
 سلامة موسى : ١٤٩
 سلاجقة الروم : ٣٨٣
 سلامش : ٥٩٤
 سيف الدين غازي : ١١٣ ، ١٢٠ ،
 ٢٨٧ ، ٢٣٤ ، ١٢٢
 سيف الدين المشطوب : ٣٨١ ،
 ٤٣٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٢
 سيد أمير علي : ١٤ ، ٣٣٦ ،
 ٤٢٧
 البابا سيلستان الثالث : ٤٠٣ .

مردينية : ١٧
 صروج : ٢٨٩
 سعد الدولة الحمداني : ١٢
 سعد الدولة النواصي : ٧٥
 سنجار : ٦٢ ، ٢٨٩ ، ٤٧٢
 سورية : ١٧ ، ٤٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٣٨٤ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
 ٥٨٤
 السويد : ١١
 الدكتور سعيد عاشور : ٦٩
 الأمير سيف الدين قطز : ٥٥٦ ،
 ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٦٢ ، ٢٨٩ ،
 ٤٧٢
 سهل عكا : ٣٧٢
 سهول الاردن : ٣١٣ ، ٣٦٩

(هـ)

الشام : ٣٧ ، ١٥٦ ، ٢٧٣ ،
 ٢٩٢ ، ٤١٧ ، ٥١٤ ، ٥٦٠ ،
 ٥٧٥ ، ٥٨٦ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ،
 ٦٢١ ، ٦٢٣

شادي بن مروان : ١٥١
 شارلمان : ٢٧
 شارل ملك أنجو : ٥٨٥ ، ٥٨٦ ،
 شامبدور : ٢٨٣

شمس الدين الدابة : ٢٢٧
 شمائل : ٤٨٨
 شمس الدولة : ٦٤
 شجرة الصدر : ٥١٥ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ،
 ٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،
 ٥٥٦
 شهاب الدين الحارمي : ١٩٨
 ٢٦٧ ، ٢٧٣
 الشوبك : ٢١٩ ، ٤٩٣
 شيزر : ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٨ .

شاوور بن مجير السعدي : ١٦٣ ،
 ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ،
 شبه جزيرة سيناء : ٢٨١
 الشرق : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٨ ،
 ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ١٢٩ ، ٣٦٩ ، ٤٨٨ ،
 ٥١٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٠ ، ٥٨٦ ،
 ٦٠٥ ، ٦١٢ ، ٦٢٣ ،
 الشرق الأدنى : ٦٩
 الشرق الاوسط : ٦٠٩
 الشرق العربي : ١٤٩
 شمبانية : ٥١٥

(ص)

صبيون : ٩٠ ، ٣٥٦
 صور : ٧٢ ، ١٨٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٦ ، ٤٧٦ ،
 ٤٧٧ ، ٥٧٥ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ،
 صيدا : ٦١٢
 الصين : ٦٢٠

صافيتا : ٥٨٨
 صبيح العظمي : ٥٤٧
 صفد : ١١٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٠ ،
 صفورية : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
 الصفي بن القايبض : ٣٥٤
 صقلية : ١٦ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٢٢٣ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥١٠ ،
 ٥٨٥ ، ٦٢١

(ط)

طرسوس : ٤٣	طبرستان : ٣١
طبرطوس : ٣٥٦ ، ٦٠٤	طبرية : ٣١٦ ، ٢٨٩ ، ٢٨٥
طفتكين : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١	٥٢١ ، ٥١٩ ، ٥١٦ ، ٣١٩
الطور : ١٠٠	طرابلس : ٤٤ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ١٤١
الدولة الطولونية : ٧	١٤٢ ، ٢٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٨٥
طلخا : ٤٩٤	٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٣
طليطلة : ٢١	٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠
طلي بن شاور : ١٨٦ .	٣٦٢ ، ٣٦٢ ، ٥١٩ ، ٥٦٨
	٥٨٨ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٦١٢

(ع)

عبد النبي : ٣٢٢	العاصد : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨٧
عبد الله القدم : ٢٢٧	١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٠
عبد المحسن : ٣٥٣	٣١١
عبد الله بن عمرو : ١٥٩	عباس بن شادي : ٢٢٤
عبد الله بن عطاش : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٤	عبد المنعم الأندلسي : ٢٠١
٢٥٧	الدكتور عبد المنعم ماجد : ٢٠٤
عبيد الله المهدي : ٢٤٨	الدكتور عبد اللطيف حمزة :
عدن : ٢٢٢ ، ٢٩٢	٣٨١.

' ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٨ ،
 ' ١٣١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨٨ ،
 ٢٨٩ ، ٣٦١ ، ٤٥٢ ،
 ' عمانوئيل الأول : ١١٦ ، ١٢٢ ،
 ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 عمر الخيام : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
 عمر بن الخطاب : ١٩٤ ، ٣٤٥ ،
 عمر الخلابي : ٤٤٩ ،
 علم الدين الحنفي : ٥٠١ ،
 علم الدين قيصر : ٤٣٣ ،
 علي بن الجهم : ٥٣٢ ،
 علي بن الملك المزم : ٥٥٦ ،
 علي بن عريف النحاسين : ٣٩٠ ،
 علي أحمد باكثير : ١٦٦ ،
 عيسى بن بلاشوا : ٣٠٩ ،
 عيذاب : ٢٢٢ ،
 عين جالوت : ٥٧٦ ، ٥٨٢ ،
 العنيفة : ٢٦٧ ،
 ' عين الدولة الباروقي : ١٩٨ ،
 . ٢١٧

العراق : ٢٥٣ ، ٢٥٦ ،
 ' العرب : ٢١ ، ٥٦ ، ٨٣ ، ٤٣٦ ،
 ٥٣٨ ،
 ' عز الدين أرسلان بن مسعود : ٢٨٧ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٧٨ ، ٤٧٢ ،
 عز الدين جرديك : ٤٣١ ، ٤٣٢ ،
 عز الدين بن عبد السلام : ٥٧١ ،
 الأمير عز الدين المديني : ٥٩٢ ،
 ' عسقلان : ٧٥ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ،
 ' ١٦٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٣٠ ،
 ' ٣٤٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،
 ' ٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،
 ٥١٦ ،
 عصمة الدين : ٢٧٤ ،
 علم الدين الشجاعبي : ٦٠٤ ،
 الدولة العلوية : ٧ ،
 عليقة : ٢٦٣ ،
 العماد الأصفهاني : ٢٢٥ ،
 عماد الدين أحمد : ٤٨٧ ،
 ' عماد الدين زنكي : ٩٢ ، ٩٤ ،
 ' ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

(ع)

الدولة الغزنوية : ٧
غزة : ٣٣٠ ، ٤٣٣ ، ٥١٦ ، ٥٦٩
٥٧٤
خليوم اسقف صور : ٦١٦
خودفروادي بويوت : ٤٣
٤٦ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٤
٧٥
عطلة : ٤٦١
غيسكار : ١٩ ، ٢٠

غالبولي : ٤٦٥
الغرب : ١٠ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٢٦
٢٨ ، ١٢٩ ، ٣٦٩ ، ٤٩٣
٥٠٣ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٦٠٥ ، ٦٢١
غروسة : ٥٤٢ ، ٥٦٥
البسابا غرينغوري السابع : ١٨
٣٠ ، ١٩
غرينغوري الثامن : ٣٦١
غرينغوري العاشر : ٥٩٣

(ف)

٤٨١ ، ٤٨٩
القاضي فخر الدين بن لقمان :
٥٤٧
القرات : ٥٩٤
فخر الملوك أبو علي : ٧١
الفرس : ٧ ، ٢٤٨
فرنسة : ٨ ، ١٠ ، ٢٤ ، ٢٦
٣٤ ، ٣٨ ، ٦١ ، ١٢٢ ، ٤٠٣
٤٨١ ، ٦١٤
الفرنسيوت : ١٤ ، ٢٣

فارس : ١٣ ، ٢٨ ، ١٠٧
٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣
٦٢٠
فارس الدين أقطاي : ٥٥٠
فاطمة بنت الرسول : ٢٤٧
الفاطميون : ١٣ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٧٠
١٦٩ ، ٧٨
فارسكور (فارس كور) : ٤٨٨
٥٣٨ ، ٥٤٦
فرسان الداوية : ١٠٢ ، ٤٠٦

٧٤ ، ٨٠ ، ١٦٢ ، ٢١٩ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٤٣٣ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٣ ،
 ٦٠٧ ، ٦١٦ ،
 فولك : ٩٦ ، ١١٠ ،
 الفينيقيون : ٤٥ ،
 قيروز : ٦٤ ،
 الدكتور فيليب حقي : ٣٣٨ ،
 ٣٩٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٦٠٨ ،
 فيليب أوغست : ٣٨٤ ،
 ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٨ ،
 فيليب فان نس مير : ٤٦٩ ،
 فيليب التنايلسي : ١٧٧ ،

٤٦ ، ٤٠١ ، ٤٣٥ ، ٥٢٣ ،
 ٥٤٢ ،
 فريدريك الثاني : ١٦ ، ٣٨٢ ،
 ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٦٢٣ ،
 فريدريك بربروس : ٤٧٦ ، ٥٠٠ ،
 ٥٠١ ، ٥٠٤ ،
 فريدريك السوابي : ٣٨٣ ،
 الفسطاط : ٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ،
 فضل الفيضي : ٢٨٢ ،
 الفننديون : ٤٠١ ،
 فلك بن فلك : ٩٨ ،
 الفنندر : ١١ ، ٢٤ ، ٦١ ،
 فلسطين : ٣٧ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٧١ ،

(ق)

٢٨٧ ، ٣١١ ، ٣٧٢ ، ٤٤٣ ،
 ٤٧٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٥٢٦ ،
 ٥٥٦ ، ٥٧٤ ، ٥٨٢ ،
 قبائل الأتراك السلاجقة : ٢١ ،
 القبائل النورمندية : ١٤ ،
 قبرص : ١٣٥ ، ٣٨٤ ، ٥١٣ ،

قارة آسيا : ٣٧ ،
 قاضي جبلة : ٣٥٤ ،
 القاضي الفاضل : ٢١٦ ، ٢٨٢ ،
 القاهرة : ٧ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ،

قلج أرسلان : ٤٥٣
 قلعة ألموت : ٢٥٦ ، ٢٦٠
 قلعة خربوط : ٩١
 قلعة شيرز : ١٠٥
 قلعة صلاح الدين : ٢٧٧
 قلعة طرطوس : ٣٦٠
 قلعة القدموس : ٢٦١ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٨
 قلعة مصياف : ٢٦٦
 قم : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣
 قوص : ٢٠٦
 قلاع الجزيرة : ٣١١
 قلاوون : ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ،
 ٦٠٠
 قيسارية : ٣٢٣ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤
 القيروان : ٢٤٨ ، ٥٠١
 قيليقية : ١٤١ .

٥١٩ ، ٥٦٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٨
 القبرصيون : ٤١٦
 القديس برناردوس : ١١٦
 قراقوش : ٣٥٤
 قرطبة : ١٤ ، ٧
 قرقيسية : ٢٨٩
 قسطنطين كولمان : ١٤١
 قشتالة : ١٤
 قصر الاقبال : ٢١٦
 قصر البحر : ٢١٦
 قصر الحرم : ٢١٦
 قصر الزمرد : ٢١٦
 القصر الشرقي : ٢١٦
 قصر شاور : ٢١٦
 قصر الشوك : ٢١٦
 قصر المظفر : ٢١٦
 قطب الدين : ١٩٨ ، ٤٧٢

(ك)

كامل المشطوب : ٩٩ ، ١٠٠
 كتبنا : ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ،
 ٥٧٩
 كربوقا : ٦٢ ، ٦٤
 بلاد الكرج : ١٥١

الكامل محمد : ٤٧٩
 الملك الكامل : ٥٨٦ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ،
 ٥٠١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ،
 ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٦٢٣

كليمنت الثالث : ١٩
الكونت ريمون : ٣١٨
كونت فلاقدرز : ١٤١
كونراد : ١٢١ ، ٢٧٤ ، ٣٨٢
٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦
٤٣١ ، ٣٥٠
كونستانس : ١٣٥
الكونتيسة أيشيف : ٣٢٧
كيايزرد حميد : ٢٦٠
كيسوم : ١٣٤
كيوه : ٢٨٧ ، ٢٨٩
المؤرخ ك . م . سيتون : ٣٠٣

لكرك : ٢٠٨ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧
٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٠
٣٢٢ ، ٣٥٧ ، ٤٩٢ ، ٥٠٣
٥١٥ ، ٥٣١
الكرمل : ٣١٠
كريت : ١٧
كفرطاب : ٢٤١
كنيسة رومة الغربية : ٣٢
الكنيسة القبطية : ٥٠١
كنيسة القبر المقدس : ٣٤٥
كنيسة القديس بطرس : ٦٥
كليام جييا : ١٠١ ، ١٠٢
كليرمون فيران : ٤٠

(ل)

٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠
٥٦٢ ، ٥٦٣

لويس التاسع : ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥
٥٢٦ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦

(م)

مانويل : ١٣٦ ، ١٤٠
مجير الدين أبق : ١٢٦
محمد كرد علي : ٣٦ ، ٧١ ، ٥١٤

ماري ملكة بيت المقدس : ٤٨١
٥٠٠
ماريا كومنينوس : ٣٢٩

معين الدين : ١٠٢ ، ١١٤
 المغرب : ٤٩٩
 المغول : ٥٦٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥
 القرظي : ٤٩٣ ، ٥٢٨ ، ٥٦٨ ،
 ٥٨٣
 الامير مكثر : ٤٤١
 مكة : ٢٨٠ ، ٣٠٤
 مكسيموس مونزوند : ٣٣٨
 ملكشاه : ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٦ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٨
 ملك انكلترا : ٤٠٢ ، ٤١٠ ،
 ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٣١ ،
 ٤٥٢
 ملك فرنسا : ٤٠٢ ، ٤١٦ ،
 ٤٨١
 ملك القدس : ١٢٢
 ملك القسطنطينية : ٤١٥
 الملك المنصور الثاني الايوبي :
 ٥٨٥
 المالك : ٥٦٣ ، ٥٧٠ ، ٥٨٦ ،
 ٥٨٧ ، ٦١٢
 منطقة حوران : ١٢٧ ، ١٢٨
 مودود أتابك : ٨٩

٥٩٢
 محمد بن قرا أرسلان : ٢٨٩
 محمد بن المقدم : ٢٧٣
 محمد بن ملكشاه : ٢٥٩
 محمد السلجوقي : ٨٨
 محمود بن يوري تاج الملوك : ٩٤ ،
 ٢٢٥
 مرجعيون : ٣٥٨
 السيد المسيح : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ،
 ٦٠٨ ، ٦١٠
 المستعلي : ٢٥٧
 السلطان مسعود : ١٥٥
 المسجد الاقصى : ٤٣٢ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٠
 مرسلية : ٧٨ ، ٤٨ ، ٦١٢ ،
 مصال اللكي : ٢٥٧
 مصيف : ٢٦١ ، ٢٧٣
 المصيصة : ١٣٥
 مرغريت دي بروفانس : ٥٢٣ ،
 ٥٦١
 معرة النعمان : ٦٨ ، ٧٠
 المعز : ٥٥٥

٥٨٦ ، ٥٨٥
ميشال السورى : ١٢١

الموصل : ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٨٩
٢٩٧ ، ٣١١ ، ٤٤٣ ، ٦١١
ميخائيل الثامن باليولوغوس : ٥٨٤

(ن)

نظام الملك : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨
الدكتور نظير سداوي : ٢٣٢ ،
٣٩٦
النوبة : ٣١١
النورمنديون : ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٤٦
نقولا زيادة : ٧٤ ، ٤٥٢
نهر الأردن : ٥١٠ ، ٥٦٣

نابلس : ٣٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥١٩
نابوليون : ٥٢٩
نجم الدين أيوب : ١٥١ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ٢٢٠
النزارية : ٢٦٥
الناصر لدين الله : ٢٩٠ ، ٣٨٦
نصرة الدين : ١٤٥
نصر بن قوام : ٦١٣

(هـ)

هذان : ٤٩٠
هوج أمير طبرية : ٢٨٥
هوج الثالث : ٤٠٣
هونين : ٤٣٣ ، ٦١٨
هيشوم الثالث : ٥٨٥ ، ٥٦٤ ،
٥٦٩
هيو الثاني : ٥٨٧

هالام : ٣٤
هرون الرشيد : ٢٦
الهند : ٣٧ ، ٦٢٠
هنري الثاني : ٦٠١ ، ٦٠٢
هنري الرابع : ١٩ ، ٤٩
هنري السادس : ٤٣٢ ، ٤٧٧
هنري دى شيمانية : ٤١٦ ، ٤١٧ ،
٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠

هولاكو : ٥٦٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٩ ،
٥٨٤ ، ٥٨٧

هيو الثالث : ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٣

(و)

وليم النجار : ٦٠

وادي بو : ٢٠

(لا)

ليوبولد : ٤٣٦

اللاذقية : ٣٥٦

لامونت : ٣٦٥ ، ٤٨٩ ، ٥٨٤

(ي)

اليهودية : ٦١٤

يافا : ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٥١٩

يوحنا الحزين : ٥٥٩

٥٢١

يولاند : ٤٨٢ ، ٥١٣

أبو الدر ياقوت : ٦١٣

الفهرس

أجزء الأول

قبل صلاح الدين

صفحة	
٧	الفصل الأول : الشرق والغرب
٢٩	• الثاني : الحروب الصليبية
٥١	• الثالث : قارة تغزو قارة
٨٥	• الرابع : افاقة القوى العربية والاسلامية
١١٣	• الخامس : نور الدين عمود والمحة الصليبية الثانية
١٣١	• السادس : الملك العادل والامارات الصليبية في المشرق

الجزء الثاني

عند صلاح الدين

صفحة

١٥١	الفصل السابع : مولد في الشدائد
١٦١	» الثامن : صراع على أرض الكنانة
١٨١	» التاسع : فتح مصر
١٩٧	» العاشر : سقوط الدولة الفاطمية
٢١٥	» الحادي عشر : الاستقلال بمصر
٢٢٧	» الثاني عشر : في سبيل حلم عظيم
٢٤٧	» الثالث عشر : سنان شيخ الجبل
٢٧٥	» الرابع عشر : السلطان الجهاد
٢٩٧	» الخامس عشر : الجهاد الأعظم
٣١٣	» السادس عشر : حطين معركة التاريخ
٣٢٧	» السابع عشر : تحرير بيت المقدس
٣٤٩	» الثامن عشر : قبة المجد
٣٦٩	» التاسع عشر : الحملة الصليبية وملحمة عكا
٤٠١	» العشرون : ريشارد قلب الأسد
٤١٥	» الحادي والعشرون : السيف .. والكلمة الطيبة
٤٣١	» الثاني والعشرون : دينار واحد

المجزء الثالث

خلفاء صلاح الدين

صفحة

- الفصل الثالث والعشرون : حملة صليبية على دولة مسيحية ٤٥٧
» الرابع والعشرون : العادل سيف الدين ٤٧١
» الخامس والعشرون : معركة دمياط ٤٨٥
» السادس والعشرون : الامبراطور فريدريك الثاني أو
حملة التسامح ٤٩٩
» السابع والعشرون : لويس التاسع الملك القديس ٥١٣
» الثامن والعشرون : شجرة الدر ومعركة المنصورة ٥٣١
» التاسع والعشرون : الاعصار المغولي في الشرق ٥٥٩
» الثلاثون : المماليك والفرنج ٥٨١
» الحادي والثلاثون : العلاقات الانسانية في الحروب
الصليبية ٦٠٧

*

- مصادر ومراجع الكتاب ٦٢٥٠
فهرس الاعلام ٦٣٤.

مؤلفات قدري قلعجي

- سعد زغلول : رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي – منشورات دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- ابراهيم لنگولن : محرر العبيد وموحد الولايات المتحدة الاميركية – دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- مدحت باشا : ابو الدستور العثماني – دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- رويسبيير : بطل الثورة الفرنسية ، دار العلم للملايين الطبعة الثالثة .
- جمال الدين الافغانى : حكيم الشرق ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- شويان : سيد الوطنية والحرية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- صلاح الدين الايوبى : قصة الصراع بين الشرق والغرب في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد – دار الكاتب العربي ، الطبعة الرابعة .
- كرومويل : بطل الثورة الانكليزية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- ابو ذر الغفاري : اول ثائر في الاسلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة
- ديموستين : بطل اثينا ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- محمد عبده : بطل الثورة الفكرية في الاسلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- غاندي : ابو الهند ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .
- سون يات سن : بطل الثورة الصينية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة
- السايلون : دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة .

- الحضارة العربية : دار الفجر الجديد ، القاهرة .
- حرب الشعوب : منشورات مجلة الطريق .
- الحياة القومية : منشورات مجلة الطريق .
- اقوى من الموت : عن ايليا اهرنبورغ ، منشورات مجلة الطريق .
- اساطير الامم : دار المكشوف .
- في قصور الملوك : دار المكشوف .
- الناس والآخرين : دار المكشوف .
- مغامرات كازانوفيا : دار المكشوف .
- اعتراف الاجراس : دار النشر العربية .
- الف ليلة وليلة : (مجلدان) ، دار النشر العربية .
- قلوب معذبة : سلسلة اقرا ، دار المعارف ، القاهرة .
- عبد الرحمن الكواكبي : المكتب التجاري
- لومومبا : دار الكاتب العربي ودار العلم للملايين .
- لبنين : دار الكاتب العربي .
- اكتشاف جزيرة العرب : عن جاكلين بيرين ، دار الكاتب العربي ،
الطبعة الثانية .
- اضواء على تاريخ الكويت : دار الكاتب العربي .
- الكويت في موكب الحضارة : دار الكاتب العربي .
- الخليج العربي : دار الكاتب العربي . الطبعة الثانية
- وثائق النكسة : دار الكاتب العربي .
- السندباد : دار الكاتب العربي .
- فلسطين اولا : دار الكاتب العربي .
- نحو مجتمع عربي متكامل : دار الكاتب العربي .

جيل الغداء : قصة التورة الكبرى ونهضة العرب ، دار الكاتب
العربي .
تشيكو سلوفاكيا وازمة الاشتراكية المعاصرة : دار الكاتب
العربي .
تجربة عربي في الحزب الشيوعي : دار الكاتب العربي . الطبعة
الثالثة
مناقشة آراء العلماء والقادة السوفيات ، في الامة .
والطابقة والوحدة والمقاومة وقضية فلسطين : دار الكاتب
العربي .

موعد مع الكرامة : دار الكاتب العربي .
فيصل ومعركة الكرامة العربية : دار الكاتب العربي
الطبعة الجديدة : عن ميلوفان دجيلاس ، دار الكاتب العربي .
الطبعة الثانية
مع توفيق الحكيم من عودة الروح الى عودة الوعي : دار الكاتب
العربي .
النظام السياسي والاقتصادي في دولة الكويت : دار الكاتب
العربي

التاريخ السعودي الميسر :

١ - مسيرة الايمان (١ - ١٠)

٢ - موعد مع الشجاعة (١ - ١٠) .

٣ - فيصل والبعث الجديد (١ - ١٠) .

اسرار العالم : ٢٠ جزءا .

... الكتاب سجل تاريخي خافل وضع بأسلوب قصصي شيق... وهو إن اعتمد الأسلوب السلس إلا أنه مستوف كل شروط الكتاب العلمي.

إن «صلاح الدين الأيوبي» أكثر من كتاب تاريخ، إنه أدب التاريخ، مؤلف موضوعي روعيت فيه الحقيقة والشروط العلمية إلى أبعد حد، وأنت تقرأه وكأنك تقرأ سيرة البطولة وحكايات التاريخ... أسلوب القلعي يشدك إلى الكتاب فلا تفلته من يدك قبل أن تأتي على نهايته.

أملي نصر الله

والتي لأشهد أنني على كثرة ما قرأت من مصادر عربية وعربية عن سيرة هذا البطل الذي ملأت حياته الدنيا وشغلت الناس، لم انتفع ولم أستمتع، كما انتفعت واستمتعت بهذه السيرة التي عرضها الأديب قدري قلعي في كتابه الضخم، المانع الجامع، والتي كان فيها المؤلف مؤرخاً بأمانته، ومحللاً بعقله، وناقداً بنصفته، ومصوراً برويشته، ووظانياً بقلبه وعاطفته.

خليل الخوري

تعاودني وأنا أتصفح كتاب «صلاح الدين الأيوبي»، هذا السفر القيم، اكلمت نعيمة التي وجهها إلى مؤلفه الأستاذ قدري قلعي منذ ثمانية عشر عاماً، من الواجب أن يقوم إلى المشرق من يحلوه وجوه أبطاله... وما عرف من كتابنا من هم أجدد منك يمثل تلك المهمة.

ففي كتاب «صلاح الدين الأيوبي» تثبت ملامح عملاقين: بطل ومؤرخ!

وما أجدد لنا إلى بطل يكتب سيرته مؤرخ عالم، وما أشد حاجتنا إلى الاسترشاد بدراسة التاريخ، والتاريخ عند قدري قلعي يعيش على الحقيقة الموضوعية، ويستند إلى واقع مادية، ويكتفيه هذا وضع قدري قلعي فاصلاً بين الأسطورة والتاريخ، فباسم شبابنا العربي اللطيف إلى المعرفة الموضوعية له كل شكر.

حسن حمية

وكان آخر ما اتحفني به كتابه الضخم صلاح الدين الأيوبي الذي طالعه بشغف على حساب حرمانني من النوم، صور قدري قلعي البطل العربي الإنسان، فإذا به مرآة تنعكس فيها صورة كل أسيان إنسان، سواء أعمل سيفاً أم قلماً، بقوة الروح هذه تعرفنا عن كثر على صلاح الدين إنساناً يدمع وأنساناً يشفق وإنساناً يصفح وإنساناً يحب، واكتشفنا بمؤرخه الحديث إنساناً آخر جديراً بكل تقدير ومحبة.

روبير أبيلا

كل ذلك أسلوب يمازجه التخصيص، روائي على شعر، تاريخي على ري، هاديء، رزين، صاف، سلس، حتى أن أي قارئ يتعلق بالكتاب ويشفق من أن ينهي قراءة هذه الصفحات القيمة، في جهد يخيّل لك أن المؤلف أرسله أرسالا وكأنه لا يعاني التأليف إلا بمقدار ما يرى فيه صورة لهاجسه النفسي الباحث عن حقيقة إنسانية هي وحدها الخالدة الباقية. جهد معنيت مضمّن، لكنه لعبة أطفال عند من كان لهم معرفة المؤلف وعمق وعيه وشموخ أدبه.

خليل الخوري